

النُّبِيَاءُ

الرَّوَايَةُ كَامِلَةٌ

فِي خَمْسَةِ مَجَلَّدَاتٍ



البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم
فيكتور هيغو

المجلد الثاني

نقله إلى العربية
مُنِير العَبَّاسِي

دار العلم للملايين
بيروت

البوسياء

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

لِقِسْمِ الشَّانِي

كُوْزِيْتِ ٧

الكتاب الأول

واترلو

١

ما الذي تلتقيه وانت مقبل من نيفيل

في العام الماضي (١٨٦١) ، ذات صباح جميل من ايام نوار ، كان احد المسافرين - وهو الرجل الذي يروي هذه القصة - يتجه من « نيفيل » الى « لاهوب » . كان يرتحل سعياً على قدميه ، سالكاً - بين صفيين من الاشجار - طريقاً عريضة معبدة تتعرج فوق تلال كانت تتعاقب واحدة اثر اخرى ، فتزحف حيناً ، وتهبط بها حيناً ، مثل امواج هائلة . كان قد اجتاز « ليلوا » و « بوا - سينيور - ايزاك » . لقد رأى في ناحية الغرب قبة كنيسة « برين لالو » المصنوعة من حجر الآردواز ،

والتي يشبه شكلها شكل إناء مقلوب . وكان قد خلف وراءه منذ لحظة غابة على شرف من الارض . وعند زاوية احدى الطرق الضيقة المختصرة ، الى جانب ضرب من المعتم الثخير الحامل هذا الكلام : « باب المدينة القديم رقم ٤ » كانت حانة على واجهتها هذه اللافتة : حانة الرياح الاربع ، ايشابو ، مقهى خصوصي .

وعلى ثمن فرسخ وراء هذه الحانة انتهى المسافر الى قعر وادٍ صغير حيث كان جدول يجري تحت قنطرة قائمة عند الطريق المردومة . وكانت باقة الاشجار ، المتناثرة ولكنها شديدة الحضرة ، والمائة صفحة الوادي من احد جانبي الطريق - كانت هذه الباقة تتبدد عند الجانب الآخر في المروج ، وتنبسط في فوضى دمتة نحو « بون لالو » .

هناك ، الى اليمين ، وعلى حافة الطريق ، كان فندق امام بابه كارتة ذات اربع عجلات ، وحزمة ضخمة من عيدان حشيشة الدينار ، ومحراث ، وركام من العواصج الجافة قرب سياج من الاشجار الشائكة ، وشيء من الكلس يرسل الدخان في حفرة مربعة ، وسلم ملقاء في محاذاة سقفة عتيقة ذات مداود للتين . كانت فتاة صغيرة تقنع الاعشاب الضارة من حقل كانت الريح تعبث فيه باعلان كبير اخضر ، لعله كان خاصاً بمسرح متجول يقدم الروايات لمناسبة سوق سنوية ما . وعند زاوية الفندق ، الى جانب مستنقع صغير كان يُبحر فيه أسبطل من البط ، اقتحم احدُ الازقة المليئة بالاخاديد قلب الادغال ، فاضاع فيها نفسه . لقد اتخذ ذلك المسافر هذه السبيل .

وبعد ان خطا مئة خطوة ، مجتازاً بسور يرفى الى القرن الخامس عشر تعلوه واجهة مثلثة حادة الزاوية مشيدة بالآجر المنسق على نحو يظهر التضاد بين اجزائه ، وجد نفسه تجاه باب كبير مبني من حجارة مُقنطرة ، ذي كوة في اعلاه مستقيمة الاضلاع ، على طراز لويس الرابع عشر الوقور ، يحيط بها من جانبيها نقشان مدوران مستويان .

وفوق هذا الباب كانت واجهة كالحلة ؛ وعلى خط عمودي مع الواجهة كان جدار يمس الباب أو يكاد ، ويدعمه بزاوية قائمة مقتضبة . وعلى المرج المنبسط امام الباب انطرحت ثلاث بحارف كبيرة مسدنة انبثقت من خلالها ، على احسن ما استطاعت ، رياحين نوار كلها . كان الباب موصداً . وكان مغلقاً بمصراعين متداعيين للسقوط ، مزدانين بقارعة عتيقة صدئة .

كانت الشمس فاتنة . وكانت الافنان ترتعش ارتعاشة نوار الرفيقة التي تبدو وكأنها ناشئة عن اعشاش الطير لا عن الريح . وكان طائر متأنق ، لهل ان يكون عاشقاً ، يتغنى بياس في شجرة عالية . وتمهل المسافر ، وتأمل الحجر الذي الى يسار الباب ، قرب الارض ، دارساً تجويفاً كبيراً دائرياً يشبه جوف كرة . وفي تلك اللحظة فتح مصراعا الباب ، وخرجت منه امرأة ريفية . وبصرت بالمسافر ، وأدركت أي شيء كان يدرس .

وقالت :

« إن احدى قذائف المدفعية الفرنسية هي التي فعلت ذلك . »
ثم اضافت :

« وما تراه هناك ، في مكان أعلى ، في الباب ، قرب أحد المسامير ، هو ثقب احده بنديقة ضخمة من ذلك النوع المعروف بالبنادق البشكنسية . * إن البندقية لم تستطع ان تحرق الحشب . »

فقال المسافر :

« وما اسم هذا المكان ؟ »

فقالت الفلاحة :

« هو غومون . »

ورفع المسافر رأسه . وخطا بضع خطوات ، وأنشأ ينظر من فوق الأسيجة .

* نسبة الى مقاطعة «البشكنس» أو «الباسك» في أسبانية .

لقد رأى عند الأفق ، من خلال الاشجار ، شبه أكمة ، ورأى فوق هذه الأكمة شيئاً بدا ، من بعيد ، وكأنه أسد .
كان في ساحة القتال بواترلو .

٢

هوغومون

هوغومون - كانت تلك هي البقعة المشؤومة ، وبدء المقاومة ، وأول عائق لقيه في واترلو حطاب أوروبا العظيم ذلك ، الذي ندعوه نابوليون . أول عقدة تعترض سبيل الفأس .
كانت حصناً ، أما اليوم فلم تعد أكثر من مزرعة . وكانت هوغومون Hougomont تعرف عند جامعي النفائس الاثرية والمتاجرين بها بـ « هيغومون » Hugomons . وكان قد شيد هذا المعقل الاقطاعي هوغو ، سيد سوميريل ، وهو نفسه الذي وقف الاوقاف لوظيفة القس السادسة في دير « فيليير » .
ودفع المسافر الباب ، ودفر برفقه عربة عتيقة كانت تحت مدخل مسقوف ، وتقدم الى الفناء .

كان أول ما لفت نظره في هذه الساحة باب يرقى الى القرن السادس عشر ، بدا وكأنه قنطرة بعد ان تساقط كل شيء من حوله . إن المشهد الأثري لينشأ في كثير من الاحيان عن الحراب . وقرب القنطرة انفتح باب آخر في الجدار ذو أغلاق * من عهد هنري الرابع يكشف عن اشجار في بستان . والى جانب هذا الباب كانت مزبلة ، ومعاول ، ومجارف ، وبضع عربات من ذوات الدولابين ، ويثر قديمة ببلاطها وبكرتها الحديدية ، ومُهرٌ يثب ، وديك رومي ينشر ريش زيمكة ،
* جمع غلق ، وهو الحجر الذي تملق به فجوة رأس القنطرة .

ومعبد يعلوه برج أجراس صغير ، وشجرة إجاص منورة معرّشة على جدار المعبد . ذلك هو الفناء الذي كان احتلاله 'حلم' نابوليون . ولو قد وفق الى الاستيلاء على تلك الزاوية من الارض اذن لكان من الجائز ان تهيه الدنيا كلها . إن ثمة دجاجات تنثر التراب بنافيرا . وإنك لتسمع زججة . ذلك كلب كبير يكشر عن أسنانه ، ويحلق محلّ الانكليز . لقد أبلى الأنكليز بلاء حسناً هناك . إن سرايا الحرس الاربعة التي قادها كوك احتفظت بمواقفها سبع ساعات في وجه جيش سنّ عليها هجوماً ضارياً .

وهوغومون ، حين توى على مخطّط هندي ينتظم الابنية والاراضي المورة ، عبارة عن مستطيل غير متنسق بُترت احدى زواياه . في تلك الزاوية يقوم الباب الجنوبي ، يحيمه هذا السور الذي يمين عليها في مدى البندقية الأقصر . إن لهوغومون باين : الباب الجنوبي ، وهو باب الحصن ، والباب الشمالي وهو باب المزرعة . ولقد وجه نابوليون اخاه جيروم لاحتلال هوغومون . لقد سّيرت عليه فرق «غويسينو» * و «فوا» ** و «باشو» *** ولقد جردت الكتلة الكبيرة من قوات «راي» **** ضده ، فهزمت عنده . واستنفدت قنابل كيلرمان ***** على جزء السور البطوليّ ذاك . وكان قهر هوغومون

* Guilleminot جنرال وسياسي فرنسي . (١٧٧٤ - ١٨٤٠)

** Foy جنرال فرنسي (١٧٧٥ - ١٨٢٥) غطى انسحاب الجيش من اسبانية ، وشارك في معركة واترلو وجرح فيها .

*** Bachelu قائد فرنسي من قواد نابوليون الذين شاركوا في هذه المعركة ايضاً .

**** Rellie مارشال فرنسة (١٧٧٥ - ١٨٦٠) ابلى بلاء حسناً في واترلو اكسبه مجداً عظيماً .

***** Francois - Etienne Kellermann قائد فرسان فرنسي (١٧٧٠ - ١٨٢٥)

توشح بالجمد في معركة مارانتو ثم في معركة لوترن وواترلو .

من الشمال اكثر مما يطيقه لواء « بودوين » ؛ ولم توفق فرقة « سوا » الى غير تدميرها من الجنوب . لقد عجزت عن الاستيلاء عليها .
وانما تقوم ابنية المزرعة على الجانب الجنوبي من الفناء . ان جزءاً صغيراً من الباب الشمالي الجنوبي ، وقد حطمه الفرنسيون ، ليتدلى متأرجحاً من السور . انه مؤلف من اربعة الواح خشبية مسطرة على عارضتين ، حيث يستطيع المرء ان يقين ندوب * الهجوم .
والباب الشمالي ، الذي استولى عليه الفرنسيون ، والذي اضيفت اليه قطعة جديدة تعويضاً عن المصراع المتدلي من السور ينهض نصف منفتح عند ادنى الفناء . لقد فصل على شكل مربع في جدار اسفله حجري وأعلىه آجري ، يحيط بالفناء من ناحية الشمال . إنه جدار كارتي ** بسيط ، كذلك الذي نجده في جميع المزارع الصغيرة ، يتألف من مصراعين ضخمين مصنوعين من الواح غلاظ . ووراء ذلك تبسط المروج . لقد كان النزاع على هذا المدخل ضارياً . وطوال فترة غير قصيرة كان في إمكان المرء ان يرى ، على قائمة الباب ، بصمات الايدي الدامية على اختلافها . فهناك كان بودوين قد صرع .

إن عاصفة الصراع لا تزال في هذا الفناء ؛ وان الهول لا يزال مشهوداً هناك . إن الدمار الناشيء عن القتال لتجسّر في تلك البقعة . هذا يجيا ، وهذا يموت ؛ لكن ذلك كان بالامس . إن الجدران لتحتضر ، وإن الحجارة لتتساقط ، وإن التلّم لتصبح . ان الحفر جراحات . وان الاشجار ، وقد انحنت وارتمت ، تبدو وكأنها تبذل جهودها لكي تفر .

هذا الفناء كان ، في عام ١٨١٥ ، في حالٍ خيره من حاله اليوم .
* الندبة : اثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد . وجهاً ندب . وجع
الجمع ندوب .
** نسبة الى الكارة وهي عربة الوسق ذات الدولابين ، او ذات الاربعة دواليب .

كانت الابنية التي دُكِّت منذ ذلك الحين تشكل استحكامات ، وزوايا ، وزوايا مثلثة .

كان الانكليز متحصنين هناك خلف المتاريس ؛ ووفق الفرنسيون الى اختراق هذه المتاريس ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بموقعهم الجديد . والى جانب المعبد ، ينهض جناح من الحصن - الاثر الوحيد الباقي من قصر هوغومون الاقطاعي - على محور منقوض* ، بل ان المرء ليستطيع القول انه ينهض مبقوراً مجرداً من احشائه . لقد اتُّخذ من الحصن برجاً مركزياً للمقاومة ، واتخذ من المعبد معقلاً خفياً ذا منافذ لاطلاق النار من البنادق . لقد عمل القوم على ان يُفني بعضهم بعضاً . لقد صُرع الفرنسيون بنيران البنادق تنصب عليهم من كل ناحية ، من وراء الاسوار ، من سطوح اهراء الخنطة ، من أغوار الأقيية ، من خلال كل نافذة ، من خلال كل منفذ من منافذ الهواء ، من خلال كل فرجة بين الحجارة ، فحملوا حزم الحطب واحرقوا الاسوار والرجال : لقد اجابوا على نيران البنادق والمدافع بنيران الحريق .

وفي وسع المرء ان يلمح في الجناح الحرب ، من خلال النوافذ المقضبة بالحديد ، الغرف المهدمة من بناء رئيسي مشيد بالآجر ؛ وكان الحرس الانكليزي يكمن للفرنسيين في هذه الغرف . إن السلم اللولبية المصدوعة من الاساس الى السطح لتبدو مثل داخل صدفة مكسورة . ولتلك السلم منبسطان . وكان الانكليز ، وقد حوصروا في السلم ، واحتشدوا فوق درجاتها العليا ، قد ازالوا الدرجات الدنيا . وكانت هذه صفائح عراضاً من حجير ازرق ترمى الآن مركومة بين القُرّاص . إن اثنتي عشرة درجة لا تزال عالقة بالسور ، ولقد نُقِشت على اولها صررة خُطَّاف ثلاثي الشُعْب . وهذه الدرجات التي لا سبيل الى بلوغها مكيئة في معارزها ؛ وكل ما بقي يشبه فكاً أُذرد* . * ان ثمة

* الأردد : من ذمت اسنانه كلها .

شجرتين هرميتين ؛ احدهما ميتة ، والاخرى جريجة الساق ولا تورق الا في نيسان . ومنذ سنة ١٨٥٠ شرعت تنمو عبر السلم .

ووقعت مذبحة في المعبد . إن الجزء الداخلي ، وقد استعاد سكينته ، لغريب حقاً . فلم يُحتفل فيه بقداس منذ تلك المجزرة . ومع ذلك فلا يزال المذبح قائماً - إنه مذبح من خشب غليظ مُسند الى جدار من حجر لم تعالجه يد الصناعة . اربعة جدران مبيضة بماء الكلس ؛ باب مواجه للمذبح ؛ نافذتان صغيرتان مقنطرتان ؛ وعلى الباب شمال المصلوب خشبي ضخم ، وفوق شمال المصلوب فتحة مربعة سدّت بجزمة من التين ؛ وعلى الارض في احدى الزوايا إطار نافذة مزجج قد تكسّر كله : كذلك هي هذه الكنيسة . وقرب المذبح عُلق شمال خشبي للقدية آنّ يرجع عهده الى القرن الخامس عشر . اما رأس يسوع الطفل فكانت قد اطاحت به طلقة بندقية . لقد هيمن الفرنسيون ، لحظةً ، على المعبد ثم أخرجوا منه ، فأضرموا النار فيه . وملأت ألسنة اللهب هذه الحربة المتداعية فأمست اتوناً . لقد اشتعل باب المعبد ، واشتعل ارضيته ، ولكن المسيح الخشبي لم يشتعل . لقد التهمت النار قدميه اللتين لا نرى منها بعد غير بقية مودّة ، ثم وقفت عند هذا الحد . معجزة - كذلك يقول اهل المنطقة . أما يسوع الطفل ، الذي اقتطع رأسه ، فلم يُجالفه الحظ بقدر ما حالف المسيح .

إن الجدران مغطاة بالنقوش . فأمام قدمي المسيح نقرأ هذا الاسم : هينكينيز Henquinez . ثم نقرأ هذه الاسماء : الكونت دو ريو مايور . المركيز والمركيزة دو آماغرو (هابانا) *Conde de Rio Maior . Marques y Marquesa de Almagro (Habana)* وهناك اسماء فرنسية ملحقة بعلامات تعجب ، إشارة الغضب . لقد يُبّض الجدار بماء الكلس عام ١٨٤٩ . كانت الامم تبين بعضها بعضاً على صفحته .

وعند باب هذا المعبد بالذات التفتت جثة بمكة بيدها فأساً .

كانت هي جثة الملازم الثاني ليفروس .
وحين يغادر المرء المعبد يرى الى يساره بئراً . إن في هذا الفناء
بئرين . وقد تتساءل : لم لا يوجد دلو وبكرة لهذه البئر ؟ لأن احداً
ما عاد يستقي الماء منها الان . ولكن لم لا يستقون الماء منها ؟ لأنها
ملأى بالهياكل العظمية .

أما آخر من متع الماء من هذه البئر فكان غيلوم فان كيلسوم .
كان ريفياً يعيش في هوغومون ، وكان بستانياً هناك . وفي ١٨ حزيران ،
١٨١٥ ، فرّت أسرته ، واختبأت في الغابات .

وآوت الغابة المحيطة بدير « فيليير » هذه الاسرة البائسة المشتتة عدة
أيام وعدة ليالٍ . وحتى اليوم يستطيع المرء ان يتبين بعض الآثار ،
من مثل جذوع الاشجار الهرمة المحترقة ، التي تعين مستقرّ هؤلاء
المشردين البائسين ، المرتعدي الاوصال ، في أعماق الأجمة .

وظل غيلوم فان كيلسوم في هوغومون « لكي يحرس الحصن » ،
واختبأ في أحد الاقبية . وعثر عليه الانكليز هناك . فانتزعوه من مخبأه .
وبوابل من الضربات سددت اليه بعرض السيف اكراه الجنود هذا الرجل
المروّع على ان يخدمهم . كانوا عطاشاً ، فجاءهم غيلوم هذا بالماء .
وإنما استسقى الماء لهم من هذه البئر . وشرب كثير منهم آخر جرعاتهم .
وكان لا بدّ لهذه البئر ، حيث شربت جمهرة من القتلى ، من ان
تموت هي ايضاً .

وبعد انتهاء المعركة قضت الحاجة بالتعجيل في دفن الجثث . إن
للموت أسلوبه في تنغيص النصر على المنتصرين ، فهو يُتبع المجد بالطاعون .
والتيفوس ملحق من ملحقات النصر . وهذه البئر كانت عميقة ، فجعلها
القوم قبراً . لقد ألقى فيها ثلاثمئة قتيل . ولعل ذلك كان باكثر مما ينبغي
من السرعة . هل كانوا كلهم امواتاً ؟ الاسطورة تقول لا . والذي
يبدو انه في الليلة التي تلت دفنهم سمعت اصوات واهنة تنطلق من البئر

مستفينة .

والبئر معزولة في وسط الفناء . وانما تحيط بها من جهات ثلاث جدران ثلاثة تُشيد نصف كل منها من حجر ونصفه الآخر من آجر ، وتشتت مثل حجاب واقٍ من الهواء (بارافان) ، مشبهةً بوجاً صغيراً مرتباً . اما الجهة الرابعة فكانت مفتوحة . ومن تلك الجهة كان الناس يمتحون الماء . وللجدار الخلفي شبه كوة لا شكل لها ، ولعلها ثقب ناشيء عن احدى القذائف . ولهذا البرّيج سقف لم يبق منه غير العوارض الخشبية الضخمة . والحديد الذي يدعم الجدار الايمن على شكل صليب . وتحتي فوق البئر ، فتضليلُ العين في بناء اسطواني آجري عميق غلاء اكوام من الظلمات . وحول البئر كلها تحتفي الاجزاء الدنيا من الجدران خلف القُرّاص .

وليس يوجد امام هذه البئر تلك الصفيحة العريضة من الحجر الازرق التي تُصطنع كحاجز واقٍ في جميع آبار بلجيكة . لقد استعيز عن الحجر الازرق بعارضة تستند اليها خمس قطع او ست قطع خشبية مشوّهة ، كثيرة العقد متصلة ، تشبه عظاماً ضخمة . لم يبق ثمة لا دلو ، ولا سلسلة ، ولا بكرة . ولكن الحوض الحجري الخاص بالمياه الفائضة لا يزال هناك . إن ماء المطر ليجمع في هذا الحوض ، وبين الفينة والفينة يقدُ اليه من الغابة المجاورة طائرٌ ما ، فيشرب ، ويتخذ سبيله في الجو .

ان بيتاً واحداً بين هذه الحرائب ، هو بيت صاحب المزرعة ، لا يزال أهلاً بالسكان . وباب هذا البيت يفتح على الفناء . والى جانب صفيحة جميلة قوطية خاصةٍ بموضع المفتاح من القفل كانت فوق هذا الباب حفنة من حديد مائلة الى امامٍ قصد بها الى ان تكون حلقة على شكل ورق البرسيم . وفي اللحظة التي امسك فيها الملازم المانوفري « ويلدا » بهذه الحفنة ليجد ملجأ في المزرعة قطع يده جندي فرنسي بضربة فأس .

وكان البستاني السابق ، فان كيلسوم ، الذي توفي منذ عهد طويل ،
جَدَّ الاسرة التي تحتل هذا البيت . إن امرأة ذات شعر اشيب تقول
لك : « لقد كنتُ هناك . كان عمري ثلاث سنوات . لقد خافت اخوتي ؛
وهي اكبر مني سنأ ، وصرخت . وانتقلوا بنا الى الغابات . لقد كنت
بين ذراعي امي . لقد الصقوا آذانهم بالارض لكي يصفوا . اما انا ،
فقلدت المدفع ورحت اقول : « بووم ! بووم ! » .

إن احد ابواب الفناء ، ذاك الذي يقوم الى اليسار ، يفتح كما
ذكرنا من قبلُ على البستان .

والبستان فطيع . إنه ذو اقسام ثلاثة ، بل ان استطاعة المرء ان
يقول إنه ذو فصول ثلاثة . فالقسم الاول حديقة ، والقسم الثاني
هو البستان ، والقسم الثالث غابة . ولهذه الاقسام الثلاثة سور
مشترك ؛ فالى جانب المدخل تقوم ابنية الحصن والمزرعة ، والى اليسار
سياج ، والى اليمين جدار ، والى الورا جدار ، والجدار اليمين آجري ،
اما الجدار الخلفي فحجري . وانما يدخل المرء الى الحديقة اولاً . انها
منحدرة ، ثم فيها شجرات عنب الذئب ؛ وغطتها النباتات السبرية ،
وتنتهي بسطيحة فغمة من حجر منحوت ، اعمدة درايزونتها مزدوجة
الثخانة . كانت حديقة جديرة بسيد عظيم ، 'نسقت على الطراز الفرنسي
الاول الذي سبق طراز عصرنا ، ولكنها اليوم خراب وعوسج . ان
ركائزها المربعة والمستطية تعلوها كُرَات تبدو وكأنها قذائف مدفعية
حجرية . وفي امكاننا ان نحصي ثلاثة واربعين عموداً من اعمدة الدرايزون
لا تزال في مواضعها . اما ساؤها فنطرح على العشب . وهي كلها
تقريباً تتكشف عن خدوش من اثر نيران البنادق . إن عمود الدرايزون
المحطم ليظل منتصباً مثل رجل مكسورة .

وفي هذه الحديقة التي هي اسد انخفاضاً من البستان اضطرّ ستة من
رجال فرقة المشاة الفرنسية الخفيفة الاولى كانوا قد دخلوا الى هناك

وتعذر عليهم الفرار بعد ان وقعوا في الشرك كما تقع الدببة في وجرتها - اضطر هؤلاء الرجال الستة الى ان يخوضوا المعركة ضد سريتين هانوفريتين * كانت احدهما مسلحة بالكاربينات * * واصطف الهانوفريون على طول اعمدة الدرايزون هذه ، وانشأوا يطلقون النار من أعلى . واجابه المشاة الفرنسيون من ادنى ، وكانوا ستة مقابل اثنين ، وكانوا باسليين لا يقهيم غير شجرات غنب الذئب ، فاحتاجوا الى ربع ساعة لكي يموتوا .

وتصعد بضع خطوات ، ومن الحديقة تنتقل الى البستان الحقيقي . هناك ، في هذه الامتار القليلة المربعة ، صُرع الف وخمسة رجل في اقل من ساعة . ان الجدار يبدو مستعداً لاستئناف القتال . وإنت المرامي * * * الثانية والثلاثين التي فتحتها الانكليز على مرتفعات متفاوتة من ذلك الجدار لا تزال هناك . والى جانب المرمى السادس عشر يقوم قبران انكليزيان من الصوان . وليس ثمة من مرامٍ إلا في الجدار الجنوبي ؛ لقد جاء الهجوم الرئيسي من هناك . وهذا الجدار محبوب من الخارج بسياج كبير من الاشجار الشائكة . ووصل الفرنسيون ، معتقدين انهم لن يجدوا في طريقهم غير السياج . فعبروه ، فوجدوا هذا الجدار يعترضهم ، فهو عقبة وهو كمين ، ووجدوا الحرس الانكليزي خلفه ، واذا بالرامي الثانية والثلاثين تصب عليهم فارها دفعة واحدة - عاصفة من القنابل والرصاص . وتحطمت فرقة د سوا ، هناك . لقد بدأت وترلو على هذا النحو .

ومع ذلك فقد تم الاستيلاء على البستان . ولم يكن عند الفرنسيين

* نسبة الى هانوفر بالهاية . وكانت في ذلك العهد مملكة مستقلة ، ثم غدت مقاطعة بروسية بعد الحرب النسوية البروسية (سنة ١٨٦٦) .

* * الكاربين carbine ضرب من البنادق القصيرة الخفيفة .

*** جمع مرمى ، ويقصد به هنا تلك الكوة التي تفتح في جدار الحصن لكي تطلق منها القذائف .

سلام للتسور ، فتلقوا الجدار بأظافرهم . لقد حاربوا ، متلاصقي
الاجساد ، تحت الاشجار . ولقد نُقع هذا العشب كله بالدماء .
وهناك مُحِق فوج من افواج ناسو * ، عدته سبعة رجل محقاً
خاطفاً . وفي الخارج ، نلم السور الذي سُددت ضده وحدتا كيلومان
المدفعتان ، من أثر القذائف .

وهذا البستان سريع الاستجابة ، شأت غيره من البساتين ، لشهر
نوار . ان له براعمه الذهبية واقاحيه الصغيرة . إن العشب هناك عالٍ ؛
وخيل المحراث ترعى . وان حبال السبّيب ** التي تجف عليها
الملابس الداخلية لتخترق المسافات الفاصلة ما بين الاشجار ، مكرهة
المارة على ان يجنوا رؤوسهم . انك تسير فوق تلك الارض المهملة ،
قتسبح قدمك في أجحار المناجد *** وفي وسط العشب تلاحظ جذع
شجرة مقتلع الجذور ، منطرحاً على الارض ، ولكنه لا يزال
يخصوًضر . لقد أسند المايجور بلاكان ظهره الى هذا الجذع وهو يلفظ
أنفاسه الأخيرة . وتحت شجرة كبيرة مجاورة سقط الجنرال الالماني ،
دوبلا ، وهو من امرة فرنسية فرّت عند إلغاء براءة نانت **** والى
جانبها تماماً تنحني شجرة تفاح هرمة مريضة ضمّدت بعصابة من التبن
والصلصال . وجميع شجرات التفاح تقريباً تنساقط على الارض تحت ثقل

* Nasseau دويلة المانية ألحقت ببروسية بعد الحرب النموية البروسية عام ١٨٦٦ .

** السبب من الفرس شعر الذنب والناصية .

*** جمع خلد من غير لفظه ، وهو الفأر الاعمى الذي يعيش تحت الارض وليس
له عيان ولا أذنان .

**** Edit de Nantes هي البراة التي اصدرها الملك هنري الرابع ، عام ١٥٩٨
ومنح فيها البروتستانت حق ممارسة شعائرهم الدينية ، ولكن الملك لويس الرابع عشر
ألغاهما سنة ١٦٨٥ ، وقد أدى هذا الالفاء الى هجرة عدد كبير من البروتستانت
الى خارج الاراضي الفرنسية .

الشيخوخة . وليس ثمة واحدة لا تتكشف عن اثر من كُرّة مدفع او طلقة بندقية . إن هياكل الاشجار الميتة العظيمة لتكثر في هذا البستان . وإن الغربان لتطير على الاغصان . ووراء هذا البستان غابة ملأى بالبنفسج .
مصرع بودوين ؛ إصابة « فوا » بجرح ؛ الحريق ؛ المجزرة ؛ المذبحة ؛ جدول يتكون من دم انكليزي ، ومن دم ألماني ، ومن دم فرنسي امتزجت في غضب عارم ؛ بثر مليئة بالجلث ؛ تحطيم سرية ناسو وسرية برونزويك ؛ مصرع دوبلا ؛ مصرع بلاكان ؛ إصابة الحرس الانكليزي بالثبوء الجسماني ؛ هلاك عشرين فوجاً فرنسياً من أصل اربعين فوجاً من قوات « راي » ؛ ثلاثة آلاف رجل قتلوا بجدّ السيف ، في طلل هوغومون هذا وحده ، وأثخنوا بالجراح ، وذبحوا ، وصرعوا برصاص البنادق ، وأحرقوا بالنيران ... وكل ذلك لكي يستطيع ريفي أن يقول ، اليوم ، لأحد السياح : « سيدي ، أعطني ثلاثة فرنكات ، اذا أحببت ، أشرح لك مسألة واترلو ! »

٣

١٨ حزيران ، ١٨١٥

فلنرجع الى الورا ، فذلك حق من حقوق القاص ، ولنضع أنفسنا في عام ١٨١٥ ، قبيل تلك الحقبة التي استهلّت بها القصة التي روينها في القسم الاول من هذا الكتاب .

لو ان المطر لم يهطل ليل ١٧ - ١٨ حزيران سنة ١٨١٥ إذن لكان مستقبل اوروبه قد تغير . إن بضع قطرات من الماء اكثر أو أقل جنحت بنابوليون الى السقوط . فلكني تكون واترلو خاتمة اوستوليتر لم تكن العناية الالهية في حاجة الى غير قليل من المطر ، فاذا بسحابه

تجتاز السماء في غير أوانها تكفي لانهايار عالم .
 إن معركة واترلو - وهذا ما أعطى بلوخر * فرصة الوصول - لم
 يكن في الامكان أن 'تستهل' قبل الساعة الحادية عشرة والنصف . لماذا ؟
 لان الارض كانت ندية دمتة . وكان من الضروري انتظارها حتى
 تثبتَ بعض الشيء لكي تستطيع المدفعية ان تعمل .
 كان نابوليون ضابط مدفعية ، وهو لم ينس ذلك قط . وانما كان
 أساس هذا القائد القدير المعجز هو ذلك الرجل الذي قال في التقرير
 الذي رفعه الى حكومة الادارة حول ابي فير * : « هذه الكورة من
 كرات مدافعنا قتلت ستة رجال . » كانت كل خططه الحربية
 موضوعة للقذائف . وكان تركيز المدفعية على نقطة ما ، هو مفتاح
 النصر عنده . كان يعامل استراتيجياً القائد العدو معامته لقلعة تشرف
 على مدينة ، فهو يهاجمها بالمدافع . كان يُطر النقطة الضعيفة بالقنابل ،
 وكان يُحجم عقدة المعركة ويحلها بالمدافع . كانت ثمة حُسن رماية في
 عبقريته . إن تحطيم القوات المجتمعة في مربعات ، وسحق الكتائب ،
 وقطع الخطوط ، وتفتيت الحشود وبعثرتها - كل ذلك كان نابوليون
 يتوصل الى تحقيقه بان يضرب ، ويضرب ، ويضرب من غير انقطاع ، وكان
 يعهد في اداء هذا الواجب الى قذيفة المدفع . طريقة رهيبه استطاعت ، وقد
 أردفت بالعبرية ، ان تجعل من جبار ملاكمة الحرب هذا ، الكالغ الوجه ،
 رجلاً لا سبيل الى قهره طوال خمسة عشر عاماً .
 وفي الثامن عشر من حزيران ، عام ١٨١٥ ، اعتمد على مدفعيته

* Blücher جنرال بروسي (١٧٤٢ - ١٨١٩) لمع نجمة خلال حملة فرسة
 (١٨١٤) . هزمه نابوليون في لينبي (١٨١٥) ولكنه وفق الى ان ينجد ولبنتون
 في واترلو وبذلك رجح كفته في المعركة ، وكان ميزانها حتى ذلك الحين متأرجحاً
 بين نابوليون وولبنتون .

• • المعركة التي انتصر فيها نابوليون على المابلك عام (١٧٩٩) اثناء الحملة
 الفرنسية على مصر .

كثير واكثر لأنه كان يتمتع بالتفوق العددي من هذه الناحية . كانت
ولينغتون لا يملك غير مئة وتسعة وخمسين مدفعاً ؛ اما نابوليون فكان
يملك مئتين واربعين .

ولو قد كانت الارض جافة ، ولو قد تمكنت المدفعية من ان
تتحرك ، اذن لكان في إمكان القتال ان يبدأ في الساعة السادسة صباحاً ،
واذن لكانت المعركة قد كسبت واختتمت في الساعة الثانية ، قبل
ساعتين من ترجيح البروسيين كفة الميزان .

الى اى مدى تقع مسؤولية الانهزام في هذه المعركة على عاتق نابوليون ؟
أينبغي أن يُعزى غرق السفينة الى الربان ؟

هل كان انحطاط نابوليون الماديّ الواضح مصحوباً آنذاك بانحطاط
ذهني ما ؟ هل استطاعت العشرون السنة التي قضاها في ميدان القتال ان
تبلي النصل كما أبليت الغمد ، وتوهن الروح كما أوهنت الجسد ؟ هل
أحسن القائد البارع بطيف الجندي المشرح يُطلع رأسه في ذات نفسه
على نحو مفضّب ؟ وبكلمة ، هل كانت تلك العبقرية ، كما اعتقد كثير
من المؤرخين ، تزوح تحت وطأة الحسوف ؟ هل أخذ باسباب الغيظ لكي
يخفي ضعفه عن نفسه ؟ هل بدأ يترنح ، ذاهلاً ، في وجه عاصفة
مفاجئة ؟ هل أمسى غافلاً - وهو خطأ جسيم يرتكبه جنرال - عن
الخطر الذي يتهدهده ؟ وفي هذه الطبقة من عطاء الرجال أولي الثأب
الذين نستطيع ان ندعوهم عمالقة القتال ، هل ثمة سنّ تصاب العبقرية فيها
بقصر البصر ؟ إن الشيخوخة لا سلطان لها على عباقرة المثل الأعلى .
فلأن يتقدم المرء في السنّ يعني ، بالنسبة الى أضراب دانتي وميكال آنجلو ،
أن يزداد عظمة . فهل يعني تقدّم المرء في السنّ ، بالنسبة الى أضراب
هنرييل ونابوليون ، ان يتخلف في ميدان العظمة ؟ أكان نابوليون قد
كفّد حسن النصر المباشر ؟ هل قد أمسى عاجزاً عن ان يتبين التهلكة
منذ اليوم ، وعن ان يتكهن بوقوع الشراك منذ اليوم ، وعن ان

يرى شفا الهاوية المنهار؟ أكان قد فَقَدَ القدرة على استرواح الكوارث؟
 أكان نابوليون - وهو الذي عرف في ما مضى جميع مسالك النصر ،
 والذي كان يوميء اليها ، من أعلى عربته المومضة ، بأصبع ذات
 سلطان - قد أصيب بذهول كالح على ان يسوق ركب كتابه
 للصاحب الى الهاوية ؟ هل استبدت به ، في السادسة والاربعين ، خبل
 رفيع ؟ أكان سائقُ القَدَرِ الجبارُ هذا قد أمسى مجرد منهور هائل ؟
 لسنا نظن ذلك .

لقد كانت الحطة التي رسمها للمعركة ، باعتراف الجميع ، رائعة من
 الروائع . أن يزحف مباشرة الى قلب الخط الخليف ، ويحرق العدو ،
 ويشطره شطرين ، فيدفع الشطر البريطاني الى « هال » * ، ويدفع الشطر
 البروسي الى « تونفر » * ، ويجعل ولينغتون وبلوخر شقين ، وينتزع
 « مون سان جان » ، ويستولي على بروكسل ، ويلقى بالألماني في
 الراين ، ويقذف بالانكليزي الى البحر . كل ذلك كان ، عند نابوليون ،
 منظوياً في هذه المعركة . اما ما ينشأ عن هذا ففي ميسور كل امرئ
 أن يراه .

وليس من ريب في انا لا نعتزم أن نقدم ، هنا ، تاريخ واترلو .
 إن المشاهد التي أدت الى نشوء المأساة التي نرويها تتصل بهذه المعركة ،
 ولكن هذا التاريخ للمعركة ليس موضوعنا . والى هذا فقد روي ذلك
 التاريخ ، وعلى نحو أستاذي بارع . رواه نابوليون مثلاً وجهة نظر ،
 وروته جمهرة من المؤرخين * مثلاً وجهة نظر اخرى . اما نحن فسنترك
 المؤرخين يتنازعون . نحن لسنا غير شاهد من بعيد ؛ غير عابر يتخذ سبيله في
 السهل ؛ غير طالب منحني فوق هذه الارض المعجونة باللحم البشري ،

* « هال » و « تونفر » من اعمال بلجيكة .

* م والتر سكوت ، لامارتين ، فولابيل ، شارا ، كينيه ، تير [هذه الحاشية

منقولة عن الاصل الفرنسي .]

ولعلنا ان نخذع عن نفسنا فنحسب المظاهر حقائق . وليس من حقنا ان
 أن نقاوم ، باسم العلم ، مجموعة من الحقائق لا ريب في ان فيها شيئاً
 من الوهم . وليس عندنا لا الخبرة العسكرية ولا المقدرة الاستراتيجية التي
 تميز لنا ان نفترض مذهباً منسقى الاجزاء . والذي نراه ان سلسلة من
 المصادفات هيئت في واترلو على قائدي الجيشين . وحين يكون الكلام
 على القَدَر ، هذا المتهم الخفي ، نحكم مثل الشعب ، ذلك القاضي
 الساذج .

Σ

A

ليس على اولئك الذين يرغبون في ان يتصوروا ، بوضوح ، معركة
 واترلو إلا ان يطرحوا على الارض ، في اذهانهم ، حرف A مرسوماً
 بصورته الكبرى * فالقائمة اليسرى من الـ A هي الطريق من نيقيل² ،
 والقائمة اليمنى هي الطريق من جيناب³ ، والقاطعة الموصلة ما بين قائمتي الـ A هي
 الطريق الغائرة من اوهين الى برين لالو . وقمة الـ A هي « مون سان جان » ؛
 إن ولينغتون هناك . والنقطة السفلى من الذراع اليسرى هي هوغومون ؛
 إن « رايبيل » هناك مع جيروم نابوليون . اما النقطة السفلى من الذراع اليمنى
 فهي « لايبيل آليانس » ؛ ان نابوليون هناك . وتحت النقطة التي تلتقي
 فيها قاطعة الـ A بالقائمة اليمنى وتخترقها - تحت هذه النقطة بقليل تقع
 « لاهاي سانت » . في حين ان منتصف هذه القاطعة هو على وجه
 الضبط ، النقطة التي قبلت فيها كلمة المعركة الاخيرة . وهناك وضع
 الأسد ، الرمز للإرادي⁴ لبطولة الحرس الامبراطوري السامية .

* اي majuscule كما يعبر الفرنسيون .

والمثلث الذي تشتمل عليه قمة الـ A ، بين القائمتين والقاطعة ، هو
نَجْدُ « مون سان جان » . كان الصراع على هذا النجد هو كل
المعركة .

وانتشر جناحا الجيشين الى بين الطريقين من جناب ومن نيفيل
والى يسارهما . فاذا بـ « ديرلون » * يواجه « بيكتون » ** ، واذا
بـ « راي » يواجه « هيل » ** .

وخلف رأس الـ A ، خلف نَجْدِ « مون سان جان » ، تقع غابة سوا في .

أما فيما يتصل بالسهل نفسه فينبغي ان نتخيل رقعة من الارض
واسعة متموجة وكل ثني يشرف على الثني الذي يليه ، وجميع هذه
التموجات تصعد نحو « مون سان جان » ، وتنتهي ثمة الى الغابة .

والجيشان العدوان في ساحة القتال اشبه ما يكونان بمصارعين . إن
اذرعها موثقة . وان احدهما ليحاول ان يطرح الآخر ارضاً . إنهما
يتشبهان بكل شيء . فالذغل نقطة ارتكاز ، وزاوية الجدار متراس ؛
لأن الموقع السيء التحصين اذا امتدت اليه كتية ما ، زلت بها القدم .
إن انخفاضاً في السهل ، وحركة من حركات التربة ، وان زقافاً معترضاً
ملائماً ، وإن غابة من الغابات ، وشعباً من الشعاب قد تثبتت عقب
هذا العيلاق الذي ندعوه جيشاً ، وتنجيه من السقوط . ومن يفادر
الميدان فذاك هو المهزوم . ومن هنا كان حتماً على القائد المسؤول ان
يفحص اصفر باقة من العشب ، وان يُنعم النظر في اكثر النتوءات
ضالة .

وكان كل من القائدين قد درس ، في عناية ، سهل « مون سان
جان » الذي ندعوه اليوم سهل واترلو . وكان ولينفتون ، بحكمة

* Drouet d'Erlon مارشال فرنسة (١٧٦٥ - ١٨٤٤) وقد ابلى بلاء حناً في

معركة واترلو .

** Picton و Hill من القادة الانكليز الذين شاركوا في معركة واترلو .

متبصرة ، قد درس هذا السهل في السنة المنصرمة ، بوصفه موقعاً يمكن ان تدور فيه رحى معركة عظيمة . وعلى هذه الارض ، ومن اجل هذه المبارزة كان ولينغتون في الجانب الافضل ، وكاث نابوليون في الجانب الاسوأ . كان الجيش الانكليزي في الجزء الاعلى من الارض ، وكان الجيش الفرنسي في الجزء الادنى منها .

وانه ليكاد يكون سطحياً ان نوسم هنا رسماً تخطيطياً صورة نابوليون بمتطياً صهوة جواده ، والمنظار في يده ، فوق راية روستوم ، فجرَ اليوم الثامن عشر من عام ١٨١٥ . فقبل ان نوميء اليه كان الناس كلهم قد رأوه . إن هذا الوجه الجانبي الهاديء تحت القبعة الصغيرة الخاصة بمدرسة بريين* ، وهذا الثوب العسكري الاخضر ، وجانب المدالية الابيض الذي يحجب النجوم على صدره ، والمعطف الرمادي الذي يحجب الكتفتين** ، وزاوية العصاة الحربية الحمراء تحت الصدر ، والبنتلون الجلدي ، والجلود الابيض بسرجه النحلي الارجواني المزداثة زواياه مجروف N*** متوجة وبنور ، وحذاء الفرسان العالي الساق فوق جورب من حرير ، والمهازين الفضيين ، وسيف مارانغو**** - إن هذه الصورة الكاملة للقصر الأخير لتعيش في الخيلات كلها ، يصفق لها نصف العالم ، وينظر اليها نصفه الآخر في عبوس .

لقد فُحرت هذه الصورة ، دهرأً طويلاً ، بالضياء ، ولقد رات عليها قنامٌ تقليدي يُلمّ بمعظم الابطال ، ويجيب الحقيقة دائماً الى حين

* Brienne - le - Château بلدة فرنسية كان فيها ، خلال القرن الثامن عشر ، مدرسة حربية درس فيها نابوليون .

** الكتابة كلمة اصطلحتها لتؤدي معنى epaulette وهي ، هنا ، ما يكون على كنف الجندي من زينة .

** : هو كما لا يخفى الحرف الاول من اسم نابوليون بالرسم الفرنسي .

**** Marengo قرية ابطالية جرت فيها معركة شهيرة اتصر فيها نابوليون على

القوات النموية (١٤ حزيران ١٨٠٠)

قد يطول وقد يقصر . أما اليوم ، فالتاريخ مشرق وكامل .
 إن ضوء التاريخ هذا لا يرحم . إن له هذه الخاصة الغريبة الالهية
 وهي : أنه مهما يكن مشرقاً ساطعاً ، بل لانه على وجه الدقة مشرق
 ساطع ، يلقي ظلاً حيث نرى الشعاع تماماً . إنه يجعل من الرجل
 الواحد طيفين مختلفين ، فيهاجم احدهما الآخر ويقتص منه ، وتتصارع
 ظلمة الطاغية مع بهاء القائد العسكري . ومن هنا ينشأ مقياس أصح
 لأعطاء الحكم الاخير حول قيمة الشعوب . فبابل المنتهكة تضع من
 قدر الاسكندر ؛ ورومة المثقلة بالاغلال تضع من قدر قيصر ؛
 وبيت المقدس الذبيحة تضع من قدر تيطوس . ان الطغيان يتبع الطاغية .
 ومن تعاسة المرء ان يخلف وراءه ظلمة لها شكله هو .

٥

«الشيء المظلم» في المعارك

إن الناس جميعاً يعرفون وجه هذه المعركة الاول ؛ يعرفون البداية
 العسيرة ، الفامضة ، المترددة ، المهذدة لكل من الجيشين ، وإن يكن
 تهديدها للانكليز أشد من تهديدها للفرنسيين .
 كان المطر قد هطل طوال الليل ؛ وكان قد جعل الارض دمشة
 لينة . كانت المياه مجتمعة ههنا وههناك في تجاويف السهل وكأنها في
 احواض ؛ وفي بعض المواطن غرقت الدواليب حتى المحاور . وكانت
 السيور المطوقة بطون الخيل تقطر وحلاً سائلاً . ولولا الحنطة والجاودار
 اللذان نشرتها جمهرة من العربات المنطلقة ، فملاً أثلام الارض وأقاما
 مهاداً تحت الدواليب ، اذن لكانت كل حركة ، وبخاصة في الاودية
 الواقعة نحو بابلوت ، أمراً متعذراً .

وابتدأ القتال في ساعة متأخرة . كان من عادة نابوليون ، كما شرحنا ، أن يمك بكامل مدفعيته في يده وكأنها مسدس ، مصوباً النيران الى هذه النقطة من المعركة حيناً ، والى تلك النقطة حيناً . وكان قد رغب في الانتظار حتى تتمكن مدفعية الميدان من ان تجري وتعدو في حرية . ولكي يتم ذلك كان يتعين على الشمس ان تبرز وتخفف التربة . ولكن الشمس لم تبرز . إنه الآن في ساحة غير ساحة اوستوليتز . وحين أطلقت النار من المدفع الاول نظر القائد الانكليزي ، كولفيل ، الى ساعته ، ولاحظ انها كانت الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين .

واقترحت المعركة بهجوم ضار ، ولعله ان يكون اشدّ ضراوة بما كان الامبراطور يودّ ، شته الجناح الفرنسي الايسر على هوغومون . وفي الوقت نفسه هاجم نابوليون الوسطَ ملقياً لواء « كيبوت » على « لاهاي سانت » ، وزحف « ني » ، بالجناح الفرنسي الايمن على الجناح الانكليزي الايسر المستند الى بايلوت .

وكان في الهجوم على هوغومون شيء من المخادعة . لقد رمى الى استدراج ولينغتون الى هناك وحمله على الانحراف نحو الشمال - تلك كانت الحطة . واقد كان خليقاً بتلك الحطة ان تنجح لو لم تثبت سرايا الحرس البريطاني الرابع ، والبلجيكيون الشجعان من فرقة « بيبونشية » في مراكزهم ثباتاً عنيداً ، وبذلك وفروا على ولينغتون حشد قواته في تلك النقطة ، ومكنوه من أن يكتفي بدمهم بربع سرايا اضافية من الحرس وبفوج من افواج بروتزويك ليس غير .

أما هجوم الجناح الفرنسي الايمن على بايلوت فكان مقصوداً به ان يسحق الجناح الانكليزي الايسر ، ويقطع طريق بروكل ، ويصدّ البروسيين عن سيلهم اذا ما أقبلوا ، ويستولي على « مون سان جان » ، وان يردّ ولينغتون كرة أخرى الى هوغومون ، ومن هناك الى برين لالو ، ومن هناك الى « هال » . لم يكن ثمة ما هو أوضح من ذلك .

وباستثناء بعض الاحداث الثانوية ، تكمل هذا الهجوم بالنجاح . لقد انتزعت بايلوت ؛ ولقد احتلت « لا هاي سانت » .

وهنا مسألة ينبغي ان ننصّ عليها . كان بين المشاة الانكليز ، وبخاصة في فوج كمت ، عدد كبير من المجندين الجدد . ولقد تكشفت هؤلاء الجنود الفتيان أمام رجالتنا الرهبة عن بطولة . ذلك ان قلة تمرسهم حملتهم على ان يسلكوا في القتال مسلّكاً باسلاً . ولقد أدوا خدمة ممتازة ، على الخصوص ، بوصفهم مناوشين . والجندي حين يكون مناوشاً يُترك شأنه الى حد ما ، ويصبح اذا جاز التعبير قائداً نفسه . لقد أظهر هؤلاء المجددون الجدد شيئاً من الابتداع والجيشان الفرنسيين . لقد تكشفت هؤلاء الرجالة الاغرار عن حماسة . وأغضب ذلك ولينغتون . وبعد الاستيلاء على « لا هاي سانت » تارّجحت المعركة .

إن في ذلك اليوم ، من الظهر حتى الساعة الرابعة ، فترة غامضة . فمنتصف هذه المعركة يكاد يكون غير واضح ، وهو يشارك القتال في إظلامه . كانت الشمس تنجح الى الغروب ، وكان في ميسورك أن تلحظ تقلقاً واسعاً في هذا الضباب الكثيف ؛ وسراباً باعثاً على الدوار ، وادوات حربية تكاد تكون غير معروفة اليوم ، و « القلابق » * المتوهجة ، والجيوب الجلدية المنسدلة المتصلة بمناطق السيوف ، والحِمالات المتصالبة ، والصناديق المثقلة بالقذائف ، والملابس العسكرية الخاصة بقوات الفرسان الخفيفة ، والاحذية الحمراء العالية الساق ذوات الألف ثنية ، والقلائس الثقيلة المكحلة بالاهداب الحزونية الشكل ، ورجالة برونزويك الذين يكادون ان يكونوا سوداً ، ممتزجين برجالة انكلترا القرمزيين ؛ والجنود الانكليز وعلى اردانهم وسائد دائرية كبيرة بيضاء بدلاً من الكتافات ، والفرسان الهانوفرين بقلانسهم الجلدية المستطيلة ذات العصائب النحاسية والأعراف

* جمع قلبق ، وهو لباس الرأس التركي المعروف . وقد وردت الكلمة هكذا

في الاصل الفرنسي colbacks

المصنوعة من السيبب الاحمر ، والاسكتلنديين برُكبيهم العارية ، وارديتهم ذات المربعات ، وساقيات * رماة قنابلنا العريضة البيضاء ؛ لوحات فنية ، لا خطوط استراتيجية ، فهي في حاجة الى سلفاتور روزا * * لا الى غريوفال * * *

ان مقداراً ما من العاصفة ليترج دائماً بالمعارك الحربية *Quid obscurum* *quid divinum* . * * * وكل مؤرخ يرسم الملامح التي تروق له في هذا المرح والمرج . ومهما تكن تدابير القادة العسكريين من اجل الفوز فان لتصادم الحشود الملحة رداتٍ لا سبيل الى احصائها . فعند القتال تتداخل خططنا القائدين احدهما في الاخرى ، وتتشوش احدهما بالآخرى . إن هذه النقطة من ميدان القتال تلتهم عدداً من المحاربين اعظم من ذلك الذي تلتهمه تلك النقطة ، كما تشرب التربة الماء على نحو اسرع او ابطأ تبعاً لطاقتها الاسفنجية . فانت مضطرب الى ان تصب هناك مقداراً من الجنود أكبر مما ترغب فيه . نفقات لم تكن متوقعة . ان خط القتال ليشوج ويتلوى كالخيط ؛ وان سيولاً من الدم لتجري على نحو غير منطقي ؛ وان جبهات الجيوش لتتراجع ؛ وان السرايا الخائضة الميدان او المنسحبة منه لتحدث رؤوساً وخليجاناً ؛ كل هذه المهالك تتذبذب ، واحدة في وجه الاخرى ، على نحو موصول . فحيث كانت الرجالة ، تقبل المدفعية ؛ وحيث كانت المدفعية ، تندفع الحباله ؛ وما الافواج المقاتلة غير دخان . لقد كان شيء ما ، هناك . إبحث عنه ؛ لقد ولتسى .

* الساقية كلمة وضعناها لها يعرف بـ « الطباق » او لفافة الساق (guêtre)

* * Salvator Rosa رسام من نابولي ، ونقاش ، وشاعر ، وموسيقي (١٦١٥ -

١٦٧٣) وقد اشتهر برسم المعارك والمواقع الحربية .

* * * Gribeauval جنرال مدغمي فرنسي (١٧١٥ - ١٧٨٩) ابتكر طرازاً

من المدافع تفوقت بفضل المدفعية الفرنسية على مدفعات سائر الجيوش الاوروبية في مطلع عهد الثورة .

* * * تمييز لاتيني معناه : شيء مظلم ، شيء آسى .

إن فجوات الغابة تنتقل من مكان الى مكان ، وان التفضتات القائمة لتتقدم وتتراجع ، وان ضرباً من ربح القبور ليندفع الى امام ، ويرتد الى وراء ، وينفخ ويبدد هذه الجموع الفاجعة . ما القتال الذي تتلاحم فيه الاجساد ؟ انه ذبذبة . ان الحطة الرياضية الجامدة لتروي قصة دقيقة واحدة لا قصة يوم كامل . وتصوير معركة ما ، يحتاج الى اولئك الرسامين الجابرة الذين تنطوي ريشتهم على هبولي * إن رامبرانت ** خير من فان در مولن *** . ان فان در مولن ، الدقيق عند الظهر ، يكذب في الساعة الثالثة . الهندسة تخدع ؛ والأعصار وحده هو الصادق . وهذا ما يعطي فولار**** الحق في ان يناقض بوليبيوس***** وينبغي أن نضيف أن ثمة دائماً لحظة معينة تنحط فيها المعركة الى ضرب من المبارزة ، وتنزع الى تجزئة نفسها ، وتتوزع الى تفاصيل تتصل - اذا استعرنا تعبير نابوليون نفسه - بسيرة الافواج ، اكثر بما تتصل بتاريخ الجيش . وواضح ان للمؤرخ ، في هذه الحال ، الحق في الاختصار . إنه لا يستطيع ان يضع يده على غير خطوط الصراع الرئيسية . ولم يقيض قط لأياً راوية ، مها يكن حي الضير ، ان يحدد على نحو مطلق شكل هذه السحابة الرهبة التي ندعوها معركة . وهذا ، الذي يصح في جميع الاصطدامات الكبيرة المسلحة ، ينطبق

* الهبول (chaos) اختلاط عناصر المادة في اوائل الكون .

** Rembrandt الرسام الهولندي المشهور (١٦٠٦ - ١٦٦٩)

*** Van Der Meulen رسام من الفلاندر (١٦٣٤ - ١٦٩٠) ، رسم المعارك

التي وقعت خلال عهد الملك لويس الرابع عشر .

**** Jean - Charles Folard خبير فرنسي في شؤون الحرب (١٦٦٩ - ١٧٥٢) وله كتاب

علق فيه على تاريخ بوليبيوس الذي يشير اليه المؤلف ، وهو بعنوان تعليقات على بوليبيوس . Commentaires sur Polybe

***** Polybe مؤرخ اغريقي (توفي حوال سنة ١٢٥ ق. م) ويعتبر كتابه « التاريخ »

الذي يقع في اربعين مجلداً من ذخائر التراث القديم الكبرى .

على واترلو بمخافة .
واياً ما كان ، فعند الأصيل ، في لحظة ما ، تحدت المعركة .

٦

الساعة الرابعة بعد الظهر

حوالى الساعة الرابعة كان وضع الجيش الانكليزي حرجاً . كان
البرنس اوف اورانج يقود القلب ، وكان « هيل » يقود الجناح الايمن ، وكان
« بيكتون » يقود الجناح الايسر . وصاح البرنس اوف اورانج ،
في بأس وجراءة ، مخاطباً القوات الهولندية البلجيكية : « فاستو !
برونزويك ! لا تتراجعوا قط ! » كان « هيل » قد ارتد ، وقد استبدت
به الاعياء ، متوكئاً على قوات ولينغتون . وكان « بيكتون » قد قضى
نجه . ففي اللحظة التي انتزع فيها الانكليز الراية رقم ١٠٥ من الفرنسيين
قتل الفرنسيون الجنرال بيكتون بقذيفة اخترقت رأسه . وبالنسبة الى
ولينغتون كانت للمعركة نقطتا ارتكاز : هوغومون و « لاهاي سانت » .
كانت هوغومون لا تزال صامدة ، ولكنها تحترق . وكانت « لاهاي
سانت » قد سقطت . ومن الفوج الألماني الذي دافع عنها ، لم يبق
على قيد الحياة غير اثنين واربعين رجلاً ؛ كان جميع الضباط ، ما خلا
خمسة ، قد قتلوا أو أسروا . لقد دُبح ثلاثة آلاف مقاتل في مخزن
الحبوب ذاك . وكان رقيب في الحرس الانكليزي ، مصارع انكلترة الاول
الذي اشتهر عند رفاقه بالرجل الذي لا يُجرح ، قد قتل بيد طبيب فرنسي
ضليل الجسم . كان « بيوينغ » قد زحزح عن موقعه ، وكان « آلتن »
قد ضرب بجهد السيف .

كانت رايات كثيرة قد فقدت ، احداها خاصة بفرقة « آلتن » ،

والاخرى خاصة بفوج « لونبورغ » * وكان يحملها أمير من أسرة « دو بون » . ولم يبقَ احدٌ من الاسكتلنديين الرومانيين . وكانت خيالة بونسوني الثقيلة قد مُزقت إرباً إرباً . وإنما انسحب هؤلاء الفرسان للشجعان في وجه رمّاحة « برو » وداوعي « ترافير » . ومن خيلهم الألف والمنتين لم ينجُ غير ستمئة . ومن ثلاثة عقدهاء طُرح عقيدان اثنان ارضاً ، فأما هاملتون فكان جريحاً ، وأما « ماتر » فكان صريعاً . وكان بونسوني قد سقط ، بعد ان مزقته سبع طعنات من احد الرماح . كان « غوردون » ميتاً ، وكان « مارش » ميتاً . لقد حطمت فرقتان اثنتان ، هما الفرقة الخامسة ، والفرقة السادسة .

واذ امتلئت هوغومون ، وانكثرت « لاهي سانت » لم يبق ثمة غير عقدة واحدة ، القلب . كانت هذه العقدة لا تزال صامدة ، وكان ولينغتون يدعمها بالامداد . لقد استدعى « هيل » الى هناك ، وكان في « ميرب براين » ، واستدعى « شاسيه » وكان في « برين لالو » . كان قلب الجيش الانكليزي ، المقعر بعض الشيء ، الكثيف جداً ، المحكم جداً ، يجتلّ موقعاً منيعاً . لقد احتل نجد « مون سان جان » وقد قامت القرية وراه ، وقام المنحدر أمامه ، وكان شديد التحدّر آنذاك . وفي المؤخرة ، كان يتكئ على هذا البيت الجعري الحصين ، الذي كان وقتئذ من ممتلكات الدولة في نيفيل والذي كان يميز ملتقى الطرق : بناء يرقى الى القرن السادس عشر ، وطيد الى درجة جعلت قذائف المدافع تنبو عنه من غير ان تصيبه بأذى . وحوالى النجد كله كان الانكليز قد شذبوا الأسبجة هنا وهناك ، جاغلين فرجاً بين الزعرور ، مقحمين ثم مدفع بين غصنين ، محدثين في الادغال كوي يسترسون خلفها . كانت مدفيعتهم في المكمن الواقع تحت الأجمة . وكان هذا العمل الغادر المباح ، من غير شك ، في الحرب التي تجيز

* Lunebourg مدينة بروسيّة في هانوفر .

نصب الأشرار ، متقناً الى درجة جعلت هاكسو * الذي وجهه الامبراطور في الساعة التاسعة صباحاً لكي يستكشف مدفعية العدو لا يرى منها شيئاً ، فانقلب الى نابوليون ليقول له إنه لم يكن ثمة عائق غير المتراسين الذين يعترضان طريقي « نيفيل » و « جيناب » . وانما جرى ذلك في الايام التي تبلغ فيها سنابل القمح ارتفاعاً حسناً . فعند حافة النجد جثم فوج من لواء « كمت » ، هو الفوج الخامس والتسعون المسلح بالكاربينات ، وسط القمح العالي .

واذ تمتع قلب الجيش الانكليزي الهولندي بهذه الحماية وهذا السناد فقد كان في موقع منيع .

وكان الخطر على هذا الموقع يتمثل في غابة سوانثي التي كانت ملاصقة آنذاك لساحة القتال ، والتي كان يشطرها مستنقعا غرونندال وبواتسפור . فلم يكن في وسع الجيش ان يتراجع هناك من غير ان ينشئت شمله ويُبنى بالهزيمة . كانت الكتابب جديرة بأن تفتخ في الحال ، وكانت المدفعية خليقة بأن تضيع في المستنقعات . كان التراجع ، في رأي كثير من أهل الصناعة الحربية - بمخالفهم في ذلك آخرون ، من غير شك - يعني الهزيمة التي لا تقي ولا تذر .

وأمدت ولينغتون هذا القلب بلواء من ألوية « شاسيه » جيء به من الجناح الايمن ، وآخر من ألوية « وينك » جيء به من الجناح الايسر بالاضافة الى فصيل كلينتون . ودعم قواته الانكليزية ، وسرابا « هالكيت » ، ولواء « ميشيل » ، وحرس « مايتلند » برجاله « برونزوبك » ، ومجندي « ناسو » ، وهانوفرني « كيلمانسيغ » ، وألمان « أومبيدا » . كان الجناح الايمن ، كما يقول شاروا ** ، قد أميل الى ما وراء القلب .

* Haxo جنرال ومهندس عسكري فرنسي (١٧٧٤ - ١٨٣٨)

** Charraa كولونيل فرنسي (١٨١٠ - ١٨٦٥) وضع عام ١٨٥٧ كتاباً هاماً

عن معركة واترلو .

وُقِّتعت وحدة" مدفعية هائلة باكياس رمل حيث يقوم اليوم ما يدعى بـ « متحف واترلو » . وكان عند واينغتون بالإضافة الى هذا ، وفي منخفض من الارض ، حرس « سومرست » الحياطة ، وعدتهم الف وأربعمئة . وكان هؤلاء يؤلفون النصف الآخر من سلاح الفرسان الانكليزي ذاك ذي الشهرة البعيدة التي يستحقها أحسن استحقاق . لقد قضي على بونسونبي ، ولكن سومرست كان لا يزال هناك .

وكانت الوحدة المدفعية ، الجدير بها لو أتمت ان تكون متراًساً تقريباً ، معدة خلف جدار حديقة شديد الانخفاض . وقد غُطِّيت على عَجَل باكياس الرمل ، وبمنخفض من الارض كبير . ولكن هذا العمل لم يتم . انهم لم يجدوا متسعاً من الوقت لتسيجه . كان واينغتون قلقاً ولكنه ثبت الجنان ، وكان بمنطياً صهوة جواده . وقد ظل هناك طوال النهار ، محتفظاً بالوضع نفسه ، امام مطحنة « مون سان جان » القديمة التي لا تزال قائمة ، وتحت شجرة دردار استراها منذ ذلك الحين رجل انكليزي ، من المولعين بتخريب الآثار القديمة ، بثني فرنك ، وقطعها وذهب بها . كان واينغتون باسلاً على نحو خالٍ من الشعور . لقد انهمرت القذائف انهار المطر . وكانت غوردون ، الضابط العامل في خدمته ، قد صُرع اللحظة الى جانبه . وأراه اللورد « هيل » قبلة صغيرة منفجرة وقال : « ماهي تعليماتك ، ايها اللورد ، وما الاوامر التي تتركها لنا اذا ما سمعت لنفك بان 'نقتل'؟ » فاجابه واينغتون : « أن تنسجوا على منوالي . » وقال له « كلينتون » ، في ايجاز : « اصمدوا هنا حتى الرجل الاخير . » كان واضحاً ان كفة الفرنسيين آخذة في الرجحان ، فصاح واينغتون برفاقه القدماء في

تلافيرا * وفيتوريا ** وسالامانكة *** : « ايها الغلمان ! يجب ان لا تُهزم ! فكروا بانكلترة العجوز ! » .

وحوالى الساعة الرابعة ترنح الحط الانكليزي الى الورا . وفجأة لم يُرَ على ذروة النجد غير جنود المدفعية ومطلقى النار بتواتر ، اما الباقون فقد اختفوا . كانت كتائب الجند قد تقهقرت في وجه قنابل الفرنسيين وقذائفهم ، وارندت الى واد لا يزال يقطعه الى اليوم بمرّ الابقار في مزرعة « مون سان جان » . وحدثت حركة تراجعية ، فقد كانت جبهة القتال الانكليزية تنهار . ورجع ولينغتون القهقري .

وصاح نابوليون :

- « لقد بدأت الهزيمة ! »

٧

نابوليون طلق المحيا

ولم يكن الامبراطور ، برغم مرضه وتضايقه فوق صهوة جواده من ألم محليّ ، طلق المحيا في يوم من الايام باكثر مما كان في ذلك النهار . فنذ الصباح وأسارير وجهه الفامضة تقترّ عن ابتسامه . ان تلك النفس العميقة المقنّعة بالرخام اضاءت من غير تبصّر في الثامن عشر من حزيران ، ١٨١٥ . وإن الرجل الذي كان كالع الوجه في أوستوليتز ، كان جدلان

* Talavera مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون على الفرنسيين عام ١٨٠٩

** Vittoria مدينة اسبانية ايضاً انتصر فيها ولينغتون على القوات الفرنسية في ٢١

حزيران عام ١٨١٣

*** Salamanca مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون ايضاً على القوات الفرنسية ،

سنة ١٨١٢

في واترلو . إن اكبر الرجال الذين اختارهم الله للعظام يتكثفون عن هذه المتناقضات . ولكن مباحنا بظلمها القتام . فالابتسامة الكاملة لله وحده .

« يضحك قيصر ، ويبكي بومبيوس » Ridet Caesar . Pompeius flebit
ذلك ما قاله رجال الفرقة المعروفة بفرقة الـ « فولميناتريكس » *
إن بومبيوس ما كان ينبغي له هذه المرة ان يبكي ، ولكن من الثابت ان قيصر قد ضحك .

منذ الليلة البارحة ، وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، بينما كان يرود - على صهوة جواده ، في قلب العاصفة ونحت المطر ، وإلى جانبه برتران - تلك الكشبان المجاورة لـ « روسوم » وقد أهبجه ان يرى خط النيران الانكليزية الطويل يضيء الأفق من « فريشون » الى « برين لالو » - منذ تلك الليلة ، بدا له ان القدر الذي عين له هو موعداً في يوم معلوم فوق ساحة واترلو هذه ، قد أقبل في الموعد المضروب . لقد اوقف جواده ، وظلّ فترة من الوقت جامداً لا يتحرك ، يراقب البرق ويصفي الى الرعد . وقد سمع هذا القدر الذي ينطق في غمرة الظلام بهذه العبارة الحفية : « نحن متفقان » . لقد مُدع نابوليون . إنها ما عادا ، بعد ، متفقين .

لم تكن عيناه قد أغمضتا دقيقة واحدة . لقد حملت اليه كل لحظة من لحظات تلك الليلة بهجة جديدة . وكان قد طاف بخط الحرس الامامي كاه ، ووقف هنا وهناك ليتحدث الى الفرسان المكلفين بالحراسة . وعند الساعة الثانية والنصف ، قرب غابة هوغوموت ، سمع وقع خطى كتيبة تسير . وخيل اليه لحظة ان وليفتون ينكص على عقبيه . وقال : « إنه حوس المؤخرة الانكليزي يشرع في الرحيل . سوف أسر الستة آلاف انكليزي الذين وصلوا الان الى اوستاند » . وتحدث في غير ما تحفظ .

لقد استعاد توقد الذهن ذلك الذي أبداه يوم هبط البرّ في أول آذار ، حين لفت نظر المارشال الكبير الى فلاح خليج جوان المتحمس ، صائحاً : « حسناً ، برتوان * ، ها قد عثرنا على المدد من اول الطريق ! » وفي ليل ١٧ حزيران تندر على ولينغتون ، فقال : « هذا الانكليزي الضئيل الجسم في حاجة الى ان يتلقى درساً ! » وتضاعف المطر . وقصف الرعد فيما كان الامبراطور يتكلم .

وفي الساعة الثالثة والنصف صباحاً تبدد وهم من أوهامه . فقد أعلمه بعض الضباط الذي وجهوا للاستكشاف أن العدو ما كان يأتي بأي حركة . إن شيئاً ما ، لم يتحرك ؛ وإن نارا من نيران المعسكر لم تطفأ . كان الجيش الانكليزي نائماً . وكان الصمت العميق يخيم على الارض . لم يكن ثمة ضجة ما ، إلا في السماء . وعند الساعة الرابعة جاءه الكشافون بأحد الفلاحين . وكان هذا الفلاح قد عمل دليلاً مرشداً لأحد ألوية الحيلة الانكليزية ، لعله لواء فيفيان في طريقه الى التمرکز في قرية أوهين ، في أقصى اليسار . وعند الساعة الخامسة أبلغه هاربات بلجيكيان من الجندية انها فارقا سريتيهما اللحظة ، وان الجيش الانكليزي كان يتوقع نشوب المعركة .

وصاح نابوليون :

« فليهنأوا بذلك ! إني لافضل ان أقطعهم إرباً إرباً على ان اردّهم على أعقابهم . »

وفي الصباح ، ترجل في الوحل ، عند المنحدر الواقع على زاوية الطريق من بلانسنوا ، واستقدم من مزرعة « روسوم » طاولة مطبخ وكرسياً ريفياً ، وجلس ، متخذاً من حزمة من التبغ بساطاً ، ونشر

* Bertrand جنرال فرنسي (١٧٧٣ - ١٨٤٤) ، وقد اشتهر باخلاسه لتابوليون اخلاصاً عظيماً تجلّى في أنه لحق به الى جزيرة ألبا وال سانت هيلانة ، ومن هناك تنكّر وقاه سنة ١٨٤٠ .

على الطاولة خريطة ميدان القتال قائلاً لـ « سولت » * : « رقعة شطرنج جميلة ! »

وبسبب من مطر الليل لم تصل قوافل المؤن ، التي ساخت عجلائها في الطرق التديبة ، مع انبلاج الفجر . ولم تكن اعين الجند قد اغتمضت ، وكانوا مبلتين لم يذوقوا شيئاً من طعام . وبرغم هذا كله هتف نابوليون جذلان قائلاً لـ « في » : « سوف نكسب المعركة تسعين في المئة . » وعند الساعة الثامنة حمل الفطور الى الامبراطور . كان قد دعا عدداً من الجنرالات الى تناول الطعام معه . وفيما هم يفترون روى بعضهم ان ولينغتون كان في الليلة قبل البارحة يشهد حفلة راقصة في بروكسل اقامتها دوقه ريتشوند . فقال سولت ، وهو رجل حرب شرس ذو وجه كوجه رئيس اساقفة : « الحفلة الراقصة سوف تقام لليوم ! » وكان الامبراطور قد مازح « في » الذي قال : « لن يكون ولينغتون من البساطة بحيث ينتظر جلاتكم . » ذلك كان دأبه عادة . يقول فلوري دو شابلون : « كان مولعاً بالمزاح . » ويقول غورغو : « كانت البشاشة المداعبة أساس شخصيته . » ويقول بنجان كونستان : « كان خصب الفكاهة ، وكانت فكاهته غريبة ، مضحكة اكثر منها ظريفة . » ومثل هذه الروح البهجة حين تكون لعملاق من العمالق تستحق ان يؤكد عليها . كان يدعو رماة القنابل (grenadiers) العاملين في جيشه « المتذمرين » (Les Grogards) ؛ وكان يقرص آذانهم ، ويشد بشواربهم . « إن الامبراطور ما كان يعمل شيئاً غير خداعنا والمكوبنا . » تلك هي كلمة واحد منهم . وخلال الرحلة الحفية من جزيرة ألبا الى فرنسة ، في اليوم السابع والعشرين من شباط ، وفي عرض البحر ، التقى « زيفير » المركب الشراعي الحربي الفرنسي بالـ « اينكونستان » المركب الشراعي الحربي الذي كان نابوليون مختبئاً

* Soult مارشال فرنسة (١٧٦٩ - ١٨٥١) وقد لمع نجمه في اوسترليتز وفي اسبانيا .

فيه . فسأل رجاله رجالاً هذا المركب الأخير عن انباء نابوليون ، الامبراطور ، الذي كان لا يزال يزين قبعته حتى هذه اللحظة بتلك الشارة المستديرة البيضاء والارجوانية المرشوشة بالنحل التي اصطنعها في جزيرة ألبا ؛ فما كان منه إلا ان تناول بوق الكلام ، وهو يضحك ، واجاب بنفسه : « الامبراطور في حال جيدة . » ، إن من يضحك بهذه الطريقة يكون على دالة مع الأحداث . ولقد عرف نابوليون عدداً من نوبات الضحك هذه أثناء فطوره في واترلو . وبعد الفطور استجمع افكاره طوال ربع ساعة . ثم إن جنرالين قعدا على حزمة التبغ ، وفي يد كل منها قلم ، وعلى ركبته ورقة ، وأنشأ الامبراطور يلي مواقع الجنود استعداداً للقتال .

وفي الساعة التاسعة ، لحظة انتشار الجيش الفرنسي (وقد نُظِم في صفوف خمسة و صدر إليه الأمر بالحركة -- فالجند صفان ، والمدفعية بين اللواين ، والموسيقى في الطليعة تقدم الأكرام العسكري بقرع الطبول ونفخ الابواق) جباراً ، مترامياً ، مبتهجاً ، بجرأ من الحوَذ والسيف والحراب عند الافق ، في تلك اللحظة صاح الامبراطور طرباً ، معيداً كلمته مرتين :

« رائع ! رائع ! »

وبين الساعة التاسعة والساعة العاشرة والنصف كان الجيش كله ، وهو في ما يبدو مستغرباً صعب التصديق ، قد اتخذ مواقفه ، مصطفاً في صفوف ستة ، مشكلاً - اذا اصطنعنا تعبير الامبراطور نفسه - « صورة ستة من حرف v » . وبعد لحظات من تكوين جبهة المعركة ، وفي غمرة من ذلك الصمت العميق الذي يسبق القتال كما يسبق العاصفة ، رأى الامبراطور الى وحدات المدفعية الثلاث ذات القذائف التي تزن كل منها اثني عشر رطلاً - رأى اليها تتحرك ، وكانت قد نُصِلت نزولاً عند إرادته من فيالتي « ديرون » و « راي » و « لوبو » لكي تستهل

القتال بالمهجوم على « مون سان جان » عند متلقى طريقي « نيفيل »
و « جيناب » ، فرّبت على كتف هاكسو قائلاً :

- « ها هي ذي اربع وعشرون فتاة حناء ، أيها الجنرال ! »

واذ كان واثقاً من النصر ، فقد ابتسم مشجعاً سرية التحصينات
من الفيلق الأول لدن مرت امامه ، وكان قد عهد اليها في ان تقيم
المتاريس في « مون سان جان » حالما يتم الاستيلاء على القرية . ولم
يعكّر هذه الطمأنينة كلها غير كلمة تنضح بالرحمة المتغطسة ؛ فما إن
وأى اولئك الاسكتلنديين الرماديين الرائعين يجتشدون الى يساره ، على
جياهم البهية ، في بقعة يقوم فيها اليوم ضريح ضخم ، حتى قال :

- « يا للخسارة ! »

ثم امتطى صهوة جواده ، وانطلق مخلّفاً روسوم وراهه ، واختار
لمراقبة المعركة رابيةً معشوشبة ضيقة ، الى بين الطريق من جيناب الى
بروكسل ، كانت هي محطته الثانية خلال المعركة . اما محطته الثالثة ،
تلك التي اتخذها لنفسه في الساعة السابعة مساءً ، بين « لا بيل آلانيس »
و « لا هاي سانت » ففضيحة . إنها أكمة مرتفعة لا تزال قائمة الى اليوم ،
وكان الحرس قد احتشد خلفها في منخفض من السهل . وحول هذه
الأكمة ارتدت القذائف فوق الطريق المعبدة حتى كادت تصيب نابوليون .
كان صغير القنابل والكرات فوق رأسه ، شأنه في « برين » . ولقد
التقط بعضهم حيث انتصبت قوائم جواده تقريباً ، عدداً من القنابل
المسحوقة ، ونصال السيوف البالية ، والقذائف المشوهة التي اكلمها
الصدأ . ومنذ بضع سنوات أخرجت من بطن الثرى ، هناك ، قنبلة
يبلغ وزنها ستين رطلاً ، وكانت لا تزال مشحونة ، وقد كُسر
فتيلها على مستواها . وفي هذه المحطة الاخيرة بالذات قال الامبراطور
لدليله ، لاكوست ، وهو فلاح حقود ، مروّع ، مشدود الى سرج

فارس من الفرسان ، كان يستدير كما انفجرت قنبلة ويجاول ان يحتسي . خلف نابوليون : « أيها الابله ، هذا شيء معيب . انك تعرض نفسك للموت برصاصة تصيبك في ظهوك ! » ولقد وجد كاتب هذه السطور هو نفسه في منحدر تلك الاكمة السريع التفتت ، بعد ان قلبَ التراب ، بقايا قنبلة انحلت بفعل الصدا الذي تراكم عليها طوال ست واربعين سنة ، كما وجد بعض كسر الحديد التي تحطمت بين اصابعه مثل اغصان الدبوغ *

إن تموجات السهول المنحدرة على وجوه مختلفة حيث التقى نابوليون ووليفنتون لم تكن كما كانت في الثامن عشر من حزيران ١٨١٥ . هذا شيء لا يجهد احد . ذلك أنهم بأخذهم من ذلك الميدان المشؤوم ما يصنعون به نصباً له غيروا شكله الحقيقي . فاذا التاريخ ، وقد سُوش ، لا يعرف نفسه بعد ، في ذلك المكان . لقد ارادوا تمجيده فشوهوه . ولقد صاح وليفنتون حين رأى الى واترلو بعد سنتين : « لقد عبروا ميدان معركتي ! » فحيث ينهض اليوم ذلك الهرم من التراب الذي يعلوه الاسد ، كانت قنّة تتحدّر نحو طريق نيفيلّ تحدراً يسهل سلوكه ، على حين كان تحدّرها ، فوق طريق جيناب وعرأ جداً . واليوم لا يزال في الامكان ان يقاس ارتفاع هذا المنحدر بعلو اكتي المدفنين الكبيرين اللذين يُطوّقان الطريق من جيناب الى بروكسل : القبر الانكليزي الى اليسار ، والقبر الألماني الى اليمين . وليس ثمة قبر فرنسي . فالسهل كله قبر لفرنسة . وبفضل آلاف وآلاف من أحمال التربة التي استعملت في التلة البالغ ارتفاعها مئة وخمسين قدماً ، ومحيطها نصف ميل ، أمسى الوصول الى نجد « مون سان جان » ميسوراً في انحدار رقيق . ذلك انه كان ، يوم المعركة ، وبخاصة من ناحية « لاهاي سانت » ، وعرأ صعب المرتقى . والحق ان ذلك الجرف كان متهدراً الى درجة

« الدبوغ ضرب من الشجر يستخرج من أغصانه صلب قرمزي وهو يشتمل في الدباغة .

جعلت المدفعية الانكليزية لا ترى المزرعة التي تحتها في فعر الوادي ، مركز الصراع . وفي ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ، كان المطر قد زاد هذا المنحدر وعرة ، وكان الوحل قد جعل ارتقاؤه اكثر صعوبة . إنه لم يعد مضيئاً وحسب ، ولكن أقدام الرجال كانت تسيخ في الطين فعلاً . وعلى طول ذروة النجد امتدّ شبه خندق ما كان في ميسور المراقب البعيد ان يتيّنه .

ايّ شيء كان ذلك الخندق ؟ سوف نجيب عن هذا السؤال . إن « برين لالو » قرية من قرى بلجيكة ؛ وإن « أوهين » قرية أخرى . وهاتان القريتان ، وكلتاها محبوبة بانعطاف الارض ، متصلتان بطريق يبلغ طولها نحواً من فرسخ ونصف وتحترق سهلاً غير مستوي ، فهي كثيراً ما تدفن نفسها في التلال مثل ثلم من الأتلام ، وذلك ما كان يجعل من هذه الطريق مسيّلاً ، في بعض المواطن . وفي عام ١٨١٥ اخترقت هذه الطريق ، شأنها اليوم ، قمة نجد « مون سان جان » بين الطريقين من جيناب ومن نيفيل . بيد أنها اليوم على مستوى السهل ، في حين أنها كانت آنذاك طريقاً غائرة . لقد أزيل منحدرها لأقامة الأكمة التذكارية . وإنما كانت تلك الطريق ، ولا تزال ، خندقاً ، في القسم الاعظم من امتدادها . خندقاً يبلغ عمقه في بعض المواطن اثني عشر قدماً ، ويشدّد تحدّر جوانبه الى حد يجعلها تنهار ههنا وههناك ، وبخاصة في الشتاء ، تحت الامطار . ولقد وقعت هناك عدة حوادث اصطدام . فقد كانت الطريق من الضيق ، عند مدخل « برين لالو » بحيث سحقت احدى العربات عابراً سبيل ، على ما يؤخذ من صليب حجرى قائم قرب المقبرة مدون عليه اسم الميت : « مسيو برنار

دوبري ، تاجو من بروكسل ، وتاريخ الحادث ، شباط ١٦٣٧ *
وكانت من العمق ، عند نجد « مون سان جان » بحيث سُحقَ هناك
عابر سبيل آخر ، ماتيو نيكيس ، عام ١٧٨٣ ، بسبب من انهيار أحد
جانبيها ، على ما يؤخذ من صليب حجري ثانٍ . لقد ذهب استصلاح
الارض برأس هذا الصليب ، ولكن قاعدته المنكوسة لا تزال تُرى عند
الجانب المنحدر الى يسار الطريق بين « لا هاي سانت » ومزرعة « مون
سان جان » .

وفي يوم المعركة ، كانت هذه الطريق الفائرة التي لا يسمُ شيءٌ عن
وجودها ، والمحيطه بذروة « مون سان جان » - « خندق » في قمة
المنحدر ، أثرٌ من آثار مرور العربات مخثيء في الارض - نقول في يوم
المعركة كانت هذه الطريق غير منظورة ، يعني فظيعة .

وانما يجري الكلام المنقوش على الحجر هكذا :

له البالغ الرحمة البالغ العظمة
هنا سُحق
بسوء الحظ
تحت عجلات احدى العربات
مسيو برنار
دوبري ، تاجو
من بروكسل (كلمة غير مقروءة)
شباط سنة ١٦٣٧

الامبراطور يوجه سؤالاً

الى الدليل لا كوست

واذن . ففي صباح واترلو كان نابوليون مسروراً .

وكان على صواب . فقد كانت الحطة التي وضعها للمعركة خطة رائعة حقاً .

حتى اذا استهلّت المعركة لم يكن في تقلباتها الشديدة الاختلاف ، وفي صمود هوغومون ، وعزاد « لاهاي سانت » ، ومصرع « بودوين » ، وإقصاء « فوا » عن الميدان ، بعد ان امسى عاجزاً عن القتال ، والسور غير المرتقب الذي تحطم عليه لواء « سوا » ، وطيش « غويمينو » المشؤوم وقد نفذت قنابله ونفذ باروده ، وغوص المدفعية في الوحل ، والخمسة عشر مدفعاً غير المحفورة التي اوقع بها « اوكسبريدج » في طريق غائرة ، والاثر الضئيل الذي احدثته القنابل الساقطة داخل الخطوط الانكليزية اذ كانت تدفن نفسها في التربة المنقوعة بالمطر فلا توفق الى اكثر من إحداث براكين من الوحل بحيث تحوّل الانفجار الى رشاش ، وعدم جدوى الهجوم المضلل الذي شنّه « بيويه » على « برين لولو » ، والقضاء على سلاح الفرسان هذا ، المؤلف من خمس عشرة كوكبة قضاء شبه كامل ، وعدم انزعاج الجناح الانكليزي اليمين إلا قليلاً ، وعدم اصابة الجناح الايسر باكثر من أذى ضئيل ، وغلظة « في » الغربية التي تتمثل في حشده الفصائل الاربع التي يتألف منها الفيلق الاول بدلاً من ان ينشرها ويباعد ما بينها ، وعمق الصفوف السبعة والعشرين وجبهة المثني رجل التي قدّمت على هذا النحو طعاماً للقذائف ، والفتوحات

الرابعة التي احدثتها القنابل في هذه الحشود ، وانقطاع الاتصال بين كتاب الجيش المهاجمة ، والمدفعية المنحرفة التي 'كشفت جناحها فجأة' ، ووقوع 'بورجوا' و 'دوتزيلو' و 'دوريت' في الشرك ، و'رد' 'كيبو' على عقبيه ، واصابة الملازم الاول ، 'فيو' ، ذلك الجبار المنبثق من مدرسة البوليتكنيك ، بيجرح في اللحظة التي كان يحطم خلالها ، بضربات فأس ، باب 'لاهاي سانت' تحت النار المنصبة من المتراس الانكليزي الذي يسد منعطف الطريق من جيناب الى بروكل ، ووقوع فصيل 'ماركوتيه' بين حجري الرجالة والحياة ، وتصويب 'بست' و 'باك' النار اليه ، من على مدى الذراع في حقل القمح ، وتضريب 'بونسوني' اعناق رجاله بمجد السيف ، وتسمير وحدته المدفعية المؤلفة من سبعة مدافع ، وصمود أمير ساكس - وايمار * في 'فريشون' و 'سموهين' واحتفاظه بها على الرغم من الكونت ديرلون ، وانتزاع راية الفوج الخامس بعد المئة ، وراية الفوج الخامس والاربعين ، وهذا الفارس البروسي الاسود الذي جاء به كشافة الكتيبة المنقلة المؤلفة من ثلاثئة قنص يضربون في المنطقة الواقعة ما بين 'وافر' و 'بلانسوا' ، والاشياء المقلقة التي قالها هذا الفارس ، وتأخر 'غروشي' ، والالف والحمة رجل الذين 'قتلوا في بستان هوغومون في اقل من ساعة ، والالف والثمانئة رجل الذين صرعوا في فترة اشد قصرآ حول 'لاهاي سانت' - لم يكن في هذه الاحداث العاصفة كلها ، التي مرت مثل صحائب المعركة امام نابوليون ، ما كدر حياته ، او عكّر انطباعه اليقين الامبراطوري عليه . فقد تعود نابوليون ان يجتدق الى الحرب تحديقاً . انه ما كان 'يجري جمع التفاصيل الموجبة رقماً رقماً . فلم تكن الارقام لتهه الا اذا اعطت هذا الحاصل : النصر . وعلى الرغم من ان طلائع المعركة كانت سيئة فلم يزعجه ذلك ، وكيف يزعجه وهو

* ارشيدوقية سابقة في المائة الوسطى .

الذي اعتقد انه سيد النهاية ومالكها ؟ كان يعرف كيف ينتظر ، معتبراً نفسه في عصبة من الطواريء ، معاملاً القدر كما يعامل الندّ الندّ . لقد بدا وكأنه يقول لهذا القدر : « انت لن تجرؤ . »
 وحين اختلط نور النهار بظلام الليل استشعر نابوليون انه مصون في الحير ، متجاوزاً عنه في الشر . كانت له او كان يعتقد ان له - موافقة على الاحداث ، بل مشاركة فيها تعدلُ الفكرة القائلة بالعصبة من الجروح ، عند القدما .

وايأ ما كان ، فحين يكون وراء المرء « بيرزيناس » * و « لايبسيك » ** و « فونتينبلو » *** يبدو وكأن من الجائر ان يشكّ في واترلو . ان اكفهراراً خفياً قد شرع يظهر في اعماق السماء . لحظة ارتدّ ولينغتون اخذت نابوليون هزة الطرب . لقد رأى نجدّ « مون سان جان » يعمرى فجأة ، ورأى جبهة الجيش الانكليزي تخفي . واجتمع شمل هذا الجيش ككرة أخرى ولكنه ظلّ متوارياً . ونهض الامبراطور في ركابه نصف نهضة . لقد اخترق وميض النصر عينه . لقد حُصر ولينغتون في غابة سواني* وحطمت قواته - تلك كانت الهزيمة الحاسمة نزلها فرنسة بانكلترة . ذلك كان الانتقام لـ « كريسي » ****

* Bérésina نهر في روسية البيضاء اشتهر بعبور الجيش الفرنسي له من ٢٦ - ٢٩ تشرين الثاني عام ١٨١٢ .

** المدينة الالمانية المعروفة وقد نشبت فيها معركة بين الفرنسيين والحلفاء (معركة اليم) اضطر نابوليون على اثرها الى الجلاء عن المانية (سنة ١٨١٣)

*** اشارة الى « معاهدة فونتينبلو » التي سوت ، في ١١ نيسان ١٨١٤ ، بعد استقالة نابوليون الاول ، وضع الامبراطور ووضع أسرته .

**** Crécy - en - Ponthieu بلدة في شمال فرنسة جرت فيها موقعة بين الفرنسيين بقيادة فيليب دو فالوا والانكليز بقيادة ادورد الثالث سنة ١٣٤٦ وكان النصر فيها حليف الانكليز .

و « براتيه » * ، و « مالبلايه » ** ، و « رامبي » *** كان بطل مارانغو بمحو عار « آزينكور » . ****

وانشأ الامبراطور يتأمل هذا التطور الفظيع الذي طرأ على الموقف ، وأجال منظاره للمرة الاخيرة فوق كل نقطة من ساحة القتال . ونظر اليه حرسه - وكانوا واقفين خلفه وسلاحهم على أرجلهم - في ضرب من العبادة . كان يفكر . كان يدرس السفوح ، ويلاحظ المنحدرات ، ويتفحص الغابة الصغيرة ، وحقل الجاودار المربع ، والمجاز الضيق . لقد بدا وكأنه 'يحصي كل دغل من الادغال . ونظر فترة من الزمن الى المتاريس الانكليزية القائمة على الطريقين ، وكانا ركائمين ضخمين من الاشجار ، احدهما على طريق جيناب ، فوق « لا هاي سانت » ، وهو مسلح بمدفعين كانا وحدهما - بين المدفعية الانكليزية كلها - اللذين يريان قعر ساحة القتال ، والآخر على طريق نيفيل حيث التمعت حراب لواء « شاسيه » الهولندية . ولاحظ قرب ذلك المتراس كنيسة القديس نقولا العتيقة ، المدهونة باللون الابيض ، والقائمة عند زاوية الطريق المختصرة المتجهة نحو « برين لالو » . وانحنى وهمس في اذن الدليل ، لاكوست . واوماً الدليل برأسه ايماءة نفي ، اغلب الظن انها كانت خادعة . ونحس الامبراطور وفكّر .

* حيث انتصر ادورد الشهير بالامير الاسود (وهو ابن ادورد الثالث) على ملك فرنسا جان الثاني الملقب بالشجاع ، سنة ١٣٥٦ وأسره .

** Malplaquet في أقصى الشمال الفرنسي حيث هزم الانكليز الفرنسيين في ١١ ايلول سنة ١٧٠٩ .

*** Ramilles - Offus من اعمال بلجيكة حيث انتصر مارلبورو على مارشال فرنسا فيلاروا عام ١٧٠٦ .

**** Azincourt في منطقة ال « با دو كاليه » شمالي فرنسا حيث هزم الانكليز بقيادة هنري الخامس القوات الفرنسية وعلى رأسها دوق اورليان (٢٥ تشرين الاول عام ١٤١٥) .

كان ولينغتون قد انقلب على عقبيه . ولم يبقَ غير إنجاز هذا الارتداد بضربة ماحقة .

وفجأة التفت نابوليون ، ووجهه ، على جناح السرعة ، رسولاً الى باريس ليعلن ان المعركة قد كُسيبت .

كان نابوليون واحداً من اولئك العباقرة الذين تصدر عنهم الرعود . وكان قد وجد صاعقه .

وأصدر أمره الى دارعي « ميلهو » * بالاستيلاء على نجد « مون سان جان » .

٩

ما لم يكن متوقفاً

كانوا ثلاثة آلاف وخمسة رجل . ولقد شكلوا جبهةً تبلغ نصف ميل . كانوا رجالاً عمالقة على صهوات جياد ذات جسوم هائلة . وكانت تنتظمهم ستّ وعشرون كوكبةً ، ومن ورائهم فصيل « لوفيفر دينويت » ** وهم مئة وستة من رجال الدرك المختارين ، وقناصة الحرس وعدّتهم ألف ومئة وسبعة وتسعون رجلاً ، وفرمان الحرس الرماحة وعدّتهم ثمانئة وثمانون . كانوا يلبسون الخوذ من غير سَيِّب ، والدروع المصنوعة من الحديد المطروق ، وقد شدّوا مسدسات الفرمان في غلاقتها الجلدية الى مقدم السرج ، وتسلموا بالسيوف الطويلة المنقوسة.

* Milhaud جنرال فرنسي اشتهر بجرأته البطولية على رأس قواته الدارعة .
(١٧٦٨ - ١٨٣٣)

** Lefebvre - Desnouettes جنرال فرنسي (١٧٧٣ - ١٨٢٢) ابلى في وائرلو بلاء حسناً ، ثم هاجر الى اميركة بعد عودة آل بوربون الى العرش .

وفي الصباح ، كانوا موضع اعجاب الجيش كله عندما أقبلوا في كثافة عند الساعة التاسعة ، وقد ضجّت الابواق وأُنشد جنود الموسيقى كلهم : « فلنسير على سلامة الامبراطورية » * ، وسارت احدى وحداتهم المدفعية الى جانبهم ، والأخرى في وسطهم ، واندفعوا في صفين بين طريق جيناب و « فريشون » ، واخذوا مواقعهم في ذلك الخط الثاني الجبار الذي اقامه نابوليون في كثير من الحكمة ، والذي كان له - وقد واكبه في أقصى يساره دارعو كيلرمان وفي أقصى يمينه دارعو ميلهو - جناحان من حديد اذا جاز التعبير .

وحمل اليهم ضابط الارتباط برنار أمر الامبراطور . وشهر « في » سيفه ووضع نفسه على رأسهم . وشرعت كتائب الفرسان الهائلة تتحرك . وعند ذلك رثي مشهد مروّع .

لقد اندفعت هذه الحياطة كلها ، مشهورة السيوف ، خفاقة الرايات ، صادحة الابواق ، في حركة واحدة وكأن افرادها رجل واحد وقد شكّل كل فصيل صفاً - وفي مثل دقة آلة برونزية هادمة تشق ثلثة في جدار - وهبطت كتيب « لا بيل » آليانس ، وغطست في ذلك العمق الهائل الذي سبق لكثير من الرجال ان سقطوا فيه ، واختفت في الدخان ، ثم نهضت من هذه الدجّة ، وبرزت كرة ثانية عند الجانب الآخر ، وهي لا تزال كثيفة متلازمة ، مصعّدة بأقصى الحجب ، وسط سحابة من قذائف المدفعية انبعجت فوقها في مرتقى نجد « مون سانت جان » الموحد الخيف . لقد برزت كالحلّة ، مهدّدة ، بثت الجنات . وخلال الفترات الفاصلة ما بين انطلاق التيار الجماعي من البنادق وانطلاقها من المدافع ، كان في ميسور المرء أن يسمع صدى هذا الوطأ الجبار .

* Veillons au salut de l'Empire أغنية وطنية كانت من أولى اغنيات الثورة الفرنسية . والواقع ان « الامبراطورية » هنا تعني « الدولة » . وقد أُخدع كثيرون بعنوان هذه الأغنية بحسبها من انشيد عهد الامبراطورية الاول .

واد كانا فضيلتين فقد شكلا صفيين . كان فضيل « واتييه » الى اليمين ،
وفضيل « دولور » الى اليسار . ومن بعيد ، كان يجيئ الى الناظر
انها افموانان فولاذيان هائلان يتمددان نحو قنّة النجد . لقد اخترق
ذلك المعركة وكأنه اعجوبة من الاعاجيب .

ان شيئاً مثل هذا لم تشاهده العيون منذ استيلاء سلاح الفرسان
الثقيل على متاريس ال « موسكوبا » . * إن مورا ** لم يكن هناك .
ولكن كان هناك « ني » . لقد بدا وكأن هذا الحشد قد امسى غولاً ،
وكانا كانت له نفس واحدة ليس غير . لقد تموجت كل كوكبة ،
وانتفخت مثل حلقة الأخطبوط . كان ممكناً ان يُروا من خلال الدخان
الكثيف ، اذ كان مزمزاً ههنا وههنا . انها فوضى من الحوذ والصيحات
والسيوف ، ووثب خيل ضار بين المدافع ونغمات الابواق - تجلّبة
فظيعة منظمة . وفوق ذلك كله ، كانت الدروع ، وكانت اشبه
بجراثيف أفعى هديرية ذات سبعة رؤوس .

هذه الاخبار تبدو وكأنها اخبار عصر آخر . ولا ريب في ان شيئاً
مثل هذا المشهد قد برز في الملاحم الأورفية القديمة التي تتحدث عن
الرجال الخيل ، عن اولئك المحبولين الاقدمين الذين كانوا يتصورون
انهم قد مسخروا جياداً ، عن اولئك الجبابرة ذوي الوجوه البشرية ،
والصدور الشبيهة بصدور الخيل ، الذين تسور خبيهم الالوب *** ،
الحفيين ، الرفيعين ، المعصومين عن الجراح ، والذين هم آلهة وجاهم في

* نهر في روسيا الوسطى جرت عنده معركة دامية بين الفرنسيين والروس
عام ١٨١٢ ، وكان النصر فيها حليف الفرنسيين .

** Murat صهر نابليون ، وكان جنرالاً لامعاً من قادة سلاح الفرسان . وقد ابلى
بلاء حسناً في معركة الاهرام وفي معركة ال « موسكوبا » التي يشير اليها المؤلف
(١٧٦٧ - ١٨١٥)

*** جبل في بلاد الاغريق القديمة يقع بين مقدونيا وساليا وكانت الاساطير
ترسم انه مقر الآلهة .

آن معاً .

إنها لمصادفة عديدة عجيبة . كان قد استقبل هذه الكوكبات الست^١ والعشرين ستة^٢ وعشرون فوجاً . وخلف قنة النجد ووراء حجاب من المدفعية المقتعة كان الرجال الانكليز يشكلون ثلاثة عشر مربعاً ، في كل مربع فوجان ، وعلى خطين - في الاول سبعة مربعات ، وفي الثاني ستة - واعقاب البنادق الى الاكتاف ، والعيون على « قمحات » البنادق - فهم ينتظرون هادئين ، صامتين ، غير متحركين . لم يكن في ميسورهم ان يروا الدارعين ، ولم يكن في ميسور الدارعين ان يروم . لقد اصغوا الى ارتفاع هذا المد^٣ من الرجال . لقد سمعوا صدى الثلاثة الآلاف جواد ، المتعاطم شيئاً بعد شيء ، ووقع حوافرها التناوبي المتسق ، في حجب كامل ، وجلجة الدروع ، وقعقة السيوف ، وشبه هدير ضار . وراى الصمت الخفيف لحظة . وفجأة بدأ فوق القنة صف طويل من الاذرع المرفوعة التي تهز السيوف ، بنحوها وابواقها ورباتها ، وثلاثة آلاف وجه ذي شارب اشيب تهتف : « يحيى الامبراطور ! » لقد تفجرت هذه الحيلة كلها فوق النجد ، فكان ذلك اشبه باستهلال زلزلة .

وفجأة - ذلك شيء فاجع - الى يسار الانكليز ، والى يميننا ، ارتدت طبيعة الدارعين في جلبة مهتاجة مروعة . ذلك بأن هؤلاء الدارعين ما كادوا يبلغون أوج القنة ، مطلقى الاعنة لحيلهم ، وقد عصفت بهم الحاسة البالغة ، واتخذوا سبيلهم نحو القضاء على المربعات والمدافع ، حتى رأوا ان بينهم وبين الانكليز حفرة ، بل قبراً . تلك كانت طريق « أوهين » الغائرة .

كانت لحظة مخيفة . كان الوادي هناك ، فاغراً فاه ، على نحو غير متوقع ، تحت حوافر الخيل تقريباً ، وقد بلغ عمقه قامتين بين منحدره المزدوج . ودفع الصف الثاني الصف الأول ، ودفع الصف الثالث

الصف الثاني . وسببت * الخيل ، وارتدت الى وراء ، وانقلبت على
أردافها ، وزلقت بقوائمها كلها في الهواء ، طارحة فرسانها مكدسة
إياهم على الارض . لم يكن ثمة وسيلة الى الانسحاب . ولم تكن الكتيبة
كلها غير قذيفة . إن القوة المكتسبة لسحق الانكليز قد سحقت الفرنسيين .
وما كان في ميسور الوادي المتحجر القلب ان يدعن إلا بعد ان امتلأ ؛
لقد تدرج الفرسان والجياد فيه على نحو فوضوي ، ساحقاً احدهما
الآخر ، وقد تمازجت لحومهم في تلك الهوة الرهيبة . وحين طفع هذا
القبر بالرجال الأحياء مشى الباقون فوقهم واجتازوا بالمكان . لقد سقط
ثلاث لواء « دو بوا » تقريباً في هذه الهوة .

ومن هنا بدأ نابوليون يخسر المعركة .

ان ثمة رواية محلية ، مغالية فيها من غير شك ، تذهب الى القول
بأن ألفي فرس وألفاً وخمسة رجل دُفِنوا في طريق اوهين الغائرة .
ومن المحتمل ان يكون هذا الرقم شاملاً سائر تلك الجثث التي طُرحت
في هذا الوادي خلال اليوم الذي تلا المعركة .

وينبغي ان ننصّ بالمناسبة على أن لواء « دو بوا » هذا الذي امتحن
على هذا النحو المشؤوم هو الذي حمل ، قبل ذلك بساعة ، حملةً عنيفة
على العدو ، فانتزع راية فوج لونبورغ .

وكان نابوليون ، قبل ان يصدر أمره الى دارعي « ميلهو » بالهجوم ،
قد درس طبيعة الارض ، ولكنه لم يستطع ان يرى هذه الطريق الغائرة
التي لم تحدث ولو مجرد تغضن على سطح التجد . ومع ذلك فقد لفت نظره
تلك الكنيسة الصغيرة البيضاء المتصلة بطريق نيفيل ، فوجه سؤالا الى
الدليل لأكوست ؛ وانما فعل ذلك في أغلب الظن بعد أن تراءى له
ان ثمة عقبةً ما . وكان الدليل قد أجاب بقوله لا . ولعل في ميسور
المراء ان يقول ان الكارثة التي حلت بنابوليون إنما انبثقت من هزة

« شبا الجواد يشبو : قام على رجليه .

رأس هذا الفلاح .

وكان لا بدّ من وقوع كوارث اخرى .

أكان من الممكن ان يكسب نابوليون هذه المعركة ؟ نحن نجيب بقولنا لا . لماذا ؟ بسبب من ولينغتون ؟ بسبب من بلوخر ؟ لا . بسبب من الله .

فلأن ينتصر نابوليون في واترلو شيء لم يكن في قانون القرن التاسع عشر . كانت سلسلة جديدة من الحقائق على وشك الوقوع ، سلسلة لم يكن لنابوليون ايما مكان فيها . وكانت نية الاحداث السبئية قد تجلت منذ زمن طويل .

لقد حان سقوط هذا الرجل الهائل .

ان وطأة هذا الرجل المفرطة على المصير الانساني قد أخلت بالتوازن ، فقد كان هذا الفرد يساوي ، وحده ، المجموع الكوني . وهذا الفيض من كامل الحيوية البشرية المركّز في رأس واحد ، وهذه الدنيا المتطية دماغ رجل واحد ، خليق بها ان يصبحا شؤماً على الحضارة اذا استمرا . لقد آن للعدالة العليا النزعة ان تدبر الامر . واغلب الظن ان المباديء والعناصر التي تقوم عليها الجاذبيات القياسية في النظام الاخلاقي وفي النظام المادي جميعاً ، قد بدأت تتدمر . فالدماء التي يتصاعد منها البخار ، والمدافن المزدحمة بسكانها ، والامهات السافحات الدمع ، كل اولئك محامون مخيفون . ان ثمة ، حين تشكو الارض ضيقاً شديداً ، انثت خفية تنبث من الاعماق ، فتسمعها السماء .

لقد سُكّي نابوليون الى اللانهاية ، وكان سقوطه امراً مقررآ .

لقد أغضب الله .

إن واترلو ليست معركة على الاطلاق . إنها تغيير جبهة الكون .

نجد « مون سان جان »

وفي الوقت نفسه كانت المدفعية قد اكتشفت .
لقد أطلق ستون مدفعاً واطلقت المربعات الثلاثة عشر نيرانها على
الدارعين مرعدة مومضة . وأدّى دولور ، الجنرال الشجاع ، التحية
العسكرية للمدفعية الانكليزية .

وفي مرة بالغة اتخذت المدفعية الانكليزية المشقة كلها موقفاً لها في
المربعات . ولم يجد الدارعون متسعاً من الوقت يأخذون فيه نفساً .
لقد قضت كارثة الطريق الفائرة على عدد كبير منهم ولكنها لم تفت في
عضدهم . لقد كانوا رجالاً كلما نقص عددهم كبرت قلوبهم .

إن كتيبة « واتيه » وحدها هي التي أصابتها النكبة . أما كتيبة
دولور التي كان « ني » قد حملها على الانحراف نحو اليسار ، وكأنا
أشعره قلبه بوجود الشرك ، فقد وصلت كاملة .

وانقضّ الدارعون على المربعات الانكليزية .

الحيل تلامس بطونها الارض ، والأعنة مطلقه ، والسيوف بين
الاسنان ، والمسدسات في الأيدي - كذلك بدأ الهجوم .

إن ثمة لحظات في المعركة تقسي النفس أثناءها الرجل حتى ليتحول
الجندي الى مثال ، وحتى ليصبح لجه كله صواناً . لقد أبت الافواج
الانكليزية ، وقد هوجمت في ياس ، ان ترتد خطوه واحدة الى وراء .
وكان ذلك فظيماً .

لقد هوجمت جوانب المربعات الانكليزية كلها في آنٍ معاً . لقد
احاطت بها عاصفة من جنون . وظلت هذه الرجالة الباردة ثبته الجنان .
فأما للصف الاول ، وكان راکماً على ركبته على الارض ، فاستقبل

الدارعين على رؤوس الحراب ، واما الصف الثاني فأطلق عليهم النار من بنادقه . وخلف الصف الثاني شحن المدفيعات مدافعهم ، وانفجرت طلعة المربع ، لكي تفسح المجال لانطلاق القذائف المحمومة ، ثم انغلقت كرة اخرى . وكان جواب الدارين أن انقضوا على الرجال في قوة ماحقة . لقد سببت جياهم الضخام ، وتخطت الصفوف في خطى واسعة ، ووثبت فوق الحراب ، ثم سقطت - جبارة - وسط هذه الجدران الحية الاربعة . وحدثت القذائف فجوات في صفوف الدارين ، وحدث الدارعون ثلماً في المربعات . لقد اختفت صفوف من الجند بعد أن سُحقت اجسادها تحت سنايك الخيل . ولقد عُيبت الحراب في بطون هؤلاء السناطرة * ، ومن هنا تلك الجراح الشائبة التي يغلب على الظن أن احداً لم يشهد ضرباً لها من قبل . وانكشفت المربعات على نفسها ، وقد قرضتها هذه الحيلة المجنونة ، من غير ان تتحرك او تتردد . كانت تملك معيماً من القذائف لا ينضب ، فهي تقبجرها ابدأً وسط العدو المهاجم . كان مشهداً رهيباً . إن هذه المربعات لم تعد أفواجاً من الجند ؛ لقد أمست فوهات براكين . وهؤلاء الدارعون لم يعودوا خيالة ؛ لقد أمسوا إعصاراً . كان كل مربع بركاناً تهاجمه سحابة . ولقد اصطرت الحمم والصواعق .

وقضي قضاءً شبه كامل ، من الصدمة الاولى ، على المربع الذي في اقصى اليمين ، وهو اكثر المربعات تعرضاً للخطر ، بوصفه قائماً في الميدان الطلق . وكان مؤلفاً من رجال السرية الحامسة والسبعين الجليلين الاسكتلنديين . وفيما كانت عملية الاستئصال دائرة كان النافخ بمزمار القرية ، قاعداً في الوسط فوق احد الطبول ، وقد غفل غفلة عميقة عن كل ما حوله ، خافضاً عينه الكثيبة الملأى بظلال الغابات والبحيرات ،

* Centaurs جمع « سنطر » ، وهو في الميثولوجيا مخلوق وهمي نصفه إنسان ونصفه الآخر فرس .

وكان واضحاً مزماره الاسكتلندي * تحت ذراعه ، غازفاً أنغام الجبل .
لقد مات هؤلاء الاسكتلنديون وهم يفكرون بـ « بن لوثيرات » ، كما
مات الاغريق وهم يذكرون « آرغوس » . ثم إن سيف احد
الدارعين هوى على الزمار وعلى الذراع التي تحمله فقطع الاغنية بأن
قتل المغني .

وتعيّن على الدارعين وقد غدا عددهم ضئيلاً نسبياً ، بعد كارثة الوادي ،
ان يواجهوا كامل الجيش الانكليزي تقريباً . ولكنهم ضاعفوا انفسهم ،
فاذا بكل رجل يعدل عشرة . ومع ذلك فقد ارتدت بعض الافواج
الهانوفرية الى الورا . ورأى ولينغتون ذلك وتذكر خياله . ولو ان
نابوليون تذكر ، في تلك اللحظة نفسها ، رجاله إذن لكب المعركة .
لقد كان هذا السهو هو غلطته الكبيرة المشؤمة .

وفجأة وجد الدارعون المهاجمون انهم مهاجمون . لقد انقضت
الحياة الانكليزية على ظهورهم . كانت المربعات امامهم ، وكان سومرست
وراهم . سومرست بجرحه الفرسان البالغ عددهم ألفاً واربعمئة . وكان
الى يمين سومرست « دورنبرغ » بخياله الالمان الخفاف ، السلاح والى
يساره « تريب » على رأس حاملي الكارينات البلجيكيين . واضطر
الدارعون ، وقد هوجوا من الجبهة ومن الجناح ، ومن أمام ومن
وراء ، وبواسطة الرجالة والحياة معاً ، اضطروا الى ان يديروا وجوههم
الى الجهات جميعاً . وما ضرهم ؟ كانوا إعصاراً . وغدت بطولتهم بمنعة
على الوصف .

والى هذا ، فقد كانت خلفهم تلك المدفعية المرعدة ابدأ . وكان
ذلك كله ضرورياً لكي 'يجرح امثال هؤلاء الرجال في الظهر . إن أحد

* وهو مؤلف من كيس للهواء مصنوع من جلد مزيت ومنظى بقماش من صوف متصل
بفوهة انبوبة ينفخ بواسطتها المازف فيمتلي الكيس هواء ، ويتصل به مزمار ذو
ثقوب مختلفة لتوقيع الانغام .

دروعهم ، وقد ثقبته عند صفيحة الكتف اليسرى طلقة مسدس ، محفوظة في مجموعة متحف واترلو .

ان امثال هؤلاء الفرنسيين لا يبارحهم غير امثال هؤلاء الانكليز .
انه لم يعد نزاعاً . لقد أمسى ظلاماً ، هيجاناً ، فورة نفوس وبطولات توقع الدوار في الرأس ، وإعصاراً من يريق السيوف . وفي لحظة ، لم يبق من فرسان الحرس الألف والاربعمئة غير ثمانئة . وخرت « فولر » وهو ملازمهم الاول صريعاً . واندفع « في » مع الرماحة وقناصة « لوفيفر دينوويت » . واحتل الفرنسيون نجد « مون سان جان » ، ثم فقدوه ، ثم عاودوا احتلاله . وترك الدارعون الحياطة لكي ينقلبوا الى الرجالة ، والاصح ان نقول ان هذه الجهرة الرهيبة كلها اضطرت من غير ان يُقتل ايّ من الفريقين الفريق الآخر . وواصلت المربعات صمودها . لقد سُنت اثنا عشر هجوماً . وقُتلت اربعة جياد تحت « في » . وانطرح نصف الدارعين على ارض النجد . ودام هذا الصراع ساعتين .
وزعزع الجيش الانكليزي على نحو راعب . ولا ريب في ان الدارعين كان خليقاً بهم ، لو لم توهن من عزائمهم تلك الصدمة الاولى التي اصابتهم اثر كارثة الطريق العائرة ، ان يسحقوا الوسط ، ويقرروا النصر . واذهلت هذه الحياطة الرائعة « كلينتون » الذي سبق ان رأى « تالافيرا » * و « باداغوز » ** . وأعجب ولينغتون بها على الرغم من انه كان ثلاثة ارباع منهزم ، إعجاباً بطولياً ، وقال في صوت خفيض :

- « باهر ! »

وافنى الدارعون سبعة مربعات من ثلاثة عشر ، وانتزعوا أو ستمروا ستين مدفعاً ، واستولوا على ستّ من ربات الافواج الانكليزية ، حملها

* مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون على الفرنسيين ، عام ١٨٠٩

** مدينة اسبانية استولى عليها الفرنسيون ، بقيادة الجنرال سوك ، عام ١٨١١

ثلاثة دارعين وثلاثة قناصين من الحرس الى الامبراطور ، امام مزرعة
« لايل آليانس » .

كان وضعُ ولينغتون يزداد سوءاً . لقد كانت هذه المعركة المعجبية
أشبه شيء ببارزة بين جريجين منغيطين يفقد كل منهما دمه كله ، ومع
ذلك فهو يواصل الكفاح والمقاومة . ايّ الفريقين سوف يسقط على
الارض قبل الآخر ؟

واستمر الصراع من اجل النجد .

الى ايّ مدى تقدمت الدارعون ؟ ليس في ميسور احد ان يجيب .
ولكن شيئاً واحداً لا يعتبره الريب : ففي اليوم الذي تلا المعركة
وُجد دارعٌ وجواده ميتين تحت هيكل قبان العشب المجفف في « مون
سان جان » عند ملتقى طرق « نيفيل » ، و « جيناب » ، و « لا
هولب » ، و « بروكسل » . وكان هذا الفارس قد اخترق الخطوط
الانكليزية . وإن واحداً من الرجال الذين انتشلوا هذه الجثة لا يزال
يحيا في « مون سان جان » . إنه يدعى دوهاز . ولقد كان آنذاك في
الثامنة عشرة من عمره .

واستمر ولينغتون انه هُزم . كانت الازمة وشيكة .

ولم يوفق الدارعون ، بمعنى ان الوسط لم يُسحق . كان كل من
الفريقين يجتلّ النجد ، ولم يكن ايّ منهما يجتله ، وفي الحق انه ظلّ
في المحل الاول في أيدي الانكليز . كان ولينغتون يملك القرية والسهل
الذي يتوجها . وكان « في » لا يملك غير القنّة والمنحدر . لقد بدا
كلّ من الفريقين راسخ الجذور في هذه التربة الفاجعة .

ولكن إضعاف الانكليز بدا أعضاءً . كان النزف الذي اصاب هذا
الجيش فظيماً . فقد طلب « كمت » ، في الجناح الايسر ، ان يُنجد
بعض الامداد . فاجابه ولينغتون : « مستحيل ، يجب ان نموت فوق
الارض التي فتحناها الآن ! » ، وفي اللحظة نفسها تقريباً - مصادفة

فريدة تصور الحسارة الفادحة التي حلت بالجيشين جميعاً - ارسل «ني» الى نابوليون طالباً ان يمدّه بقوة من الرجاله ، فصاح نابوليون : «رجالته ! ومن اين ينتظروني أن اجيئه بهم ؟ ايريد مني ان اخلفهم له ؟ » .

وعلى اية حال ، فقد كان الجيش الانكليزي هو الاشدّ مرضاً . ذلك بان الهجمات الضارية التي شنتها هذه الكتائب ذات الدروع الحديدية والصدور الفولاذية كانت قد سحقته الرجاله سحقاً . كان في وجود نفر قليل من الجند حول راية من الرايات اشارة الى موقع سرية من سرايا الجيش . وامست الافواج الآن تحت إمرة رؤساء (كابيتين) او ملازمين اولين . لقد حطم فصل «آلتن» ، وكان قد اصابه ضرر كبير في «لاهاي سانت» ، تحطيماً يكاد يكون كاملاً . وغطى البلجيكيون البواسل الذين انتظمهم لواء «فان كلوز» سهل الجاودار على طول طريق نيفيل . ولم يبق غير القليل القليل من رماة القنابل الهولنديين اولئك ، الذين انضموا الى صفوفنا عام ١٨١١ ، في اسبانية ، وقاتلوا ضد وليمغتون ، والذين انضموا عام ١٨١٥ الى صفوف الانكليز وقاتلوا ضد نابوليون . كانت الحسارة في الضباط بالغة . كان اللورد اوكسبريدج ، الذي دفن رجله في اليوم التالي ، قد اصيب بكسر في الركبة . واذا كان صراع الدارعين هذا قد ادى ، عند الجانب الفرنسي ، الى ان يصبح «دولور» ، و«ليرينيه» ، و«كولبير» و«دنوب» ، و«ترافير» ، و«بلانكار» عاجزين عن القتال ، فمن الجانب الانكليزي جرح «آلتن» ، وجرح «بيرن» ، وقتل «ديلانسي» ، وقتل «فان ميلن» ، وصرع «أومبتيدا» ، واصيبت هيئة اركان حرب وليمغتون كلها باعظم الحسارة ، وفالت انكلترة النصيب الاسوأ في هذا التوازن الدامي . كانت السرية الثانية من سرايا الحرس المشاة قد فقدت خمسة عُقداً ، واربعة رؤساء ، وثلاث رايات . وكان الفوج

الاول من فرقة الرجال الثلاثين قد فقد اربعة وعشرين ضابطاً ومئة واثني عشر جندياً . وكان اربعة وعشرون من ضباط القوات الاسكتلندية الجبلية قد جرحوا ، وثمانية عشر ضابطاً قد قُتلوا ، واربعمئة وخمسون جندياً قد ذبحوا . وكانت خيالة كومبرلانند الهانوفرية ، وهي سرية كاملة على رأسها « الزعيم هاكه » ، الذي حوكم فيما بعد وعزل ، قد انقلبت على اعقابها قبل بدء القتال ، وولت هاربة في غابة سوانثي ، ناشرة الذعر حتى بروكسل . ولم تكد الكارثات ، وشاحنات الذخيرة الحربية ، وناقلات الامتعة ، وعربات الاسعاف الملائى بالجرحى ، لم تكد هذه كلها ترى الفرنسيين يتقدمون ، ويقربون من الغابة ، حتى ولت على جناح السرعة . وصاح الهولنديون ، وقد انقضت عليهم سيوف الفرسان الفرنسيين : « الى القتال ! » . ومن « فيرت كوكو » الى « غرونديل » ، وعلى مسافة فرسخين تقريباً في اتجاه بروكسل ، غصت الطرق ، وفقاً لشهادة شهود لا يزالون احياء ، بالفارين من الجند . وكان هذا الذعر من الشدة بحيث بلغ البرنس دو كوندية * في « مالين » ولويس الثامن عشر في « غان » . وباستثناء الاحتياطي الضئيل المرتب صفوفاً متتابعة خلف المستشفى المقام في مزرعة « مون سان جان » ولواي « فيفيان » و « فانديلور » المواكبين للجناح الايسر ، لم يبق عند ولينغتون شيء من الحيلة . وكان عدد من المدافع ملقى على الارض مفكك الاجزاء . تلك حقائق يعترف بها سيبورن . ويذهب برينغل ، مبالغاً في الكارثة ، الى حد القول ان الجيش الانكليزي الهولندي لم يسلم منه غير اربعة وثلاثين الف رجل . واحتفظ الدوق الحديدي ** جهوده ، ولكن شفّته كانتا شاحبتين . وظن المفوض

* من امراء اسرة بوربون الفرنسية المالكة ، وكان قد هاجر من فرنسا عام ١٧٩٢ وشكل في كوبلنتز وعلى ضفاف الراين الجيش الموسوم بجيش دو كوندية .
** الدوق الحديدي Iron Duke هو اللقب الذي خلّع على ولينغتون لقوته الجسدية وإرادته التي لا تلين .

النسوي ، فينان ، والمفوض الاسباني ، آلافا ، اللذان شهدا المعركة الى جانب هيئة الاركان الانكلازية ، ان الدوق هالك لا محالة . وعند الساعة الخامسة سحب ولينغتون ساعته ، وسمع يفغم بهذه الكلمات الكالحة : « بلوخو ، او الليل ! » .
وفي هذه اللحظة تقريباً التمع صف من الحراب بعيد فوق الربى القائمة وراء فريشون .
تلك هي نقطة التحول في هذه المأساة العملاقة .

١١

دليل رديء لنابوليون ودليل جيد لبولوف

كلنا نعرف غاظة نابوليون الموجهة ؛ كان يرجو أن يصل غروشي*** ، فوصل بلوخو ؛ الموت بدلاً من الحياة .
إن للقدر مثل هذه الانحرافات . ففيما كان نابوليون ينتظر ان يتربع على عرش العالم ، اذا به يلمح جزيرة القديسة هيلانة .
لو ان راعي البقر الصغير الذي أوشد بولوف ، ساعد بلوخو الأيمن ، نصحه بأن ينطلق من الغابة التي فوق فريشون بدلاً من الغابة التي تحت

* Bulow جنرال بروسي (١٧٥٥ - ١٨١٦) شارك مشاركة فعالة في معركة ليبيغ وواترلو .

** Grouchy مارشال فرنسي (١٧٦٦ - ١٨٤٧) ، وقد عهد اليه عشية واترلو بمطاردة البروسيين المهزومين في ليني ، ولكنه تركهم ينجون بانفسهم ويلتحقون بالانكليز ، على حين ظل هو بعيداً عن ميدان المعركة . وقد أنشب على ترده هذا الذي يعدّه الفرنسيون إجرامياً تقريباً .

بلانسوا اذن لكان من الجائز أن يتغير شكل القرن التاسع عشر .
كان خليقاً بنابوليون ، في هذه الحال ، ان يكسب المعركة . ذلك
بأن ايما طريق غير الطريق الممتدة تحت بلانسوا كانت خليقة بأن تقود
الجيش البروسي الى واد تعجز المدفعية عن اجتيازه ، وإذن لما وصل بولوف .
ولو قد تأخر ساعة - بذلك يصرّح الجنرال البروسي موفلنج - لما
وجد بولوخر ولينغتون صامداً . « كان الحلفاء قد خسروا المعركة » .
كان وصول بولوف قد حان ، كما رأينا . وكان قد تأخر كثيراً .
لقد عسكر في الفضاء الطلق في « ديون لو مون » ، وانطلق عند
الضحى . ولكن الطرق كانت غير سالكة ، وكان فصيله يفوس في
الوحل . لقد ساخت المدافع في التلّم حتى مراكز دواليبها . والى
ذلك ، فقد تعيّن عليه أن يعبر الـ « ديل » * على جسر « فافر »
الضيق . وكان الفرنسيون قد أضرمو النار في الشارع المؤدي الى الجسر .
واذ لم يكن في ميسور عربات المؤن وناقلات المدافع أن تمرّ بين صفين
من البيوت المحترقة فقد اضطرّ الى الانتظار حتى 'تحمّد النيران . كان
النهار قد انتصف قبل ان يصل بولوف الى « شايل سان لامير » .
ولو قد بدأ القتال قبل ساعتين اثنتين اذن لانتهى في الساعة الرابعة ،
وإذن لبلغ بولوخر الميدان وقد كسب نابوليون المعركة . هكذا هي
هذه المصادفات الهائلة التي 'حفظت النسبة ما بينها الى لا نهاية لا نستطيع
ان ندرکها .

فمنذ الظهيرة كان الامبراطور قد لمح بمنظاره الحربي قبل أيّ من رجاله
جميعاً عند أقصى الافق شيئاً سمر انتباهه . وكان قد قال : « لاني ارى
هناك سحابة تبدو لي جيوشاً . » ثم سأل دوق دالماسية ** : « سولت ،

* La Dyle نهر في بلجيكة .

** هو اللب الذي عرف به « سولت » بعد معاهدة « تلسيت » التي وقت
عام ١٨٠٧ بين نابوليون ، وألكسندر الاول امبراطور روسيا ، وبروسية .

ماذا ترى نحو شايبل سان لامير ؟ ، وادار المارشال منظاره في ذلك الاتجاه ، واجاب : « خمسة آلاف رجل ، او ستة آلاف رجل ، يا مولاي . إنه غروشي من غير ريب . » وفي غضون هذا ، ظلّ ذلك الشيء جامداً وسط الضباب الكثيف . وفحصت مناظير اركان الحرب كلهم تلك « السحابة » التي اشار اليها الامبراطور . وقال بعضهم : « إنها كتائب تقف متمهله . » وقال معظمهم : « إنها اشجار . » والحقّ ان السحابة كانت جامدة لا تتحرك . وعهد الامبراطور الى فصل « دومون » المؤلف من خيالة خفيفة في استكشاف هذه النقطة الغامضة .

في الواقع ان بولوف لم يتحرك . كانت طبيعة قواته ضعيفة جداً ، ولم تكن قادرة على شيء . . لقد تعيّن عليه ان ينتظر جماع جيشه ، ولقد أمرَ بأن يركّز قواته قبل ان يتقدّم الى خط القتال . ولكن في الساعة الخامسة ، أصدر بلوخر أمره الى بولوف - وقد رأى الى الخطر يهدّد ولينغتون - بأن يشنّ الهجوم ، ونطق بهذه الكلمة الرائعة :

- « يجب ان نعطي الجيش الانكليزي فرصة للتنفس . »

وما هي الا برهة قصيرة حتى انتشرت فصائل « لوستين » ، و « هيار » ، و « هاكه » و « رايسيل » أمام فيلق « لوبو » ، وانطلقت خيالة الامير وليم البروسي من غابة باريس ، وكانت النار تأكل بلدة بلانسنوا ، وشرعت قذائف المدافع البروسية تتساقط كالمنظر حتى بين صفوف الحرس الاحتياطي خلف نابوليون .

١٢ الحرس

والبقية معروفة : غارة الجيش الثالث ، وتشوش المعركة ، وإرعاد ستة وثمانين مدفعاً على نحو مفاجيء ، وبجيء بيرش الاول مع بولوف ، وخيالة زابتن يقودها بلوخر بنفسه ، وارتداد الفرنسيين الى الوراء ، وطرْد ماركونيه ، من نَجْدِ أوهين ، وإخراج « دوروت » من « بابيلوت » ، ونكوص « دونزيلو » و « كيو » ، والمهجوم على قوات « لوبو » هجوماً جانبياً ، ومفاجأة كثنائنا المحطمة بمعركة جديدة عند هبوط الليل ، وانتقال الخط الانكليزي كله من الدفاع الى الهجوم وزحفه الى الامام ، والفجوة الهائلة التي حدثت في الجيش الفرنسي ، وتعاون المدفعية الانكليزية والمدفعية البروسية ، والافناء ، والكارثة التي حلت بمقدمة الجيش ، والكارثة التي حلت بالجنح ، ودخول الحرس خط القتال وسط هذا الانهيار الفظيع .

واذ استشعروا انهم ذاهبون لملاقاة الموت فقد صاحوا : « فليحي الامبراطور ! » وليس في التاريخ شيء يهز المشاعر اكثر من حشجة الموت هذه المتفجرة في هتافات .

كانت السماء محجوبة بالغيوم طوال النهار . وفجأة ، وفي هذه اللحظة بالذات - كانت الساعة الثامنة مساء - انقضت الغيوم عند الافق ، ومن خلال شجرات الدردار القائمة على طريق نيفيل تدفق ضياء الشمس المحتضرة الأحمر الكالغ . كانت هذه الشمس قد اشرقت ، صباحاً ، على اوسترليتز . وفي هذا الجهد الأخير ، كان كل فوج من أفواج الحرس يقوده جنرال . كان هناك « فرييان » ، و « ومبشيل » ، « روغيه » ، و « هارليه » ، و « ماليه » ، و « بوريه دو مورفان » . وحين

برزت قبعات رماة القنابل من الحرس - تلك القبعات الطويلة ذات الصفايح
النسرية - منقّة، مصطفة، رابطة الجأش، وسط دخان ذلك الصراع،
استشعر العدو الاحترام لفرنسة. لقد حسب انه رأى عشرين انتصاراً
تدخل ميدان القتال، منشورة الاجنحة، فاذا باولئك الذين كانوا
غاليين بحسبون انفسهم مغلوبين، فينقلبوا على أعقابهم. ولكن وليفتنون
صاح: « انهضوا، أيها الحرس، وسددوا النار اليهم! » ونهضت
سرية الحرس الأنكليزية الحمراء، الجائئة خلف الاسيجة، وصبت وابلاً
من القنابل على الراية المثلثة الالوان الحافقة حول نسورنا. واندفعوا
جميعاً الى امام، وبدأت الهزيمة الكبرى. واستشعر الحرس الامبراطوري
ان الجيش يتقهقر من حولهم في الظلام، كما استشعروا زلزلة الانهزام
المائلة. لقد سمعوا « الفواو! الفواو! » التي حلت محل « فليحي
الامبراطور! » ومع هروب الجند من ورائهم، استمروا في اندفاعهم
الى امام، تسحقهم المدافع اكثر فاكثراً، وبتلقفهم الموت أسرع
فأسرع عند كل خطوة. لم يكن ثمة لا مترددون، ولا جبناء. كان
النفر في هذه الفرقة يضاهي الجنرال بطولة. إن رجلاً واحداً من أفرادها
لم ينكص أمام الانتحار.

وتعرض « ني » يائساً، متحققاً بكامل عظمة الموت المرتضى،
لختلف المخاطر في هذه العاصفة. لقد قتل جواده الخامس من تحته. لقد
صاح والعرق يقطر منه، والنار في عينيه، والزبد على شفثيه، وقد
فكّت ازرار ستورته العسكرية، وقطعت احدى كتافيه على نحو جزئي
بضربة سيف من أحد الحرس الفرسان، واخترت قنبلة صفيحة التي
تمل نسرأ كبيراً، وسال الدم منه، وتلوث جسده بالوحل، واتشح
بالبهاء، ولوحت يده بسيف مكسور: « تعالوا وانظروا كيف يموت
ماوشال من مارشالات فرنسة في ساحة المعركة! » ولكن على غير
طائل. إنه لم يم. وعصفت به القسوة والغیظ. وطرح على « درويه

ديزلون ، هذا السؤال : « ماذا ! ألتَ تبذل جهدك لكي تموت ؟ »
 وصاح وسط هذه الرجالة كلها التي تسحق حفنة من الجند : « أليس ثمة شيء ،
 إذن ، من اجلي ؟ أوه ! اني أتمنى لو ان جميع هذه القذائف الانكليزية
 قد دُفنت في جسدي ! » يا لك من رجل بالس ! لقد ادُخِرْتَ للقنابل
 الفرنسية !

١٣

النكبة

كان الانهزام من وراء الحرس فاجعاً .
 لقد انكفأ الجيش 'فجاءة' ، ومن الجهات جميعاً في آن معاً ، من
 هوغومون ، من « لاهاي سانت » ، من بايلوت ، من بلانسوا .
 وأُتبع صيحة « خيانة ! » بصيحة « الفوار الفوار ! » ، إن الجيش
 المنحلّ امثله شيء بالثلج الذي يذوب . فكل شيء يلتوي ، ويتصدع ،
 ويقضض ، وبطفو ، ويتدحرج ، ويسقط ، ويتصادم ، ويسرع ،
 ويفوض . ويستعير « ني » جواداً ، ويشب عليه ، من غير قبعة ،
 او ربطة عنق ، او سيف ، وينطلق الى طريق بروكسل ممكاً
 بالانكليز والفرنسيين على السواء . انه يحاول الابقاء على الجيش . انه
 يدعوم الى العودة ؛ إنه يعتفهم ؛ إنه يصارع الهزيمة . ويفرّ الجند منه
 صائحين : « فليحي المارشال في ! » ونجيه سريتما « دوروت »
 وتروحان ، مذعورتين ، تتقاذفها سيوف الفرسان الالمان ونيوان ألوية
 « كبت » ، و « بست » ، و « باك » ، و « رايلانت » . والحق
 ان الهزيمة اسوأ المارك . فالاصدقاء يذبح بعضهم بعضاً لكي يفرّوا ،
 وكتائب الخيالة وافواج المشاة يسحق بعضها بعضاً ويشتت بعضها بعضاً ،

زَبَدُ المعركة الضخم . إن الفيضان ليجرف « لوبو » من ناحية ، و « ربي » من ناحية اخرى . وعبثاً يحاول نابوليون ان يُقيم بالبقية الباقية من حرسه سدوداً . عبثاً يقذف بكوكبة فرسانه الاحتياطية في جهد أخير . ويتقهقر « كيبوت » في وجه « فييان » ، و « كيلرمان » في وجه « فاندولور » ، و « لوبو » في وجه « بولاو » ، و « موران » في وجه « بيرش » ، و « دومسون » ، و « سويرفيك » في وجه الامير غليوم البروسي . ويخرّج « غوبو » الذي قاد خيالة الامبراطور تحقيقاً للمهمة التي عهد اليه بها ، تحت سنابك الخيل الانكليزية . ويسرع نابوليون الى الجنود المدبرين ، ويخطب فيهم ، ويحضّمهم ، ويهددهم ، ويتوسل اليهم . وتظلّ جميع تلك الافواه التي هتفت في الصباح « فليحي الامبراطور » فاعرةً مشدوهة . إن جنوده لا يكادون يعرفونه . وإن الخيالة البروسية ، التي أقبلت اللحظة ، لتندفع الى امام ، وتلقي بنفسها على العدو ، وتعمل سيوفها ، وتقطع ، وتحتزّ ، وتقتل ، وتبيد . إن الدوابّ المقرونة لتتب ، وإن المدافع لتعنى بنفسها ، وإن جنود القَطْر ليجلّتون الخيل من العربات ويمتطون متونها هارين ؛ وإن العربات لتطرح على الارض وقد انتصبت عجلاتها الاربع في الهواء ، فهي تعترض الطريق ، وهي تشارك في المذبحة . إن الجنود لينسحقون ، وإنهم ليُداسون . إنهم يمشون على الاحياء وعلى الاموات . إن الأذرع لمبتورة . وإن جبهة توقع الدوار في الرأس لتملأ الطرق ، والازقة ، والجسور ، والسهول ، والتلال ، والادوية ، والغابات ، التي غصّت بهذا الفرار يقوم به اربعون الف رجل . لقد أُلقيت الصيحات ، وأُلقي اليأس ، وأُلقيت الاكياس والبنادق في الجاودار : مجازةٌ شقّت مجدّ السيف . لم يعد ثمة رفاق ، ولم يعد ثمة ضباط ، ولم يعد ثمة جنرالات ، هلعٌ لا سبيل الى وصفه . كان « زايان » يُعمل السيف في جسم فرسة من غير ما عناء . وكان الأسود قد أصبحوا مجامير * . كذلك كان هذا الفرار .

* جمع يعمور . واليعمور دابة تشبه العنز .

وفي جيناب بُذلُ جهدٌ للعودة ، لتكوين جبهة ، للمقاومة . وجمع « لوبو » شمل ثلاثئة رجل . وكان مدخل القرية قد سُدّ بالمتاريس . ولكن ما ان انطلقت اول مجموعة من القذائف البروسية حتى عاودوا الفرار جميعاً ، وأسرَ « لوبو » . إن آثار تلك القذائف لا تزال تبدو اليوم على جدار مثلث جانبيّ عتيق من خربة قائمة الى يمين الطريق ، على مسيرة بضع دقائق من مدخل جيناب . وانقض البروسيون على جيناب ، وقد عصف بهم الغيظ من غير شك لهزال الفتح الذي تمّ لهم . وكان التعقب رهيباً . فقد اصدر بلوخر امره بالابادة . وكان « روغيه » قدوةً سيئة في هذا المضمار حين هدّد بالموت كل رامي قنابل فرنسي يسوق اليه أسيراً بروسياً . ولكن بلوخر فاق روغيه . فقد القي القبض على « دوهيزم » ، جنرال الحرس القتيان ، عند باب فندق في جيناب ، فسلم سيفه الى فارس من « فرسان الموت » ، فما كان من هذا الفارس إلا ان اخذ السيف وقتل الأسير . لقد أكمل النصر بذيح المغلوبين . فلنعاقب ، ما دمنا نحن التاريخ : لقد تسربل بلوخر بالعار . وكانت هذه الوحشية ذروة المكارثة . واجتازت فلول المنهزمين البائسة « جيناب » ، واجتازت « كاتر برا » ، واجتازت « غوزيلي » ، واجتازت « فران » ، واجتازت « شارلروا » ، واجتازت « توين » ، ولم تقف إلا عند الحدود . وأأسفاه ! ومن الذي كان يفرّ الآن على هذا النحو ؟ الجيش العظيم .

هذا الجنون ، هذا الهول ، هذا الانهيار الذي اصاب أسمى شجاعة 'قدّر لها ان تُدهش التاريخ ، أيمن ان يكون هذا كله من غير سبب ؟ لا . ان ظلّ يد يعني هائلة ليخيم على واترلو . إنه يوم القدر . لقد هيمنت قوة فوق الانسان على ذلك اليوم . ومن هنا ، فقد ان الرشد بالذعر . ومن هنا استسلام هذه النفوس الكبيرة كلها . لقد سقط اولئك الذين فتحوا اوروبة على الارض ، بعد ان لم يجدوا شيئاً اضافياً

يقولونه او يعملونه ، مستشعرين وجوداً رهيباً في الظلام . *Hoc erat in fatis* *
 في ذلك اليوم ، تغير مستقبل الجنس البشري . إن واتولو هي مفصل
 الباب الذي دار عليه القرن التاسع عشر . فقد كان زوال الرجل العظيم
 ضرورياً لمجيء القرن العظيم . ولقد تولى القيام بهذه المهمة كائنٌ ما ، لا
 يُناقش في ارادته . وهكذا يُفصح دُعر الابطال عن نفسه . إن في
 معركة واتولو اكثر من سحابة ، إن فيها شهاباً . لقد مرّ الرب من
 فوقها .

وفيما الليل يهبط على ساحة قرب جيناب أوقف « برنار » و « برتوان » ،
 بعد ان امسكا بذيل معطفه ، رجلاً شكساً ذاهلاً كالحج الوجه كان التيار
 قد استاقه حتى تلك النقطة ، ثم ترّجل وأمرّ زمام فرسه تحت ذراعه
 ورجع ادراجه وحيداً شارد النظرات نحو واتولو . كان هو نابوليون ،
 وكان يحاول الهجوم كرة اخرى : عملاقٌ يسير ، وهو نائم ، في فجرة
 هذا الحلم المنهار .

١٤

المربع الأخير

كانت بضعة مربعات من الحرس قد صمدت حتى الليل ، غير متحركة
 وسط تيار الانهزام ، فكأنها الصخور وسط المياه الجارية . لقد دنا
 الليل ، ودنا الموت ايضاً ، ولكنها انتظرت هذا الظلام المزدوج ،
 واستلمت غير متزعزعة لعناقه . كانت كل سرية ، وقد انعزلت عن
 سائر السرايا ، وانقطع كل اتصال لها بالجيش ، الذي كان ينهار في

« تعبير لاتيني من كلام هوراس مئاه : « ذلك ما كنت ارغب فيه » .
 وهو يذكر حين يتحدث عن أمنية يكون في تحقيقها استجابة لجميع الرغبات .

الجهات جميعاً - كانت كل سرية تموت وحدها . لقد اتخذت تلك السرايا مواقع لهذا الصراع النهائي : بعضها فوق روابي روسوم وبعضها في سهل « مون سان جان » . وهناك ، حشرت هذه المربعات الكالحة مهجورةً ، مغلوبةً ، فظيعةً - على نحو رهيب . كانت « أولم » * و « واغرام » ** و « جينا » *** و « فريدلاندر » **** تموت فيها .

وعند الفسق ، حوالي الساعة التاسعة مساءً ، وعلى سفح نجد « مون سان جان » لم يبق غير مربع واحد . في هذا الوادي المشؤوم ، وعند قعر ذلك المنحدر الذي تسلقه الدارعون والذي ازدحمت فيه الآن الحشود الانكليزية ، وتحت النيران المركزة التي صوتبتها مدفعية العدو المنتصرة ، وتحت عاصفة رهيبية من القذائف ، واصل هذا المربع القتال . كان يقوده ضابط مغمور يدعى كامبرون . وعند كل طلقة ، كان هذا المربع يتناقص ولكنه يردّ على النار . كان يردّ على قذيفة المدفع برصاص البندقية ، مضيقاً جدرانها الأربعة على نحو موصول . ومن بعيد ، كان الجنود الفارون يسمعون وسط الظلام - وقد وقفوا لحظةً لاهئين - هذا الرعد الكئيب يتضاءل .

وحين أمسى ذلك الفيلق مجرد حفنة من الرجال ليس غير ، حين أمسى رايهم مجرد خرقه ليس غير ، حين أمسى بنادقهم ، وقد

* Ulm مدينة من مدن ووتنبيرغ ، الدولة الألمانية القديمة ، وتقع على الدانوب واشتهرت بالمعركة التي دارت فيها (٢٠ تشرين الأول ١٨٠٥) بين النمويين والفرنسيين وانتهت بهزيمة القوات النموية ، يقودها الجنرال « ماك » Mack في وجه نابوليون .

** Wagram قرية في النمسا ، قرب فيينا ، حيث انتصر نابوليون انتصاراً باهراً على الأرشيدوق شارل ، في ٦ تموز ١٨٠٩ .

*** Jena مدينة ألمانية انتصر فيها نابوليون على البروسيين (١٤ تشرين الأول ١٨٠٦)

**** Friedland إحدى مدن بروسيا الشرقية ، وقد انتصر فيها نابوليون على الروس (١٤ حزيران ١٧٠٨) وعلى اثر هذه المعركة عقدت معاهدة تسليت الشهيرة .

أعوزتها الذخيرة ، مجرد عصيّ ليس غير ، حين امسى وكام الاموات اكبر من مجموع الأحياء ، دبّ في نفوس الفاتحين ضربٌ من الذعر المقدس حول هؤلاء الشهداء العظام ، واعتصمت المدفعية الانكليزية - وقد وقفت لتأخذ نفساً - بجبل الصمت . كان ذلك نوعاً من الاستراحة . ذلك بان هؤلاء المقاتلين وجدوا حولهم شبه جماعة من الاشباح ، وخيالات الرجال الداكنة على صهوات الخيل ، وصورة المدافع الجانبية السوداء ، والسماء البيضاء وقد تبدت من خلال الدواليب وعربات المدافع . لقد تقدم نحوهم رأس المنية الهائل الذي يلحعه الابطال دائماً وسط دخان المعركة ، وحدّق اليهم . لقد سمعوا في ظلمة الفسق شحن المدافع بالقذائف ؛ وطوقت القنائل المشعّة رؤوسهم وكأنها عيون الانوار في الليل ، وواكبت المدفعية الانكليزية جميع القضايب المزوّدة رؤوسها بقنائل لاطلاق النار من المدافع ، وفجأه انبرى جنرال انكليزي تأثر بتلك البطولة ، فأمسك بلحظة الموت المتدلّية فوق رؤوس هؤلاء الرجال ، وكان هذا الجنرال هو « كوفليل » عند بعضهم و « ميتلاند » عند بعضهم الآخر - وصاح مخاطباً اياهم : « ايها الفرنسيون البواسل ، استسلموا ! » فأجابه كامبرون : « خراء ! »

١٥

كامبرون

إن الاحترام للقاريء الفرنسي يقضي بأن لا نكرر على مسعاه كلمة قد تكون اروع ما نطق به فرنسيّ مدى الدهر . فمن المحظور علينا ان نتخلى عن الاسلوب الرفيع في التاريخ . ولكننا ، على مسؤوليتنا ، ننتهك حرمة هذا الحظر .

واذن ، فقد كان بين هؤلاء العالقة جبار ، إنه كامبرون .
واي شيء اعظم من ان تقول تلك الكلمة ، ثم تموت بعد ذلك !
لأنّ تقبُّلك الموت يعدل الموت . وليس الخطأ على هذا الرجل اذا كان
قد مُرّ وسط عاصفة من القذائف .

ان الرجل الذي كسب معركة واترلو ليس نابوليون المنقلب على
عقبه ، وليس ولينغتون المنكفيء في الساعة الرابعة ، اليائس في الساعة
الخامسة . وليس بلوخر الذي لم يقاتل قط . إن الرجل الذي كسب
معركة واترلو هو كامبرون ..

فلأن تفجّرَ مثل هذه الكلمة في وجه الصاعقة التي تقتلك يعني النصر .
ولأن تردّ على الكارثة بهذا الجواب ؛ أن تقول هذا للقدّر ؛ ان
يقدم عذبة القاعدة لأسد المستقبل ؛ أن تصفع بهذه الاجابة مطر
الليلة البايحة ، وجدار هوغومون الحائث ، وطريق أوهين
الغاز ، وتأخر غروشي ، ووصول بلوخر ؛ ان تكون ساخرآ
امام عتبة القبر ؛ أن تسلك وكأنك تريد ان نظل واقفاً بعد ان
يتحتم عليك السقوط على الارض ؛ ان تُفرق بمقطعين اثنين التحالف
الاوروبي ؛ أن تقدم الى الملوك هذه المراحض التي عرفها القياصرة من
قبل ؛ ان تجعل آخر الكلمات أولها بان تضمّ اليها مجد فرنسا ؛ ان
تختم واترلو ، في سفاهة ، بثلاثة المرفع * ؛ ان تُكمل ليونيداس **
بـ « رابليه » *** ؛ ان تلخص هذا النصر بكلمة عليا لا يمكن ان

* هو آخر ايام الكارفال عند الطوائف الفرية .

** ليونيداس الاول ملك اسبارطة من ٤٩٠ - ٤٨٠ ق . م وهو بطل فجاج ال
« تيرمويل » في تالية وقد دافع عنها ضد الفرس وليس معه غير ثلاثئة رجل . واذا
لم يستطع ملك الفرس ان يصدق ان في ميسور هذه الخفنة من الرجال ان تصده
عن سيبله يمث الى ليونيداس برسالة يقول فيها : « الق سلاحك ا » فكتب الاسبارطي
في ادنى الرسالة : « تما وخذها ا »

*** Rabelais الاديب الفرنسي الانساني الشهير (١٤٩٤ - ١٥٥٣) ولم يكن
يحد حرجاً في ان يضمن كتاباته بعض الالفاظ البذيئة .

تلفظ ؛ ان تخسر الميدان وتحتفظ بالتاريخ ؛ أن تكون الضحكة الى جانبك بعد هذه المجزرة كلها - أن تفعل ذلك كله شيء عظيم فائق كل حد .

إنها إهانة للصاعقة . وفي ذلك ما يسمو الى مرتبة العظمة الاشيلية . ان كلمة كامبرون هذه لتختلف أثراً كأثر الانقاص . انها انكسار قلبٍ بالسخرية ؛ انها طِفاح الحشرة الذي ينفجر . من الذي غَلَبَ ؟ ولينغتون ؟ لا . فلولا بلوخر لملك . بلوخر ؟ لا . فلو لم يبدأ ولينغتون لما كان في ميور بلوخر ان يُنهي . إن كامبرون هذا ، إن عابر اللحظة الاخيرة هذا ، إن هذا الجندي المغمور ، إن صفيير الحرب هذا المتناهي في الصغر ليحس بان ثمة كذبة في كارثة - شيء مرير على نحو مزدوج - وفي اللحظة التي كان ينفجر خلالها من الفيض 'تقدّم' اليه هذه السخرية اللاذعة : الحياة ! فكيف يستطيع ان يملك نفسه ؟ إنهم كلهم هناك ، ملوك اوروبه جميعاً ، والجنرالات السعداء ، والجوبتيرات * المرعدون . إن معهم مئة الف من الجنود المنتصرين ، وان خلف المئة الف ، مليوناً . إن مدافعهم ، وقد أشعلت فتائلها ، لتفجر أفواهاها . لقد داسوا الحرس الامبراطوري ، و « الجيش العظيم » باقدامهم . لقد سحقوا نابوليون ، ولم يبقَ غير كامبرون وحده . لم يبق احد غير حشرة الارض هذه لكي تحتج . ولسوف يحتج . ثم إنه يبحث عن كلمة كما يبحث المرء عن سيف . ويُزبد فمه ، فيكون هذا الزبد هو الكلمة . فأمام هذا النصر الاعجوبي المزيل ، امام هذا النصر الذي لا منتصرين فيه ، يتصدر هذا الرجل اليأس . انه يقاسي ضخماته ، ولكنه يستجلي عَدَمِيته ، فلا يزيد على ان يبصق عليه . واذا كان يروح تحت ثقل الارقام والقوة المادية ، يعثر في روجه على تعبير - الغائظ .

* جمع جوبتير ، او المشتري ، وهو في الميثولوجيا الرومانية أبو الآلهة وسيدم ؛ ويقابله « زيوس » عند الاغريق .

ونكرّر ما قلناه من قبل : إن قول ذلك ، إن عمل ذلك ، إن العثور على ذلك ، يجعل كامبرون هو المنتصر .

لقد نفذت روح الايام العظيمة الى هذا الرجل المغمور ، عند تلك اللحظة المشؤومة . ويجد كامبرون كلمة واترلو ، كما يجد روجيه دو ليل * المارسييز ، بألهام علويّ . ان ومضة من الساعة الالهية لتنتطق ، قتمر من فوق هذين الرجلين فيرتعدان ، فأما احدهما فينشد النشيد الأسمى ، وأما الآخر فيطلق الصيحة الفظيعة . وهذه الكلمة ذات السخرية الجبارة ، لا يقذف بها كامبرون في وجه اوروبه وحسب ، باسم الامبراطورية ، فجدير بهذا ان يكون قليلاً . إنه يقذف بها في وجه الماضي ، باسم الثورة . ونسمع تلك الكلمة ، ويكتشف الناس ، في كامبرون ، روح العرافة القديمة . لقد بدت وكأنها خطاب لدانتون ، او زارة لكليير . **

وردّا على كلمة كامبرون هذه أجاب الصوت الانكليزي : « النار ! » والتهب المدافع ، وارتجفت التلة ، ومن جميع الافواه النحاسية انطلق فيء من القذائف نهائيّ ، مروّع . والتف دخان عريض باهت البياض على ضوء القمر الطالع ، وحين تبدد الدخان لم يبق ثمة شيء . لقد أيدت تلك البقية الخفيفة ؛ لقد لقي الحرس حنقهم . كانت جدران المتراس الحيّ الاربعة قد انهارت ، فما يكاد المرء يتبين هنا وهناك اختلاجة بين الجنث . وهكذا قضت الفيالق الفرنسية ، وهي اكبر من الفيالق الرومانية ، سنجها ، في « مون سان جان » ، فوق ارض متقوعة بالمطر والدم ، في حقول القمح القاعة ، حيث يمرّ اليوم عند الساعة الرابعة

* Roger de l'alé وهو الذي وضع ، عام ١٧٩٢ ، نشيد فرسة الوطني ، المارسييز :

Marseillaise

** Kléber جنرال فرنسي (١٧٥٣ - ١٨٠٠) تولى قيادة الحملة الفرنسية على مصر بعد

عودة بوناپرت . وقد قتل بيد احد المالك .

صباحاً ، جوزيف الذي يقود عربة البريد من نيفيل ، صافراً مبتهجاً
وهو يُلهب حصانه بالسوط .

١٦

كم بارة في الليرة؟

إن معركة واترلو لغز . إنها مغلقة^١ دون أفهام الذين كسبوها والذين خسروها على السواء . لقد كانت في نظر نابوليون ، ذعراً * ولم يكن بلوخر ليبري فيها غير نار . أما ولينغتون فليس يفهم منها شيئاً . أنظر الى التقارير . إن البيانات الرسمية لمضطربة ، وإن الشروح لغامضة . الاولى تتلجلج ، والاخري تتلغم . لقد جزأ جوميني معركة واترلو ادواراً اربعة . وقسمها موفلنغ الى ثلاث من دورات الحظ . أما شاراً فكان هو وحده - برغم اختلافنا معه في الرأي ، في بعض النقاط - الذي ادرك بثاقب نظره الملامح المميزة لكارثة العبقرية الانسانية تلك في صراعها مع القدر الالهي . على حين ان سائر المؤرخين يعيهم البهاء ، فهم يتناسون طريقهم في ذلك الظلام . إنه في الحق يوم ساطع كالبرق ، يوم سقوط الملكية العسكرية الذي جرت وراءه - وبألدهشة الملوك ! - الممالك جميعاً ؛ يوم انهيار القوة ، وانهازم الحرب . وفي هذا الحدث ، الحامل طابع الضرورة فوق البشرية ، لم يكن دور الانسان شيئاً مذكوراً .

* « لقد اختتمت معركة ، وأكمل يوم ، وأصلحت مقاييس فاسدة ، وضحت للعد اتمارات أعظم - ولكن كل ذلك ضاع في لحظة من الذعر . »

(نابوليون ؛ آمالي سانت هيلانة .)

[هذه الحاشية منقولة عن الاصل الفرنسي]

أبؤدي انتزاع واترلو من ولينفتون ومن بلوخر الى انتزاع شيء من انكلترة
والمانيه ؟ لا . إن أياً من انكلترة المجيدة أو المانية الجلييلة ليست هي
المقصودة في مشكلة واترلو . ومن نعم السماء أن الشعوب لا تتأثر بمحظوظ
السيف الفاجعة . فلا المانية ، ولا انكلترة ، ولا فرنة حُجبت في غمد .
ففي هذه الحقبة التي كانت واترلو فيها صليلَ سيوف ليس غير ، كانت
المانية ترهو ، فوق بلوخر ، بـ « غوته » ، وكانت انكلترة ترهو ،
فوق ولينفتون ، بـ « بايرون » . إن نهضة فكرية واسعة لتمييز عصرنا ،
وإن لانكلترة وألمانية نصيباً رائعاً في هذا الفجر . إنها عظيستان لأنها
تفكران . وإن المستوى الذي يرفعان الحضارة اليه جوهريّ فيها . إنه
ينبثق من ذاتيهما ، لا من حادثة بعينها . إن التقدم الذي حققته في
القرن التاسع عشر لا ينبع من واترلو . فالشعوب المتبريرة وحدها هي
التي تنعم بنموّ مفاجيء بعد إحرازها نصراً ما . إنه صَلفُ السيول
الزائل وقد نفختها العاصفة . أما الشعوب المتمدنة ، وبخاصة في زماننا
هذا ، فلا يرفع من قدرها أو يحطّ منه حسن طالع قائدٍ عسكري أو
سوء طالعهِ . إن ثقلها النوعي في الجنس البشري لينشأ عن شيء أكثر
من الحرب . إن شرفها - والحمد لله - وكرامتها ، وضياؤها ،
وعبقريتها ، ليست ارقاماً يستطيع الابطال والفاخون - اولئك المقامرون -
ان يقدفوا بها في يانصيب المعارك . وكثيراً ما تكون المعركة الخاسرة
تقدماًً 'مجرز' . مقدار اقلّ من المجد ، يقابله مقدار أكثر من الحرية .
إن الطبل ليصمت ، وإن العقل ليتكلم . تلك هي اللعبة التي يربح فيها
الفريقُ الخاسر . فلنتحدث إذن عن واترلو ، في برود ، من الجانبين .
فلنرجع ما للعظّة الى الحظّة ، ولنرجع ما لله الى الله . ما هي
واترلو ؟ نصّر ؟ لا . إنها يانصيب .

يانصيب ربحته اوروبه ، ودفعته فرنة .

ولم يكن كثيراً ان يقام تمثال اسدٍ هناك .

وواترلو ، فوق هذا ، أعجب موقعة في التاريخ . نابوليون ووليفتون :
لنهما ليسا عدوين ، إنما نقيضان . فلم يُقِم الله في يوم من الأيام - وهو
المولع بالمتناقضات - مغايرة أكثر روعة ، والتقاء أشد خروجا على نسق
العادة . فمن جانب ، كانت الدقة ، والتبصر ، والهندسة ، والفتنة ،
والتقهقر المضمون ، والاحتياطي المقتصد فيه ، ورباطة الجأش العنيدة ،
وطريقة ثبته الجنان ، واستراتيجية تقوم على الاستفادة من الارض ، وفن
حربي يهدف الى اقامة الموازنة بين الافواج ، ومجزرة تساق الى خط
القتال ، وحرب تدار والساعة في اليد ، وعدم ترك شيء - على نحو
إرادي - للمصادفة ، وشجاعة كلاسيكية قديمة ، والضبط المطلق .
ومن جانب آخر ، كان الحدس ، والالهام ، والاعجوبة العسكرية ،
والغريزة فوق البشرية ، واللمعة الملتهبة ، وشيء خفي مجتق كالنسر ،
ويصق كالصاعقة ، وفن مدهش في اندفاع ينضح بالاحتقار ، وجميع
اعاجيب النفس البعيدة الغور ، والألفة مع القدر ، ودعوة النهر والسهل
والغابة والكثيب ، بل إكراهها بمعنى من المعاني ، على الخضوع ،
وذهاب الطاغية الى حد فرض طفئانه على ميدان المعركة ، والايان
بطالع مقرون الى العلم الاستراتيجي فهو يزيد ، ولكنه يكدره . كان
وليفتون « باريم » * الحرب ، وكان نابوليون « ميكال آنجها » ** ،
وهذه المرة غلب الحساب العبقري .

كان كل من الفريقين ينتظر شخصاً ما . وكان الحاسب الدقيق هو
الذي نجح . نابوليون انتظر غروشي ، فلم يجيء . ووليفتون انتظر
بلوخر ، وقد جاء .

إن وليفتون هو الحرب الكلاسيكية تنتقم . وكان نابوليون ، وهو
في فجره ، قد التقاها في ايطالية ، وهزمها بسمو . لقد فرّت البومة

* B.F.Barème رياضي شهير وضع جدول حسابات حاضرة للاستعمال ، عرف باسمه .
** ميكال آنج ، العبقري الايطالي الشهير ، وكان رساماً ، ونقاشاً ، ومعماراً وشاعراً في آن معاً .

المعجوز من وجه العقاب الشاب . ان الفنّ الحربي القديم لم يُصعق
 فحسب ، ولكنه أهين إهانة قاتلة . من كان هذا الكورسيكيّ ذو الستة
 والعشرين ربيعاً ؟ ما معنى هذا الجاهل الباهر الذي كان كل شيء ضده ،
 ولا شيء معه ، والذي لم يكن عنده مؤن ، ولا ذخائر ، ولا مدافع ،
 ولا احذية ، والذي كان من غير شيء تقريباً فليس معه غير حفنة من
 الرجال يواجه بها الحشود الغفيرة ، ومع ذلك فقد هجم على اوروبا
 المتحالفة وكسب ، على نحو غير معقول ، انتصارات كانت مستحيلة ؟
 من اين اقبل هذا المجنون الصاعق الذي وُفق من غير ان يأخذ نقساً
 تقريباً ، وفي يده مجموعة المقاتلين نفسها ، الى ان يسحق جيوش
 امبراطور المانية الحُمة ، واحداً إثر واحد ، منكساً « بوليو » *
 على « آلفينزي » ** ، و « وورمر » *** على « بوليو » ،
 و « ميلاس » **** على « وورمر » ، و « ماك » ***** على
 « ميلاس » ؟ من هذا الوافد الجديد على دنيا الحرب بوقاحة كوقاحة
 الكواكب ؟ لقد اصدرت المدرسة الحربية الاكاديمية حرماً ضده فيما هي
 تولي فراراً . ومن هنا تلك الكراهية الحقود التي ابدتها نظام الحرب
 القديم نحو الجديد ، والحسام الصحيح نحو السيف المتألق ، ورقة
 الشطرنج نحو العبقرية . وفي ١٨ حزيران سنة ١٨١٥ كانت لهذه الكراهية

-
- * Beaulieu جنرال نموي (١٧٢٥ - ١٨١٩) اشترك في حرب السنوات
 السبع ، وهزمه بونابرت في ايطالية .
 ** Alvinzy جنرال نموي (١٧٣٥ - ١٨١٠) هزمه بونابرت في آر كولا
 عام ١٧٩٦ وفي ريفولي عام ١٧٩٧ .
 *** Wurmsler جنرال نموي (١٧٢٤ - ١٧٩٧) هزمه بونابرت في كاستيفيليون من
 اعمال ايطالية .
 **** Melas جنرال نموي (١٧٢٩ - ١٨٠٦) هزم في مارانغو .
 ***** Mack جنرال نموي (١٧٥٢ - ١٨٢٨) وقد حاصره نابوليون في « أولم »
 فاستسلم هو وجنوده الثلاثون الفاً من غير قتال .

الكلمة الاخيرة ، وتحت « لودي » * و « مونتيلو » **
 و « مونتينيوت » *** و « مانتو » **** و « ماراغنو »
 و « آر كولا » ***** كتبت : واترلو . انتصار العادي ، وإنه
 لعذب في نفوس الاكثريات . وارتضى القدر هذه السخرية . ففي ساعة
 سقوطه وجد نابوليون نفسه امام « وورمر » كرة اخرى ، ولكن
 « وورمر » كان غض العود هذه المرة .

والحق انه لم يكن محتاجاً الى أكثر من تبييض شعر ولينفتون لكي
 يرى « وورمر » رأي العين .

إن واترلو معركة من الطراز الاول كسيبها قائده من الطراز الثاني.
 وإن ما ينبغي ان نعجب به في معركة واترلو هو انكلترة ، هو
 الصلابة الانكليزية ، هو العزم الانكليزي ، هو الدم الانكليزي . إن
 الشيء الرفيع الذي كان لانكلترة هناك - وأرجو ان لا يسوها ذلك -
 هو ذاتها . إنه لم يكن قائدها ، ولكن جيشها .

لقد وجّه ولينفتون ، في عقود عجيب ، رسالة الى اللورد بانورست ،
 صرح فيها بأن جيشه ، ذلك الجيش الذي قاتل في ١٨ حزيران ١٨١٥ ،
 كان « جيشاً بغيضاً » . فما رأي هذا المجتمع الداكن من العظام
 الدفينة تحت اخايد واترلو ، في ذلك ؟

لقد كانت انكلترة متواضعة ، اكثر مما ينبغي ، إزاء ولينفتون .

* Lodi مدينة في ايطالية اتت فيها بونابرت على النمويين عام ١٧٩٦

** Montebello قرية ايطالية هزم فيها النمويون مرتين ، الاولى على يد القائد لان Lannes سنة ١٨٠٠ والثانية على يد الجنرال فوري Forey عام ١٨٠٩ وانما يشير المؤلف الى الهزيمة الاولى.

*** Montenotte قرية في ايطالية ، اتت فيها بونابرت على قوات بوليو النموية عام ١٧٩٦

**** Mantoue مدينة ايطالية حصينة استولى عليها بونابرت عام ١٧٩٧

***** Arcola من اعمال ايطالية ، حيث هزم بونابرت النمويين وظهر بسالة شخصية
 فائقة (١٧ تشرين الثاني سنة ١٧٩٦) .

والواقع ان في تعظيم ولينغتون الى هذا الحد انتقاصاً من قدر انكلترة . فليس ولينغتون غير بطل مثل سائر الأبطال . ولكن هذه القوات الاسكتلندية الرمادية ، هؤلاء الحرس الفرسان ، هذه السرايا التي قادها « ميتلاند » و « ميتشيل » ، وهؤلاء الرجال الذين قادهم « باك » و « كيمبت » ، وهذه الحيالة التي على رأسها « بونسوني » و « سومرست » ، وهؤلاء الاسكتلنديون الجليليون العازفون على مزاميرهم تحت وابل القذائف ، وافواج « رايلانت » هذه ، وهؤلاء المهندون الجدد الذين ما يكادون يعرفون كيف يطلقون النار من البندقية ، والذين صمدوا في وجه افواج « إيسلنغ » * و « ريفولي » ** ولكن ذلك كله هو العظيم حقاً . لقد كان ولينغتون عنيداً ، وتلك موهبته ، ونحن لا ننتقص من قدرها . بيد أن اصغر جندي من جنوده الرجالة او من جنوده الحيالة تكثف عن صلابه لا تقل عن صلابته . كان الجندي الحديدي يعدل « الدوق الحديدي » . *** اما نحن ، فكلّ تمجيدنا ينصب على الجندي الانكليزي ، والجيش الانكليزي ، والشعب الانكليزي . واذا لم يكن بدءاً من إقامة نصب لذكرى انتصار ، فإن انكلترة هي التي تستحق هذا النصب . ولقد كان نصب واترلو خليقاً بأن يكون اقرب الى تمثيل الواقع لو رفع الى الفهم تمثال أمة ، لا وجه رجُل . ولكن انكلترة العظيمة هذه سوف تغضب لما سنقوله هنا . إنها لا تزال تحتفظ ، بعد عام ١٦٨٨ **** ، وهو عامها ، وبعد عام ١٧٨٩ *****

* Esaling قرية غوية ، انتصر فيها الفرنسيون على النمساويين سنة ١٨٠٩ .

** Rivoli قرية ايطالية هزم فيها بونايرت النمساويين سنة ١٧٩٧ .

*** يقصد ولينغتون .

**** هو العام الذي ثار فيه الشعب الانكليزي على الملك جيمس الثاني ، وخلعه .

وتعرف هذه الثورة بالثورة المجيدة . وقد كان من نتائجها اصدار البرلمان « بيان الحقوق » المشهور .

***** عام الثورة الفرنسية .

وهو عامنا ، بالوم الاقطاعي . إنها تؤمن بالحق الموروث ، وبنظام
المراتب . وهذا الشعب ، الذي لا يفوقه احد " قوة " ومجداً ، يستز
بنفسه كدولة لا كشعب . والانكليز يغالون في ذلك الى درجة تجعلهم
يخضعون ، بوصفهم شعباً ، خضوعاً إرادياً ، ويرثون عليهم لورداً من
اللوردات . فأما العامل فهم 'يمييزون ازدرائه ، وأما الجندي فهم يمييزون
جلده بالسياط . وغن نذكر أنه في معركة إنكرمان * انقذ
جندي ، برتبة رقيب ، الجيش كله ، في ما يبدو ، ومع ذلك فلم
يكن في مسور اللورد راغلان ** ان ينوته باسمه ، لأن المرتبة
العسكرية الانكليزية لا تسمح بأن يشاد في التقارير باسم أيما بطل لما
يصل الى مرتبة الضباط .

إن ما يعجبنا فوق كل شيء ، في واقعة مثل واترلو ، براعة الحظ
الاعجوبية . هطول المطر ليلاً ، جدار هوغومون ، طريق أوهين الفائرة ،
صمم غروشي عن صوت المدفع ، دليل نابوليون الذي يجده ، ودليل
بولوف الذي يهديه سواء السبيل - كل هذا الطوفان قد سبق على نحو
رائع عجب .

وعلى الجملة - ولنقل ذلك - فإن واترلو مذهبة أكثر منها معركة .
فبين جميع المعارك العظمى كانت واترلو هي صاحبة أقصر جبهة
بالنسبة الى عدد الجند الذين خاضوا غمرة القتال . فجبهة نابوليون ثلاثة
ارباع الفرسنج ، وجبهة ولينغتون نصف فرسخ *** واثان وسبعون الف
مقاتل في كل من الجبهتين . ومن هذه الكثافة انبثقت الهزيمة .
لقد أجري إحصاء أثبتت على ضوءه هذه النسبة : - الحسائر في

* Inkermann إحدى مدن القرم ، حيث هزم الفرنسيون والانكليز القوات
الروسية في معركة ضارية . (٥ تشرين الثاني ١٨٥٤)

** Raglan جنرال انكليزي (١٧٨٨ - ١٨٥٥) وقد قاد الجيش الانكليزي في

حرب القرم ، ومات بالكوليرا في حصار سيستوبول .

*** او ميلان وميل وكسف .

الرجال : في اوسترليتز، الفرنسيون ، اربعة عشر بالمئة ؛ الروس ، ثلاثون بالمئة ؛ النمسيون ، اربعة واربعون بالمئة . في واغرام ، الفرنسيون ، ثلاثة عشر بالمئة ، النمسيون ، اربعة عشر بالمئة . في الموسكوا ، الفرنسيون ، سبعة وثلاثون بالمئة ، الروس ، اربعة واربعون بالمئة . في بوتزين * ، الفرنسيون ، ثلاثة عشر بالمئة ، الروس والبروسيون ، اربعة عشر بالمئة . في واترلو ، الفرنسيون ، ستة وخمسون بالمئة ، الحلفاء ، واحد وثلاثون بالمئة . المعدل الوسطي في واترلو ، واحد واربعون بالمئة . مئة واربعة واربعون الف مقاتل ، ستون الف قتيل .

ويرين على ساحة واترلو اليوم ذلك الهدوء الذي هو ملك الارض ، دعامة الانسان المعصومة عن التأثر . إنها تشبه ايما سهل آخر .

يبد ان ضرباً من الضباب الوهمي ينبعث منه في الليل ، ولو ان مسافراً اجتاز به ، لو انه نظر ، لو انه اصغى ، لو انه حلم مثل فرجيل في سهول فيليبى ** المشؤومة ، إذن لاستبدت به هلوسة الكارثة . إن يوم ١٨ حزيران الفظيع ليشتمل له من جديد . وتتلأشى نلة النصب الاصطناعية ، ويتبدد هذا الاسد ، كائناً ما كان ، ويستعيد ميدان القتال حقيقته ، وتموج صفوف الرجال في السهل ، ويمبر الافق خبباً ضارياً ، ويرى الحالم الذاهل وميض السيوف ، وبريق الحراب ، وانفجار القنابل ، وقمازج الرعود الفظيع ، ويسمع ، مثل حشرجة في أعماق قبر ، ضجة « المعركة الطفيف » الغامضة . هذه الظلال هي رماة القنابل ، هذه البوارق هي الدارعون ، هذا الهيكل العظمي هو نابوليون ، هذا الهيكل العظمي هو ولينغتون . كل هذا وهمي ، ومع ذلك فهو يتصادم ويصطرع . وتغدو الاودية ارجوانية ، وترتجف الاشجار ،

* Bautzen مدينة المانية اشتهر فيها نابوليون على البروسيين والروس عام ١٨١٣ .
** في مقدونيا ، على مقربة من البحر ، حيث هزمت قوات انطونوس واوكتافيوس قوات بروتوس وكاسيوس عام ٤٢ ق.م .

ويعصف الفوران حتى بالسحب ؛ وفي الظلمة ، تبدو جميع هذه الروابي الوحشية - « مون سان جان » ، و « هوغومون » و « فريشون » و « بايلوت » ، و « بلانسوا » ، وكأنها متوتجة على نحو مضطرب بعواصف من الاشباح يفني بعضها بعضاً .

١٧

أينبغي لنا أن نستحسن واترلو ؟

إن ثمة مدرسة متحررة تتمتع باحترام كبير لا تبغض واترلو على الاطلاق . إننا لسنا من هؤلاء . فواترلو ليست ، عندنا ، غير موعده الحرية المشدوه . ولأن ينطلق نسر^١ كهذا من بيضة كهذه هو من غير ريب شيء غير متوقع .

ان واترلو - اذا وضعنا انفسنا في أعلى 'قن المسألة - هي عمداً انتصاراً مضاد للثورة . إنها اوروبة ضد فرنسة . انها بطرسبرج ، وبرلين ، وفيينا ضد باريس . انها « الوضع الراهن » *Statu quo* ضد المبادرة . انها ١٤ تموز ١٧٨٩ يُهاجم من خلال ٢٠ آذار ١٨١٥* . انها العدة التي أعدتها الممالك ضد الانتفاضة الفرنسية الجائعة . يجب ان يُباد ، آخر الامر ، هذ الشعب العريض الآخذ بأسباب الثورة منذ ستة وعشرين عاماً - هكذا كان الحلم . انها تضامن دوقات بروتيك ، ودوقات ناسو ، وآل رومانوف ، وآل هوتهزيرن ، وآل هبسبورغ مع آل بوربون . ان واترلو لتودف وراءها الحق^٢ الالهي . صحيح أن الامبراطورية ، وقد كانت ديكتاتورية ، أكرهت الملكية ، بالرجع

* هو اليوم الذي دخل فيه نابوليون باريس اثر عودته من منفاه بجزيرة البا .

الطبيعي للأشياء ، على ان تكون متحررة ؛ وأن نظاماً دستورياً قد انبثق - على نحو غير مباشر - عن واترلو ، مما أثار اعظم الاسف عند الفاتحين . والحق ان الثورة لا يمكن ان تُقهر ، وانها بسبب من كونها السهية المنشأ ومحتومة على نحو مطلق تعاود الظهور من غير انقطاع ؛ لقد ظهرت - قبل واترلو - في بونايرت يحطم العروش العتيقة ، وظهرت - بعد واترلو - في لويس الثامن عشر بمنح الدستور ويخضع له . لقد اقام بونايرت سائق عربية على عرش نابولي ، وأقام جندياً برتبة رقيب على عرش السويد ، مصطنعاً اللامساواة لأظهار المساواة . ولقد وقع لويس الثامن عشر ، بدووه ، في سان أووين ، على اعلان حقوق الانسان . أتريد ان تدرك ما الثورة ؟ سميتها تقدماً . أتريد أن تدرك ما هو التقدم ؟ سمته الغد . ان الغد يقوم بعمله على نحو لا يقاوم وهو يقوم به منذ اليوم . وهو يبلغ غاياته ، أبدأ ، بوسائل غير متوقعة . انه يستعمل ولينفتون لكي يضع « فوا » * الذي لم يكن غير جندي ، غير خطيب . ويسقط « فوا » في هوغومون ، ولكنه ينهض كرة أخرى على منبر الخطابة . وهكذا يمضي التقدم الى أمام . وليس من وسيلة تخطيء عند هذا العامل . انه يكتف وفقاً لعمله الالهي من غير ان يحار أو يقلق ، الرجل الذي اجتاز الالب بخطى عراض ، ومريض الـ « بير ايليزيه » العجوز الطيب المترنح . انه يفيد من المصاب بداء مفاصل الارجل كما يفيد من الفاتح في ؛ - الخارج ، ومن المصاب بداء مفاصل الأرجل في الداخل . ان واترلو ، بأعاقبتها تقويض العروش الاوروبية بحد السيف ، لم يكن لها من نتيجة غير مواصلة العمل الثوري من طريق أخرى . أما وقد انتهت مهمة ارباب السيوف ، فقد جاء دور المفكرين . ان العصر الذي رغبت واترلو في ان توفقه قد استأنف سيره وتابع طريقه . لقد قهرت الحرية هذا النصر المشؤوم .

* Foy جنرال فرنسي غطى انحطاب الجيش من اسبانية ١٨١٤ وجرح في واترلو (١٧٧٥ - ١٨٢٥)

وجماع القول الذي لا ريب فيه ان ذلك الذي انتصر في واترلو ؛ ذلك الذي ابتسم من وراء ولينفتون ؛ ذلك الذي حمل اليه عصي مارشالات أوروبا كلها وفيها ، كما قيل ، عصا مارشال فرنسا ؛ ذلك الذي كرت ، في ابتهاج ، عربات التراب الملأى بالعظام لاقامة رابينة الاسد ؛ ذلك الذي خط ، مظفراً ، فوق قاعدة التمثال تلك هذا التاريخ : ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ؛ ذلك الذي شجع بلوخر على ان يعمل السيف في رؤوس الجند الفارين ؛ ذلك الذي اطل على فرنسا ، من قمة نجد « مون سان جان » ، وكأنه يطل على فريسة ، لم يكن غير الثورة المضادة . إن الثورة المضادة هي التي غفمت هذه الكلمة المرذولة : التجزئة . حتى إذا وصلت الى باريس ، وأت فوهة البركان عن كذب . لقد استشعرت ان هذا الرماد يحرق قدميها ، فغيرت رأسها . لقد انقلبت على عقيها وهي تتلثم بدستور .

إن علينا ان لا نرى في واترلو إلا ما هو في واترلو . إنها خلوة من الحرية المقصودة او المتمتدة . ذلك ان الثورة المضادة كانت متحررة على نحو لا ارادي ، كما كان نابوليون ، بسبب من ظاهرة مقابلة ، ثورياً على نحو غير ارادي . في ١٨ حزيران ١٨١٥ أسقط روبسيير ، وكان بمثابة صهوة جواده ، عن السرج .

١٨

نكسة الحق الألهي

انتهت الديكتاتورية ، وانهار النظام الاوروبي كله . لقد غرقت الامبراطورية في ظلمة تشبه تلك التي غرق فيها العالم الروماني المحتضر . ولقد نهضت كرة اخرى من الهاوية كما نهضت ايام البرابرة . مع فارق وحيد هو ان بربرية عام ١٨١٥ ، التي ينبغي ان تدعى باسمها

الخاص ، الثورة المضادة ، كانت قصيرة النفس ، فما لبثت ان استبد بها
اللاهات ، ونسبت ما ارادت قوله . والواقع ان الامبراطورية - ويجب ان
نعترف بذلك - قد بُكي عليها ، وان الاعين التي بكت عليها كانت
باسلة . واذا كان المجد في الحسام الذي جعل صولجاناً ، فقد كانت
الامبراطورية هي المجد نفسه . لقد نشرت فوق الارض كل الضياء الذي
يستطيع الطفيان ان يمنعه - ضياء قائم . بل فلنذهب الى حد القول :
ضياء مظلم . واذا قيس بالنهار الحقيقي كان ليلاً . ولقد كان لزوال
الليل هذا مثلُ اثر الكسوف .

ورجع لويس الثامن عشر الى باريس . ومحا الرقص حلقات
حلقات في ٨ تموز * حماسة العشرين من اذار . لقد غدا الكورسيكي *
نقيض البيارني *** وامست راية قبة التويليري بيضاء . وارتقى المنفى
العرش . واتخذت منضدة هارتويل الصنوبرية مكانها امام الاربعة المزدانة
بزنابق لويس الرابع عشر . وتحدث الناس عن « بوفين » ****
و « فونتونوي » ***** وكاننا وقعنا امس ، بعد ان آلت الشيخوخة
باوستوليتز . وتآخى المذبح والعرش في جلال . وتوطد في فرنسا وفي
القارة شكل من اشكال المجتمع التي لا يكاد الشك يتطرق الى انها
تمتعت باعظم قسط من الامن في القرن التاسع عشر . واصطنعت اوروبة

* يوم سقوط نابوليون واعادة اسرة بوربون الى العرش في شخص لويس الثامن
عشر ، سنة ١٨١٥ .

** أي نابوليون بونابرت .

*** Béarnais نسبة الى الـ Béarn وهي مقاطعة فرنسية قديمة في نثار قدر لها
بواسطة هنري الرابع ان توحد فرنسا عام ١٦٠٧ والبيارني هو هنري الرابع رأس
اسرة بوربون .

**** Bouvines في الشمال الفرنسي حيث هزم فيليب اوغت الامبراطور اوتون
الرابع الجرمانى ، سنة ١٢١٤ .

***** Fontenoy من اعمال بلييكة حيث هزم البارشال دوساكس الانكليز
والهولنديين في ١١ نوار سنة ١٧٤٥ .

شعار القبعة الابيض . وغدا تريستايون * شهيراً . وظهر رمز
non pluribus impar كرة اخرى في اشعة واجهة ثكنات الـ «كي دورسيه» .
 فحيثما كان من قبل حرس امبراطوري ، كان بيت احمر . وكان قوس
 كاروسيل ، وقد أثقل بالانتصارات المكسوبة على نحو اخرق ، وأمسي
 غريباً في هذا العهد الجديد ، وأخذه في اغلب الظن بعض الحجل من
 مارانغو وآركولا - قد انسلت من المسألة بتمثال دوق آنغوليم . وكانت
 جبانة « لا مادلين » ؛ وهي مقبرة عام ٩٣ العمومية ، مغطاة بالرخام
 واليشب ** ، اذ كان وفات لويس السادس عشر وماري
 انطوانيت في ذلك الثرى . وفي خندق الـ «فينسين» برز من التربة نصب
 من انصبة المدافن يعيد الى الذاكرة ان دوق آنغولين *** مات
 في الشهر نفسه الذي توج خلاله نابوليون . والواقع ان البابا بيوس السابع ،
 الذي قام ببهمة التكريس هذه ، قبيل وفاته ، قد بارك السقوط في
 سكون ، كما بارك الصعود . وفي شونبرون كان خيال صغير في الرابعة
 من عمره ، وكان من الشغب ان ينادى ملك رومة . وانما تمت هذه
 الاشياء كلها ، وعاد هؤلاء الملوك الى عروشهم ، ووضع سيد اوروبة
 في قفص ، وامسى النظام Régime القديم هو النظام الجديد ، وغيّر كل
 ظلام الارض وكل ضياء الارض مكانها ، لانه في اصيل يوم من ايام
 الصيف قال احد الرعاة لرجل بروسي في غابة : « مُرّ من هنا لا من
 هناك ! » .

كان عام ١٨١٥ هذا ضرباً من نيسان مظلم . لقد اتخذت الحقائق

* Trestallon احد زعماء المصابات الملكية ، وقد عاث فساداً في ضواحي
 « نيم » و « اوزيس » .

** اليشب : حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه اصفى منه .

*** Duc d'Enghien (١٧٧٢ - ١٨٠٤) ابن لويس هنري جوزيف ، أمير
 كونديه ، وقد امر نابوليون به فاقتيد الى باريس وقتل رمياً بالرصاص في فينتين .

العتيقة السقيمة السامة ، أشكالاً جديدة . فتروج الكذب ثورة ١٧٨٩ ؛
وتقتع الحق الإلهي بدستور ؛ وأضحت التلفيقات دستورية ؛ واصطنعت
الاحقاد ، والحرافات ، والمواربات ، بفضل المادة ١٤ المشدودة الى القلب ،
طلاء من الحرية . ثعابين تبدل جلودها .

كان نابوليون قد عظم الانسان وصقره في آن معاً : ففي ظل
هذا العهد الماديّ العظيم تلقى المثل الأعلى (Idéal) اسم الايديوجية
(Idéologie) الغريب . وانما لقلّة نبصر خطيرة ان يعمل رجل عظيم على
نحويل المستقبل الى هزأة . ومع ذلك ، فان الشعوب - هذا الغذاء
الذي يلتهمه المدفع ، والذي هو مولع اعظم الولوع بالمدفعي - راحت
تبحث عنه . أين هو ؟ ماذا يعمل ؟ وقال زائر لأحد مشوّهي مارانفو
وواترلو : « لقد مات نابوليون . فصاح الجندي : « هو قد مات !
أوافق أنت من ذلك ؟ » لقد تحدت الخيالات هذا الرجل المهزوم .
كان قلب أوروبا ، بعد واترلو ، مظلماً ولقد ظل شيء هائل فارغاً ، فترة
طويلة ، بعد زوال نابوليون .

وطرح الملوك انفسهم في هذا الفراغ . وأفادت أوروبا العجوز من
ذلك لكي تتخذ شكلاً جديداً . لقد عقدت تحالفة مقدسة . (Sainte Alliance) *
وكانت ساحة واترلو المشؤومة قد قالت مقدماً « بيل آليانس »
(Belle Alliance) **

وفي حضرة أوروبا هذه العتيقة المجددة ، وتجاهها ، أخذت في الظهور
ملامح فرنسا جديدة . لقد برز المستقبل الذي كان موضع سخيرة

* هي التحالف التي عقدت عام ١٨١٥ بين روسيا والنمسا وبروسيا لمواجهة النزعات
التحررية والقومية في إيطاليا والمانيا .

** حيث كان نابوليون على رأس قواته في واترلو . راجع تفصيل مواقع الجند
اثناء هذه المعركة في الفصل الرابع من هذا الكتاب الاول ، وعنوانه (A) .
والتجاور اللفظي واضح بين اسم هذا الموقع La Belle Alliance واسم تلك التحالف
La Sainte Alliance

الامبراطور . وكان على جبينه هذا النجم - الحرية . وتلفتت نحوه عيون الاجيال الناشئة المنتهبة . ومن عجب ان الناس أولعوا في آن واحد بهذا المستقبل ، الحرية ، وبهذا الماضي ، نابوليون . كانت الهزيمة قد عظمت المغلوب . وبدا نابوليون ، وقد سقط ، أسى من نابوليون وفي يده مقاليد السلطة . وعصف الذعر بأولئك الذين انتصروا . وفرضت انكاثرة الحراسة عليه بواسطة هودسون لوف * على حين راقبته فرنسة من خلال « مونشينو » . وأمسّت ذراعاه المتصالبتان قلقاً للعروش . ودعاه الكسندر ** أرقى . وإنما نشأ هذا الذعر من مقدار الثورة التي انطوى عليها صدره . وهذا هو تفسير النزعة التحررية البونابرتية وعذرها . لقد زلزل هذا الشبح العالم العتيق . ولقد حكم الملوك ، في تضايق ، وصخرة « القديسة هيلانة » تلوح لهم في الافق .

وفيما كان نابوليون يعالج سكرات الموت في لونغوود كان الستون الف رجل الذين صُرعوا في ساحة واترلو يُنتنون في هدوء ، وقد انتشر شيء من سلهم في العالم . ومنهم صنع مؤتمر فيينا معاهدات ١٨١٥ ، ودعت اوروبه ذلك « العودة الى الاصل » . تلك هي واترلو .

ولكن ما ضرت اللانهاية ؟ إن هذه العاصفة كلها ، هذه السحابة كلها ، هذه الحرب ، ثم هذا السلم ، وهذا الظلام كله لا تفتق لحظة واحدة ضياء تلك العين التي لا حد لها ، والتي تتساوى أمامها أحقر الحشرات الواثبة من طليعة عشب الى طليعة عشب بالنسر المخلق من برج الى برج في كاتدرائية نوتر دام .

* Hudson Lowe جنرال انكليزي (١٧٦٩ - ١٨٤٤) عمل سجاناً لنابوليون في « سانت هيلانة » وكان قاسياً غير انساني .

** هو الكسندر الاول قيصر الروسيا وخضع نابوليون اللدود ، وقد تول الحكم من عام ١٨٠١ - ١٨٢٥

ساحة المعركة ليلاً

لنعدّ ، فتلك ضرورة من ضرورات هذا الكتاب ، الى ساحة القتال المشؤومة .

في ليل ١٨ حزيران ١٨١٥ كان القمر بدرآ . وهذا الضياء ساعد بلوخر على القيام بمطاردته الضارية ، وكشف عن آثار الفارين ، وأسلم هذه الحشود البائسة الى الفرسان البروسيين الظمأى الى الدماء ، ومدّ يد المساعدة الى المجزرة . إن الليل ليقدم أحياناً مثل هذا العون الفاجع الى النكبات .

وحين أطلقت آخر قذيفة من قذائف المدفع ظل سهل « مون سان جان » خاوياً .

واحتل الانكليز معسكر الفرنسيين ؛ فلقد جرى العرف بأن يؤكّد النصر بالنوم في سرير المهزوم . وأقاموا معسكرهم الطلق حول روستوم . أما البروسيون ، المتعقبون الفلول المنهزمة مطلقي العنان ، فقد اندفعوا الى أمام . وقصد ولينفتون الى قرية واترلو لينشيء تقريره وبقدمه الى اللورد باتورست .

وإذا كان قولهم *Sic vos non vobis* * قد انطبق في يوم من الايام انطباقاً كاملاً فليس من ريب في أن انطبائه ذاك كان على قرية واترلو هذه . إن واترلو لم تفعل شيئاً ، ولقد ظلت على بُعد نصف فرسخ من القتال . لقد قذفت « مون سان جان » بالمدافع ، وأحرقت هوغومون ، وأحرقت بابيلوت ، وأحرقت بلانسوا ، وانتزعت « لا هاي سانت »

* من كلام فيرجيل ، باللاتينية ، ومعناه : « وهكذا تعمل انت وعملك ليس لك » . وقد ذهب مثلاً يصور حالة من يحظى بتعويض أو بشرف هو من حق غيره .

إثر غارة عنيفة ، وشهدت « لا بيل آليانس » التقاء الفاتحين . ومع ذلك فنحن ما نكاد نعرف هذه الاسماء . لقد استبدت وارتلو ، التي لم تُسهم في المعركة ايّ إسهام ، بالشرف كله .

نحن لسنا من اولئك الذين يجدون الحرب ، وحين تسنح الفرصة ننص على حقائقها . إن للحرب جمالات مروّعة لم تُخفها قط . ولكن لها ايضاً ، كما ينبغي ان نعترف ، بعض البشاعات . ومن ادعى تلك البشاعات الى الدهش تعرية الموتى ، بعد النصر ، تعرية عاجلة . إن اليوم الذي يلي معركة ما ، يبرز فجراً دائماً على جثث عارية .

من الذي يفعل ذلك ؟ من الذي يدنس النصر على هذا النحو ؟ ما تلك اليد البشعة الحقيّة التي تنزلق الى جيب النصر ؟ من هم اولئك النشالون الذين يقضون مرادهم ، في جرأة ، إثر المجد ؟ إن بعض الفلاسفة ، وفولتير واحد من هؤلاء ، ليؤكدون أنهم على وجه الضبط أولئك الذين أحرزوا النصر . انهم هم أنفسهم - وفقاً لقول هؤلاء الفلاسفة - فليس ثمة أيما تبديل . إن اولئك الواقفين على ارجلهم هم الذين يسلبون أولئك المنظرحين أرضاً . إن بطل النهار هو خفّاش الليل . وعلى أية حال ، فان للرجل الحق في ان ينهب ، بعض الشيء ، جثة كان هو صانعها .

أما نحن فلسنا نعتقد ذلك . إن جني الغار وسرقة الخذاء من رجل ميت يبدوان لنا شيئاً مستحيلاً صدوره عن يد واحدة . هناك أمرٌ واحدٌ لا ريب فيه ، وهو أنه بعد الفاتحين يَفِدُ اللصوص . ولكن فلنضع الجندي ، وبخاصة الجندي المعاصر ، بعيداً عن هذه التهمة . لكل جيش ذيل ، وهنا ينبغي ان يُحصر الاتهام . خفافيش نصف كل منها قاطع طريق ونصفه الآخر متدلل دنيء ، وجميع ضروب الطير الليلية التي يلبها هذا النسق الذي ندعوه الحرب ، ولا بسو بذلات عسكرية لم يشتركوا في القتال قط ، ومرضى زائفون ، وعرج مخيفون ، ورجال

مريبون يملكون محلات تباع الاطعمة والاشربة للجنود ويندفعون مع زوجاتهم في بعض الاحيان على عربات صغيرة لكي يسرقوا ما يبيعون ، وشحاذون يقدمون انفسهم كادلاء الى الضباط ، وخدم عاكر ، وسالبو جنود - كل هؤلاء كانوا يتبعون الجيوش الزاحفة في الايام الحالية - فنحن لا نتحدث عن العصر الحاضر - الى درجة تجعلهم يُدعون في اللغة الفنية « الجند المتخلفين » . وما من جيش أو شعب كان مسؤولاً عن هؤلاء المخلوقات . لقد تكلموا الايطالية ولحقوا بالألمان ؛ وتكلموا الفرنسية ولحقوا بالانكليز . وإنما بيد واحد من هؤلاء الحثاء ، وهو « متخلف » اسباني كان يتكلم الفرنسية ، قتل المركيز دو فيرفاك غدراً - وقد خُدع برطاته « البيكاردي »* التي لا تفهم وظنه واحداً من جنودنا - وُسلبَ في ساحة المعركة نفسها خلال الليلة التي عقت انتصار « سيريزول »** ومن سلب الجند نشأ سالبو الجنود . ولقد أحدثت الحكمة البغيضة : عش على عدوك هذا الجذام الذي لا يقوى على شفاة غير نظام قاسٍ . إن ثمة شُهرات خادعة . فنحن لا ندرى دائماً لماذا يتمتع بعض الجنترالات ، برغم انهم كانوا عظاماً ، بشعبية كبيرة . فقد فتن جنود « تورين »*** به لانه كان يميز السلب والنهب ؛ والاذن باقتراف الشر جزء من كرم النفس ؛ ولقد كان تورين كريماً الى درجة أباح معها إضرام النار في « البالاتينات » وإعمال السيف في رؤوس أهلها . وإنما يلحق بالجيوش عدد من « سالي الجند » يقل أو يكثر تبعاً لقسوة القائد

* نسبة الى بيكارديا ، وهي مقاطعة فرنسية قديمة في اقصى الشمال ، وعاصمتها آميان .
** Cériseles قرية ايطالية ، حيث هزم الفرنسيون القوات الاسبانية والامبراطورية عام ١٥٤٤ .

*** Turenne مارشال فرنسة (١٦١١ - ١٦٧٥) ، وقد اشتهر بفتحه للاراس خلال شتاء ١٦٧٥ .

العام أو لينه . فلم يكن لـ « هوش » * و « مارسو » ** جند متخلفون ، ولم يكن عند ولينغتون - ونحن نقرّ له بذلك في سرور - غير عدد قليل منهم .

وعلى أية حال ، ففي ليل الثامن عشر من حزيران سلب الجند . كان ولينغتون قاسياً ، وكان قد أصدر أمره بأن يُقتل أيما رجل يلقى عليه القبض متلبساً بذلك الصنيع . ولكن السلب داء يعسر استئصاله . فقد كان سالبو الجند يسرقون في إحدى زوايا الميدان ، فيما كانوا يُقتلون رمياً بالرصاص في زاوية أخرى .
كان القمر « مشؤوماً » فوق هذا السهل .

فحوالى منتصف الليل كان رجل يطوف بطريق أوهين الفائرة ، او يدبّ عليها ، على الاصح . كان مظهره يدل على انه واحد من هؤلاء الذين وصفناهم اللحظة ، ليس بانكليزي ولا فرنسي ، وليس بفلاح ولا جندي . كان غولاً اكثر منه انساناً ، جذبه رائحة الجثث ، وقد حسب السرقة نصراً ، فاقبل لسلب واترلو . كان يرتدي جلباباً هو ، جزئياً ، بونس عسكري ، وكان قلقاً وجريئاً ، وكان يتقدم الى امام ويتلفت الى وراء . من كان هذا الرجل ؟ لعل الليل عرف أعماله اكثر مما عرفها النهار . ولم يكن عنده جراب ، ولكن كانت له جيوب واسعة من غير شك تحت بونسه . وبين الفينة والفينة كان يتمهل ، ويتأمل السهل من حوله وكأنما كان يريد ان يستيقن من ان احداً لا يراقبه . ثم انحنى فجأة ، وهزّ فوق الارض شيئاً صامتاً لا حراك به ، وبعد ذلك نهض وانسلّ هارباً . لقد كان في انزلاقه ، وفي ملاحه ، وفي اياماته السريعة الخفية ما جعله يبدو مثل اشباح الغسق تلك التي

* Hoche جنرال فرنسي (١٧٦٨ - ١٧٩٧) وكان من اعظم وجوه الثورة وأكرمها .

** Marceau جنرال فرنسي (١٧٦٩ - ١٧٩٦)

تألف الخرائب ، والتي كانت الاساطير النورمندية القديمة تدعوها
« الرانجات » .

ان بعض الطيور الليلية المدعوة « طول الساق » لتحدث مثل هذه
الظلال السود في المستنقعات .

ولو قد قدر لعين ان تحترق ، في انتباه ، هذا الضباب كاه اذن
لرأت على مسافة ما ، عربية صغيرة من عربات بانمي الاطعمة والاشربة
للجند ، وقد وقفت وكأنها مخبئة خلف البيت الحرب القائم على طريق
نيفيل عند زاوية الطريق من « مون سان جان » الى « برين لالو » .
واذن لرأت ان تلك العربية مغطاة بالصفاف المطي بالقطران ، وانها
مقرونة الى فرس حقيرة جائعة تقضم القراص من خلال شكيبتها . وفي
هذه العربية كان ضرب من امرأة جالسا على بعض صناديق الامتعة
وبعض الصرر . ولعله كانت ثمة صلة ما ، بين هذه العربية وذلك الرجل
الطائف بالمكان .

كان الليل صافياً . ولم تكن ثمة سحابة واحدة عند سميت الرأس .
وعلام يستولي المهم على القمر اذا كانت الارض حمراء ؟ انه ليحفظ
بياضه . كذلك هي لا مبالاة السماء . وفي المروج كانت الاغصان
التي كسرتها قذائف المدافع ولكنها لم تسقط بعد ان امسك بها اللعاب ،
تتايل في رفق مع رباح الليل . وحررت نسمة ، تكاد تكون نفساً ،
ذلك الدغل . وكان في العشب ارتعاشات بدأت وكأنها مفارقة الارواح
للاجساد .

وكان ميسوراً ان يُسمع وطء العسس الطائفين بالمعسكر الانكليزي ،
سماماً غامضاً ، في المدى البعيد .

وواصلت النيران التهام « هوغومون » و « لاهاي سانت » محدثة
شعلتين ضخمتين ، احدهما في الشرق ، والاخرى في الغرب ، وقد
انصل بها ، مثل عقد من الباقوت الاحمر منفرط ، في طرفيه الاقصيين

ياقوتان جريتان ، شريط ، نيران المعسكرات الانكليزية القائمة في الهواء
الطلق ، والممتدة في نصف دائرة هائلة فوق كتيبان الافق .
لقد تكلمنا على كارثة طريق اوهين . وان القلب ليكاد يغور ذعراً
لمجرد التفكير في مثل ذلك الموت الذي ألمّ بهذا العدد كله من الرجال
الشجعان .

واذا كان ثمة شيء مروّع ، واذا كان ثمة حقيقة تفوق الاحلام فهي
هذه : ان تعيش ، ان ترى الشمس ، ان تملك القوة الرجولية كلها ،
ان تملك الصحة والبهجة ، ان تضحك في بسالة ، ان تندفع نحو مجد
يدعوك اليه متألقاً باهراً ، ان تحس في صدرك برثة تنفس ، وبقلب
يخفق ، وبارادة تعقل ، ان تتكلم ، ان تفكر ، ان ترجو ، ان تحب ،
ان تكون لك امّ ، ان تكون لك زوجة ، ان يكون لك اولاد ،
ان تنعم باشعة الشمس ، ثم تستشعر فجأة ، في لحظة ، في اقل من
دقيقة ، انك تنهار في هوة ، وتسقط ، وتندحرج ، وتسحق ، وتسحق ،
وترى سنابل القمح ، والازهار ، والاوراق ، والاغصان ، وتعجز عن
ان تلمسك بشيء ، وتحس بان حاسمك عديم الجدوى ، وان الرجال
تحتك ، والحيل فوقك ، وان تنتفض ابتغاء المقاومة ولكن عبثاً ، وقد
كسرت عظامك برفسة ما في الظلام ، وان تستشعر عقب قدم تجعل
عينيك تثبان من مجربهما ، وان تنهش نعال الحبل الحديدية وفي اسنانك
غيظ شديد ، وان تحتنق ، وتعوي ، وتلوى ، وان تكون تحت هذا
كاه وتقول لنفسك : لقد كنت رجلاً حياً منذ لحظة لبس غير .

هناك ، حيث حشرت هذه الكارثة المحزنة ، كان كل شيء صامتاً
الآن . كان خندق الطريق الفائرة مليئاً بالافراس وبالفرسان وقد
كدسوا على نحو مبهم معقد . تشابك فظيع . ولم يبق ثمة منحدر ؛
فقد جعلته الجثث على مستوى واحد مع السهل وارتفعت الى ضفتي
الطريق مثل مكيال قديم للشعير ، حسن الامتلاء ، مستوي السطح .

حشد من الموتى في القسم الاعلى ، ونهر من الدم في القسم الاسفل -
كذلك كانت هذه الطريق ليل الثامن عشر من حزيران ، عام ١٨١٥ .
وجرى الدم حتى الى طريق نيفيل ، واندفق من هناك في بركة واسعة
امام حطام الاشجار الذي يعترض الطريق ، في نقطة لا تزال تشاهد
الى اليوم . وإنما ألمت الكارثة بالدارعين ، كما نذكر ، عند النقطة المقابلة ،
في اتجاه الطريق المقبلة من جناب . وتناسبت كثافة ركام الجثث مع
عمق الطريق الفائرة . وحوالي الوسط ، في النقطة التي غدت عندها أقل
عمقاً ، هناك حيث مرّ فصيل دولور ، أصبحت طبقة الموتى أرق .
في هذا الاتجاه ، مضى ذلك الطائف الليلي الذي حدثنا القاريء عنه
منذ لحظة . لقد راح ينقّب وسط هذا القبر الهائل ؛ واجال بصره في
ما حوله . لقد استعرض الجند الأموات استعراضاً بشعاً الى حد لا
يوصف ؛ ومشى وقدماء تفوصان في الدم .

وفجأة كفّ عن السير .

فعلى بضع خطى امامه ، في الطريق الفائرة ، وفي النقطة التي انتهى
عندها ركام الموتى ، بدت من تحت هذا الحشد من الرجال والحيل يد
مفتوحة اخاءها القمر بشعاعه .

وكان في احدى اصابع هذه اليد شيء يلتمع . كان خاتماً ذهبياً .
وانحنى الرجل ، وظل منحنياً لحظة . حتى اذا نهض كرة اخرى لم
يبق ثمة خاتم في تلك اليد .

والحق انه لم ينهض بالمعنى الدقيق . لقد ظلّ في حال شاردة مجفلة ،
مولياً ظهره ركام الموتى ، دارساً الافق ، راکعاً على ركبتيه ، وقد
استند مقدّم جسمه كله على سبابتيه الاثنتين ، وارتفع رأسه ارتفاعاً
جزئياً يمكنه من اختلاس النظر فوق حافة الطريق الفائرة ليس غير .
إن ارجل ابن آوى الاربع تلامّ افعالاً بعينها .
حتى اذا تحير سبيله استوى واقفاً .

وفي تلك اللحظة سرت في جسمه اختلاجة . لقد احسّ ان يداً كانت
تمسك به من خلاف .

واستدار . كانت اليد المفتوحة ، التي أطبقت ، منسبنة بذييل برونسه .
ولو قد احسّ رجل فاضل بمثل ذلك اذن لاستبدت به الروع . اما هذا
الرجل فشرع يضحك .
وقال :

« اوه ، انه الميت ليس غير . انا أوثر رؤية الشبح على رؤية
الدركي ، » .

وعلى اية حال فقد تراخت اليد وخلت سبيله . إن القوة تنفذ وشيكاً
في القبر .
واضاف المطوف بالليل :

« آه ها ! أياكون هذا الميت حياً ؟ دعنا نرى ، » .
وانحنى كرة اخرى ، وبحث في ركام الاجساد ، مزبلاً كل ما كان
يعترضه . وقبض على اليد ، وامسك بالذراع ، وخلتص الرأس ، وصعب
الجد . وما هي الا لحظات حتى راح يجرّ في ظلمة الطريق الفاترة
رجلاً فاقد الروح ، او على الاقل ، فاقد الحس . كان دارعاً ، وكان
ضابطاً ، بل كان ضابطاً ذا رتبة ما . وكانت كتافة ذهبية ضخمة تبرؤ
من تحت درعه ، ولكنه لم يعد يعتمر بخوذة . كانت ضربة سيف ضاربة
قد شوّهت وجهه ، فليس يُرى فيه غير الدم . وفي ما عدا ذلك ، لم
يبدُ ان أياً من اوصاله قد كسرت . وقد شاء حسن الطالع - اذا
كان من الممكن اصطناع هذا التعبير هنا - ان تقوّس الجثث من فوقه
على منحور أنجاه من السحق . كانت عيناه مغمضتين .
وكان معلقاً على درعه صليب « جوقة الشرف » الفضي .
ونزع المطوف بالليل هذا الصليب فاختمى في هوة من تلك الهوى
التي كانت تحت برونسه .

وبعد ذلك تلمس جيب الضابط الخاص بالساعة ، فعثر فيه على ساعة ، فأخرجها . ثم بحث في صدرته فألقى محفظة دراهم فنشلها . حتى اذا انتهى الى هذه المرحلة من الغوث الذي كان يقدمه الى هذا الرجل المحتضر ، فتح الضابط عينيه . وقال في صوت واهن :

- « شكراً » .

كانت خشونة حركات الرجل الذي يلمسه يديه ، وبرودة الليل ، وتنفس الهواء النقي في حرية ، قد ايقظته من سباته . ولم يُجيب المطوّف بشيء . لقد رفع رأسه . وكان في ميسوره ان يسبح وقع اقدام في السهل ، لعله ان يكون وقع قدمي حارس ليلى يقترب منه .

وغمغم الضابط ، اذ كانت لا تزال في صوته حشرجة :

- « من الذي كسب المعركة ؟ »

فاجابه المطوّف :

- « الانكليز » .

واضاف الضابط :

- « ابحث في جيوبى . سوف تجد فيها محفظة دراهم وساعة .

خذهما » .

كان ذلك قد أتمّ من قبل .

وتظاهر المطوّف بتنفيذ الطلب ، ثم قال :

- « ليس هناك شيء » .

فاردف الضابط :

- « لقد سرقوهما مني . أنا آسف . ولولا ذلك لكنا لك » .

وامسى وطء الحارس الليلى واضحاً اكثر فاكثر .

وقال المطوّف ، آتياً بجرعة كعكة من يبغي الانصراف :

- « ها قد اقبلوا » .
 ورفع الضابط نفسه ، في ألم ، معتمداً على احدى ذراعيه ، وامسك به .
 - « لقد انقذت حياتي . فمن انت ؟ »
 فأجابه الطائف الليلي في سرعة ، وفي همس :
 - « لقد كنت مثلك في الجيش الفرنسي . ينبغي ان اذهب . اذا
 قبضوا عليّ فسوف يقتلونني رمياً بالرصاص . لقد انقذت حياتك ، فتدبر
 امرك الآن بنفسك » .
 - « ما ربتك ؟ » .
 - « رقيب » .
 - « وما اسمك ؟ »
 - « تينارديه » .
 فقال الضابط :
 - « انا لن انسى هذا الاسم ابداً . وانت اذكر اسمي . أنا أدعى
 بونيرمي » .

الكتاب الثاني

الدارعة «أوريون»

١

رقم ٢٤٦٠١ يصبح رقم ٩٤٣٠

كانت السلطة قد اقلت القبض على جان فالجان ، كرة اخرى .
ولسوف نعدّر لمرورنا بالتفاصيل المؤلة مرآ سريعاً ، مجتزئين بان
ننقل ههنا نبذتين ليس غير بما نشرته صحف ذلك العصر بعد الاحداث
الغريبة التي وقعت في مونتري سور مير .
وهاتان المقاتلان موجزتان بعض الشيء . ويجسن بالقاريء ان يذكر
ان « صحيفة المحاكم » Gazette des Tribunaux لم تكن قد ظهرت في ذلك
العهد .

ونحن ننسخ المقالة الأولى عن صحيفة « الراية البيضاء » . إنها تحمل
تاريخ الخامس والعشرين من تموز سنة ١٨٢٣ :

« كانت إحدى مقاطعات الـ « با دو كاليه » ، منذ قريب ، مسرح
حادثة نادرة حقاً . ذلك بان رجلاً غريباً عن المنطقة يُعرف بـ « ميو
مادلين » كان قد احيا منذ بضع سنوات ، وبفضل بعض الطرائق
المستحدثة ، صناعة محلية قديمة ، هي صناعة الحُرز الكهربيّ والزجاج
الاسود . وعاد ذلك عليه بثروة كما عاد بثروة ايضاً على المنطقة نفسها .
واعترافاً بخدماته عُين عمدة . ولكن الشرطة اكتشفت ان ميو مادلين
لم يكن غير محكوم عليه بالاشغال الشاقة هارب من العدالة ، وكان قد
أدين سنة ١٧٩٦ بتهمة السرقة ، ويدعى جان فالجان . ولقد أعيد جان
فالجان هذا الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . ويبدو انه قد
وُفق ، قبل اعتقاله ، الى ان يسحب من مصرف لافيت مبلغاً يزيد
على نصف مليون كان قد اودعه هناك وكان قد كسبه ، في ما يقال ،
من صناعته تلك ، على نحو شرعيّ جداً . ومنذ عودته الى سجن الاشغال
الشاقة في طولون لم يبتد احد الى المكان الذي حُبأ فيه جان فالجان
هذه الثروة . »

اما المقالة الثانية ، وهي اكثر اسهاباً ، فنترعة من عدد « الجورنال
دو باري » الصادر في التاريخ نفسه :

« لقد سبق محكوم سابق بالاشغال الشاقة الى محكمة الجنايات في
« فار » ، منذ فترة قصيرة ، في ظروف جدية بان تلفت النظر ، فقد كان
هذا الانيم قد وفق الى الافلات من يقظة الشرطة فغير اسمه ونجح في
حل المسؤولين على تعيينه عمدة لاحدى مدننا الشمالية الصغيرة . ولقد
انشأ في هذه المدينة صناعة زاهرة ، ولكن امره انكشف في النهاية والقي

القبض عليه بفضل نشاط السلطات العامة الذي لا يعرف التعب . وكانت له خلية هي احدى المومسات ، لم تحتل الصدمة فماتت لحظة اعتقاله . والواقع ان هذا الشرير ، الذي مُنح قوة جسدية هرقلية ، وجد سيلاً الى الفرار ، ولكن الشرطة ما لبثت ان اقلت القبض عليه ، بعد ثلاثة ايام او اربعة ايام من هربه ، في باريس نفسها لحظة كان يمتطي متن احدى تلك العربات الصغيرة التي تجوز المسافة ما بين العاصمة وقربة مونفيرماي (سين - ايه - واز) . ويقال بانه أفاد من هذه الايام الثلاثة او الاربعة التي قضاها مطلق السراح ليسهب مبلغاً ضخماً كان قد أودعه أحد مصرفينا الرئيسيين . ويقدر هذا المبلغ بستمئة الف او سبعمئة الف فرنك . ويذهب فرار الاتهام الى انه قد خبأه في موضع لا يعرفه احد غيره ، ولما تمكن السلطة من العثور على ذلك المال حتى الآن . وعلى اية حال ، فان المدعو جان فالجان قد مثل امام محكمة جنابات «قار» لسرقة ارتكبتها في الطريق العام ، والسلاح في يده ، منذ ثماني سنوات تقريباً ، ضد واحد من اولئك الاطفال الطاهرين الذين وصفهم بطريك فيرني بابيات خالدة يقول فيها :

« ... القبلين من سافوي كل عام ،

والذين تمحو يدهم في مهارة

تلك القنوت الطويلة المختنفة بالسغام . »

ولم يحاول قاطع الطريق هذا ان يدافع عن نفسه . ولقد اثبت ممثل التاج القدير البليغ ان اشخاصاً آخرين شاركوا في السرقة ، وان جان فالجان عضو في عصابة من عصابات السرقة في الجنوب . وهكذا أعلن جان فالجان مذنباً وصدر الحكم عليه بعقوبة الموت . ورفض هذا المجرم ان يستأنف الحكم لدى الحاكم العليا ، ولكن الملك ، برأفته التي لا تنضب ، تنازل فخفض عقوبته الى الاشغال الشاقة مدى الحياة . وفي الحال ، سيق جان فالجان الى سبعن طولون .

ولن ننسى ان جان فالجان كانت له في مونتروي سور مسير بعض العادات الدينية . وقد اعتبرت بعض الصحف ، وفيها صحيفة « الدستور » ، Le Constitutionnel ، هذا التخفيف نصراً للحزب الاكبركي .

وتغير رقم جان فالجان في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .
تمد صار يدعى ٩٤٣٠

ولنقل هنا ، لكي لا نعود الى ذلك كرة اخرى ، ان ازدهار مونتروي سور مير زال بزوال مسيو مادلين . لقد وقع كل ما كان قد تنبأ بوقوعه في ليلة الحمى والتردد تلك ، فما ان ولى هو حتى ولت الروح . فبعد سقوطه تمّ في مونتروي سور مير ذلك التوزيع الاناني لما يتبقى حين يسقط الرجال العظام ، ذلك التجزيء المشؤوم للمؤسسات المزدهرة الذي يجري كل يوم ، على نحو خفي ، في المجتمع البشري والذي لم يلاحظه التاريخ غير مرة واحدة ، لانه إنما تمّ بعد موت الاسكندر . فالجنرالات يتوجون انفسهم ملوكاً ، ويحتلّ مقدّمو العمال محلّ رجال الصناعة . ونشأت منافسات تمور بالحسد . واغلقت مصانع مسيو مادلين الرحبة ، وتركت الابنية للخراب ، ونشئت شبل العمال . لقد غادر بعضهم المنطقة وغادر بعضهم الصناعة . ومن ذلك الحين أنتج كل شيء على نطاق صغير بدلاً من ان يُنتج على نطاق كبير ، وابتغاء الربح لا ابتغاء الخير . لم يكن ثمة مركز ، فالمنافسة في كل مكان والضعيفة كذلك . كان مسيو مادلين يمين على كل شيء ، ويوجه كل شيء . فلم يكده يسقط حتى فاضل كل امرئ من اجل ذاته . لقد حلت روح الصراع محل روح النظام ، والمحوضة محل المودة ، والبغضاء المتبادلة محل رغبة المؤسس في خير المجموع . لقد تشابكت الحيوط التي نسجها مسيو مادلين وقطعت . وغدت الطرائق زائفة ، والنتاج دوناً . لقد قتلت الثقة ، وتناقص الزبائن ، وقلت الصفقات ، وانخفضت الاجور ، وتبطلّ العمال ، واقبل الافلاس . وعندئذ لم يبق شيء للفقراء . لقد احمى كل شيء .

وحتى الدولة لاحظت ان شخصاً قد سحق ، في ناحية ما . ففي أقل من اربع سنوات انقضت على قرار محكمة الجنايات بأن مسيو مادلين هو جان فالجان نفسه ، لمصلحة سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، تضاغت نفقات جباية الضرائب في مقاطعة مونتروي سور مير . وقد أشار مسيو فيليير الى هذه الحقيقة ، من على منبر المجلس ، في شهر شباط ، عام ١٨٢٧ .

٢

حيث نقرأ يتين من الشعر لعلهما من عمل الشيطان

وقبل ان نمضي الى ابعاد يحسن بنا ان نروي ، في شيء من التفصيل ، حادثة فريدة وقعت في الفترة نفسها تقريباً ، في مونفيرماي ، ولعلها ان لا تخلو من توافق مع بعض أحداث السلطات العامة .

إن في منطقة مونفيرماي خرافة عتيقة جداً يزيدها غرابةً ونفاسةً أن وجود خرافة شعبية في جوار باريس اشبه شيء بشجرة من شجرات الصبر * في سييريا . ونحن لسنا من اولئك الذين يحترمون ايما شيء لجرّد انه نادر . والى القاريء اذن خرافة مونفيرماي هذه : إنهم يعتقدون ، هناك ، أن الشيطان قد اختار الغابة ، منذ الزمان الاقدم ، مكاناً

* ضرب من الزنبقيات يكون على هيئة بقول أو أنجم أو شجيرات كثيرة المعابر ، خضرة ذات ازهار منتصبه متراصة ، يزرعه اهل الهند الغربية سياجاً للارض وتضع من اليافه جبال أو اقنعة خشنة . ويقصد المؤلف الى القول ان انتشار الخرافة الشعبية في جوار مدينة مثل باريس مستغرب كوجود شجر الصبر في اصقاع باردة مثل سييريا ، لان الصبر من نباتات البلاد الحارة .

يخبيء فيه كنوزه . وتؤكد نسوة المنطقة الصالحات انه ليس من النادر ان يلتقي المرء ، عند غروب الشمس ، في المناطق المنعزلة من الغاية ، رجلاً أسود ، يشبه سائق عربة أو حطاباً ، ينتعل حذاء خشبياً ، ويتردي بنظوناً وقميصاً من كتان خشن ، ويتميز بأن له على رأسه ، بدلاً من القلنسوة أو القبعة ، قرنين هائلين ، وهذا ما يجعل تعرفه شيئاً يسيراً حقاً . وهذا الرجل مشغول ابدأ في حفر الحُفْر . وهناك ثلاثة مواقف يمكنك أن تتخذها حين تلقاه .

الاول ان تقرب من الرجل وتحدث معه . وعندئذ تدرك ان هذا الرجل ليس غير فلاح ، وأنه يبدو أسود بسبب من الفسق ، وانه لا يحفر أيما حفرة ولكنه يجمع العشب لبقراته ليس غير ، وان ما نُظِنَا قرنين على رأسه ليسا غير مذراة زبل يحملها على ظهره ، وقد بدت أسنانها ، بفضل الفن الذي يصطنعه الليل في رسم المناظر البعيدة ، وكأنها نابذة من رأسه . وتقلب الى بيتك وتقضي نحبك في خلال اسبوع .

والثاني ان تراقبه ، وتنتظر حتى يحفر حفرة ، ويعاود ردمها ، ويمضي لسببه . وعندئذ تعدو في سرعة بالغة الى الحُفْر وتقبها من جديد وتُخْرِج الكنز ، الذي دفنه الرجل الاسود هناك من غير ريب . وفي هذه الحال تتخطفك المنيّة في خلال شهر . والثالث ان لا تتحدث الى الرجل الاسود على الاطلاق ، وان لا تنظر اليه على الاطلاق ، وان تطلق ساقيك للريح بأسرع ما تستطيع . وفي هذه الحال تموت في خلال العام .

واذ كانت لهذه المواقف جميعاً سيئاتها ، فان الموقف الثاني - الذي ينطوي على الاقل على بعض الحسنات من بينها انه يملكك كنزاً ولو مدة شهر واحد فعسب - هو عادةً الموقف الاكثر شيوعاً . ومن هنا ، فان أولي العزم من الرجال ، الذين لا يقوون فرصة صالحة ، كثيراً ما نبشوا ، كما يؤكد الناس ، تلك الحفر التي شقها الرجل الاسود ، وحاولوا ان يسرقوا الشيطان . ويبدو ان هذا الضنيع ليس راجحاً

جداً - على الاقل اذا كان لنا ان نؤمن بالتقاليد ونؤمن بخاصة بيتين من الشعر الملقَّز باللغة اللاتينية البربرية خلتها لنا في هذا الموضوع راهب نورمندي حيث كان يتعاطى السحر الى حد ما ، واسمه تريفون . وتريفون هذا مدفون في دير «سان جورج دو بوشرفيل» قرب رومان ، ويتولد من ضربيه بعض ضفادع الجبل .

واذن فان الباحث عن الكنز يبذل جهوداً ضخمة ، لأن تلك الحفر عميقة جداً في العادة . إنه يعرق ؛ إنه يحفر ؛ إنه يعمل الليل بطوله لان هذا الصنيع يُباشَر في ساعات الليل ؛ إنه يبذل قصبه ؛ إنه يستنفد شحمته ؛ انه يتلَم معوله ؛ وعندما ينتهي آخر الامر الى قعر الحفرة ، عندما يضع يده على «الكنز» ، ماذا يجد ؟ ما هو كنز الشيطان هذا ؟ إنه فلس - وفي بعض الاحيان ربال - أو حجر ، أو هيكل عظمي ، أو جثة دامية ، واحياناً شح مطويّ أربع طيّات مثل ورقة في محفظة ، واحياناً لا شيء . وذلك ما يُعلنه ، في ما يبدو ، بيتا تريفون ، لقليلي التبصر الفضوليين :

Fodit , et in fossa thesauros condit opaca,

*As , nummos , lapides , cadaver , simulacra , nihilque . **

والذي يبدو ان الباحث عن الكنز ، في عصرنا هذا ، يجد بالإضافة الى ذلك ، قرنَ بارود مع 'كرات احياناً ، ومجموعة عتيقة من ورق اللعب الاسمر الشحيم كان واضحاً ان الشياطين لعبوا بها ، أحياناً اخرى . ولا يشير تريفون ايما اشارة الى هاتين اللقيتين الاخيرتين ، لانه عاش في القرن الثاني عشر ، وليس يبدو ان الشيطان كان من الذكاء بحيث يخترع البارود قبل روجر بايكون ** وورق اللعب قبل شارل السادس . والى هذا ، فأما امرئيه يلعب بهذا الورق بخسر ، من غير ريب ،

* وقد فصل المؤلف منها ، كما هو واضح ، في الفقرة السابقة .

** Bacon راهب الكليزي (١٢١٤-١٢٩٢) وكان من اعظم علماء القرون الوسطى .

كل ما يملك . اما البارود الذي في الوعاء فمن خصائصه أنه يفجر بندقيتك في وجهك .

والآن ، وبعد فترة قصيرة انقضت على اعتقاد السلطات ان المحكوم بالاشغال الشاقة المطلق السراح ، جان فالجان ، كان يطوّف - خلال فراره الذي دام بضعة ايام - في مونفيرماي ، لوحظ في تلك القرية نفسها أن معبّد طرقي عجوزاً يدعى بولاتروويل* صار له « ولوع » ، بالغابة . وزعم الناس في ذلك الجوار انهم يعرفون ان بولاتروويل قضى شطراً من حياته في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . كان خاضعاً لمراقبة الشرطة ، واذ لم يجد عملاً في مكان ما ، استخدمته الحكومة براتب منقوص كمعبّد للطريق الضيقة بين « غاني » و « لاني » .

وكان بولاتروويل* هذا رجلاً ينظر اليه اهل المنطقة شزراً . كان يوقر الناس اكثر بما ينبغي ، ويتواضع لهم اكثر بما ينبغي ، وكان يسارع الى نزع قلنسوته لكل انسان . كان يرتجف دائماً ويبتسم دائماً في حضرة رجال الدرك ، ولعله كان على صلة سرية بعصابات اللصوص ، كما تقول الشائعات ، فهو يُتّهم بأنه يكمن في زوايا الغابة حين يهبط الليل . ولم يكن ثمة ما هو في مصلحته غير كونه سكيراً .

واليك ما لاحظته اهل المنطقة :

منذ فترة غير بعيدة ، ترك بولاتروويل* ، في ساعة مبكرة ، عمله القائم على تقطيع الحجارة وصيانة الطريق ، ومضى الى الغابة حاملاً معوله . وكان الناس يلقونه ، حوالى المساء ، في اقصى بقاع الغابة الجرداء ، وفي اشد الآجام إجماشاً ، وقد بدت عليه سيما رجل يبعث عن شيء ، وحياناً سيما رجل يحفر 'حفرأ' . وحسبته الندوة الصالحات ، اول الامر ، بيلزيبوت* ، ثم عرفن انه بولاتروويل* ، ولم يزدن ذلك اطمئناناً ، على الاطلاق . وبدأ وكان التقاء الناس للعرّضي له بولاتروويل* ، كان يُقلقه إقلاقاً كثيراً . كان واضحاً انه كان يحاول

* اسم شيطان ، ويمتدّ رئيساً للارواح الشريرة في الكتاب المقدس .

ان يجتبيء ، وان في ما يعمله لغزاً .

وقالت اشاعات القرية : « من الواضح ان الشيطان قد ظهر ، وان بولاتروويل قد رآه ، فهو يبحث عن كثره . والحق انه هو الرجل المؤهل لسرقة الشيطان » . و اضاف الفولتيريون * قائلين : « أيقبض بولاتروويل على الشيطان أم يقبض الشيطان على بولاتروويل ؟ » واكثرت النسوة العجائز من رسم اشارة الصليب على انفسهن . و ايأ ما كان ، فان زيارات بولاتروويل الى الغابة ما لبثت ان انقطعت ، واستأنف الرجل عمله المعتاد فوق قارعة الطريق . و شرع الناس يتحدثون عن شيء آخر .

بيد أن نفرأ قليلاً احتفظوا بفضولهم ، ذاهبين الى ان المسألة قد تكون منظوية لا على كنوز الخرافة الاسطورية بل على اشيء نصيبها من الجدّ والوجود الماديّ اكبر من نصيب اوراق الشيطان النقدية ، والى ان معبد الطرق قد اكتشف السرّ ، من غير ريب نصف اكتشاف . وكان اكنوم « انشغال بال » رجلاًن هما معلم القرية ، وصاحب الفندق تينارديه الذي كان صديق الجميع ، والذي ما كان يجد غضاضة في ان ينشء علاقة ودّية حتى مع بولاتروويل نفسه .

وقال تينارديه :

— « لقد كان في سجن الحكموم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ ايه ، يا السهي ! إن احدأ لا يعرف من هناك ، ومن سيكون هناك . »

وذات مساء لاحظ معلم القرية ان السلطات في العمود القديمة كان خليقأ بها ان لا تهمل التحقيق حول الغاية التي من اجلها ذهب بولاتروويل الى الغابة ، وان بولاتروويل هذا ، لو سلف به الدهر قليلاً ، اذن لا كرهه على ان يتكلم ، واذن لعذب عذاباً شديداً اذا اقتضت الحاجة ذلك ، وان بولاتروويل ما كان ليعتم بصمت لو أدخلت مألّة المياه في

* نسبة الى فولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير . ويقصد بالفولتيريين : الساخرون .

استجوابه ، مثلاً .

وقال تيناردييه :

« فلندخل مسألة الحجر في ذلك الاستجواب . »

وهكذا دَعَوَا معبّد الطرق العجوز الى سهرة وألحّا عليه في الشراب . وشرب بولاتروويل كثيراً ، ولكنه تكلم قليلاً . لقد أحسن الجمع ، في فن بارع ونسبة أستاذية ؛ ما بين ظمأ رجل مُسرف في الشراب ، ورسالة قاصٍ . ومع ذلك ، فبإعادة التجربة مراراً ، وبالربط ما بين العبارات الغامضة التي نددت منه وعصرها استنتج تيناردييه ومعلم القرية ما يلي :

ذات صباح ، بينا كان بولاتروويل منطلقاً مع الفجر لأداء عمله ، أخذته الدهش اذ رأى في احدى زوايا الغابة ، تحت دغل من الادغال ، مسحاة ومعولاً ، مخبأين كما قد يقول المراء هناك . بيد أنه ظنهما مسحاة الأب « سيكس فور » ، حمال الماء ، ومعوله فلم يفكر فيهما بعد . ولكنه عاد فرأى في مساء اليوم نفسه ، من غير أن يُرى ، اذ كانت مخبئاً خلف شجرة ضخمة ، « شخصاً ليس من ابناء تلك المنطقة على الاطلاق ، ولكنه هو ، بولاتروويل يعرفه معرفة جيدة » ، او كما ترجمها تيناردييه « وفاقاً قديماً من وفاق السجن اغاص بالحكوم عليهم بالاشغال الشاقة » - رأى شخصاً ينمطف من الطريق العام نحو الجزء الأشد كثافة من الغابة . ورفض بولاتروويل ، في عناد ، ان يذكر اسم الرجل الغريب . وكان هذا الشخص يحمل رزمة ، شيئاً مربعاً مثل صندوق كبير أو وعاء امتعة صغير . ودهش بولاتروويل ، وعلى اية حال ، فقد انقضت سبع دقائق او ثماني دقائق قبل ان يخطر له ان ينمقب « الشخص » . ولكن الاوان كان قد فات . كان الشخص قد انتهى الى الأجمة ، وكان الليل قد هبط ، ولم يوفق بولاتروويل الى ادراكه . وهكذا عقد النية على ان يراقب حواشي الغابة . « كانت

الليلة مقفولة ، وبعد ساعتين او ثلاث ساعات رأى بولاتروويل هذ
 الشخص ينبثق كرة اخرى من الغابة ، غير حامل هذه المرة صندوق
 الامتعة الصغير ذاك ، ولكن معمولاً ومسحاة . وتركه بولاتروويل يمر
 ولم يخطر له ان يعترض سبيله قط ، لانه قال في ذات نفسه ان لذلك
 الشخص من القوة ثلاثة اضعاف ما له هو ، وانه مسلح بمول ، وانه
 سوف يقتله في اغلب الظن اذا ما عرفه ، واذا ادرك الغريب ان امره
 قد انكشف . يا لها عاطفة جياشة تندفق في صدري رفيقين قديمين التقيا
 على غير موعد ! ولكن المول والمسحاة كانا شعاعاً من النور في نظر
 بولاتروويل . فسارع الى الادغال ، عند منبج الصباح ، ولكنه لم يجد
 لا المول ولا المسحاة . ومن هنا استنتج ان هذا الشخص حفر ، حين دخل
 الغابة ، حفرة بموله ، ودفن الصندوق في تلك الحفرة ، ثم عاود ردمها
 بمسحاته . واذا كان الصندوق اصفر من ان يحتوي على جثة ، فلا بد
 انه ينطوي على مال . ومن هنا بحثه المتواصل . وراى بولاتروويل
 الغابة كلها ، وسبر غورها ، وبحث فيها بكل دقة ، ونقب الارض
 حيثما بدت له مقلوبة منذ قريب . ولكن على غير طائل .
 انه لم يعثر على شيء . ولم يعد احد يفكر بذلك ، في مونفيرماي .
 ولكن بعض النسوة الثرثارات الصالحات ظلمن يقطن : « كونوا على ثقة
 من ان معبد طريق غاني لم يحدث كل هذه الضجة للاشياء . لقد كان
 للشيطان هناك ، من غير ريب » .

وفيه يظهر ان سلسلة الطوق الحديدي لا بد ان تكون
 قد خضعت لعمل إعدادي ما لكي تنكسر
 على هذا النحو بضربة مطرقة

وفي اواخر تشرين الاول ، من العام نفسه ، ١٨٢٣ ، رأى سكان
 طولون السفينة أوريون تعود الى مرفأهم ، بسبب العواصف الشديدة
 وابتغاء إصلاح بعض الحلال الذي أصابها ، وكانت تلك السفينة - التي
 استخدمت بعدُ في برست مراكباً للتدريب - تؤلف آنذاك جزءاً من
 اسطول البحر الابيض المتوسط .

والواقع ان هذه السفينة ، برغم ما ألمّ بها من 'كساح نتيجة' مخاشنة
 البحر لها ، أثارت هزةً من الفضول والاهتمام عند دخولها المرسى .
 وكانت ترفع علماً لست ادري ما هو على التحقيق ، ولكنه أهلها
 لترحيب نظامي يتألف من احدى عشرة طلقة ، ردّت عليها واحدةً
 واحدةً ، فاذا المجموع اثنتان وعشرون طلقة . ولقد قدر المقدرون
 ان العالم المتمدن ، في كل رجا من ارجاء الكرة الارضية ، يطلق كل
 اربع وعشرين ساعة ، مئة وخمسين الف طلقة مدفع غير مجدية تهدر
 على التحيات والمجاملات الملكية والعسكرية ، وتبادل الصخب الملائف ،
 وايماءات اللياقة ، وشكليات المرافيء والحصون ، وبزوغ الشمس وغروبها
 اللذين تحييها كل يوم جميع القلاع والسفن الحربية ، وفتح الموانئ
 واغلاقها ، الخ ... الخ ... فاذا كان ثمن الطلقة الواحدة ستة فرنكات بلغت
 نفقات ذلك تسعمئة الف فرنك يومياً ، او ثلاثمئة مليون فرنك سنوياً
 تذهب دخاناً . وليس ذلك غير بندٍ واحد . وفي الوقت نفسه يموت

الفقراء جوعاً .

وكانت سنة ١٨٢٣ هي السنة التي دعاها عصر عودة آل بوربون الى الحكم « عهد الحرب الاسبانية » .

وانتظمت تلك الحرب عدة حوادث في واحدة ، وعددأ غير يسير من الفرائد . كانت قضية عائلية كبرى من قضايا آل بوربون ؛ كان الفرع الفرنسي يساعد ويحمي فرع مدريد ، يعني انه كان يقوم بالواجب المفروض على الأرشيد ؛ ولقد عدنا عودة ظاهرية الى تقاليدنا الوطنية ، بمزوجة بالعبودية والخضوع لوزارات الشمال ؛ وكان دوق آنغوليم ، الذي خلعت عليه الصحف التحررية لقب « بطل آندوجار » يقيم ، في ملك مظفر يتناقض بعض الشيء مع نزعه السلمية ، الارهاب القديم الواقعي الى ابعاد الحدود الذي فرضه « المكتب المقدس » * المعادي لأرهاب الاحرار الوهمي ؛ وبُعثت جماعة اللاسراويل ** ، وبالأذعر الارامل ذوات الصداق ، تحت اسم الـ *descamisados* *** ؛ ووضع الملكيون المراقيل في طريق التقدم الذي نعتوه بالفوضوية ، واعترضت نظريات ٨٩ *** على نحو خشن ، وهي تتخذ سبيلها المقوقض ؛ وطاف أمرٌ اوروبي بالوقوف ، موجه الى الفكرة الفرنسية الخاصة بالثورة ، حول الكرة الارضية ؛ والى جانب ابن فرنسة ، الجنرال الأعظم ، انضوى البرنس دو كارينيان ، الذي أمسى في ما بعد شارل آلبيير **** ، تحت لواء صليبية الملوك هذه ضد

* *Saint - office* ويقصد به ديوان التفتيش . وقد اطلق هذا الاسم في الاصل على ديوان التفتيش الذي اقيم في رومة ، وهو الذي حكم على غاليليو بالموت .

** *Sans - culottes* وهو اللقب الذي خله الارستوقراطيون حوالى عام ١٧٩٢ ، على رجال الثورة الذين استعاضوا عن السروال القصير (الكولوت) بالبنطلون .

*** تعبير اسباني معناه « الذين لا قصان لهم » . وقد اطلق على جماعة من الثائرين الاسبان . والكلمة كما ترى عربية الاصل تتألف من اداة النفي (*des*) وكلمة « قيس » على صورة معرفة .

**** يقصد النظريات التي قالت بها الثورة (١٧٨٩)

***** *Charles - Albert* (١٧٩٨-١٨٤٩) امير من اسرة *Carignan* ، وهي فرع من اسرة سافوا ، تولى عرش سردينية عام ١٨٣١ وانتقد لومباردية من ريفعة النمساويين ، ثم هزمه النمساويون ، عام ١٨٤٩ ، وتنازل عن العرش لابنه عمانويل الثاني .

الشعوب بوصفه متطوعاً يحمل كتافتي رامي قنابل مصنوعتين من صوف أحمر ؛ واستأنف جنود الامبراطورية خوص المعارك ، ولكنهم كانوا بعد ثماني سنوات من الراحة قد شاخوا واكتأبوا وطوقوا قبعاتهم بالعصابة البيضاء ؛ ورفرف العلم المثلث الالوان في الديار الاجنبية بأيدي حفنة من الفرنسيين البواسل ، كما رفرف العلم الابيض * في كوبلنتز** قبل ثلاثين عاماً ؛ واختلط الرهبان بجنودنا ؛ وقهرت روح الحرية والتجدد برؤوس الحراب ؛ وأذلت المباديء بطلقات المدافع ؛ ونقضت فرنسا سلاحها ما كانت قد فعلته بروحها . والى هذا ، فقد كان زعماء العدو قد باعوا أنفسهم ، وكانت قواتهم مترددة ، وكانت المدن تحاصر بالملايين من الفرنكات ؛ ولم يكن ثمة أخطار عسكرية ، ومع ذلك فقد كانت الانفجارات ممكنة ، شأن كل منجم يقتحم ويحتل على حين غرة . ولم يُسْفَح غير قليل من الدم ، ولكن قليلاً من الشرف قد كسب . وسربل العار قلة قليلة ، ولكن المجد لم يكن من نصيب أحد . هكذا كانت هذه الحرب التي شنها امراء تحدرّوا من لويس الرابع عشر ، وقادها جنرالات انبثقوا من نابوليون . لقد كانت ذات مصير نفس ، فهي لا تُدعى حرباً كبيرة ، ولا تدعى سياسة كبيرة . وكانت بعض أحداث الحرب جديده . فالاستيلاء على تروكاديرو ، كان بالاضافة الى غيره من الاحداث ، عملاً عسكرياً موفقاً . ولكننا نكرر القول ان ابواق تلك الحرب ، اذا نُظِر اليها جملة ، كانت تطلق صوتاً متصدعاً ، وان هيئتها العامة كانت مريبة ، وان التاريخ يقرّ نفرة فرنسا من الاعتراف بابوتها لهذا النصر الزائف . ولقد بدا واضحاً ان

* هو العلم الملكي ، أما العلم المثلث الالوان فهو علم الثورة كما لا يخفى .

** Coblantz مدينة المانية تجمع فيها عام ١٧٩٢ النبلاء المهاجرون وانشأوا ما يسمون بجيش كونديه l'armée de Condé

بعض الضباط الاسبان المكلفين بالمقاومة استسلموا بأكثر مما ينبغي من اليسر ، وأن فكرة الرشوة انبعثت من فضل تفكير بالنصر . وتراءى وكان الجنرالات هم الذين كُتبوا ، لا المارك ؛ وان الجندي المنتصر قد رجع ذليلاً مهيناً . كانت حرباً متضائلة حقاً ، في ميسورك ان تقرأ عبارة « بنك فونسة » على طيات رايتها .

وقطب جنود حرب عام ١٨٠٨ ، الذين انهارت سرقطة تحت اقدمهم ذلك الانهيار الهائل ، لاستسلام الحصون على هذا النحو السهل عام ١٨٢٣ ، وتحسروا على بالافوكس * . إن مزاج فرنسة هو الذي يجعلها تؤثر ان تجد أمامها رجلاً مثل « روستوبشين » ** لا رجلاً مثل « بالتسيروس » ***

ومن جهة نظر أشدّ خطورة أيضاً - وجهة نظر يحسن بنا أن نؤكدها - أثارت هذه الحرب ، التي حطمت روح فرنسة العسكرية ، سخطَ الروح الديموقراطية . كانت مشروع إخضاع . ففي هذه الحملة ، كان هدف الجندي الفرنسي ، ابن الديموقراطية ، أن يفوز بنير يُثقل به أعناق الآخرين . تناقض مخيف . لقد وجدت فرنسة لكي توظف روح الشعوب ، لا لكي تخنقها . فمذ عام ١٧٩٢ لم تكن جميع ثورات اوروبة شيئاً غير الثورة الفرنسية ؛ كانت الحرية تشع من كل رجاً من ارجاء فرنسة . تلك حقيقة ساطعة سطوع الشمس في رابعة النهار . وأسمى هو الذي لا يراها ! إن بونابرت هو الذي قالها .

وإذن فقد كانت حرب عام ١٨٢٣ - وهي اعتداء على الامنة الاسبانية النجبية - اعتداء على الثورة الفرنسية في الوقت نفسه . كانت

* Palafox دوق سرقطة (١٧٨٠ - ١٨٤٧) وقد دافع دفاعاً باسلاً عن سرقطة عام ١٨٠٩ .

** Rostopchine رجل دولة روسي (١٧٦٣ - ١٨٢٦) كان حاكم موسكو عام ١٨١٢ وقد أمر باحراق المدينة عند دخول الفرنسيين اليها .

*** Ballesteros جنرال اسباني (١٧٧٠ - ١٨٣٢)

فرنسة هي التي اقترفت صنيع العنف الهائل هذا ، ولكن مكرهة .
لانه ، باستثناء حروب التحرير ، تعمل الجيوش كل ما تعمله من طريق
الاكراه . إن كلمتي الطاعة العمياء لتشيران الى ذلك . والحق ان
الجيش رائعة عجيبة من روائع التآلف ، حيث تكون القوة ثمرة مجموع
هائل من الضعف . وهكذا نستطيع ان نقرر الحرب التي تشنها الانسانية
ضد الانسانية على الرغم من الانسانية .

وقيا يتصل بآل بوربون ، كانت الحرب وبالأعلى عليهم . لقد اعتبروها
نجاحاً . انهم لم يروا قط اي خطر يكمن في محاولة قتل فكرة بأمر
عسكري . لقد زلّوا ، بذاجتهم ، الى حد جعلهم يُدخلون الى
كيانهم ، وكأنه عنصر قوة ، ذلك الوهن الهائل الناشئ عن ارتكاب
جريمة . لقد تسربت روح التردد ونصب الأشرار الى سياستهم . إن
بذرة عام ١٨٣٠ * كانت كامنة في عام ١٨٢٣ . فقد غدت الحملة
الاسبانية ، في مجالسهم ، حجةً لاتخاذ اجراءات العنف ، ولجك المؤامرات
تدعياً للحق الالهي . وفرنسة ، وقد وقفت الى اعادة الملك المستبد
الى اسبانية ، خليفة بأن لا تعجز عن اعادة الملكية المطلقة الى ديارها
هي . لقد وقعوا في هذه الغلطة الرهيبة وهي أنهم توهموا أن خضوع
الجندي يعني موافقة الامة . وهذا الروم يهدم العروش . يجب ان لا
ينام المرء ، لا في ظل شجرة من اشجار الاوباس** ، ولا في ظل
جيش من الجيوش .

ولكن فلنعد الى السفينة « اوربون » .

في اثناء العمليات التي قام بها جيش الامير القائد الأعلى ، كان
اسطول بحري يطوف في مياه البحر الابيض المتوسط . ولقد سبق

* هو العام الذي نشبت فيه الثورة ضد الملك شارل العاشر ، فخلع عن العرش
وحل محله لويس فيليب .

** شجرة تنمو في الهند وهي ذات عصير سام .

منا القول إن السفينة و أوريون ، كانت جزءاً من هذا الاسطول ،
وان تلاطم الامواج أكرهها على العودة الى مرفأ طولون .

إن في وجود سفينة حربية في مرفأ ما شيئاً خفياً يجذب الجماهير ويثير
فضولهم . ومرد ذلك الى انها ضخمة ، والجماهير تحب كل ما هو ضخم .

والحق ان الدارعة مظهر من مظاهر الصراع بين العبقريّة الانسانية
دقوى الطبيعة .

إن الدارعة لتتألف من اشد المواد ثقلاً ، ومن اكثرها خفةً في
وقت معاً ، لان عليها ان تقاوم ، في الوقت نفسه ، اشكال المادة
الثلاثة : الجامد ، والسائل ، والمايع . ان لها احد عشر مخلباً حديدياً
لتثبت بالصخر في اعماق البحر ، واجنحة وقروناً تزيد على عدد اجنحة
الفراشة وقرونها لكي تلتقط النسام في السحب . وان نفسها لينطلق من
خلال مدافعها المئة والعشرين وكأنه ينطلق من ابواب ضخام ، ويرد في
زهو على الصاعقة . ويناضل الاوقيانوس لكي يضلها في تشابه امواجه
المروع ، ولكن للدارعة بوصلتها ، التي هي روحها ، فهي ترشدها
أبدأ وتدها ابدأ على الشال . وفي الليالي الظلماء تحمل فوانيسها محل
النجوم . وهكذا فأنها تكافح الريح بالحبال والنسيج القني ، وتكافح
الماء بالحشب ، وتكافح الصخر بالحديد والنحاس والرصاص ، وتكافح
الظلام بالنور ، وتكافح لانهاية البحر بأبرة .

وليس علينا لكي نكون فكرةً عن هذه الابعاد الهائلة كلها التي
يكون مجموعها دارعة من الدوارع إلا ان نمرّ تحت مصنع من مصانع
السفن المثقفة ذات الادوار الستة ، في مرفأ بوسن ، أو مرفأ طولون .
إن السفن الجاري انشاؤها لثرى هناك تحت صناديق زجاجية ، إذا جاز
التعبير . فهذه العارضة الحشبية الهائلة هي عارضة الصاري ، وهذا العمود
الحشبي الضخم ، المنطرح على الارض والممتد الى ابعد من مدى البصر

هو الصاري الرئيسي ، ولو قد اعتبرته من جذره القائم في القعر الى رأسه الضارب في السحاب اذن لظهر لك ان ارتفاعه يبلغ ستين قامة ، وان محيطه عند قاعدته يبلغ ثلاثة اقدام . ويرتفع الصاري الرئيسي الانكليزي مئتين وسبعة عشر قدماً فوق خط العوم . ولقد كانت اساطيل اجدادنا تستعمل الجبال ، اما اساطيلنا فتستعمل السلاسل . والواقع ان لفّة السلاسل الخاصة بدارعة ذات مئة مدفع تبلغ اربعة اقدام طولاً ، وعشرين قدماً عرضاً ، وثمانية اقدام عمقاً . ومن اجل انشاء مثل هذه الدارعة ، ما مقدار الحطب الذي نحتاج اليه ؟ ثلاثة آلاف متر مكعب . إنها غابة تطفو على وجه الماء .

ومع ذلك فينبغي ان نذكر جيداً اننا لا نتحدث هنا الا عن السفينة الحربية كما كانت منذ اربعين سنة ، عن السفينة الشراعية البسيطة ، ذلك بان البخار - وكان آنذاك في طفولته - قد اضاف منذ ذلك الحين ، عجائب جديدة الى هذه المعجزة التي ندعوها البارجة الحربية . ففي ايضاً هذه مثلاً ، نجد ان البارجة المختلطة ذات المروحة جهاز آليّ سدّس نوقه قطعة من قماش قطني تبلغ مساحة سطحها ثلاثة آلاف متر مربع ، ومولد بخاريّ قوّته الفان وخمسة حسان .

ومن غير ان نتحدث عن هذه العجائب الجديدة ، نستطيع ان نقول ان سفينة لا كريستوف كولومبوس ، و « رويتر » * العتيقة هي رائحة من روائح الانسان الكهري . إن قوّتها لا تنضب شأن انفاص الانهابة . إنها تحتزن الريح في شراعها ، وانما لراسخة وسط اخلاط الامواج المائل . إنها تطفو وتمين .

ولكن ثمة لحظات تحطم فيها العاصفة عارضة الصاري البالغ طولها ستين قدماً كما تحطم القشة ، وتلوي فيها الريح ذلك الصاري البالغ

* Ruyter اميرال هولندي (١٦٠٧ - ١٦٧٦) جرت بينه وبين الاميرال الفرنسي دوكين Duquesne موقعة شهيرة ، في سيراكوس ، وقد مات على اثرها .

طوله اربعمئة قدم كما تُتلى القصة ، وتقتل فيها تلك المرساة التي
ترن أطناناً في شدة الامواج كما يفتل شصّ الصياد بين فكي سمكة
من سمك الكراكي ، وتطلق فيها تلك المدافع الجبارة زجرات نائمة غير
مجدية تقذف بها العاصفة الى الفراغ والى الليل ، وتفرق فيها كل تلك
القوة وكل تلك الجلالة في قوة اعظم وجلالة أسمى .

وكما أبرزت قوة هائلة لتنتهي الى ضعف هائل تقف عقول الرجال
متأمة . ومن هنا يجتشد اولئك الفضوليون في المرايء - من غير ان
يعلموا هم انفسهم لماذا على وجه الدقة - حول ادوات الحرب والملاحاة
الرائعة هذه .

واذن ، فكل يوم ، من الصباح حتى الماء ، كانت ارضة مرفأ
طولون تقطى بجهد من العاطلين والمضيعين اوقاتهم - كما يقولون في
باريس - وليس لهم من عمل غير النظر الى « اوريون » .

وكانت « اوريون » سفينة مريضة منذ عهد بعيد . ففي رحلاتها
السالفة كانت طبقات كثيفة من الحار قد تراكت على قعرها الى درجة
جعلتها تفقد نصف سرعتها . وكانت قد وُضعت في للعام الماضي ، في
حوض الترميم الجاف كي تكشف طبقات الحار عنها ، ثم انطلقت نحو
البحر من جديد . ولكن هذا الكشط كان قد آذى مثبتات قعرها .

وعند خط عرض جزائر الباليار كانت الواحها قد وهنت وانفجرت .
واذ لم يكن تغليف قاع للسفينة الخارجي بالنحاس معروفاً آنذاك ، فقد
اخذت المياه تتسرب اليها ، واصابتها على نحو مفاجيء ضربة عنيفة من
الاعتدال الفلكي نزعت أقواس جانبها الأيسر واحدى كوى مدافعها
وعطبت حامل جبل الصاري الامامي . وبعد ان مُنيت « اوريون »
بهذا الاذى كله ، أعيدت الى طولون .

وأقيت مرساتها قرب دار الصناعة . كانت مسلحة ، وكانوا يصلحونها .
ولم يكن هيكل السفينة قد أُوذي من المينة ، ولكن بضعة ألواح

كانت قد نزلت هنا وهناك ، وفقاً للعادة ، لتمكين الهواء من الدخول الى هيكلها .

و ذات صباح شهد الحشد الذي كان يجتمع اليها حدثاً .

كان الملاحون منهمكين في شدّ الاشرعة الى الصواري . و اذا بنجفير الصواري - المكلف بتناول الزاوية العليا من شرع الصاري الأعظم القائم في مينة السفينة - يفقد توازنه . و رآه القوم يترنح ، و أطلقت الحشود المجتمعة فوق رصيف دار الصناعة صيحةً ، و رجح رأس الرجل جسده ، و انتقل حول عارضة الصاري ، و قد انبسط يده نحو الاعماق . و فيما هو يهوي تعلق بالمرقاة الزائفة باحدى يديه ، اولاً ، ثم بيده الاخرى ، و ظل متديلاً على هذا النحو . و كان البحر ينبسط تحته على عمق يوقع الدوار في الرأس . و اثار صدمة سقوطه حركة عنيفة في المرقاة الزائفة كحركة الاراجيح . و تأرجح الرجل ، بقطعة الحبل هذه ، ذات السنين و ذات الشبال ، مثل حجر مقلع .

و كان الاندفاع الى نجده ينطوي على مجازفة مروعة . و لم يجزؤ احد من الملاحين -- و كانوا كلهم من صيادي الشاطيء الداخلين حديثاً في خدمة الاسطول - على القيام بهذه المحاولة . و في غضون ذلك كان خفيرو الصواري المسكين قد خارت قواه . لم يكن في ميسور المرء ان يلحظ حشرجه واضحة على اسارير وجهه ، ولكن انيار قواه المتعاطم كان 'يلحظ في حركات اوصاله جميعاً . و توترت ذراعه في التواءات رهيبه . و لم تؤدّ كل محاولة قام بها للصعود من جديد إلا الى امعان المرقاة الزائفة في التارجح . و لم بصرخ قط خشية ان يفقد قوته . و كان القوم كلهم يرتقبون الدقيقة التي يُفلت فيها الحبل ، و في بعض اللحظات أشاحوا جميعاً بوجوههم لكي لا يروا اليه وهو يهوي . إن ثمة لحظات تكوّن فيها قطعة الحبل ، و العصا الطوية ، و غصن للشجرة هي الحياة نفسها ،

ولأنه شيء رهيب ان يرى المرء الى كائن حيّ ينفصل عنها ويسقط مثل
ثمرة يانعة .

وفجأة بصّر القوم برجل ينسلق حبال الدارعة بحفة سنّور بري .
وكان هذا الرجل يرتدي ثوباً أحمر ؛ كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة .
وكان يعتبر بقلنسوة خضراء ؛ كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة
مدى الحياة . حتى اذا انتهى الى سطح أعلى الصاري أطارت الريح
قلنسوته ، وكشفت عن رأس أشيب كله . إنه لم يكن شاباً .

والواقع ان احد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المكلفين بالقيام
فوق ظهر تلك الدارعة بهمة من مهامّ السجن كان قد هرع ، منذ
اللحظة الاولى ، الى ضابط الحراسة . وفي غمرة اضطراب النوتية وترددم ،
حين كان جميع الملاحين يرتعدون وينكصون على اعقابهم ، سأل الضابط
ان يأذن له بالمغامرة بجياته لكي يتقد خفير الصواري . واذا وماً الضابط
له ايماءة ايجابية ، كسر بضربة مطرقة السلسلة التي تطوّق مفصل عقب رجله .
ثم تناول حبالاً ، ووثب الى حبال الصاري . ولم يلاحظ احد ، في
تلك اللحظة ، بأية سهولة كسرت السلسلة . إنهم لم يتذكروا ذلك إلا
في ما بعد .

وفي طرفة عين انتهى الى عارضة الصاري . وتعمل بضع ثوان ، وبدا
وكأنه يقيسها بنظرة منه . وتراءت هذه الثواني التي كانت الريح خلالها
تؤرجع خفير الصواري ذات اليمين وذات اليسار عند جبل من الجبال -
وكأنها اجيال في أعين المشاهدين . واخيراً ، رفع المحكوم عليه بالاعدام
عينيه نحو السماء ، وخطا خطوة الى أمام . واخذ الحشد نفساً طويلاً .
لقد رأوه يجتاز عارضة الصاري راكضاً . حتى اذا انتهى الى اقصاها
عقد هناك احد طرفي الحبل الذي كان قد جاء به ، وترك طرفه
الآخر يتدلى على مداه ، ثم راح يهبط ويدها منشيطان بذلك الحبل .

وعندئذ استبدت بالقوم موجة من الذعر تجلّ عن الوصف . لقد رأوا رجلين اثنين ، بدلاً من رجل واحد ، يتدليان فوق اللجة .

كان في ميسور المرء ان يقول إنها عنكبوت تنقضّ على ذبابة ، لولا ان العنكبوت هنا كانت تحمل الحياة لا الموت . ومُتمرت عشرة آلاف عين على هذين الرجلين . فلا صيحة ، ولا كلمة . لقد غصن الانفعال نفسه جميع الجباه . وجلس كل امريء أنفاسه ، وكأنما كان يجثى ان يُمدّ الریح التي كانت تؤرجح الرجلين البائسين بأقل النفثات .

بيد أن المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وفتق ، آخر الامر ، الى ان يشق طريقه نحو الملاح . وكان ذلك في الوقت المناسب ، فلو انه تأخر دقيقةً إضافية إذن لكان الرجل قد هوى الى اعماق البحر يائساً ناضب القوى . وشده المحكوم عليه بالاشغال الشاقة شداً محكماً الى الحبل ، وكان يتشبث به بأحدى يديه ، ويعمل بالآخرى . وأخيراً ، رئي يعاود للصعود الى عارضة الصاري ويسحب الملاح خلفه . وأسندته هناك ، لحظةً ، لكي يمكنه من استعادة قواه ، ثم رفعه بين ذراعيه ، وحمله فيها هو يجتاز عارضة الصاري الى العارضة التي تصل ما بين الصاري الكبير والصاري الصغير ، ومن هناك الى سطح اعلى الصاري حيث تركه بين ايدي رفاقه .

في تلك اللحظة صفق الحشد ؛ وبكى رقباء سجن الاشغال الشاقة للشيوخ ، وتعانقت النسوة فوق ارضة الميناء ، ومُسمت جميع الاصوات تصيح بضرب من الحماسة المكبوحه في رفق :

- « هذا الرجل يجب ان يُفقر له ! »

أما هو فقد جعل من واجبه أن يعاود الهبوط ، في الحال ، ويستأنف عمله . ولكي يصل على نحو أسرع أنشأ ينزلق على الحبل ، وراح يعدو على عارضة منخفضة من عوارض الصاري . وتبعته العيون كلها . وانقضت لحظة استبدت الذعر خلافاً للمشاهدين جميعاً . وسواء

أكان ذلك لأحساسه بالتعب ، أم لأن الدوار عصف برأسه ، فقد اعتقد القوم أنهم رأوه يتردد ويترنح . وفجأة أطلق الحشد صيحةً مدوية : كان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة قد سقط في البحر .

وكان السقوط مهلكاً . فقد كانت البارجة « الجزيرة » *L'Algésiras* راسيةً قرب الـ « أوريون » ، ولقد غاص السجين البائس بين البارجتين . وخشي القوم ان يغرق تحت واحدة منها . ووثب اربعة رجال ، في وقت معاً ، الى مركب . وشجعهم القوم ، وغلب الفلق ، كرةً اخرى ، على النفوس جميعاً . ولم يكن الرجل قد ارتفع الى سطح الماء ، من جديد . كان قد اختفى في البحر من غير ان يفضن صفة الماء ، فكأنه إنما سقط في بوميل زيت . وسبروا غور المكان ، وغاصوا الى الأعماق . ولكن على غير طائل . وواصلوا البحث الى ان هبط الليل . ولكنهم لم يعثروا حتى على الجثة .

وفي صباح اليوم التالي نشرت « صحيفة طولون » الاضر التالية :
« ١٧ تشرين الثاني ، ١٨٢٣ - أمس فيما كان أحد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة العاملين على ظهر الـ « أوريون » عائداً الى عمله بعد ان انتقذ حياة احد الملاحين ، سقط في البحر ففرق . ولم يُعثَر على جثته قط . ويُفترض أنه علقَ تحت الاوتاد الفارزة في الماء عند مقدم دار للصناعة . كان هذا الرجل مسجلاً تحت رقم ٩٤٣٠ ، وكان يدعى جان فالجان . »

الكتاب الثالث

الوفاء بالعمد المقطوع للراحلة

مسألة المياه في مونفيرماي

تقع مونفيرماي بين « ليفري » و « شيل » على المنحدر الجنوبي من ذلك النجد العالي الذي يفصل الـ « أورك » عن الـ « مارن » .
لأنها اليوم بلدة كبيرة تزدان طوال العام بداراتٍ (فيلات) من جبس ، وفي يوم الاحد ، بمواطنين تطفو على وجوههم نضرة للنعيم .
أما عام ١٨٢٣ فلم يكن في مونفيرماي لا هذه الكثرة من البيوت البيضاء ، ولا هذه الكثرة من المواطنين الناعمين . انها لم تكن غير قرية في الغابات . والواقع أنك كنت تجد فيها هنا وهناك متنزهات من القرن

الماضي تمتاز بمظهرها الضخم ، وشرفاتها ذات الحديد المألوي ، وبتلك النوافذ الطويلة التي كانت ألواحها الزجاجية الصغيرة تبدي على بياض مصاريعها الموصدة جميع ضروب الاخضرار المختلفة . ولكن مونفيرماي ظلت برغم ذلك كله قرية . ان تجار المنوجات المتقاعدين والقرويين الهواة لم يكونوا قد اكتشفوها بعد . كانت بقعة آمنة فاتنة ، ولم تكن تقع على الطريق الى بلد ما . كان اهلها بيجيون ، بثمان بجنس ، تلك الحياة الريفية البالغة الحصب ، والبالغة البُسر . ولكن المياه كانت نادرة هناك بسبب من ارتفاع النجد .

كان يتعين عليهم ان يجتازوا مسافة غير قصيرة التماساً للماء . فأما اقصى القرية المجاور لـ « غانبي » فكان يستمد مائه من الغدران الرائعة التي كانت هناك في الغابات ، وأما اقصى القرية الآخر الذي يسيطر بالكنيسة والمجاور لـ « شيل » فلم يكن يجد مياه الشفة الا في ينبوع صغير ، عند منتصف المنحدر ، قرب الطريق الى « شيل » ، على مسيرة ربع ساعة من مونفيرماي تقريباً .

واذن فقد كان الحصول على الماء مسألة جدية يتعين على كل أسرة ان تواجهها . فكانت البيوت الكبيرة ، بيوت الارستوقراطيين ، وفي جملتها فندق تيناردييه ، تدفع رُبع « سو » ، ثمناً لكل دلو من الماء الى رجل ساذج اتخذ من تزويد الناس بالماء مهنة له ، وكان يكسب من ذلك الصنيع نحواً من ثمانية « سو » في اليوم . ولكن هذا الرجل لم يكن يشتغل إلا إلى الساعة السابعة مساءً في الصيف ، وإلى الساعة الخامسة مساءً في الشتاء . فاذا هبط الليل ، وأوصدت نوافذ الادوار الاولى ، تحتم على كل من أعوزه الماء أن يلتمسه بنفسه ، او يستغني عنه . ذلك كان الهول الذي احتملته تلك الخلوقة المسكينة التي نرجو ان لا يكون القاري قد نسيها - كوزيت الصغيرة . ونحن نذكر ان كوزيت كانت ذات فائدة لتيناردييه وزوجته من ناحيتين . كانا يتوزعان

الأجر من الأم ، والعمل من الطفلة . وأنه حين اقلعت الأم نهائياً عن الدفع - وقد رأينا سبب ذلك في الفصول السابقة - احتفظ تيناردييه وزوجته بكوزيت . لقد حلت عندهما محلّ خادمة . وبوصفها ذلك ، تعين عليها ان تركض هي لجلب الماء حين يحتاجان اليه . وهكذا فإن الطفلة الصغيرة التي كان يروّعها دائماً مجرد التفكير في الذهاب الى الينبوع تحت جنح الظلام ، كانت تبذل غاية عنايةها لكي لا يعوز الماء البيت على الاطلاق .

وكان عيد الميلاد من عام ١٨٢٣ مشرقاً على نحو خاص في مونفيرماي . كان الشطر الأول من الشتاء معتدلاً ؛ ولم تكن تلك المنطقة قد عرّفت بعدُ لا الجليد ولا الثلج . وكان بعض المشعوذين الوافدين من باريس قد استصدروا من العمدة اذنّاً يجيز لهم أن يضربوا خيامهم في شارع القرية الرئيسي . وكانت جماعة من الباعة المتجولين قد اقامت ، بفضل الاذن نفسه ، حوانيتها الخشبية الصغيرة في الساحة المنبسطة امام الكنيسة ، وحتى في زقاق بولانجيه ، حيث يقوم مطعمُ تيناردييه الحفير ، كما قد يذكر القاري . وهكذا غصّت الفنادق والحانات بالزبائن ، واتخذت هذه البقعة الهادئة مظهرأً صاحباً بهيجاً . وينبغي ان نقول ايضاً لكي نكون مؤرخين امناء ، انه كان بين الغرائب المعروضة في تلك الساحة معرض حيوانات يضمّ مهرجانين مخيفين يرتدون اسمالاً بالية ، وليس يدري احد من ابن اقبلوا ، فهم يعرضون ، سنة ١٨٢٣ ، على فلاحي مونفيرماي واحداً من تلك العقبان البرازيلية الرائعة التي لم يملك متحفنا الوطني نظيراً لها ، إلا في عام ١٨٤٥ ، والتي تشبه عيونها شارات مستديرة ، كالتي ترين قبعات الجنود ، مثلثة الالوان . ويدعو علماء التاريخ الطبيعي هذا الطائر Caracara Polyborus في ما أعتقد . انه من رتبة Apicidae وفصيلة العقبان . وقصد بعض الجنود البونابرتيين العجائز ، الطيين ، المتقاعدین في القرية ، لرؤية هذا الطائر في خشوع . وزعم المشعوذون ان تلك الشارة

المستديرة ظاهرة فريدة صنعها الله خصيصاً لمعرضهم الحيواني .
 في ليلة الميلاد تلك كان بضعة رجال ، بعضهم سائقو عربات وبعضهم
 باعة متجولون في الارياض ، جالسين الى الطاولات يعاقرون الخمر حول اربع
 شموع او خمس شموع في القاعة السفلى من فندق تيناردييه . وكانت هذه القاعة
 تشبه قاعات الحانات جميعاً : طاولات ، وآنية من قصدير ، وزجاجات ،
 وشاربون ، ومدخنون . قليل من النور ، وكثير من الضجة . ومع ذلك ،
 فقد كان تاريخ عام ١٨٢٣ يتجلى في ذبذبات الشبثين القائمين على احدي
 الطاولات ، وكانا آنذاك زياً شائماً بين الطبقات الوسطى ، وهما منظر
 سعري ، ومصباح من صفيح متموج . كانت تيناردييه الزوجة تراقب
 الحساء الذي كان يُطهى أمام نار مشرقة لاهبة . وكان تيناردييه الزوج
 يجتسي الشراب مع ضيوفه ، ويتحدث في السياسة .

والى جانب المناقشات السياسية التي كان موضوعها الرئيسيان الحرب
 الاسبانية ودوق آنغوليم * كان في ميور المرء ان يسمع ، في غمرة الضجة ،
 ملاحظات محلية معترضة من مثل هذه :

- « هناك في ناحية « نانتير » و « سووين » كان موسم الكرمه خصباً .
 فحيث توقع القوم عشرة براميل فازوا باثني عشر . لقد استخرجوا مقادير
 كبيرة من العصير من تحت المكبس . »

... « ولكن اليس من الضروري ان ينضج العنب ؟ »

- « اوه ، في تلك الديار ليس من الضروري ان يُقطف العنب ناضجاً .
 ان الكرمه لتغدو بدينة مع الربيع . »

- « اذن فهي خمر هزينة ؟ »

- « ان ثمة خموراً كثيرة هي اشدّ هزالاً من الخمر التي نعرفها هنا .
 يتعين على المرء ان يجني العنب وهو بعدُ أخضر . الخ ...
 وقد يصيح أحد الطحانين قائلاً :

* كان هذا الدوق هو قائد القوات الفرنسية في الحرب الاسبانية .

- هل نحن مسؤولون عما في الاكياس ؟ إننا نجد ركاباً من البذور الصغيرة هناك ، ولكننا لا نستطيع ان نتسلى بالتقاطها ، وإننا لنضطر طبعاً الى ان ندعها تمر بين حجري الرعى . هناك زؤان ؛ هناك شجرة ؛ هناك حبة البركة ؛ هناك جلبان ؛ هناك بزر القنب ؛ هناك ذيل الثعلب ، وجمهرة من النفايات الاخرى ، هذا اذا لم نذكر الحصى التي تكثر في بعض اصناف القمح ، وبخاصة قمح پروتانسني . أنا لا أحب ان اطحن القمح البروتاني ، أكثر مما يجب النجار ان ينشر العوارض التي تنطوي على مامير . يكفي ان تفكر بالتراب القذر الذي يضيفه ذلك كله الى المحصول . وبعد ذلك يشكو الناس رداءة الطحين . إنهم مخطئون . فلسنا نحن المسؤولين عن الطحين .

وفي مكان وسط بين نافذتين ، جلس حصّاد الى إحدى الطاولات مع مزارع كان يساومه على عمل يقوم به في الموسم التالي ، وأنشأ يقول :

- « لا ضرر البتة في ان يصيب الندى الاعشاب . إنه يُجِزّ على نحو أفضل . إن الندى شيء حسن ، يا سيدي . ولكن سيان ، فهذا العشب ، عشبك ، نضر العود ، وإن قطعه لمسير جداً . إنه شديد الاخضرار ، وهو ينحني تحت المنجل . » الخ

وكانت كوزيت في مكانها المألوف ، جالسة على عارضة طاولة المطبخ ، قرب الموقد . كانت ترتدي خرقاً ممزقة ، وكانت قدماه العاريتان تتعللان حذاء خشبياً ، وكانت تتردد على ضوء النار جوارب صوفية لبنتي تينارديه الصغيرتين . كانت هرة صغيرة تلعب تحت الكرسي . وفي غرفة مجاورة كان صوتان طفلان ناضران يثرثران ويضحكان على نحو مسوع . كانتا ابوين وآزيلما .

وفي زاوية الموقد كان سوطٌ يتدلى من احد المامير . وبين الفينة والفينة كان صوت طفل بالغ الصغر ، ينبعث من مكان

ما من المنزل ، فيطفي على ضجة الحانة . ذلك كان غلاماً صغيراً رزقته السيدة تيناردييه في شتاء ماضٍ - « من غير ان تدري كيف ، » كذلك كانت تقول ، « إنه ثمرة الجو البارد ، » ولم يكن عمره ليزيد على ثلاث سنوات . كانت الام قد ارضعته ، ولكنها لم تحبه . حتى اذا غدت صيحات الطفل الجائعة اقوى من ان تحتل كان تيناردييه يقول : « إن ابنك يصيح فلماذا لا تذهبين وتوين ما يريد ؟ » فتجيبه الام : « أفٍ ! لقد ضجرتُ منه ! » ويواصل الطفل المخدول صياحه وسط الظلام .

٢

رسمان يكتملان

إلا لم نَرَ تيناردييه وزوجته في هذا الكتاب إلا من ناحية جانبية . ولقد آت لنا أن ندور حول هذين الزوجين ونرى اليها من الجهات جميعاً .

كان تيناردييه قد بلغ الحُسين منذ قريب ، وكانت للسيدة تيناردييه قد بلغت الاربعين ، وهي بمثابة الحُسين عند المرأة . وهكذا فقد كان ثمة توازن في العمر بين الزوج والزوجة .

ولعل القراء قد احتفظوا ، منذ ظهورها الاول ، ببعض الذكرى لتيناردييه هذه ، الضخمة ، الشقراء ، الحمراء ، البدينة ، اللحية ، المربعة ، الجسيمة ، النشيطة . كانت كما قلنا سابقاً من ذلك العرق من النسوة الوحشيات الهائلات اللواتي ينعطفن كالفوس في الاسواق الدورية وقد تدلت قطع البلاط من شعرهن . كانت تقوم بجميع الاعمال المنزلية : تنظيف الغرف ، وغسل الملابس ، والطبخ ، وأي شيء يحلو لها ، وتضج وتضخب . وكانت كوزيت هي خادمتها الوحيدة ؛ فأرة في

خدمة فيل . كان كل شيء يرتجف لرؤس صوتها : زجاج النوافذ و
 والاثاث ، والناس . وكان وجهها العريض ، الذي يعلوه النمش ، أشبه شيء
 بالمرغاة . وكانت لها لحية . كانت المثل الاعلى لصبي الجزائر مرتدياً ملابس
 نسائية . وكانت تُقسم في فخامة ، وتعترف بقدرتها على ان تكسر الجوزة
 يجمع كفها . وبصرف النظر عن الروايات التي قرأتها والتي تعطيك في
 بعض الاحيان لمحة عجيبة عن المرأة المتكافئة الكامنة تحت العملاء * فان
 اياً من الناس لم يخطر له ذات يوم ان يقول عنها : هذه امرأة . كانت
 تينارديه هذه أشبه شيء بالنتاج الحاصل من تلقح امرأة وقحة مربية
 بياعة سمك . اذا سمعتها تتحدث قلت : « هذا دركي » . واذا رأيتها تشرب
 قلت : « هذا سائق عربية » . واذا بصرت بها تلس كوزيت قلت : « هذا
 هو الجلاد » . وفي اوقات الراحة كانت احدي الاسنان تبرز من فمها .
 اما تينارديه الزوج فكان رجلاً ضئيل الجسم ، هزيلاً ، شاحباً ، ذا
 زوايا ، عظيماً ، ضعيف البنية يبدو وكأنه مريض برغم ان صحته ممتازة ،
 ومن هنا كان يبدأ مكرهه وخبثه . كان يتسم ، بحكم العادة ، من باب
 الاحتراس ، وكان يحاول ان يكون لطيفاً مع الناس جميعاً ، حتى مع
 الشحاذ الذي كان يرضن عليه بربع « سو » . كانت له نظرة نمس ، وسباً
 أدیب . وكان يشبه رسوم الراهب دوليل * * * شهباً كثيراً . وكان هوى معاورة
 الخمر مع سائقي العربات . ولم يره احد سكران قط . وكان يدخن غليوناً
 ضخماً . وكان يرتدي قميصاً ، وتحت ذلك القميص سترة عتيقة سوداء . وكان
 يدعي فهم الادب والفلسفة المادية . وكانت ثمة اسماء بكثر من ترديدها
 تأييداً لاي شيء قد يقوله : فولتير ، رينال * * * بارني * * * ، واخيراً وهو

* العملاء : انثى الفول .

** l'Abbé Delille شاعر فرنسي (١٧٣٨ - ١٨١٣) ترجم آثار فيرجيل وميلتون .

*** Raynal مؤرخ وفيلسوف فرنسي (١٧١٣ - ١٧٩٦) وضع كتاباً عن غزو

الاوروبيين للهند شجب فيه الاستعمار وحمل على رجال الدين .

*** Parny شاعر فرنسي (١٧٥٣ - ١٨١٤) اشتهر بقصائده الغزلية الاليفة .

شيء عجيب ، القديس اوغـطين * . وكان يؤكد ان له « نظاماً » .
وعلى الجملة ، فقد كان غشاشاً كبيراً ، فيلسوفاً في الحداع . وهذا الضرب
من الناس موجود . ونحن نذكر انه ادعى خوض غمار الحرب ؛ وكان
يروي في شيء من الابهة انه في واترلو - وكان رقيباً في سلاح ما خفيف
يحمل الرقم اربعة او الرقم تسعة - استطاع وحده ، في وجه كوكبة من
« فرسان الموت » ، ان يعطي بجسده وينقذ وسط وابل من القذائف
« جنرالاً أصيب بجراح خطيرة » ، ومن هنا تلك اللافتة الملتهبة التي على
جداره ، واسمُ فندقه الذي كان يعرف في ذلك الاقليم بـ « فندق رقيب
(مرجان) واترلو » . كان متحرراً ، وكلاسيكياً ، وبونابرتياً . ولقد
اكتب في انشاء « شان دازيل » . ولقد قيل في القرية انه درس ذات
يوم لكي يصبح كاهناً .

اما نحن فنعتقد انه لم يدرس ، في هولندية ، الا ما يمكنه من ان يصبح
صاحب فندق . والواقع ان هذا النذل ذا الطراز المركب ، كان ، وفقاً
لكل احتمال ، فلمنكياً من « ليل » في الفلاندر ، وفرنسياً في باريس ،
وبلجيكياً في بروكسل ، فهو مستعد للانضواء تحت الراية التي يجسد في
ظلمها النفع . اما شجاعته في واترلو فتعفن نعرفها . وهو كما قد رأينا ، يبالغ
بها بعض الشيء . كان تقلب احوال الدهر ، والمواربة ، والمقامرة هي عنصر
وجوده . إن الضمير الممزق يستتبع الحياة المتفتحة . ولا ريب في ان
تيناردية كان خلال فترة ١٥ حزيران ١٨١٥ العاصفة ، ينسب الى تلك
الطبقة من المطوفين بالليل ، السارقين جيوب الجندي ، التي نتحدثنا عنها . فهو
يرود البلاد ، يبيع هنا ، ويسرق هناك ، ويترحل على طراز عائلي - رجل
وامرأة ، واولاد - في عُبيلة عرجاء ، على آثار الجيوش الزاحفة ، تسوقه
غريزة نجهله يلتحق دائماً بالجيش الظافر . حتى اذا انتهت هذه الحملة ،
واصبح ، كما قال ، صاحب « ثروة » انشأ مطعماً حقيراً في مونفيرماي .

* احد آباء الكنيسة اللاتينية المشهورين (٣٥٤ - ٤٣٠)

ولكن هذه والثروة ، المؤلفة من صُرر مال وساعات وخواتم ذهبية وصلبان فضية ، والتي جمعت إبان الحصاد في الأتلام المزروعة بالجثث ، لم تشكل حاصلًا ضخمًا ، ولم تعمر طويلًا عند هذا الطائف الليلي الذي امسى صاحب فندق .

وكانت لتيناردييه خشونة الابعاء تلك التي لا توصف ، والتي تذكر المرء - حين تُقرن بقسم - بالثكنة العسكرية ، وتذكره - حين تقرن بإشارة الصليب - بالمدرسة الاكليركية . كان محدثًا بارعًا ، وكان مولعًا بأن يحسبه للناس عالمًا ؛ ومع ذلك ، فقد لاحظ معلم المدرسة أنه كان يخطئ في اللفظ . كان يعدّ فواتير المسافرين بأسلوب رفيع ، ولكن العيوب المتسرة كانت تكشف فيها ، أحيانًا ، بعض الاخطاء الأملائية . كانت تيناردييه مرأيا ، شرها ، متبطلا ، وحاذقا . ولم يكن ليزدري الخادمت ، ومن هنا لم تبق عند زوجته واحدة منهن . فقد كانت هذه العملاقة جسودًا ، ولقد بدا لها ان هذا الرجل الاصفر المزيل ، الضئيل الجسم ، لا بد ان يكون موضوع اشتها عام .

وكان تيناردييه - وهو فوق كل شيء رجل مكر واتزان - وغدا من ضرب معتدل . وهذا الضرب هو الاسوأ . إنه مزوج بالفاق .

وليس ذلك يعني ان تيناردييه لم يكن قادراً في بعض المناسبات على ان يفضب ، بقدر ما كانت امرأته تفضب على الاقل . ولكن هذا كان نادراً جداً ؛ وفي تلك الحالات كان يبدو وكأنه في حرب مع الجنس البشري كله ، وكان في باطنه اتوناً عميقاً من البغض ، وكأنه واحد من اولئك الذين لا ينفكون ينتقمون لانفسهم ، والذين يتهمون كل امريء من حولهم بجميع الشرور التي تنزل بهم ، والذين هم دائماً على استعداد لأن يطرحوا على أول قادم ، كشكوى مشروعة ، كل ما منوا به في حياتهم من خيبة وإخفاق ومصائب . وإذا كانت هذه الحميرة تمتلئ في ذات نفسه ، ويطفو زيدها على فمه وعينه ، فقد كان مشهده مروّعاً .

والويل لمن يتعرّض لنقمة عندئذ !

وكان تيناردييه ، بالإضافة الى سائر صفاته ، حسن الانتباه ، ثاقب النظر ، صموئلاً أو ثنائراً وفقاً لمقتضى الحال ، وعلى ذكاء بالغ دائماً . كانت له ، بعض الشيء ، سبيا الملاحين المتعودين أن يطرفوا بأعينهم في المناظير . لقد كان تيناردييه رجل دولة .

كان كل وافد جديد لا يكاد يدخل المطعم الحثير حتى يقول - لدن رؤيته تيناردييه الزوجة : « هو ذا سيد البيت . » وذلك خطأ . فهي لم تكن حتى سيدة البيت . كان الزوج هو سيد البيت وسيدته في وقت معاً . كانت هي تعمل ، وكان هو يتدع . كان يسدير كل شيء بضرب من العمل المغناطيسي المتواصل غير المنظور . كانت كلمة واحدة - واحياناً لجماعة - تكفي ، فاذا بالاستودونة * تطيع . كان تيناردييه عندها - من غير أن تعي ذلك حقاً - ضرباً من الكائن الفريد ذي السلطان . كانت لها فضائلها الشخصية . فهي لم تختلف قط ، حول مسألة ما ، مع « مسيو تيناردييه » ، وما كانت لتشاجر واياه علناً - وهذا افتراض مستحيل - من اجل أيما أمر مهما يكن . ولم تقترف ذات يوم « امام الغرباء » تلك الغلطة التي ترتكبها النسوة في كثير من الاحيان ، والتي ندعوها ، في اللغة البرلمانية : كشف الغطاء عن التاج . وعلى الرغم من ان تفاهمها ما كان يشر غير الشر ، فقد كان في خضوع السيدة تيناردييه لزوجها غذاء للتأمل . لقد تحرك جبل الضجة واللحم هذا تحت خنصر هذا الطاغية الواهن . وكان ذلك يمثل ، اذا ما نُظر اليه من جانبه القزم المضحك ، هذه الحقيقة الكلية الكبيرة : شغف المادة بالروح . ذلك بان اصل بعض البشاعات كامن في اعماق الجمال الازلي نفسه . لقد كان في

* الاستودون ، كما مر سابقاً ، حيوان منقرض يشبه الفيل . والمقصود بالاستودونة هنا مدام تيناردييه .

تيناردييه شيء من الجهول ، ومن هنا سلطان هذا الرجل المطلق على هذه المرأة . كانت في بعض الاحيان تنظر اليه نظرتها الى شمعة مضاءة ، وكانت في بعضها الآخر تستشعر انه مخلب من الخالب . كانت هذه المرأة مخلوقاً مخوفاً لا يجب احداً غير اولاده ، ولا يخشى شيئاً غير زوجه . كانت امماً لانها كانت حيواناً ثديياً . وكانت مشاعرها الأمومية تنتهي عند بنتها ، ولا تمتد ، كما رأينا ، لتشمل الصبيان اما هو ، الرجل ، فلم يكن له من هم غير الاتراء . ولم يوفق الى النجاح . لقد أعوزت الفرصة الملائمة مواهبه الكبيرة . كان تيناردييه في مونفيرماي سائراً نحو الافلاس ، اذا كان الافلاس ممكناً عند الصفر . ولو قد كان هذا الرجل الذي لا يملك درهماً ، في سويسرة أو في اليربنيه ، اذن لامسى مليونيراً . ولكن حيث يوثق القدر الفندقي تعين عليه ان يعرض العشب . ومفهوم ان كلمة فندقي تُصطنع هنا بمعنى مقيد ، وانها لا تشمل طبقة برمتها .

وفي ذلك العام نفسه ، ١٨٢٣ ، كان تيناردييه مديناً بنحو الف وخمسة فونك من الديون الملحة التي جعلته مشغول البال . ومهما يكن القدر ظالماً له على نحو عنيد ، فقد كان تيناردييه واحداً من اولئك الرجال الذين يفهمون احسن الفهم ، وفي اشد ما يكون من العمق واحداث ما يكون من الاساليب ، ذلك الشيء الذي هو فضيلة عند الشعوب البدائية ، وسلعة عند الشعوب المتحضرة ، اعني حسن الضيافة . والى هذا ، فقد كان صياداً بارعاً يتخذ من أرض الاخرين ، دوناً إذن ، ميداناً لنشاطه ، وكان يُعدّ من الرماة الممتازين . كانت له ضحكة باردة ساكنة ، وكانت ضحكته هذه خطيرة ، بصورة خاصة .

كانت نظرياته في ادارة الفنادق تتبع من نفسه في بعض الاحيان مثل وميض البرق . وكانت له بعض الحكم المهنية التي غرسها في ذهن

زوجته . « إن واجب الفندقى ، كذلك قال لها ذات يوم ، فى تأكيد وفى صوت خفيض ، « ان يبيع الوافد الاول طعاماً ، وراحة ، ونوراً ، وناراً ، وشراشف سرر قذرة ، وخادومات ، وبرايث ، وابتسامات ؛ ان يوقف المسافرين ، فيفرغ اكياس النقود الصغيرة ويخفف فى لطف من ثقل الاكياس الكبيرة ؛ ان يستقبل فى احترام الاسرَ المسافرة ، فيكشط الرجال ، وينتف ريش النساء ، ويحلق الاولاد ؛ ان يتقاضى اجراً عن النافذة المفتوحة ، والنافذة الموصدة ، وزاوية الموقد ، والأريكة ، والكرسي ، والكرسي الذي لا ظهر له ، والموطىء ، وفراش الريش ، والحشية ، وفراش القش ؛ ان يعرف الى اى حد اصاب البلى المرأة ويفرض ضريبة على ذلك ؛ وان يحمل المسافر - وأقسم بالحمسة الف شيطان - على ان يدفع ثمن كل شيء حتى الذباب الذي يأكله كلبه ! » .

كان هذا الرجل وهذه المرأة هما المكر والفيظ مجتمعين ، وباله من اقتران راعب فظيع !

وفى كان الزوج يحسب ويدبر كانت تبنارديه الزوجة لا تفكر بالدائنين الغائبين ، ولا تحمل همّ الأوس او الغد ، بل تحيا فى هيجان للدقيقة التي هي فيها .

كذلك كان هذان الخلقان ، وكانت كوزيت بينهما ، متعملةً ضغطها المزدوج ، اشته شيء بمخلوقة تسحقها الرضى وتمزقها الكلابة إرباً إرباً ، فى آن معاً . لقد كانت لكل من الرجل والمرأة طريقة خاصة . فكانت كوزيت تُضرب فى غير رحمة ؛ وهذا من فضل المرأة . وكانت تمسح حافية فى ايام الشتاء ؛ وهذا من فضل الرجل .

وصعدت كوزيت السلم ، وهبطت السلم ، وغسلت ، ونظفت بالفرشاة ، ومسحت ، وكنت ، وركضت ، واجهدت نفسها فى السير ، ولهت ، ورفعت اشياء ثقيلة ، ونهضت بالاعمال الحثنة ، برغم ضعف بنيتها . لا رحمة البتة . سيدة شرسة ، وسيد خبيث . لقد كان مطعم تبنارديه الحقيق أشبه بشرك

علقت به كوزيت وراحت ترتجف . ولقد تحقق المثل الاعلى للاضطهاد في هذه العبودية المشؤومة . كانت اقرب شيء الى ذبابة تخدم عناكب .
واطاعت الطفلة المسكينة في استسلام وصمت .
ولكن ما الذي يجري في هذه النفوس التي لم تنفصل عن الله الا منذ قريب
حين تجذذاتها في فجر الحياة ، صغيرة الى هذا الحد ، ضعيفة الى هذا الحد ،
بين الرجال ؟

٣

يجب ان يشرب الرجال الخمر

وان تشرب الخيل الماء

كان قد وفد على الفندق أربعة نزلاء جدد .
وفكرت كوزيت في اكتئاب . ذلك بأنها كانت قد قاست من
ويلات الدهر ما يحملها على التفكير - وهي التي لم تتجاوز الثامنة - بمثل
السيا الفاجعة التي ترين على وجه امرأة عجوز .
وكانت حول مقلة كوزيت زرقة ناشئة عن ضربة سدّتها تينارديه
الزوجة اليها ، يُجمع كفيها ، فهي تتساءل بين الفينة والفينة :
- « ما أقبحها بهذا الورم الذي في عينها ! »
كانت كوزيت تقول في ذات نفسها ، آنذاك ، ان الليل قد هبط ،
وإنه أمسى دامساً ، وإن آنية الماء وزجاجاته العريضة القاعدة ، تلك
الآنية والزجاجات التي في غرف النزلاء الجدد ، يجب ان تُنمأ في الحال ،
وانه لم يبق ثمة ماء في الحوض .
ومرّى عنها بعض الشيء ان الناس لا يشربون كثيراً من الماء في

حانة تيناردييه . وكان بين اولئك القوم كثير من العطاش ، ولكنه ذلك النوع من العطش الذي يبسط البدن نحو وعاء الخمر الكبير لا نحو الزجاجاة العريضة القاعدة . ولو قد طلب أحد كوب ماء وسط كؤوس الخمر هذه ، اذن لبدا متوحشاً في نظر هؤلاء الرجال . ومع ذلك فقد انقضت لحظة ارتجفت خلالها الطفلة : لقد رفعت مدام تيناردييه غطاء القدر الصغيرة ذات المقبض التي كانت تغلي على الموقد ، ثم تناولت كوباً وسارعت الى حوض الماء . وادارت الحنفية ؛ وكانت الطفلة قد رفعت رأسها وتابعت حركاتها جميعاً . وجرى من الحنفية خيط من الماء رفيع لم يشغل من الكوب غير نصفه .

وقالت :

« انظر ! لم يبق شيء من الماء ! »

ثم انها صممت لحظة . اما كوزيت فجلست انفاسها .

وتابعت تيناردييه الزوجة كلامها وهي تتفحص الكوب نصف المليء :
« انا اشك في ذلك ! سوف يبقى مقدار كافٍ منه ، على

هذا الشكل . »

واستأنفت كوزيت عملها ؛ ولكنها استشعرت ، طوال ربع ساعة او يزيد ، ان قلبها يشب في صدرها مثل كرة ضخمة . وعدت الدقائق فيما هي تتصرّم هكذا ، وتمت في لهفة لو ان الفجر يبرغ .

وبين الفينة والفينة كان احد الشاربين ينظر الى الشارع ويهتف :
« إن الليل حالك مثل فرن ! » أو : « ينبغي ان يكون الانسان هرة حتى يمشي الليلة في الشوارع من غير مصباح ! » وارتعدت كوزيت . وفعلاً دخل احد الباعة المتجولين النازلين في الفندق وقال في صوت أجش :

« انكم لم تسقوا جوادي ! »

فقلت تينارديه الزوجة :

- « بل لقد سقناه ، من غير ريب . »

فاستأنف البائع المتجول :

- « اقول لك لا ، يا سيدي . »

وخرجت كوزيت من تحت الطاولة .

وقالت :

- « اوه ! بلى ! يا سيدي ! لقد شرب الجواد . لقد شرب من

الدلو . الدلو الملائن . ولقد حملته انا بنفسى اليه ، وتحدثت معه . »

ولم يكن ذلك صحيحاً . لقد كذبت كوزيت .

فصاح البائع المتجول :

- « هي ذي فتاة في حجم قبضة يدي ، ومع ذلك فهي تكذب

كذبة في حجم البيت . اقول لك انه لم يشرب ، ايها الطفلة الحقيرة !

ان له طريقة في اللهاث حين لا يكون قد شرب شيئاً من الماء وانا

اعرف طريقته تلك جيداً . »

واصرت كوزيت ، وازافت في صوت أبحه الألم النفسى المرير ،

فهو ما يكاد يُسمع :

- « ولكنه شرب مقداراً كبيراً من الماء . »

فتابع البائع في غضب :

- « كفى ، كفى ! قدمي شيئاً من الماء الى جوادي ، ولا

تقولي كلمة إضافية في الموضوع . »

وعادت كوزيت الى مكانها تحت الطاولة .

وقالت تينارديه الزوجة :

- « الواقع ان هذا صحيح . اذا كانت الدابة لم تشرب بعد

فينبغي ان تشرب . »

ثم أجالت البصر في ما حولها وقالت :

- « حسن ، ما الذي حلّ بتلك الفتاة ؟ »
وانحنت ، فاكتشفت كوزيت رابضةً عند الطرف الآخر من
الطاولة ، تحت أقدام الشاربين تقريباً .

وصاحت تيناردييه الزوجة :

- « ألن تأتي ؟ »

وخرجت من شبه الثقب ذاك الذي اختبأت فيه . وثابتت
تيناردييه الزوجة :

- « ايها الآنسة « الكلبة التي لا اسم لها » ، اذهبي واحلي شيئاً
من الماء الى ذلك الجواد ! »

فقال كوزيت في وهن :

- « ولكن ، يا سيدتي ، ليس هناك ماء . »

ففتحت تيناردييه الزوجة الباب المؤدي الى الشارع على مصراعيه :

- « حسن ، اذهبي واجلبي شيئاً منه ! »

وخفضت كوزيت رأسها ، ومضت تلتمس دلوّاً فارغاً كان في
زاوية الموقد .

كان ذلك الدلو اكبر منها ، وكان في ميسور الطفلة ان تقعد فيه
على نحو مريح .

ورجعت تيناردييه الزوجة الى وجاقها ، وذافت ما كان في القدر
بملعة خشبية وهي تغعم :

- « ان في ينبوع ماء . هذه أنخت طفلة ووجدت على ظهر
الارض . واحسب اني أحسن صنعا اذا تركتُ بصلي هذا . »

ثم انها بحثت في احد الادراج حيث كانت بضعة فلوس ، وشبه
من الفلفل والثوم .

وأضافت :

- « ايها الآنسة للضفدع ، إستري من الحجاز ، وانت عائدة ، »

رغيفاً كبيراً . دونك خمسة عشر سو . «
كان لكوزيت جيب صغير في جانب مئزرها . فتناولت للقطعة
النقدية من غير ان تقول كلمة ، ووضعتها في ذلك الجيب .
ثم انها ظلت جامدة : الدلو في يدها ، والباب مفتوح أمامها .
لقد بدت وكأنها تنتظر ان يُقبل شخص ما لئيجدها .
وصاحت السيدة تينارديه :
- « هيا ، إذهبي ! »
وخرجت كوزيت ، وأوصد الباب .

دخول دمية الى المسرح

لقد امتدّ صف الدكاكين ، كما يذكر القاري ، على طول الشارع من الكنيسة حتى فندق تيناردييه . وكانت هذه الدكاكين متلاثة كلها - بسبب اقتراب موعد انطلاق المواطنين الى قداس منتصف الليل - بالشموع المشعلة في فوانيس من ورق تركت - كما قال معلم مونفيرماي الذي كان جالساً آنذاك الى احدى طاولات تيناردييه - « أثراً سحرياً » . وبالمقابلة ، لم يكن المرء ليرى نجمة واحدة في السماء .

وكانت آخر هذه الدكاكين الخشبية ، وقد اقيمت تجاه باب تيناردييه تماماً ، دكان دميّ تتألق كلها بالصفائح المعدنية البالغة الصغر ، وبالحرز ، وبمختلف الاشياء الرائعة المصنوعة من صفيح . وفي الصف الاول ، وفي مكان متقدم ، كان البائع قد وضع ، فوق مهادٍ من المناديل البيضاء ، دميةً ضخمة يبلغ طولها نحواً من قدمين ، وتترندي ثوباً من « الكريب » الأزهر ، وقد جعلت على رأسها سنابل ذهبية ، ونعمت بشعر حقيقي وبعينين

مصنوعتين من المينا . وكانت هذه الاعجوبة قد عرضت طوال النهار فاذهلت جميع المارة من الذين لم يتجاوزوا العاشرة ، من غير ان توجد في مونفيرماي كلها أم هي من الفنى ، او من التبذير ، بحيث تشتريها لطفلها . كانت ايونين وآزيلما قد أنفقنا ساعات في التحدث اليها ، وكانت كوزيت نفسها قد جرؤت ، خلست من غير شك ، على النظر اليها .

وحين خرجت كوزيت حاملة الدلو بيدها ، مُثقلة بالكآبة والنغم ، لم تتالك ان ترفع عينها نحو هذه الدمية الرائعة ، نحو هذه « السيدة » كما دعها . لقد وقفت الطفلة المسكينة متحجرة . انها لم ترَ تلك الدمية من على مثل هذا القرب من قبل .

لقد بدت هذه الدكان الحشبية كلها فصرأ في عينها . ان تلك الدمية لم تكن دمية ؛ لقد كانت رؤيا . كانت هي البهجة ، والبهاء ، والثروة ، والسعادة تراءت في ضرب من الاشعاع الوهمي لهذه الخلوقة الصغيرة البائسة المدفونة ، أعمق ما يكون الدفن ، في سقاء فاجع بارد . كانت كوزيت تقيس ، بحكمة الطفولة الساذجة البسيطة ، الهوة التي تفصلها عن تلك الدمية . وقالت في ذات نفسها إن الفتاة ينبغي ان تكون ملكة ، او أميرة على الاقل ، لكي تفوز بـ « شيء » مثل هذا . وحدقت الى هذا الثوب الازهر الجميل ، والى هذا الشعر الناعم الخلو ، وانشأت تفكر : « اي سعادة عظيمة ينبغي ان تكون هذه الدمية متمتعة بها ! » ولم تستطع عينها التحول عن هذه الدكان الغريبة . وكلما اطالت النظر تعاظم انشراحها . لقد حسبت انها رأت الجنة . وكانت دمي أخرى ، خلف الدمية الكبرى ، بدت لها جنأ وعفارت . اما التاجر الذي كان يروح ويحيي في الجزء الخلفي من الدكان فتمثل لها بعض الشيء وكأنه « الأب الأزلي » .

وفي غمرة من هذا التعبد نسبت كل شيء ، حتى المهمة التي عهد اليها فيها ؛ وفجأة اعادها صوت السيدة تيناردييه الاجش الى الواقع :

« ماذا ايتها الغبية ، لم تذهبي بعد ؟ انتظري . أنا آتية اليك ! إني احب

ان أعرف ما الذي تفعله هناك؟ ايتها المسخة الصغيرة، اذهبي! «
وكانت تيناردييه الزوجة قد القت نظرة الى الشارع، ورأت كوزيت
في حال من الوجد.
وولت كوزيت حاملة دلوها، موسعة خطاها اقصى ما تستطيع
ان توسعها.

الصغيرة فريسة الوحدة

واذ كان فندق تيناردييه في ذلك الجزء من القرية الواقع غير بعيد عن الكنيسة فقد تعين على كوزيت ان تستقي الماء من ينبوع الغابة المجاور لـ « شيل » .

ولم تعاود النظر الى السلع المعروضة في الدكاكين . وكانت هذه الدكاكين المضاءة تنير سبيلها ما بقيت في زقاق بولانجيه وجوار الكنيسة ، ولكن سرعان ما اختفى آخر شعاع من آخر دكان . وافت الطفلة المسكينة نفسها في الظلمة . لقد دُفنت فيها . بيد أنها وقد استبد بها انفعال ما ، راحت تهزّ عروة الدلو ، فيما هي ماضية لسبيلها ، أقصى ما تستطيع ان تهزها . ولقد احدث ذلك ضجة رافقتها في وحدتها .

وكلما أمعت في المسير ، أمست الظلمة أشدّ كثافة . لم يبقَ شخص ما في الشوارع . ومع ذلك ، فقد لقيت امرأة استدارت لدن رؤيتها تمر ، وظلت جامدة تتم من بين اسنانها : « ولكن الى اين يمكن ان تكون هذه الصغيرة ذاهبة ؟ أهى طفلة شبح ؟ » ثم ان المرأة عرفت كوزيت ، فقالت : « اوه ، إنها القبرة ! »

وهكذا اجتازت كوزيت تيه الشوارع المتعرجة المهجورة التي تنتهي بها قرية مونفيرماي من ناحية « شيل » . وكانت تمضي في جرأة كافية ما دامت تجد بيتوتاً ، بل جدراناً ، على جانبي طريقها . وبين الفينة والفينة كانت ترى ضوء شمعة ينبعث من شقوق مصراع من مصاريع النوافذ ؛ كان ذلك نوراً وحياة ، وكان ثمة أناس ، وكان ذلك بسرّي عنها ويبقى

على شجاعتهما . بيد ان سرعتها كانت تتباطأ ، على نحو ميكانيكي ، كلما تقدمت . حتى اذا اجتازت زاوية البيت الاخير ، كفت عن السير . كان الذهاب الى ابعد من الدكان الاخيرة عسيراً ؛ ولقد امسى الذهاب الى ابعد من المنزل الاخير مستحيلاً . ووضعت الدلو على الارض ، وغيّبت يدها في شعرها ، وشرعت تحك رأسها في نؤدة ، وهي حركة خاصة بالاطفال المروّعين المترددين . انما لم تعد في مونفيرماي ؛ لقد امست في الارض الفضاء . كانت البقعة المظلمة المهجورة امامها . ونظرت في يأس الى هذه الظلمة ، حيث لم يبقَ شخص ما ، حيث كانت الوحوش ، بل حيث كانت الاشباح في اغلب الظن . وانعمت النظر ، وسمعت الحيوانات الماشية فوق العشب ، وبصرت على نحو واضح بالاشباح المتحركة في الاشجار . ثم تناولت دلوها من جديد ؛ لقد امدتها الحوف بالجرأة . وقالت : « باه ! سوف اقول لها إنه لم يبق هناك شيء من الماء ! » ورجعت في غير تردد ، الى مونفيرماي .

ولم تكذب تخطو مئة خطوة حتى وقفت كرة أخرى ، وشرعت تحك رأسها . كانت تيناردييه الزوجة هي التي تبدت لها الآن ، تيناردييه الرهبة بفمها الذي يشبه فم الضبع ، وبعينها القادحتين بشرر الغيظ . والقت الطفلة نظرة مُبكية الى امام والى وراء . ما الذي تستطيع ان تفعله ؟ ما الذي سيحلّ بها ؟ الى اين ينبغي ان تذهب ؟ فاما امامها فكان شبح تيناردييه الزوجة ، واما وراءها فكانت جميع اشباح الليل والغابة . وانما تراجعت في وجه تيناردييه الزوجة . واتخذت الطرق المؤدية الى الينبوع ، كرة اخرى ، وأنشأت تعدو . لقد خرجت من القرية راکضة ، ودخلت الغابة راکضة ، غير مبصرة شيئاً ، غير سامعة شيئاً . ولم تكف عن الركض إلا بعد ان انقطعت انفاسها . وحتى في تلك الحال تابعت طريقها مترنحة . لقد تقدمت الى امام واليأس يعصف بها . وحتى فيما هي تعدو نازعتها نفسها الى البكاء .

ولقها ارتعاش الغابة الليلي لقساً كاملاً . لم تعد تفكر بشيء ؛ ولم تعد ترى شيئاً . لقد واجه الليل اللانهاشي هذه المخلوقة الصغيرة . فمن ناحية ، الظلام كله ، ومن الناحية الأخرى ذرةٌ آيس غير .

وكان ينبوع لا يبعد عن طرف الغابة إلا مسيرة سبع دقائق أو ثمان دقائق . وكانت كوزيت تعرف الطريق لاجتيازها أياها بضع مرات يومياً . ومن عجب أنها لم تضلّ سبيلها . لقد هدتها بقية من غريزة ، على نحو أمي ، ولكنها لم تدر عينها لا إلى اليمين ولا إلى اليسار ، خشية أن ترى أشياء على الأغصان وفي الأدغال . وهكذا انتهت إلى النبع .

كان حوضاً طبيعياً صغيراً أحدثته المياه في تربة رملية دلغانية ، وكان عمقه نحواً من قدمين ، وقد حفت به الطحالب وتلك الأعشاب الطويلة المطبّعة بشكل بارز والتي ندعوها اطواق عنق هنري الرابع ، ورُصف ببضعة حجار ضخام . وكان جدولٌ ينبثق من هناك ، في خير رفيق ساكن .

ولم تحاول كوزيت أن تأخذ نفساً . كان الظلام دامساً ، ولكنها كانت متعودّة المجهية إلى هذا ينبوع . ويدها اليسرى تلمّست في الظلمة سديانةً صغيرة منحنيةً فوق ينبوع . - وكانت كثيراً ما تتخذ منها نقطة ارتكاز - فوجدت غصناً ، فتعلقت به ، وانحنت مغطسةً الدلو في الماء . ومرّت بها لحظة كان الاحتياج غالباً عليها إلى درجة ضاعفت قوتها أضعافاً ثلاثة . وحين انحنت هكذا فوق البئر لم تلاحظ أن جيب مئزرها قد أفرغ ما انطوى عليه في البئر . لقد سقطت قطعة الخسة عشر « سو » في الماء . ولم ترَ كوزيت تلك القطعة ، ولم تسمعها تسقط . لقد سحبت الدلو مليئاً أو يكاد ، ووضعته على العشب .

حتى إذا تم لها ذلك أدركت أن قوتها قد نفذت . كانت راغبة أشد الرغبة في أن تتطلق في الحال ، ولكن الجهد الذي بذلته في ملء الدلو كان عظيماً إلى حد جعل من المتعذر عليها أن تحطو ، بعد ، خطوة

واحدة . لقد اضطرت الى الجلوس اضطراراً . فارتمت على العشب وظلت مقرصة هناك .

واغمضت عينيها ، ثم فتحتها من غير ان تدري لماذا ، ولكنها ما كانت تستطيع ان تفعل شيئاً غير ذلك .

والى جانبها كانت المياه المثارّة في الدلو قد احدثت دوائر تشبه أفاعي النار البيضاء .

وفوق رأسها كانت السماء مغطاة بسحاب سوداء عريضة كانت أشبه بذيول من دخان . لقد بدأ قناع الليل الفاجع وكأنه يُطبق ، في غموض ، على هذه الطفلة .

كان المشتري (جوييتير) يغرب في أعماق الافق .

ونظرت الطفلة بعينين ذاهلتين الى ذلك الكوكب الضخم الذي لم تعرفه ، والذي ملأها رعباً . وفي الحق ان الكوكب كان ، آنذاك ، قريباً جداً من الافق ، وكان يجتاز طبقة كثيفة من الضباب خلعت عليه حمرة رابعة . وضخم الضباب ، وقد مُخضّب على نحو فاجع ، ذلك الكوكب . كان في ميسور المرء أن يقول انه جرح ساطع .

وهبت من جانب السهل ريح باردة . كانت الغابة مظلمة ، ولم يكن فيها أيما حفيف ، أو أيما ومضة من ومضات الصيف تلك المبهمة الفضة . وانتصبت الاغصان الضخمة على نحو مخيف . وصفرت الادغال الهزيلة المشوهة في البقاع الجرداء من الغابة . وتلوت الاعشاب الطويلة ، تحت ريح الشمال ، مثل الانقليس . وتمايلت العواصج مثل أذرع طوال ذات برائن تلمس فرائس لها . وسامت الريح بعض الاعشاب البرية اليابسة ، فمرت في سرعة ، وبدت وكأنها تهرب مذعورة من وجه شيء كان يطاردها . كان كل شيء من حولها فاجعاً حقاً .

ان الظلمة توقع الدوار في الرأس . فالانسان في حاجة الى النور ، وأيما امرئ بغوص في نقيض النهار يستشعر انقباضاً في الصدر . فحين

تقع العين على السواد ، ترى النفسُ القلقَ . وعند الكسوف ، في الليل ، في الظلمة الفاحمة ، يستبد الحصر النفسي حتى بأقوى الرجال . فما من أحد يستطيع أن يسري وحده ، في الغابة ، ليلاً ، من غير أن يرتعد . الظلمات والاشجار - ضربان من الاعماق الرهيبه . إن واقعاً وهيباً ليبتدئ في المدى المبهم . ويتمثل ما لا يمكن تصويره تمثلاً طفيفاً ، في وضوح شعبي ، على بضع خطوات منك . ويطفو في المدى أو في دماغك أنت شيء يتوأم لك غامضاً على نحو غريب ، شيء لا سبيل الى الامساك به مثل أحلام الرياحين الهاجمة . إن في الاقن لأشباحاً ضاربة . وتنتشق روائح الفراغ الاسود الكبير . وبعضك بك الخوف ، وتعصف بك الرغبة في ان تلتفت الى وراه . وتواجه تجاوير الليل ، وشراسة الاشياء كلها ، والصور الجانبية الصامتة التي تتلشى حين تتقدم نحوها ، والتشعبات الغامضة ، وباقات العشب الغضبي ، والبرك الزرقاء الضاربة الى السواد ، والحديداني منعكساً على المأتمني ، ولانهاية الصمت القبرية ، والكائنات المجهولة الممكنة ، وتقابل الاغصان الخفية ، والتواءات الاشجار الخفيفة ، وحفلات طويلة من الاعشاب المرتعشة - تواجه هذا كله من غير سلاح . وليس ثمة شجاعة لا ترتعد ولا تحس بما يشبه العذاب النفسي المبرح . انك لتستشمر شيئاً واعباً ؛ لكأن النفس تترج بالظلام . وهذا الدخول في الظلام مشؤوم ، بالنسبة الى الاطفال ، على نحو يجلب عن الوصف .

الغابات رؤى . وإن خفق أجنحة النفس الصغيرة ليحدث صوتاً كالخشجة نحت قبتها الهائلة .

ومن غير ان تعي ما الذي كانت تعانيه ، استشمرت كوزيت ان مدى الطبيعة اللانهايي الاسود يمسك بها . لم يعد الذعر وحده هو الذي يكتلها ، ولكن شيء ما أشد فظاعة حتى من الذعر . وارتعدت . وانما تعجز الكلمات عن ان تقول اي شيء غريب انطوت عليه تلك

الرعدة التي اثلجتها حتى اعماق الفؤاد . وغدت عينها ضاربة . لقد أحست انها قد تضطر الى العودة الى هناك في الساعة نفسها من الليلة التالية .

ثم إنها شرعت - بضرب من الفريزة ، ولكي تخرج من هذا الوضع الفريد الذي لم تفهم منه شيئاً ولكنه يروّعها - تعدت بصوت عال : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، إلى العشرة ؛ حتى اذا انتهت ، عاودت للعدّ من جديد . ومكنتها ذلك من استعادة الادراك الواقعيّ للاشياء المحيطة بها . واستشعرت البرد في يديها اللتين تبللتا من جراء استقاها من البئر . ونهضت . كان الخوف قد عاودها ، وكان خوفاً طبيعياً لا سبيل الى دفعه . ولم يجلّ في ذهنها غير خاطر واحد : ان تقرّ . ان تقرّ بكل ما في قدمها من قوّة ، عبر الغابات ، عبر الحقول ، الى البيوت ، الى النوافذ ، الى الشوارع المضاة . ووقعت عينها على الدلو الذي أمامها . لقد كان الذعر الذي اوقعته السيدة تينارديه في فؤادها شديداً الى درجة جعلتها لا تجرؤ على المضي من غير ان تحمل دلو الماء . وقبضت على عروته بيديها الاثنتين . ولم توفق الى رفع الدلو الا بشق النفس .

وخطت هكذا عشر خطوات او نحوها . ولكن الدلو كان مليئاً ، وكان ثقيلاً ، فاضطرت الى وضعه على الارض . وتنفست لحظة ، ثم امسكت بالعروة ككرة اخرى ، ومضت لسبيلها ، مواصلة السير هذه المرة فترة اطول بعض الشيء . ولكنها اضطرت الى ان تكف عن المسير من جديد . حتى اذا استراحت بضع دقائق ، استأنفت السير . وانما مشت منخفضة الى امام ، مطأطئة رأسها مثل امرأة عجوز . لقد وثّر ثقل الدلو ذراعها الهزيلتين وصلبهما . وكانت عروة الدلو تحدر يديها الصغيرتين المبللتين وتلجهما . وبين الفينة والفينة ، كانت تضطر الى التوقف . وكلما توقفت ، كان الماء البارد الذي تطاير رشاشه من الدلو يسقط على ساقيها العاريتين . وانما وقع ذلك في قلب احدى

الغابات ، في موهن من الليل ، وفي الشتاء ، بعيداً عن كل عين بشرية .
كانت طفلة في الثامنة من عمرها . ولم يكن ثمة في تلك اللحظة احد غير
الله يرى هذا الشيء الكئيب .

وأما من غيرك ، وأسفاه !

ذلك بان ثمة اشياء تفتح اعين الاموات في قبورهم .

وقنفت في ضرب من الحشجة الفاجعة . وخنقتها التهنيدات ، ولكنها
لم تجرؤ على البكاء . الى هذا الحد كانت خائفة من السيدة تينارديه ،
حتى وهي بعيدة عنها . كانت تتخيل دائماً ان السيدة تينارديه على
مقربة منها .

وأياً ما كان ، فلم يكن في ميسورها ان تقطع شوطاً حسناً من
الطريق ، على هذه الحال ، وكانت تتقدم في ببطء شديد . لقد حاولت
جهداً ان تقصر فترات راحتها ، وان تسير بين كل منها والاخرى اطول
مسافة ممكنة . وتذكرت في ألم نفسي مرير انها قد تحتاج الى اكثر
من ساعة لكي تصل الى مونفيرماي على هذا النحو ، وان السيدة
تينارديه سوف تضرها . وامتزج هذا الألم النفسي بذعرها الناشئ عن
وحدتها في الغابة ، ليلاً . وأبلاها الاعياء وهي لما تفارق الغابة بعد .
حتى اذا بلغت شجرة الكستناء العجوز التي تعرفها ، وقفت للمرة
الاخيرة ، وقفةً اطول من سابقتها لكي تستريح جيداً . ثم استجمعت
قواها كلها ، ورفعت الدلو ككرة اخرى ، واستأنفت السير في شجاعة .
ومع ذلك فلم تنالك المحلوة الصغيرة المسكينة عن ان تصيح :

— « اوه ! يا السهي ! يا السهي ! »

وفي تلك اللحظة استشعرت فجأة ان ثقل الدلو قد تلاشى . كانت
يدٌ ، بدت لها هائلة ، قد امسكت اللحظة بعروة الدلو ، فهي تحمله
في يسر . ورفعت رأسها . كان شكلٌ اسودٌ ضخم ، مستقيم منتصب
القامة ، يمشي الى جانبها في الظلام . انه رجلٌ كان قد اقبل من

ورائها ، ولم تكن قد احسّت بقدومه . ومن غير ان يقول كلمة ،
كان هذا الرجل قد قبض على عروة الدلو الذي تحمله .
إن قمة غرائز لجميع أزمات الحياة .
ولم تستشعر الطفلة خوفاً ما .

٦

وهو ما قد ينهض دليلاً على

ذكاء بولا تروويل

في أوّل يوم الميلاد نفسه ذلك ، من عام ١٨٢٣ ، مشى رجل "فترة"
طويلة في أشدّ أقسام و جادة المستشفى ، في باريس وحشة وانعزالاً .
وكانت تبدو على وجه هذا الرجل سباً من يبحث عن مكان بيت فيه ؛
ولقد تراهى وكأنه يؤثر الوقوف عند أكثر البيوت تواضعاً في ذلك
الطرف الحرب من ضاحية و سان مارسو ، .
رلسوف نرى في ما بعد ان ذلك الرجل استأجر ، في الواقع ،
غرفة في ذلك الحي المنعزل .

وكان هذا الرجل ، بملابسه وبشخصه كله يحقق النموذج الكامل لما
يمكن ان ندعوه متسوّل المجتمع المترف - بوّس متناهٍ تمازجه نظافة
متناهية . وذلك مزاج نادر جداً يوقع في القلوب ذلك الاحترام المزدوج
الذي نشعر به نحو الرجل الفقير جداً ، ونحو الرجل الفاضل جداً . كان
يعتمر بقبعة مستديرة عريضة في القِدَم ، ومُفرشاة في عناية ، ويرتدي سترة
طويلة (ريدنفوت) بالية مهترئة الحياوط مفصّلة من جوخ خشن أصفر
ضارب الى لون التراب الحديدي ، وهو لون لم يكن شديد الغرابة في

ذلك العهد ، وصدرة واسعة ذات جيوب عميقة الزي ، وبنطلوناً أسود أحال البلى لونه ، عند الركبتين ، الى رمادي ، وجوربين صوفيين أسودين ، ويتعل حذاء غليظاً ذا أبازيم نحاسية . ولقد كان في ميسور المرء ان يزعم انه مؤدب قديم لأسرة كبيرة انقلب من المهجر الى الوطن . ومن شعره الأشيب بالكلية ، ومن جبينه المتغضن ، ومن شفثيه الزرقاوين الضاربتين الى للسواد ، ومن وجهه حيث كل شيء ينم عن الاعياء والسأم من الحياة ، كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه تخطى الستين منذ زمن بعيد . في حين ان خطواته الثابتة وإن تكن بطيئة ، والعزم الفريد الذي يَسِمُ حركاته كلها ، كانت تخيل الى المرء أنه لم يكد يبلغ الخمسين . وكانت لغضنات جبينه حسنة الاتساق فهي قادرة على ان تحبب اليه ايما شخص يتامله في انتباه . وكانت شفثه تنقلص في تعبير عجيب بدا قاسياً ، ومع ذلك فقد كان متواضعاً . أما في أعماق عينيه فكان صفاء فاجع لا سبيل الى وصفه . وكان يحمل بيده اليسرى صرة صغيرة مشدودة بمندبل . على حين كان يتوكأ بيده اليمنى على شبه عصاً قطعت من سياج من الاشجار الشائكة . وكانت هذه العصا قد سُويت في بعض العناية ، ولم تكن لتبدو بشعة جداً . لقد ازبلت عُقدها وُصِّلت فهي ملساء ، ولقد جعل لها من الشمع الأحمر رأس مرجاني . كانت هراوة ، ولكنها بدت عصاً من العصي .

وليس يمتاز تلك الجادة غير قليل من العابرين ، وبخاصة في فصل الشتاء . ولقد بدا أن هذا الرجل يجتنب الناس اكثر مما يسعى الى لقائهم ، ولكن من غير تكلف .

في ذلك العهد كان الملك لويس الثامن عشر يقصد كل يوم تقريباً الى « شوازي لو روا » . كانت احدى نزواته المفضلة . وحوالي الساعة الثانية ، وعلى نحو لا يكاد يتغير ، كان الناس يرون العربة الملكية

وموكب الفرسان الملكي يخترقان «جادة المستفى» بأقصى ما يستطيعان من السرعة .

وكان ذلك يقوم مقام الساعة عند نسوة الحيّ الفقيرات اللواتي كنّ يقلن : « انها الساعة الثانية . ها هو ذا يرجع الى التويلري . »

وكان بعض القوم يركضون ، وكان بعضهم الآخر يتنحّون ، اذ ما ان يمر ملك في شارع حتى تسوده جلبة وضجيج . والى هذا ، فقد كان ظهور لويس الثامن عشر وغيابه مجدثان هزةً انفعالية في شوارع باريس . فقد كان موكبه سريعاً ، ولكنه مهيب . كان هذا الملك العاجز مولعاً بسرعة السّوق . لقد اعوزته المقدرة على المشي فرغب في العَدْو . والواقع ان هذا المُتعدّد كان خليقاً به ان يستشعر مزيداً من السعادة لو ان البرق كان له سائقاً . لقد اخترق الشوارع ، هادئاً قاسياً ، وسط السيوف المسلولة . كانت عربته الضخمة ، المذهبة تذهيباً شاملاً ، المزدانة بأغصان الزنبق المرسومة على مصاريعها ، تكررّ في صخب . كان المرء لا يكاد يجد متسعاً من الوقت لالقاء نظرة عليها . وفي الزاوية الخلفية اليمنى ، فوق وسائل مغطاة بالاطلس الابيض ، كان يُرى وجهٌ عريض ، ثبتت احمر اللون ، وجبينٌ نُضح مند برهة يسيرة على طريقة الطائر الملكي ، وعينٌ فضورٌ ، قاسية حادة ، وابتسامة أشبه بابتسامة الرجل الحسن الثقافة ، وكتافتان ضخمتان ذواتا اهداب حلزونية الشكل منسدلة فوق بذلة من بذلات المواطنين ، والجزءُ الذهبية ، و صليب القديس لويس ، و صليب جوقة الشرف ، ووسام الروح القدس الفضي ، وبطن كبير ، وعصابة عريضة زرقاء . ذلك كان الملك . وخارج باريس ، كان يضع قبعته ذات الريش الابيض على ركبتيه المغلقتين بلفاقي ساق انكليزيتين عاليتين ، حتى اذا عاد الى المدينة وضع قبعته على رأسه ، حانياً هامته بالتحية بعض الشيء . كان ينظر ، في برود ، الى الناس الذين كانوا يبادلونه نظرتهم . وحين ظهر للمرة الاولى في حيّ سان مارسو كان كل ما وُفق

اليه من نجاح مقصوداً على هذه الكلمة التي وجهها احد ابناء الحي الى رفيقه : « ذلك الرجل البدن هو الحكومة . »

واذن فقد كان مرور الملك المحقق حدوثه في الساعة نفسها هو تحدث « جادة المستشفى » اليومي .

ولقد كان واضحاً أن ذلك المتجول ذا السترة الطويلة الصفراء لم يكن من أبناء الحي ، ولعله لم يكن من أبناء باريس ، اذ كان يجمل هذا الحدث . فحين انطلقت العربية الملكية ، عند الساعة الثانية ، نحو الجادة ، بعد اجتازت « لا ساليتيريير » ، تحيط بها كوكبة من فرسان الحرس الملكي الموشاة ملابسهم بالفضة ، بدا ذلك الرجل ذاهلاً ، بل بدا مروّعاً تقريباً . لم يكن ثمة احد غير عند مفرق الزقاق ، فارتدت على جناح السرعة الى ما وراء زاوية الجدار الجانبي ، ولكن هذا لم يجل بين دوق دافريه وبين رؤيته . وكان الدوق دافريه ، بوصفه ضابط الحرس المكلف بمرافقة الملك ذلك اليوم ، جالساً في العربية تجاه الملك . فقال لجلالته : « هوذا رجلٌ تبدو على وجهه سياه بغیضة . » وبصُر به بعض رجال الشرطة الذين كانوا يُخلون الطريق للموكب الملكي ، ايضاً ، فأمر واحد منهم بأن ينبعه . ولكن الرجل غاص في ازقة الضاحية المنعزلة . حتى اذا شرع الليل يهبط فقد الشرطي أثره ، على ما هو ثابت من تقرير تقدم في الليلة نفسها الى الكونت آنغليز ، وزير الدولة ، مدير البوليس .

وحيث أضلّ الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء الشرطي ، استدار ملتفتاً مرات عديدة لكي يتأكد من ان احداً لا يتبعه . وعند الساعة الرابعة والربع ، يعني بعد هبوط الليل ، مر امام مسرح « لا بورت سان مارتان » حيث كانت تقدم ذلك اليوم مسرحية « المحكوم عليها بالاشغال الشاقة » . وراعه هذا الاعلان المضاء بمصاييح المسرح العاكسة للنور ، إذ توقف عنده ، على الرغم من إسراره في السير ، لكي يقرأه .

وبعد لحظة انتهى الى زقاق « لا بلانشيت » غير النافذ ، ودخل « القصعة الصفيحية » ، حيث كان آنذاك مكتب عربية لانيي . وكانت هذه العربية تنطلق في الساعة الرابعة والنصف . كانت الجياد قد مُقرنت اليها ، وكان المسافرون ، وقد ناداهم السائق ، يتسلقون مسرعين سلم العربية الحديدية العالية .

وتساءل الرجل :

— « هل عندك مقاعد ؟ »

فاجابه السائق :

— « لم يبق غير مقعد واحد ، الى جانبي ، على السدة » .

— « سوف آخذه » .

— « إصعد » .

بيد ان السائق التي ، قبل ان ينطلق ، نظرة على ملابس المسافر الخفيفة ، وصغر صرته ، وتقاضى اجره .

وسأل السائق :

— « اذاهب أنت حتى لانيي ؟ »

قال الرجل :

— « نعم » .

ودفع المسافر أجر الرحلة حتى لانيي .

وانطلقت العربية بهم . حتى اذا اجتازت باب المدينة حاول السائق ان يدخل مع المسافر في حديث ، ولكن هذا الاخير لم يجب بغير كلمات مفردة . وعندئذ آثر السائق ان يصفر ، وان يشتم الحيل .

وتلقع السائق بمعطفه . كان الجو بارداً . اما المسافر فبدا وكأنه لا يفكر فيه . وهكذا اجتازوا « غورني » و « نوبي سور مارن » .

وحوالى الساعة السادسة مساءً ، بلغوا « شيل » . وتوقف السائق ، لكي

يربيع جياده من عناء الرحلة ، امام فندق سائقي العربات المقام في الابنية للقديسة من الدير الملكي .

وقال الرجل :

- « سوف أترجل هنا » .

وامسك بصرته وعصاه ، ووثب من العربية .

وبعد لحظات اختفى عن العيان .

إنه لم يدخل الى الفندق .

حتى اذا انطلقت العربية بعد بضع دقائق قاصدة الى لانبي لم تلقه في

شارع لانبي الرئيسي .

والثفت السائق الى المسافرين الراكبين داخل العربية وقال :

- « هو ذا رجلٌ ليس من هذه المنطقة ، فأنا لا أعرفه . إن مظهره

يدل على أنه لا يملك فلساً ، ومع ذلك فهو لا يتشبث بالدرهم . إنه

يدفع أجر الرحلة الى « لانبي » ثم لا يذهب الى أبعد من « شيل » .

الدنيا ليل ، وجميع البيوت موصدة ، وهو لا يدخل الى الفندق ،

وغن لا نلقاه في طريقنا . ينبغي ان يكون ، اذن ، قد غاص في

باطن الارض . »

ولم يكن الرجل قد غاص في باطن الارض . ولكنه كان قد اجتاز

بخطى واسعة ، تحت جنح الظلام ، الشارع الرئيسي في « شيل » . ثم إنه

انعطف الى الشمال ، قبل ان يبلغ الكنيسة ، سالكا الطريق القروية المؤدية

الى مونفيرماي ، مثل رجل عرف المنطقة واتخذ تلك الطريق من قبل .

وانطلق مسرعاً في تلك السبيل . حتى اذا انتهى الى النقطة التي

تقاطع عندها مع الطريق القديمة التي تنهض الاشجار على جانبيها ، والتي

تمتد من « غانبي » الى « لانبي » ، سمع وقع أقدام يقترّب منه .

فسارع الى الاختفاء في احدى الحفر ، وتربص هناك ريثما أمسى المارة

على مسافة بعيدة . وفي الحق أن ذلك الصنيع كان زيادة في الحذر ، لا

داعي لها ، لأن الليلة كما ذكرنا كانت احدى ليالي كانون الأول الحالكة

جداً . ولم يكن المرء ليرى ، في جهد ، غير نجمين او ثلاثة نجوم ،

في السماء

هنا ، عند هذه النقطة ، كان يُصعدُ الى الكتيب . ولم ينقلب الرجل الى طريق مونفيرماي . لقد انعطف الى اليمين ، عبرَ الحقول ، واتخذ سبيله ، في خطى سريعة ، نحو الغابة .

حتى اذا بلغ الغابة تمهل ، وانشأ بنعم النظر في الأشجار جميعاً ، متقدماً خطوةً خطوةً وكأنه يلتبس أو يتبع طريقاً خفية لا يعرفها احد غيره . وانقضت لحظةٌ بدا فيها وكأنه ضلّ عن سبيله ، ووقف متردداً . واخيراً وصل بتحمسه طريقه في الظلام على نحو موصول ، الى بقعة في الغابة جرداء حيث كان ركام ضخم من الحجارة الضاربة الى البياض . وتقدم مسرعاً الى تلك الحجارة ، وراح يفحصها في عناية ، من خلال ظلام الليل ، وكأنه يستعرضها كما يُستعرض الجند . وكانت على بضع خطوات من ركام الحجارة شجرة ضخمة مظطاة بتلك النوامي الغريبة التي هي نائليل النبات . فضى الى تلك الشجرة ، وأمرّ يده فوق لحاء الجذع ، وكأنما كان يسمى الى ان يتعرف ويحصى جميع النائليل . وتجاه هذه الشجرة ، التي كانت شجرة دردار ، كانت كتناوة مصابة بداء سقوط القشر سقوطاً ذاتياً ، وكانت قد ضمدت بعصابة من الزنك مُتمرت عليها . فما كان من الرجل إلا ان رفع نفسه ، على رؤوس أصابعه ، ولمس عصابة الزنك تلك .

ثم انه قزع الارض ، بقدميه ، عند الفسحة القائمة ما بين الشجرة والحجارة ، فترة من الزمن ، مثل رجل يريد ان يتحقق أن التربة لم تُقلب منذ قريب .

حتى اذا تم له ذلك مضى لسبيله مستأنفاً سيره خلال الغابة .

كان هو ذلك الرجل الذي التقى بكوزيت .

ذلك أنه فيما كان يتخذ سبيله خلال الغابة التي تقطع بعض اشجارها بين الفينة والفينة ، متجهاً نحو مونفيرماي ، بَصَرَ بهذا الظلّ الصغير

الذي كان يشقّ طريقه في أنين ، والذي وضع على الارض حملاً ما ،
ثم رفعه ، واستأنف السير . كان قد اقترب من ذلك الظلّ ، وادرك
انه طفلة صغيرة جداً تحمل دلوّاً هائلاً من الماء . وعندئذ مضى الى
الطفلة ، وأمسك بعروة الدلو في صمت .

٧

كوزيت مع المجهول

جنباً الى جنب ، وفي غمرة الظلام

- ولم تستشعر كوزيت ، كما قد قلنا ، خوفاً ما .
وتحدّث الرجل اليها . كان صوته رزيناً يجاور المس .
- « إن هذا الذي تحمله ثقيل جداً عليك ، يا بُنَيَّتِي . »
فرفعت كوزيت رأسها وأجابت :
- « نعم ، يا سيدي . »
وأضاف الرجل :
- « أعطني اياه . سوف أحمله عنك . »
وخلت كوزيت الدلو . وانثأ الرجل يمضي الى جانبها .
وقال مخاطباً نفسه :
- « الواقع انه ثقيل جداً . »
ثم أردف :
- « ايتها الصغيرة ، ما سنك ؟ »
- « ثماني سنوات ، يا سيدي . »
- « وهل أقبلت على هذا الشكل من مكان بعيد ؟ »

- « من النبع الذي في الغابة . »
– « وهل انت ذاهبة الى مكان بعيد ؟ »
– « انه يبعد ربع ساعة كاملة ، من هنا . »
واعتصم الرجل بالصمت لحظة ، ثم قال فجأة :
– « اذن فليس لك أم ؟ »
فاجابت الطفلة :
– « لست ادري . »
وقبل ان يجد الرجل منسماً من الوتت لاستئناف الكلام ، اضافت :
– « لا اعتقد . ان جميع الاطفال لهم أم . اما انا فليس لي أم . »
وبعد لحظة من الصمت ، اردفت :
– « أعتقد انه لم يكن لي أم في يوم من الايام . »
وكفّ الرجل عن السير ، ووضع الدلو على الارض ، ثم انحنى ،
ووضع يديه على كتفي الطفلة ، محاولاً ، في جهد ، ان ينظر اليها ،
وان يرى وجهها في الظلام .
وارتسم وجه كوزيت الممزول الضعيف البنية ارتساماً غامضاً تحت
ضوء السماء القاتم .
وقال الرجل :
– « ما اسمك ؟ »
– « كوزيت . »
وبدا وكأن الرجل عرّفته رجفة كهربائية . وعاود النظر اليها ، ثم
رفع يديه عن كتفيها ، وتناول الدلو ، واستأنف السير .
وبعد لحظة ، سأل :
– « اينها الطفلة الصغيرة ، ابن تكتين ؟ »
– « في مونفيرماي ، اذا كنت تعرفها . »
– « إلى هناك نحن ذاهبان ؟ »

- « نعم يا سيدي . »
وسكت كرة اخرى ثم اضاف :
- « ومن الذي ارسلك الى الغابة لتجلبى الماء في هذه الساعة
من الليل ؟ »

- « مدام تيناردييه . »
وتابع الرجل في جرس حاول ان يجعله لامبالياً ، ولكنه كان
ينطوي برغم ذلك على ارتعاشة فريدة :
- « وماذا تعمل مدام تيناردييه هذه ؟ »
فقال الطفلة :

- « إنها سيديتي . انها تدير الفندق . »
فقال الرجل :
- « الفندق ؟ حسن ، سوف اذهب وأبيت هناك هذه الليلة . دليني على
الطريق . »

فقال الطفلة :
- « نحن ذاهبان الى هناك . »

ومشى الرجل في سرعة بالغة . وتبعته كوزيت من غير ما عسر .
إنها ما عادت تتشعر التعب . وبين الفينة والفينة ، كانت ترفع عينها نحو
هذا الرجل في ضرب من السكون والثقة التي تمتنع على الوصف . انها لم
تعلم قط ان تلتفت الى العناية الالهية وتصلي ، ومع ذلك فقد أحسّت
في صدرها بشيء يشبه الامل والبهجة ، شيء ارتفع نحو السماء .

وانقضت بضع دقائق ، وتكلم الرجل :

- « اليس هناك خادم في فندق مدام تيناردييه ؟ »

- « لا ، يا سيدي . »

- « هل أنت وحدك ؟ »

- « نعم ، يا سيدي . »

وتقضت فترة اخرى من الصمت . ورفعت كوزيت صوتها :

- « يعني ان هناك بنتين صغيرتين . »

- « أيّ بنتين صغيرتين ؟ »

- « بونين وزيلما . »

وبسطت الطفلة ، على هذه الشاكلة ، الاممين الرومانتيكيين العزيزين على السيدة تيناردييه .

- « ومن بونين وزيلما ؟ »

- « انهما آنسما مدام تيناردييه ، وفي استطاعتك ان تقول بنتيهما . »

- « وما تفعل هاتان البنتان ؟ »

فقال الطفلة :

- « اوه ، انهما دميّتان جميلتان ؛ شيّتان عليهما ذهب ، انهما مليّتان

الشغل . انهما تلعبان . وانهما تتسليان . »

- « طول النهار ؟ »

- « نعم يا سيدي . »

- « وانتِ ؟ »

- « أنا ! أنا اشتغل . »

- « طول النهار ؟ »

ورفعت الطفلة عينيها الواسعتين اللتين توقفت فيها دموعه لم يكن من

المبسور رؤيتها في الظلام ، واجابت في رقة :

- « نعم ، يا سيدي . »

ثم اضافت بعد فترة من الصمت :

- « وفي بعض الاحيان ، حين انهي عملي ، وتوغبان هما في ذلك ، أتسلى

أنا ايضاً . »

- « وكيف تتسليين ؟ »

- « وقد ما أستطيع . انهم يتوكونني وحدي ، ولكن ليس عندي

لعب كثيرة . و « بونين » و « زيلما » لا تسمحان لي بان ألعب بلعبهما ، ولا

يوجد عندي غير سيف وصاحي صغير ليس اكبر من هذا .
واظهرت الطفلة خنصرها .

-- « وليس بقاطع أبداً؟ »

فقلت الطفلة :

- « بلى ، يا سيدي . انه يقطع الحسّ ورؤوس الذباب .
وبلغا القرية ؛ وقادت كوزيت الغريب عبر الشوارع . لقد اجتازا
بالخبز ، ولكن كوزيت لم تفكر بالخبز الذي كان عليها ان تشتريه . ولم
يوجه اليها الرجل ايما سؤال آخر ، معتصماً بصمت فاجع . حتى اذا تخطيا
الكنيسة ، سأل الرجل كوزيت حين رأى تلك الدكاكين كلها :

- « إذن ، فهذا أوان السوق الموسمية ؟ »

- « لا ، يا سيدي ، انه عيد الميلاد . »

وحين اقتربا من الفندق ، مست كوزيت ذراعه في جزع .

- « ميو ؟ »

- « ماذا ، يا بنيتي ؟ »

- « لقد صرنا على مقربة من البيت . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « أتحب ان تدعني احمل الدلو الآن ! »

- « لماذا ؟ »

- « لان مدام تيناوديه تضربني اذا وات شخصاً يحمله عني .

واعطاها الرجل الدلو . وبعد لحظة ، كنا بباب المطعم الحثير .

ما أبغض ان تضيف فقيراً

ربما كان غنياً

ولم تمالك كوزيت عن ان تلقي نظرة على الدمية الضخمة التي كانت
ما تزال معروضة في دكان الدمى ؛ ثم قرعت الباب . وفتح الباب ، وظهرت
السيدة تينارديه تحمل شمعة في يدها .

— « آه ، هذا انت ، ايها الشحاذة الصغيرة ! الحمد لله ، لقد مشيتِ على
بهلك اكانت نلعب ، الوقعة ! »
فقال كوزيت مرتعدة :

— « سيدتي ، هناك رجل سيد يريد ان ينزل في الفندق . »
وفي مرعة بالغة ، استبدلت السيدة تينارديه بسياها الضاربة انسراحة
وجه متوردة — وتلك القدرة على الاستبدال يتفرد بها الفنـدقيون ، فهم
يصطنعونها لحظة بشاؤون — ونظرت الى الوافد الجديد بعين متلهفتين .
وقالت :

— « اهو هذا السيد ؟ »

فأجابها الرجل ، رافعاً يده الى قبعته :

— « نعم ، يا سيدتي . »

إن المسافرين الاغنياء ليسوا على هذا اللطف كله . ومن هنا كان في هذه
الايامه ، وفي مشهد ملابس الرجل وامتعته التي استعرضتها السيدة تينارديه
بنظرة واحدة ، ما جعل الملامح المحببة تختفي ، والسيما الضاربة تعساود
الظهور . وازافت في جناف :

— « ادخل ، ايها الرجل الساذج . »

ودخل الرجل الساذج . والقت السيدة تيناردييه نظرة اخرى عليه ، متأملة على نحو خاص في سترته الطويلة التي كانت بالية بالكلية ، وقبعته المنكسرة بعض الشيء . وبهزة رأس ، وبهزة عين ، وتفرض أنف ، شاورت زوجها الذي كان لا يزال يعاقر الخمر مع سائقي العربات . واجاب الزوج بهزة البتابة تلك التي تعني حين 'تردّف بحدّ الشفتين ، في مثل هذه الحال ' فقر مدقع ' . وعندئذ صاحت السيدة تيناردييه :

- « آه . ايها الرجل الفاضل ، انا آسفة جداً ، ولكن ليس عندي مكان . »
فقال الرجل :

- « ضعيني حيث شئت . في العلية ، في الاسطبل . سوف ادفع
وكأنني احتل غرفة . »

- « اربعون سو . »

- « اربعون سو . ولكن الاجرة عشرون سو ليس غير . »

- « مقدماً . »

فهمس احد سائقي العربات في اذن السيدة تيناردييه :

- « اربعون سو ا ولكن الاجرة عشرون سو ليس غير . »

فاجابت السيدة تيناردييه بصوت مهبوس ايضاً :

- « ولكنها اربعون بالنسبة اليه . انا لا أنزل الفقراء في فندقتي

بأقل من ذلك . »

وأضاف زوجها في رقة :

- « هذا صحيح . إن قبول هذا الصنف من الناس يؤدي الى

خراب المؤسسة . »

وفي غضون ذلك ، كان الرجل - بعد ان ترك عصاه وصرته على

أحد المقاعد - قد جلس إلى طاولة كانت كوزيت قد وضعت عليها ،

في سرعة ، كأساً وزجاجة من الحجر . كان البائع المتجول الذي طلب
دلو الماء قد مضى هو نفسه فحمله الى فرسه . وكانت كوزيت قد
انقلبت الى مكانها تحت طاولة المطبخ واستأنفت حبكها .

ولم تَسْ شفتا الرجل الحجر التي صبها في كأسه إلا نادراً . كان يتأمل
الطفلة في انتباه عجيب .

كانت كوزيت بشعة . ولعلها كانت خليقة بان تكون جميلة لو كانت
سعيدة . ولقد سبق لنا ان رسمنا هذا الوجه الصغير الكئيب رسماً
اولياً . كانت كوزيت مهزولة ، شاحبة . كانت في الثامنة من عمرها ،
ولكن الناظر اليها كان يظن انها لم تكبد تتجاوز السادسة . كانت عيناها
الواسعتان ، الفارقتان في ضرب من الظلام العميق ، مطفأتين تقريباً من
أثر البكاء الموصول . وكانت لزوايا فمها التواءة الألم النفسي المألوف تلك ،
التي تَوى عند المحكوم عليهم والمرضى بأدواء لا يبرء منها . وكانت
يذاها ، كما حزوت أمها ، مليقتين بالشقوق الناشئة عن البرد . لقد كان
في ضوء النار الذي شعّ من حولها في تلك اللحظة ما ابرز زوايا
عظامها ، وجعل هزالها واضحاً على نحو مخيف . واذ كانت ترتعد ابدأ ،
فقد تعودت ان تشدّ احدى ركبتيها الى الاخرى . ولم يكن ثوبها كله
غير خرقة خليقة بان تثير الاشفاق في الصيف ، والذعر في الشتاء . لم
يكن على جسدها غير نسيج قطني مليء بالثقوب . إنه لم يعرف خرقة
واحدة من الصوف . وكانت ملابسها تلك تكشف عن بشرتها هنا
وهناك ، وكان في ميسور المرء ان يتبين عليها بقعاً سوداء وزرقاء
تشير الى المواطن التي لمستها السيدة تينارديه منها . كانت ساقاها
العاريتان حمراوين خشنتين . وكانت تجاوبف ترّقوتها تفجّر الدمع
من عيني الناظر . كان شخص هذه الطفلة كله ، مشيتها ، وهيتها ،
وجرس صوتها ، والفترات بين كل كلمة من كلماتها وبين الاخرى ،
ونظراتها ، وصمتها ، واقتصادها في الحركة - كان ذلك كله يُفصح عن

فكرة وحيدة : الخوف .

كان الخوف منشوراً عليها . كانت مغطاة به ، اذا جاز التعبير . لقد ألصق الخوف مرفقيها بجانبيها ، وردّ عقبيها تحت نتورتها ، وجعلها تحت أقلّ حيز يمكن ، وحملها على ان لا تنفس الا بالقدر الضروري ؛ وكان قد أمسى ما يمكن ان ندعوه عادتها الجسدية ، فلا سبيل الى تغيير تلك العادة إلا اذا قصد بالتغيير الزيادة والتعميد . كان في أعماق حدقتها زاوية يكمن فيها الذعر .

وكان خوفها ذلك من القوة بحيث أنها ، حين رجعت الى الفندق وقد بللت المياه ثيابها كلها ، لم تجرؤ على ان تتقدم نحو النار تحميها لثيابها . لقد انصرفت الى عملها في صمت .

وكانت السبيا التي تطبع محيّا هذه الطفلة ذات الثمانية أعوام كثيبة ، عادةً ، فاجعة ، في بعض الاحيان ، الى درجة تجعلها تبدو ، في بعض اللحظات ، وكأنها في سبيلها الى ان تصبح معتوهة أو شيطانا . لأنها لم تعرف قط ، كما ذكرنا من قبل ، ما هي الصلاة ، وانها لم تطأ قط أرض كنيسة في يوم من الايام . كانت السيدة تينارديه تقول : « وهل عندي متع من الوقت لمثل ذلك ؟ »

ولم يرفع الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء عينيه عن كوزيت .
وفجأة ، صاحت السيدة تينارديه :

« أوه ! لقد نسيت ! اين ذلك الرغيف ؟ »

وسارعت كوزيت الى الخروج من تحت الطاولة ، وفقاً لما لوف عادتها كلما رفعت السيدة تينارديه صوتها .

كانت قد نسيت ذلك الرغيف تماماً . ولجأت الى الوسيلة التي يصطنعها الاطفال الذين يعصف بهم الذعر على نحو موصول . لقد كذبت .

« مدام ، كان الخبز مغلقاً . »

« كان من الواجب عليك ان تقرعي الباب . »

- « لقد فعلت ، يا سيدتي . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « ان الحُجاز لم يفتح . »

فقلت السيدة تينارديه :

- « سوف أرى غداً ما اذا كان هذا صحيحاً . واذا كنت تكذابين

فسوف أرتصك رقصة تعجبك . وفي انتظار ذلك ، أعيدي إليّ قطعة

الحُمة عشر سو . »

وغابت كوزيت يدها في جيب مئزرها ؛ واخضرت لونها . ان قطعة

الحُمة عشر « سو » لم تكن هناك .

وقالت السيدة تينارديه :

- « تعالي . ألم تسميني ؟ »

وقلبت كوزيت جيبيها جائعةً داخلها خارجها ، فلم يكن هنالك شيء .

ما الذي يمكن ان يكون قد حلّ بتلك القطعة النقدية ؟ ولم تجد

المكينة الصغيرة ما تقوله . لقد تحجرت نَجْجراً .

وصاحت السيدة تينارديه :

- « هل أضعتها - قطعة الحُمة عشر سو ؟ أم تريدان ان تسرقها

مني ؟ »

وفي الوقت نفسه بسطت ذراعها نحو السوط المعلق عند زاوية الموقد .

وكان في هذه الحركة الرهيبية ما منح كوزيت القوة على ان تصيح :

- « اغفري لي ، يا سيدتي ! أنا لن أفعل ذلك بعد اليوم . »

ونزعت السيدة تينارديه السوط .

وفي غضون ذلك ، كان الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء يبحث في

جيب صدرته ، من غير ان يلحظ أحدهم هذه الحركة . أما المسافرون

الآخرون فكانوا يجنسون الحُر ، او يلعبون بالورق ، فهم لا يلتفتون

الى شيء .

وتلوت كوزيت بالألم النفسي المرير في زاوية الموقد ، محاولة أن
تضمّ وتخفي أوصالها البائسة نصف العارضة . ورفعت السيدة تينارديه
ذراعها .

فقال الرجل :

- « عفراً ، يا سيدتي ، ولكنني رأيت في هذه اللحظة شيئاً يسقط
من جيب متّزر هذه الفتاة الصغيرة ويكرّ على الارض . قد يكون
ذلك ما تظنين . »

وفي الوقت نفسه ، انحنى ، وبدا وكأنه يبحث في ارض المكان
لحظة من الزمن .

ثم قال وهو ينهض :

- « هكذا تماماً . ها هي ذي . »

وقدّم قطعة نقدية فضية الى السيدة تينارديه .

فقال : « أجل ، هذه هي . »

ولم تكن هذه تلك ، اذ كانت قطعة من فئة العشرين « سو » ،
ولكن السيدة تينارديه وجدت فيها ربحاً لها . ووضعت القطعة النقدية
في جيبها ، واكتفت بالقاء نظرة ضاربة على الطفلة ، قائلة :

- « لا تدعي ذلك يحدث مرةً اخرى ، مدى الدهر . »

ورجعت كوزيت الى ما كانت السيدة تينارديه تدعوه « جُجرها » .
وشرعت عيناها الواسعتان ، المسترّتان على المسافر المجهول ، تفحصان
هن شيء لم تعرفه قط من قبل . وكان ذلك لا يزال مجرد دهش ساذج ،
ولكن ضرباً من الثقة المشدوّهة كان يمازجه .

وسألت السيدة تينارديه المسافر :

- « بالمناسبة ، هل تريد عشاء ؟ »

ولم يجيبها . لقد بدا وكأنه يفكر تفكيراً عميقاً .

ولثلثت * السيدة تينارديه :

- « ما هذا الرجل ؟ إنه متسول مخيف . هو لا يملك فلساً يتعشى به . أيعتزم ان يدفع اليّ أجر مبيته فقط ؟ من حسن الطالع ، على اية حال ، انه لم يفكر في سرقة المال الذي كان على الارض . »
وُفتح باب ، وأقبلت إييونين وآزيما .

كانتا فتاتين صغيرتين جميلتين حقاً ؛ وكانتا مدينتين اكثر منهما ريفيتين ، شديدتي الفتنة ، احدهما يجداولها الكتناية الحسنة الصقال ، والاخرى بضافئرها الطويلة السوداء المنسدلة على ظهرها ؛ وكانت كل منهما نشيطة ، نظيفة ، مبتلثة ، ناضرة ، تطفح صحة الى درجة تجعل النظر اليها بهجة ومنتعة . كانتا ترتديان ملابس توقع الدفء في جسديهما ، ولكن في فنّ أموميّ جعل غلظّ النسيج لا يذهب بشيء من دلال الزينة . لقد وقّيتا شر الشتاء من غير ما يحور الربيع . وأراقت هاتان الفتاتان الصغيرتان الضياء من حولهما . والى هذا ، فقد كانتا قابضتين على زمام السلطة . ففي زينتهما ، وفي بهجتهما ، وفي الضجة التي احدثتها كانت ثمة سيادة مطلقة . وحين دخلتا ، قالت السيدة تينارديه لها في جرس مقرّع كان يمور بالهيام :

- « آه ، انتا هنا اذن ، ايها الطفلتان ! »

ثم إنها وضعتها على ركبتيها ، الواحدة إثر الاخرى ، وانشأت تلتس شعرهما عاقدةً أشراطتهما ، لتتركها آخر الامر تذهبان بعد ان هزتها تلك الهزة الخاصة بالامهات ، وصاحت :

- « أما رديئتا المندام ! »

ومضتا وجلستا قرب نار الموقد . وكانت لدهيها دمية ، فراحتا تقلابها على رُكبتها ظهراً لبطن وبطناً لظهر ، مغرّدين مختلف ضروب التفريد . وبين الفينة والفينة ، كانت كوزيت ترفع عينها عن زرّدها ، وتنظر

* لثلثت كلامه : لم يبيته .

اليها في كآبة بينا هما تلعبان .

ولم تنظر إيونين وآزليما الى كوزيت . فقد كانت عندهما شبه بكية . إن هاته الفتيات الصغيرات تبلغ اعمارهن ، مجتمعات ، ثمانية وعشرين عاماً . ومع ذلك فقد كن في تلك السن يمثلن المجتمع البشري كله : الحسد من جانب ، والازدراء من الجانب الآخر .

كانت دمية الشقيقتين تينارديه ناصئة جداً ، عتيقة جداً ، محطمة كلياً . ولقد بدت برغم ذلك رائعة في عيني كوزيت التي لم يكن لها في يوم من ايام حياتها دمية ، دمية حقيقية ، اذا اردنا ان نستعمل مصطلحاً يفهمه الاطفال جميعاً .

ونجاة ، لاحظت تينارديه الزوجة - التي كانت لا تقفأ تذرع العرفة جيئة وذهاباً - أن انتباه كوزيت كان مشوشاً ، وانها بدلاً من ان تنصرف الى العمل كانت مشغولةً بالفتاتين الصغيرتين اللاعتين .
وصاحت :

- « اوه ، لقد قبضت عليك ! تلك هي الطريقة التي تعملين بها ! سوف أكرهك على العمل بضربات السوط . اجل ، سوف افعل ! »
ومن غير ان يغادر الغريب كرسيه ، التفت الى السيدة تينارديه ، وقال مبتسماً في خجل :

- « ولكن ، يا سيدي ، دعها تلعب ! »

ولو قد صدرت هذه الرغبة عن رجل كان قد أكل شريحة من لحم الضأن ، وشرب زجاجتين من الخمر اثناء تناوله العشاء ، ولم يكن له مظهر شحاذ موّوع ، اذن لكانت أمراً مطاعاً . أما ان يجرؤ رجل يعتبر بتلك القبعة فيسمح لنفسه بابداء رغبة ما ، وأما ان يجرؤ رجل يرتدي تلك السترة الطويلة فيسمح لنفسه بأن تعبر عن ارادة ما ، فذلك ما اعتقدت السيدة تينارديه ان من غير الجائر التسامح به . فأجابت في حدة :

- « يجب ان تعمل ، لأنها تأكل . أنا لا أعيها لكي لا تعمل شيئاً . »

فقال الغريب في ذلك الصوت العذب الذي يتناقض الى حد عجيب مع ثيابه الشبيهة بثياب الشحاذين ، وكنفيه الشبيهتين بكتفي الحالمين :
- « وما الذي تعمله ؟ »

وتنازلت تيناردييه الزوجة فأجابت :

-- « جوارب ، اذا شئت . جوارب لبنتي الصغيرتين اللتين لا تملكان شيئاً من ذلك يستحق الذكر ، واللتين مستظبران ، بعد قليل ، الى السير حافيتين . »

ونظر الرجل الى رجلي كوزيت المرابون المثيرتين للشفقة ، وأضاف :

- « ومتى سننهي هذين الزوجين من الجوارب ؟ »

« انها في حاجة بعدد الى ثلاثة ايام او اربعة ايام على الاقل . يا لها من فتاة كسول ! »

- « وكم يساوي هذان الزوجان من الجوارب حين يتم صنعهما ؟ »
والقت السيدة تيناردييه عليه نظرة احتقار .

- « ثلاثين سو ، على الاقل . »

فقال الرجل :

- « انعطيني إياهما مقابل خمسة فرنكات ؟ »

فصاح سائق عربة كان يستمع الى الحديث ، في ضحكة مجلجلة :

« يا الهي خمسة فرنكات ! انها خدعة اخمس رصاصات ! »

واعتقد تيناردييه انه يتحتم عليه ان يتولى الكلام :

- « نعم ، يا سيدي ، اذا كان ذلك يرضي هواك ففي استطاعتك ان

تأخذ زوجي الجوارب. هذين بخمسة فرنكات . نحن لا نستطيع أن نضنّ على النزلاء بشيء . »

فالت تيناردييه الزوجة في طريقةها المختصرة الجازمة :

- « يجب ان تدفعها في الحال . »

فاجاب الرجل :

- « سوف اشترى زوجي الجوارب هذين . »
ثم اضاف صاحباً من جيبه قطعة من ذات الحمة الفرنكات ووضعها
على الطاولة :

- « ولست ادفع ثمنها . »

ثم التفت نحو كوزيت :

- « والآن ، لقد اصبح شغلك ملكاً لي . إالعي يا بنيّتي ! »
واهتزّ سائق العربات لقطعة الحمة الفرنكات اهتزازاً جعله يترك كأسه
ويسرع للنظر اليها .

وصاح بعد ان فحصها :

- « انها حقيقية ، مع ذلك . دولاب خلفي حقيقي ! انها غير مزورة ! »
واقرب تيناردييه . وفي صمت وضع القطعة النقدية في جيبه . ولم يكن
عند السيدة تيناردييه ما تجيب به . لقد عضت شفثها وطات على وجهها
سياً من الحقد .

وفي غضون ذلك ارتعدت كوزيت . وغامت في السؤال :

- « هل هذا صحيح ، يا سيدتي ؟ هل تستطيع ان العب ؟ »

فاجابتها تيناردييه الزوجة في صوت فظيع :

- « العبي ! »

فقال كوزيت :

- « شكراً ، يا سيدتي ! »

وفيا كان فمها يشكر تيناردييه الزوجة ، كانت روحها كلها تشكر المافر .

ورجع تيناردييه الى شرابه . وهمت زوجته في اذنه :

- « من يمكن ان يكون هذا الرجل الاصفر ؟ »

فاجابها تيناردييه في صوت آمر :

- « لقد رأيت اصحاب ملايين في سترات طويلة مثل هذه . »

كانت كوزيت قد تركت زردتها ، ولكنها لم تغادر مكانها . كان من
دأب كوزيت ان تتحرك أقلّ ما يمكنها أن تفعل . وكانت قد اخرجت
من صندوق صغير خلفها بعض الحرق البالية ، وسيفها الرصاصي الصغير .
ولم تلتفت إبيونين وآزيلما ايما التفات لما كان جارياً . كانتا قد انتهتا
منذ لحظة من القيام بعمل خطير : لقد ألقتا القبض على الهرة . وكانتا
قد اطّرحتا الدمية على الارض ، وانصرفت ابيونين ، وهي الكبرى ،
الى تقييط الهرة ، برغم مواثها والنواثها ، بمجموعة من الثياب وبجرق
حمراء وزرقاء . وفيما هي منهكة في هذا العمل الجديّ العسير تحدثت
الى اختها بلغة الاطفال العذبة الفاتنة تلك ، التي تتلاشى طلاوتها ، مثل
بهاء جناحي الفراشة ، حين تحاول ان تحتفظ بها .

- « انظري ! انظري يا اختي ، إن هذه الدمية مسلية اكثر من
تلك . إنها تتحرك ؛ انها تصرخ ؛ انها دافئة . تعالي ، يا اختي ، دعينا
نلعب معها . انها ستكون بنتي الصغيرة . وسأكون أنا سيدة . وسوف
آتي لزيارتك ، وسوف تنظرين اليها ، وشيئاً بعد شيء نشاهدين
شاربيها ، وهذا سوف يدهشك . وبعد ذلك ستشاهدين أذنيها ، ثم
ذنيها ، وسوف يدهشك هذا . وستقولين لي : « آه يا الهي ! »
وسأقول لك : « نعم يا سيدي . إنها بنت صغيرة رزقتها هكذا . » ان
البنات الصغيرات هنّ هكذا الآن . »

وأصغت آزيلما ، في اعجاب ، الى ابيونين .
وفي الوقت نفسه ، كان الشاربون يُغنون اغنية بذيئة ضحكوا لها
على نحو كافٍ لأن يزلزل العرفة . وشجعهم تيناردييه وصاحبهم .
وكما تصنع الطير عشاً من كل شيء ، كذلك يصنع الاطفال دمية
من ايما شيء . ففيما كانت ابيونين وآزيلما تقمّطان الهرة ، كانت
كوزيت ، بدورها ، قد قمّطت السيف . حتى اذا تمّ لها ذلك مددته
على ذراعها ، واخذت تغني له في رقة لكي ينام .

ان الدمية احدى الضرورات القسوى ، وهي في الوقت نفسه احدى
غرائز الطفولة الانثوية الأشد فتنة . ففي العناية بها ، وكسوتها ،
وتزيينها ، وإلباسها ثيابها ، ونزع ثيابها ، واعادة اللباس من جديد ،
وتعليمها ، وتوبيخها قليلاً ، وهددتها ، وتفنيجها ، وتنويمها ، والتوهم
ان شيئاً ما هو شخص ما - في ذلك كله يكمن مستقبل المرأة كله .
وفيا هي نحلّم وتهذر ، وفيا هي تصنع رزماً صغيرة وأقمطة صغيرة ،
وفيا هي تخطط فساتين صغيرة ، واجزاء عليا من الفساتين الصغيرة ،
وصدرات ذوات اكمام ، تصبح الطفلة فتاة صغيرة ، وتصبح الفتاة
الصغيرة فتاة كبيرة ، وتصبح الفتاة الكبيرة امرأة . وهكذا يجتل اول
اطفال المرأة محل دميتهما الاخيرة .

والفتاة الصغيرة من غير دمية تكاد ان لا تقلّ شقاء عن امرأة من
غير اطفال ؛ وهي تعدل هذه المرأة استعالة تاماً .

واذن ، فان كوزيت كانت قد اتخذت من سيفها دمية .

واقتربت تيناردييه الزوجة من الرجل الاصفو . وقالت في ذات
نفسها : « ان زوجي على صواب . لعله ان يكون مسيو لافيت .
ان بعض الاغنياء مضحكون الى هذا الحد . »

وتقدمت ، وأراحت مرفقها على الطاولة التي كان جالساً اليها .

وقالت :

- « مسيو ... »

ولم يكذب الرجل يسمع كلمة مسيو هذه ، حتى التفت . ان السيدة
تيناردييه لم تناديه من قبل إلا بقولها ايها الرجل الطيب ، او ايها
الرجل الساذج .

وتابعت كلامها ، خالعة على وجهها أعذب ملامحه ، التي كانت ادعى
الى الازعاج من سياتها الضاربة :

- « ترى ، يا سيدي ، اني راغبة في ان تلعب الطفلة . انا لا

اعارض في ذلك . ولكن هذا جيد اذا تم مرة واحدة ، لانك رجل
كريم . غير أنها ، كما ترى ، بنت فقيرة . إن عليها ان تشتغل .
فسألها الرجل :

- « واذن ، فالطفلة ليست بنتك ؟ »

- « أوه ، يا الهي ! لا ، لا ، يا سيدي ! إنما شحاذة صغيرة
أنزلناها عندنا من باب الشفقة والاحسان . إنها طفلة شبه معترهه . ولا
بدت أن في دماغها ماء . إن رأسها كبير ، كما ترى . ونحن نعنى بها جهد
طاقتنا ، لاننا لسنا اغنياء . نحن نكتب الرسائل الى مسقط رأسها ،
ولكننا لم نلتق جواباً منذ ستة أشهر . ولقد أصبحنا نعتقد ان أمها
ماتت من غير شك . »

فقال الرجل :

- « آه . . »

واستغرق في تفكيره .

وأضاف تيناردييه الزوجة :

- « إن تلك الأم لم تكن شيئاً ذا شأن . لقد هجرت طفلتها . »

وطوال هذه المحادثة ، لم ترفع كوزيت عينها عن السيدة تيناردييه ،
فكان غريزة من الغرائز أشعرتها بأنهما كانا يتحدثان عنها . وسمعت بضع
كلمات هنا وهناك .

وفي غضون ذلك كان الشاربون ، وكل منهم ثلاثة أرباع سكران ،
يكررون لازمتهم الفذرة في ابتهاج مضاعف . كانت كلاماً مرحاً مفيهاً
كثير التوابل يتردّد فيه اسما « العذراء » و « يسوع » . وكانت السيدة
تيناردييه قد مضت لتنهض بنصيبها من الطرب . أما كوزيت فكانت
تنظر ، من تحت طاولتها ، الى نار الموقد التي كانت تنعكس من عينها
المسددة . لقد راحت هي ايضاً تهدد ذلك الضرب من الطفل الخرقى
الذي صنعه . وفيما هي تهدده لينام كانت تغني له في صوت خفيض :

لقد ماتت أمي ! لقد ماتت أمي ! لقد ماتت أمي !
وبعد إلحاح جديد متواصل من صاحبة الفندق رضي الرجل الاصفر ،
« المليونير » ، ان يتعشى .

- « ما يجب سيدي ان يأكل ؟ »
فاجاب الرجل :

- « بعض الحبز والخبز . »

وفي ذات نفسها قالت السيدة تيناردييه : « انه شحاذ من غير ريب » .
وواصل الشاربون إنشاد اغنيتهم ، وكذلك واصلت الطفلة -
من تحت الطاولة - انشاد أغنياتها .

وفجأة كفت كوزيت عن الانشاد . كانت قد التفتت منذ لحظة
فأرت دمية ايونين وآزيلما ، وكانتا قد انصرفتا عنها الى المرة وتركتها
على الارض ، على بضع خطوات من طاولة المطبخ .

ثم انها أزلت السيف الممط الذي لم يكن ليرضيها غير نصف ارضاء ،
وأجالت بصرها في ارجاء الغرفة بتؤدة . كانت السيدة تيناردييه تمس في
أذن زوجها وتعدّ بعض الدراهم ، وكانت إيونين وآزيلما تلاعبان المرة ،
وكان النزلاء يأكلون او يشربون او يفضون . إن عيناً واحدة ما كانت
تنظر اليها . ولم يكن عندها لحظة تضيعها . فزحفت من تحت الطاولة على
يديها وركبتيها ، واستيقنت مرة اخرى من ان احداً ما كان يراقبها ،
ثم انسلت في سرعة نحو الدمية واستولت عليها . وما هي الا لحظة حتى
كانت في مكانها جالسة جامدة ، غير ملتفتة الا على نحو يمكنها من ابقاء
الدمية التي كانت تحملها بين ذراعيها ، في الظلام . كانت سعادة اللعب بدمية
نادرةً عندها الى حد خلع عليها عنف اللذة الحسية .

ان احداً لم يرها غير المسافر ، الذي كان يتناول عشاءه المزيّل ،
في بطء .

ودامت هذه البهجة نحواً من ربع ساعة .

ولكن ، على الرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذتها كوزيت ، فانها لم تلاحظ أن احدى رجلي الدمية كانت قد نتأت ، وان نار الموقد كانت تضيئها على نحو قوي جداً . ولقتت هذه الرجل الساطعة ، المنبثقة من الظلام ، نظر آزيما ، فجأة ، فقالت لأبيونين :

« أوه ! يا اختي ! »

وكفت الفتاتان الصغيرتان عن اللعب ، وغلب عليهما الذهول . لقد جرؤت كوزيت على ان تأخذ الدمية ! ونهضت ابيونين . ومن غير ان تحلي سبيل الهرة ، مضت الى أمها وبدأت تشدّها من تنورتها .

وقالت الأم :

« اتركيني ! ماذا تريدن مني ؟ »

فقالت الطفلة :

« أمي ! انظري هناك ! »

وأشارت الى كوزيت .

واذ كانت كوزيت مستغرقة كل الاستغراق في نشوة التملك فانها لم ترَ شيئاً ولم تسع شيئاً .

ورأت على وجه تيناردييه الزوجة تلك الانطباعة الخاصة التي تتألف من الفظيع بمتزجاً بالمبتدل ، والتي خلعت على هذا الضرب من النساء اسم إلهات الانتقام .

وهذه المرة ، زادت الكبرياء الجريح في غيظها ايضاً . لقد تخطت كوزيت جميع الحواجز . لقد وضعت كوزيت يدها على دمية « هاتين الآنتين » .

ولو ان قيصرة رأت الى فلاح رومي (موجيك) بيجرب الوشاح الازرق الكبير الخاص بابنها الامبراطوري اذن لما طفت على وجهها غير تلك الانطباعة نفسها .

وصاحت بصوت جعله السُخْط أجش :

« كوزيت ! »

وارتعدت كوزيت وكأن الارض قد زلزلت من تحتها . وتلفتت حولها .
وكررت السيدة تيناردييه :

« كوزيت ! »

واخذت كوزيت الدمية ، ووضعتها على الارض برفق ، وفي ضرب
من التقديس يمازجه اليأس . ومن غير أن ترفع عينها عن الدمية ، ضمت
احدى يديها الى الاخرى ، وأنشأت - وهذا شيء من المروع ان يروى
عن طفلة في تلك السن - قتلها وتلويها . ثم انها - وهو ما لم تستدره
منها اي من انفعالات ذلك اليوم ، لا الركض في الغابة ، ولا نقل دلو
الماء ، ولا ضياع القطعة النقدية ، ولا مشهد السوط ، بل ولا الكلام
للصارم الذي سمعته من السيدة تيناردييه - شرعت تسفح العبرات . لقد
انخرطت في النحيب .

وفي الوقت نفسه نهض المسافر .

وقال لتيناردييه الزوجة :

« ما المسألة ؟ »

فقالت مشيرة باصبعها الى « البرهان المثبت للجريمة » منظرها على

قدمي كوزيت :

« الا ترى ؟ »

وقال الرجل :

« حسن ، وما ذلك ؟ »

فأجابت تيناردييه الزوجة :

« لقد جرؤت تلك الشحاذة على ان تمسّ دمية الطفلين ! »

فقال الرجل :

« وهذه الضجة كلها من اجل ذلك ؟ وأي بأس في ان تلعب

بتلك الدمية ؟ »

وتابعت تيناردييه الزوجة :

- « لقد لمستها بيديها القذرتين ! بيديها الفظيعتين ! »

وهنا ضاغت كوزيت نحيبها .

فصاحت تيناردييه الزوجة :

- « إخرمي ! »

ومضى الرجل ، مباشرة الى الباب المؤدي الى الشارع ، ففتحه ،

وخرج .

ولم يكذب يذهب ، حتى افادت تيناردييه الزوجة من غيابه فرفست

كوزيت ، القابعة تحت الطاولة ، رفعةً جعلت الطفلة تطلق صيحات عالية .

وُفتح الباب من جديد ، وبرز الرجل كرة اخرى ، حاملاً بيديه

الاثنتين تلك الدمية الاسطورية التي تحدثنا عنها ، والتي كانت موضع

اعجاب جميع اطفال القرية منذ الصباح . ووقفها أمام كوزيت ، قائلاً :

- « خذي ، هذه لك ! »

واغلب الظن ان الرجل كان في خلال الوقت الذي قضاه هناك -

وهو يزيد على ساعة - قد لمع على نحو غامض ، وهو في غمرة من

التفكير ، «دكان» الدمى تلك ، المضاهة بالمصاييح وبالشموع على نحو ساطع

الى درجة جعلت في ميسور المرء ان يلحها من خلال زجاج الحانة ،

وكأنها شعلة من النور .

ورفعت كوزيت عينيهما . لقد رأت الى الرجل يُقبل نحوها حاملاً

تلك الدمية وكأنها كانت ترى الى الشمس تُقبل نحوها ، وصمعت هذه

الكلمات التي لم يُسمع بثلتها من قبل : « هذه لك ! » ونظرت اليه ،

ونظرت الى الدمية ، ثم ارتدت الى الوراء في تَوَدُّة ، فاخبت ، أبعد

ما استطاعت الاختباء ، تحت الطاولة ، في زاوية الغرفة .

ولم تبك بعد ، ولم تصرخ بعد . لقد بدت وكأنها ما عادت بجرؤ

على التنفّس .

وغدت تيناردييه الزوجة ، وايونين ، وآزليها ، أشبه بالتائيل .

وكفّ الشاربون أنفسهم عن الشرب . لقد وان سميت مهيب على الحاة
كلها .

واستأنفت تيناردييه الزوجة - وقد فحجرت واصابها البكم - حدسها
ووجهها : « من ذلك المعجوز ؟ أهو شحاذ ؟ أهو مليونير ؟ لعله الاثنان
معاً ، يعني لعله لص . »

اما وجه تيناردييه الزوج فتكشّف عن ذلك التفضن المعبر الذي
يطبع الحيا البشري كلما تجلت فيه الغريزة السائدة بكامل قوتها الوحشية .
لقد نقل صاحب الفندق طرفه من الدمية الى المافر ، ومن المافر الى
الدمية ؛ ولقد بدا وكأنه يستروح هذا الرجل كما يستروح كيس دراهم .
ولم يدم ذلك غير لحظة . لقد تقدّم نحو زوجته وهمس في أذنها قائلاً :
- « هذه الماكينة تساوي ثلاثين فرنكاً على الاقل . كفى بلاهة .
واركعي على ركبتيك أمام هذا الرجل ! »

إن اصحاب الطبائع الفظة ليشاركون اصحاب الطبائع الساذجة في
هذه الحصة ، وهي أنهم لا يعرفون الانتقال التدريجي .
فقال تيناردييه الزوجة ، في صوت ارادت ان يكون عذياً ،
ولكنه كان مركباً كاته من ذلك العسل الحامض - عمل النسوة
الشريات :

- « وبعده ، يا كوزيت ، ألا تريدان ان تأخذي دميته ؟ »

وغامت كوزيت فخرجت من جحرها .

وقال تيناردييه في جرس ملاطف :

- « يا صغيرتي كوزيت . إن السيد يقدم اليك دمية . خذها .

إنها لك . »

ونظرت كوزيت الى الدمية الرائعة في ضرب من الذعر . كان وجهها
لا يزال غارقاً بالدمع ، ولكن عينيها شرعنا تمثلتان ، شأن السماء عند
انبلاج الفجر ، بأشعاعات ابتهاج غريبة . لقد كان الشعور الذي خامرها

في تلك اللحظة يشبه بعض الشيء ذلك الشعور الجدير به ان يخامرها لو
ان احداً قال لها فبأية : « ايها الصغيرة ، انت ملكة فرنسة ! »
وبدا لها أنها اذا ما لمست تلك الدمية انبثق الرعد منها .

وهو ما كان صحيحاً الى حد بعيد ، إذ قالت في ما بينها وبين
نفسها إن تيناردييه الزوجة سوف توبخها وتضربها .

ومع ذلك ، فقد كان الاغراء اقوى منها . وهكذا تقدمت ، آخر
الأمر ، وغضبت في حياء وهي تلتفت نحو تيناردييه الزوجة :
- « أستطيع ، يا سيدي ؟ »

إن ايما تعبير لا يقدر على ان يصف ملامح وجهها التي كانت حافلة
باليأس ، والذعر ، والحبور ، في آنٍ معاً .
وقالت تيناردييه الزوجة :

- « يا الهي ! إنها لك . ما دام السيد قد اعطاك ايها . »
فقال كوزيت :

- « هل هذا صحيح ؟ هل هذا صحيح ، يا سيدي ؟ هل السيدة
لي ؟ »

وتراهى الغريب وقد فاضت عيناه بالدمع . لقد بدا وكأنه بلغ
مرحلة الانفعال تلك حيث لا يتكلم المرء مخافة ان يبكي . وحتى
رأسه لكوزيت انحناءة تؤذن بالموافقة ، ووضع يد « السيدة » في يدها
الصغيرة .

وسارعت كوزيت الى سحب يدها ، وكان يد « السيدة » قد
أحرقتها ، وأنشأت تنظر الى الاوض . وهنا نظرت الى ان نضيف انها
أخرجت لسانها ، في تلك اللحظة ، على نحو مفرط . وفبأية ، استدارت
وأمسكت بالدمية في لفة .

وقالت :

- « سوف ادعوها كاترين . »

وكانت لحظة غريبة تلك التي التقت فيها اسمال كوزيت البالية بعصائب
الدمية وشاشها الموصل بالآزهر الرقيق ، وضغطت عليها .
وقالت :

- « سيدتي ، هل تستطيع ان تضعها على كرسي ؟ »
فاجبتها تيناردييه الزوجة :
- « نعم ، يا بنتي . »

كانت ايونين وآزيلما هما اللتين نظرتا الى كوزيت في حسد .
ووضعت كوزيت كاترين على كرسي ، ثم قعدت على الارض أمامها ،
وظلّت جامدة ، لا تتطرق بكلمة ، متخذة وضع المستغرق في التأمل .
وقال الغريب :

- « لماذا لا فلعين ، يا كوزيت ؟ »
فأجابت الطفلة :
- « اوه ، اني ألعب . »

وفي تلك اللحظة ، كان هذا الغريب ، هذا الرجل المجهول الذي
بدا وكأنه مرسل من لدن العناية الالهية الى كوزيت ، هو الكائن الذي
لا تكره تيناردييه الزوجة أحداً في العالم اكثر مما تكرهه . بيد انها
كانت مضطرة الى ان تكبح جماح نفسها . كانت انفعالاتها أعنف مما
تستطيع ان تحتمل ، وهي التي تعودت المداراة بمحاولتها تقليد زوجها
في جميع اعمالها . وفي الحال أمرت ابنتيها بالابواء الى الفراش ، ثم
التمست من الرجل الاصفر الاذن في أن تدعو كوزيت الى النوم ايضاً ،
مضيفة في جرس أمومي ان الفتاة الصغيرة متعبة اليوم جداً . ومضت
كوزيت الى النوم ، حاملة كاترين بين ذراعيها .

ومضت تيناردييه الزوجة ، بين الفينة والفينة ، الى الطرف الآخر
من الغرفة حيث كان زوجها لسكي تسوي عن نفسها ، كما قالت .
وتبادلت وإياه بضع كلمات كانت من الضراوة بحيث لم تجرؤ على ان

تنطق بها جهاراً :

- « يا له من معتوه عجوز ! ما هذا الذي يدور في خاطره ؟
يأتي الى هنا ويزعجنا ! يريد من هذه المسخ الصغيرة ان تلعب ! ويقدم
اليها دمي ! يقدم دمي من صنف الاربعين فرنكاً الى كبة ابيها
انا باربعين سو ! وبعد قليل ، سوف يقول لها يا صاحبة الجلالة كما
يقولون لدوقة بري !* فهو مالك قواه العقلية ؟ لا بد أنه مجنون ،
هذا الرجل العجوز العجيب ! »

فأجابها تيناوديه :

- « لماذا ؟ المسألة بسيطة جداً . اذا كان يروق له ! أنت انما
يروق لك ان تعمل الفتاة ؛ أما هو فيروق له ان تلعب ! إن له الحق
في ذلك . في استطاعة تزيل الفندق ان يفعل ما يشاء اذا دفع الثمن .
واذا كان هذا العجوز محسناً محباً للبشر فما يضيرك ذاك ؟ واذا كان
معتوهاً فليس هذا من شأنك . لماذا تتدخلين في هذه الامور ، ما دام
يلك مالاً ؟ »

لغة سيّد ومنطق فندقي لا يدع اي منها مجالاً لجواب .

كان الرجل قد أسند مرفقيه الى الطاولة ، واستأنف وضعه التأملي
الحالم . وكان جميع النزلاء الآخريين ، من باعة وسائقي عربات ، قد
نأوا بعض الشيء وكفوا عن الغناء . لقد نظروا اليه من بعيد في ضرب
من الخوف الموقر . فقد كان هذا الرجل المرتدي مثل هذه الاممال
البالية ، الذي يخرج من جيبه القطع النقدية ذوات الخمسة الفرنكات في
كثير من اللامبالاة ، والذي يقدد الدمى الضخمة على فتيات قدرات
ينتعلن احذية خشبية - كان هذا الرجل من غير شك إنساناً سليم الطوية ،
إنساناً راثعاً ومخيفاً .

* Duchesse de Berry (1798 - 1820) زوجة شارل فرديناند الابن الثاني للملك
شارل العاشر ، وكانت ابنة لرنوا الاول ملك نابولي .

وانقضت عدة ساعات . وتلي قداس منتصف الليل ، وانتهت وجبة ما بعد عيد الميلاد ، وانصرف الشاربون ، وأغلقت الحانة ، وهجرت القاعة السفلى ، وخذت النار ، ومع ذلك فقد ظل الغريب في المكان نفسه ، والوضع نفسه . لقد غير ، بين الفينة والفينة ، المرفق الذي كان يستند اليه ، وكان ذلك كل شيء . ولكنه لم ينبس بكلمة منذ ان مضت كوزيت .

واقامت تيناردييه الزوجة وحدها ، وبسبب من اللياقة والفضول ، في القاعة .
وفمغمت : « أيعتزم ان يمضي الليل هكذا ؟ »

وحين اعلنت الساعة الثانية صباحاً ، اعترفت بانها هزمت وقالت لزوجها :
« أنا ذاهبة الى الفراش . في استطاعتك ان تفعل ما يحلو لك » .

وجلس الزوج الى طاولة ما ، في احدى الزوايا ، واضاء شمعة ، وراح يقرأ صحيفة « البريد الفرنسي » .

وانقضت على هذا النحو ساعة او يزيد ، قرأ الفندقى الفاضل في اثناها صحيفة « البريد الفرنسي » ثلاث مرات على الاقل ، من تاريخ العدد الى اسم الطابع . ولكن الرجل الغريب لم يتحرك .

وتحرك تيناردييه ، وسعل ، وبصق ، وتمخط ، وراح يحدث بكرسيه صرياً . ولم يتحرك الرجل . وقال تيناردييه بينه وبين نفسه : « أهو نائم ؟ »
ان الرجل لم يكن نائماً ، ولكن أيما شيء لم يكن قادراً على إيقاظه .
واخيراً نزع تيناردييه قلنسوته وتقدم في رفق وغامر بالقول :

« الا يعتزم سيدي ان يجمع ؟ »

لقد بدا له انه لو قال « ألا يعتزم سيدي أن ينام ، اذن لكان ذلك ثقيل الوطأة اكثر مما ينبغي ، بالغ الابتذال . اما قوله « ان يجمع » فكان ينطوي على ترف وكان يتم عن احترام . ومثل هذه الكلمات لها تلك الخاصة الحفية الرائعة التي تمكنها من تضخيم الفاتورة في صباح اليوم التالي . فالغرفة التي تنام فيها تكلف عشرين سو ؛ على حين ان الغرفة التي تهجع فيها تكلف عشرين فرانكاً .

وقال الغريب :

- « نعم . انت على صواب . اين الاسطبل ؟ »

فاجابه تيناردييه في ابتسامة :

- « سيدي ، انا سوف ادلّ سيدي على الطريق . »

واخذ الشمعة ، واخذ الرجل صرّته وعصاه ، وقاده تيناردييه الى غرفة

في الدور الاول . كانت ذات بهاء نادر ، واثاث من خشب الماهوغاني ،

ومرير رفيع المهاد ، وسجّيف من نسيج قطني أحمر .

وقال المسافر :

- « ما هذه ؟ »

فأجاب صاحب الفندق :

- « إنها غرفة عرسنا الخاصة . نحن نحتل غرفة بمائة لهذه ، انا وزوجتي .

ان هذه الغرفة لا تفتح غير ثلاث مرات او اربع مرات في العام . »

فقال الرجل في خشونة :

- « انا افضل الاسطبل عليها . »

وبدا تيناردييه وكأنه لم يسمع هذا الجواب الذي تعوزه الياقة .

واضاء شمعتين لم تما من قبل ، كانتا قائمتين فوق الموقد . وكانت نار

حسنة التأجج تضطرم في الموقد . وعلى غطائه ، تحت صندوق زجاجي ،

كانت قبعة نسوية مصنوعة من خيوط فضية ومزدانة برسوم زهر البرتقال .

وقال الغريب :

- « ما هذا ؟ »

فأجاب تيناردييه :

- « سيدي ، إنها قبعة زفاف زوجتي . »

ونظر الغريب الى ذلك الشيء نظرةً بدت وكأنها تقول : « لقد

انقضت إذن لحظةٌ كانت فيها هذه القولة عذراء . »

ولكن تيناردييه كان يكذب . فحين استأجر هذا البيت الحقير ليعوته

الى مطعم ، وجد الغرفة مؤثثة على ذلك النحو ، واشترى هذا الاثاث ، ورسوم زهر البرتقال لاعتقاده بأن ذلك يلقي ظلًا انيقاً على قرينته ، ، ويخلع على مؤسسته ما يدعوه الانكليز الجلال . حتى اذا التفت المسافر ككرة اخرى لم يجد صاحب الفندق . كان تينارديه قد انسل في لباقة من غير ان يجرؤ على ان يتنمى للغريب ليه سعيدة ، لعدم رغبته في ان يعامل بمودة غير محتشة رجلاً كان يعترزم ان يسلم جلدته ، في كثير من الابهة ، صباح اليوم التالي .

لقد انقلب صاحب الفندق الى غرفته . وكانت زوجته في صرورها ، ولكنها لم تكن نائمة . فما إن سمعت وقع قدمي زوجها ، حتى التفتت اليه وقالت :

- « هل تعلم اني سوف اطرد كوزيت ، غداً ، من البيت ؟ »

فأجابها تينارديه في برود :

- « اجل أعلم ذلك حقاً . »

ولم يتبادلا كلاماً آخر ، وما هي الا لحظات حتى كانت شمعتيها قد أطفئت .

أما المسافر فكان قد وضع عصاه وصرته في زاوية . حتى اذا ولى صاحب الفندق ، جلس في كرسي ذي ذراعين ، وظل فترة من الوقت يفكر ، ثم خلع نعليه ، وحمل احدى الشمعتين ، وأطفأ الاخرى ، ودفع الباب ، وغادر الغرفة ، بجيلاً الطرف في ما حوله وكأنما كان يبحث عن شيء . واجتاز برواق ، وتقدم نحو السلم . ثم إنه سمع صوتاً بالغ العذوبة كان اشبه شيء بتنفس طفل . وعلى هدي من ذلك الصوت انتهى الى تجويف مستطيل مبني تحت السلم ، أو 'مشكل على الاصح بالسلم نفسها . ولم يكن ذلك التجويف ، غير الفسحة التي تحت السلم . وهناك بين مختلف ضروب السلال العتيقة وأصناف الحطام القديم ، وسط الغبار وخيوط العنكبوت كان فراش ، اذا جاز ان تُدعى فراشاً

تلك الحشية الملامى بهذا القدر من الثقوب حتى لقد تكشفت عن التين ،
وذلك الغطاء الملىء بهذا القدر من الثقوب حتى لقد تكشفت عن الحشية .
ولم يكن ثمة شراشف . كانت الحشية موضوعة على البلاط مباشرة .
وهناك ، في هذا السرير ، كانت كوزيت نائمة .
واقرب الرجل منها ، ونظر اليها .

كانت كوزيت مستغرقة في نوم عميق . وكانت مرتدية ثيابها كلها .
ففي الشتاء كان من دأبها ان لا تنزع ثيابها تخفيفاً لوطأة البرد .
كانت تضم اليها الدمية التي التمت عيناها ، الراسعتان المفتوحتان ،
في الظلام . وبين القينة والقينة كانت تصعد زفرة عميقة ، وكأنها على
وسك ان تستيقظ ، وتصر الدمية هصراً يكاد يكون تشنجياً . وكانت
فردة واحدة من حذائها الحشي الى جانب فراشها ، ليس غير .

وكان باب مفتوح على مقربة من مأوى كوزيت الحقيير يكشف عن
غرفة كبيرة قاتنة . ودخل الغريب تلك الغرفة . حتى اذا بلغ اقصاها
لمح ، من خلال نافذة زجاجية ، سريرين صغيرين توأمين شديدي البياض .
كانا سريري آزيما وايونين . وخلف هذين السريرين كاث محتجب ،
نصف احتجاب ، سرير خيزراني لا ستائر له . وفي ذلك السرير كان ينام
الطفل الصغير الذي لم يكف عن الصراخ طوال المساء .

وقدر للرجل الغريب ان تكون هذه الغرفة متصلة بغرفة تينارديه
الزوجة . وكان على وسك ان ينسحب عندما وقعت عيناه على الموقد ،
وكان من تلك الموائد الضخمة التي في الفنادق - حيث النار هزيلة
ابداً ، حين يكون ثمة نار - والتي يوقع النظر اليها البرد في الاوصال .
وفي ذلك الموقد ، لم تكن نار ، بل لم يكن رماد . ومع ذلك فان
ما كان هناك لفت انتباه المسافر . ولم يكن ما لفت انتباهه غير فردي
حذاء صغير من احذية الاطفال ، فردين أنيقتي الشكل ، مختلفتي
الحجم . وتذكر المسافر تلك العادة الظريفة الخالدة التي تقضي ان

يضع الاطفال أحذيتهم في الموقد ليلة عيد الميلاد ، وان ينتظروا هناك في الظلام طمعاً في الحصول على هدية مشرقة من جنيتهم الطيبة . وبذلت ايبونين وآزيلها جهداً حسناً لكي لا تنسيا ذلك ، فوضعت كل منهما فردة من حذاءها في الموقد .

والمخنى تزيل الفندق فوقها .

كانت الجنية -- يعني الأم -- قد قامت بزيارتها ، وكانت تلتمع في كل من فردتي الحذاء قطعة نقدية جميلة ، بالغة الجودة ، من فئة العشرة سو .

ونفض الرجل ، وكان على وشك الذهاب ، عندما لمح في المدى البعيد ، وعلى حدة ، عند زاوية الموقد الاشدّ حلكة ، شيئاً آخر . ونظر ، فرأى حذاء خشبياً ، حذاء مروّعاً من اغلظ الخشب ، نصف منكسر ، ومغطىّ كله بالرماد والوحل اليابس . كان ذلك حذاء كوزيت . ذلك ان كوزيت كانت قد وضعت هي الاخرى حذاءها في الموقد ، فحدوها ثقة الطفولة المؤثرة التي يمكن أن 'تخدع دائماً من غير ان تنبسط عزيمتها البتة .

ما أسمى الأمل وما أعذبه في طفلة لم تعرف قط غير اليأس !

ولم يكن في ذلك الحذاء شيء .

وبحث الغريب في جيوب صدرته ، وانحنى ، ووضع في حذاء كوزيت الخشبي ليرة ذهبية لويسية .

ثم انقلب الى غرفته من غير ان يحدث صوتاً ما .

٩

تينارديه يناور

وفي صباح اليرم التالي ، قبل ساعتين من طلوع الشمس ، على الاقل ،

جلس تينارديه الى طاولة في قاعة الحانة السفلى ، والى جانبه شعة وفي يده قلم ، وانشأ يُعدّ فاتورة المسافر ذي السّرة الطويلة الصفراء .
 كانت زوجته واقفة ، نصف منحنية فوقه ، تتبعه بعينها . ولم يتبادلا كلمة ما . فمن ناحية ، كان التأمل العميق ، ومن الناحية الاخرى كان ذلك الاعجاب الخاشع الذي يستولي علينا حين نرى الى معجزة من معجزات العقل البشري تنبثق وتفتح . وسمعت في الفندق ضجة . كانت القسّورة تكسّ السلم .
 وبعد ربع ساعة او يزيد ، وبعد شيء من الشطب ، أخرج تينارديه هذه الرائعة :

فاتورة السيد الناؤل في الغرفة رقم ١

عشاء	٣	فرنكات
غرفة	١٠	«
شبع	٥	«
لر	٤	«
خدمة	١	«
	<u>٢٣</u>	الجموع فرنكا

وكانت كلمة خدمة مكتوبة هكذا : خدمت * .
 وصاحت المرأة في حماسة بمترجة بشيء من التردد :
 - « ثلاثة وعشرون فرنكاً ! »
 ومثلّ جميع الفنانين الكبار ، لم يكن تينارديه واضحاً .
 وقال :

* في الأصل أن كلمة Service كانت مكتوبة هكذا Service وقد رأينا ان نؤدي المعنى الذي رمى اليه المؤلف ، وهو جعل تينارديه لقواعد الرسم او الاملاء ، من طريق كتابة التاء المربوطة تاء مبسوطة .

- « تباله ! »

كانت تلك نبوة كاسلوي * وهو يُعده لمؤتمر فيينا الفاتورة التي كانت على فرنسة ان تدفعها .

ونغممت المرأة ، وقد فكرت في الدمية التي 'قدمت الى كوزيت في حضرة بنتيها :

- « مسيو تيناردييه ، انت على صواب . إنه يستحق ذلك جيداً .

هذا منصف ، ولكنه اكثر بما ينبغي . إنه لن يدفع المبلغ . »

فابتسم تيناردييه ابتسامته الباردة ، وقال :

- « سوف يدفعه . »

كانت تلك الضحكة اسمى أمارات الثقة والسلطان . وما قيل على هذه الشاكلة ، يجب ان يكون . ولم تصرّ المرأة قط . لقد اخذت ترتب الطاومات ، بينا راح زوجها بذرع الفرقة جيئة وذهاباً . وبعد لحظة أضاف :

- « أنا مدين بالف وخمسة فرنك ، على الاقل . »

وجلس في زاوية الموقد ، وانشأ يفكر واضعاً قدميه على الرماد الحار . وقالت المرأة :

- « آ ، ها ! انت لم تنسَ اني سوف أطرد كوزيت ، اليوم ،

الى الشارع ؟ يا لها من مسخة ! إنها تسحق فؤادي بدميتها ! اني افضل

ان اتزوج لويس الثامن عشر على ان أبقيا يوماً إضافياً في البيت ! »

وأشعل تيناردييه غليونه ، وأجاب بين الجحّتين :

- « أنت ستقدمين الفاتورة الى الرجل . »

ثم خرج .

ولم يكده يغادر الفرقة حتى دخلها المسافر .

* Castlereagh سياسي انكليزي (١٧٦٩ - ١٨٢٢) كان روح التحالفات

الأوروبية التي نمت ضد نابليون .

وفي الحال برز تيناردييه ، كرة اخرى ، من ورائه ، وظلّ جامداً
لدى الباب نصف المفتوح ، فليس يراه احد غير زوجته .
وحمل الرجل الاصفر عصاه وصرّته بيده .

وقالت تيناردييه الزوجة :

- « لقد استيقظت باكراً جداً ! ابعترم سيدي ان يفارقنا

اللحظة ؟ »

وفيما هي تتكلم ، أدارت الفاتورة بين يديها في سباه مرتبكة ،
وراحت تفضتها بأظافرها . ونمّ حياها القاسي عن ظلّ من الجبن والشك
لم يكن مألوفاً .

لقد بدا لها أن في تقديم مثل هذه الفاتورة الى رجل تبدو عليه
مظاهر « الشحاذ » كاملة إخراجاً كثيراً .

وبدا المسافر مشغول البال ، ذاهلاً .

وأجابها :

- « نعم ، يا سيدي . أنا راحل . »

فأضافت :

- « واذن فليس عند سيدي أعمال في مونفيرماي ؟ »

فأردف :

- « لا . أنا عابر سبيل . هذا كل ما هنالك . كم يتعين عليّ ان

أدفع ، يا سيدي ؟ »

وناروته السيدة تيناردييه الفاتورة المطوية ، ولم تجب بشيء .

ونشر الرجل الورقة ، ونظر اليها . وراكن أفكاره كانت ، على

نحو واضح ، في مكان آخر .

وسألها :

- « هل تسير الاعمال على ما يرام في مونفيرماي ؟ »

فاجابت السيدة تيناردييه وقد انشدهت إذ لم تشهد انفجاراً آخر :

- « بين بين ، يا سيدي . »

ثم تابعت في جرسٍ فاجع يدعو الى الرثاء :

- « اوه يا سيدي . الازمة شديدة ، وليس في ديارنا هذه غير نفر

قليل من الاغنياء ! انها قرية صغيرة ، كما ترى . ليقنا نعم بين الفينة

والفينة بنزلاء اغنياء ، مثلك يا سيدي ! ان لدينا نفقات كثيرة . ان

تلك الفتاة الصغيرة تكلفنا عيوننا نفسها . »

- « أبة فتاة صغيرة ؟ »

- « تلك الصغيرة التي تعرفها ! كوزيت ! القبرة ، كما يدعونها

في المنطقة ! »

فقال الرجل :

- « آه ! »

وتابعت :

- « ما أشد بلاهة هؤلاء الفلاحين والالتاب التي يجلبونها على

الناس ! انها تشبه الحفّاش اكثر مما تشبه القبرة . وكما ترى ، يا

سيدي ، فنحن لا نلتس الصدقة ، ولكننا عاجزون عن تقديمها .

نحن لا نربح شيئاً ، وإن علينا اشياء كثيرة يجب ان تُدفع .

فهناك الاجرة ، والضرائب ، والابواب والنوافذ ، ومختلف الرسوم

المفروضة على كل شيء ! وسيدي يعلم ان الحكومة تطالب بمقدار هائل

من المال . والى هذا ، فأني عندي بنتي . ولست في حاجة الى ان

أعيل اطفال الناس . »

واجابها الرجل في صوت رغب في ان يجعله لامبالياً ولكنه كان

ينطوي على ارتجافة :

- « افرضي ان امرأاً خلّصك منها ؟ »

- « بمن ؟ كوزيت ؟ »

- « نعم . »

وغدا وجه الفندقية الاحمر العنيف متهللاً بانطباعة مخيفة :
- « آه ، يا سيدي الطيب ! خذها ! احتفظ بها ، اذهب بها ،
اصطحبها ، حملها بالسكر ، اطبخها بالكأه ، اشربها ، كلها ،
ولتباركك مريم العذراء وجميع قديسي السماء ! »
- « انفقنا ! »

- « صحيح ؟ سوف تذهب بها ؟ »

- « سوف اذهب بها . »

- « في الحال ؟ »

- « في الحال . نادي الطفلة ! »

فصاحت تيناردييه الزوجة :

- « كوزيت ! »

وتابع الرجل :

- « وفي انتظار ذلك ، سوف أدفع اليك فاتورتي ، ما مبلغها؟ »

والتي نظرة على الفاتورة ، ولم يتمكن من ان يكبح حركة من حركات

الدهش :

- « ثلاثة وعشرون فرنكاً ! »

ونظر الى صاحبة الفندق وكرّر :

- « ثلاثة وعشرون فرنكاً ؟ »

وكان في النطق بهاتين العبارتين ، المكررتين على هذا النحو ، تلك

النبرة التي تفصل ما بين علامة التعجب وعلامة الاستفهام .

وكانت تيناردييه الزوجة قد وجدت متسعاً من الوقت لأعداد نفسها

للصدمة . فأجابت في توكيد :

-- « نعم ، طبعاً ، يا سيدي ! انها ثلاثة وعشرون فرنكاً . »

ووضع الغريب خمس قطع نقدية من فئة الخمسة الفرنكات على الطاولة وقال :

- « اذهبي واثيني بالفتاة الصغيرة . »

وفي تلك اللحظة تقدم تيناردييه الى منتصف الغرفة وقال :

« السيد مدين بسة وعشرين سو . »

فصاحت المرأة :

« ستة وعشرون سو ! »

وتابع تيناردييه في برود :

« عشرون سو مقابل الغرفة ، وستة سو مقابل العشاء . اما للفتاة

الصغيرة فيتعين عليّ ان اتحدث مع السيد في شأنها . اتركينا وحدنا ايها الزوجة . »

واصيبت تيناردييه الزوجة بضرب من ذلك الانشده الذي توقعه في نفس

المرء بوارق العبقرية المفاجئة . لقد استشعرت ان الممثل العظيم قد دخل

الى المسرح ، فلم تجب بكلمة ، ومضت لسيلها .

وما إن خلا تيناردييه بالمسافر حتى قدم اليه كرسيّاً . وقعد المسافر ،

ولكن تيناردييه ظل واقفاً ، وقد اتخذ وجهه انطباعاً فريداً من الطيبة

واللباسة . وقال :

« اسمع ، ياسيدي ، ينبغي ان اقول انني اعبد هذه الطفلة . »

فنظر اليه الغريب نظراً موصولاً .

« اية طفلة ؟ »

وتابع تيناردييه :

« ما أعجب ذلك ! لقد جمعت المحبة ما بيني وبينها ! ما هذه القطع

الفضية كلها ؟ أعد قطع العشرة سو الى جيبك . هذه الطفلة انا اعبدها . »

وسأله الغريب :

« من هذه ؟ »

« واوه ، كوزيتنا الصغيرة ! ألا تريد ان تأخذها منا ؟ انا اتكلم في

صراحة حقاً ؛ فما لا ريب فيه - كما انه لا ريب في انك رجل فاضل -

اني لن اوافق على ذلك . فانا سوف أفتقد هذه الطفلة ، من غير شك .

لقد عرفتها منذ ان كانت صغيرة جداً . صحيح انها تكلفنا مالاً ؛ صحيح

ان لها اخطاءها ؛ صحيح اننا لسنا اغنياء ؛ صحيح اني دفعت اكثر من اربعمئة فرنك ثمن ادوية لمرض واحد من امراضها ليس غير ؛ ولكننا يجب ان نعمل شيئاً في سبيل الله ! هذه الطفلة لا أم لها ولا اب . لقد نشأتها انا . إن عندي من الحب ما يكفيها وما يكفيني . الحق اني يجب ان أحفظ هذه الطفلة . ولا ريب في انك قد فهمت ، فنحن قوم اصحاب عاطفة . انا ، شخصياً ، هيمة كبيرة . انا لا احكمّ العقل . اني أحب هذه الفتاة الصغيرة . إن زوجتي نزقة ، ولكنها تحبها ايضاً . وكما ترى ، إنها مثل ولد من اولادنا . أنا احس بالحاجة الى هذرها وثرثرتها في البيت . «
كان الغريب يمدق اليه طوال الوقت . وتابع حديثه :

« عفواً يا سيدي ، ومعذرة ، ولكن المرء لا يقدم طفله على هذه الشاكلة الى عابر سبيل . اليس صحيحاً اني على صواب ؟ وبعد هذا فليست اقول - فأنت رجل غني - ، وتبدو عليك سيما الرجل الطيب - ان هذا لن يكون لمصلحتها . ولكنني يجب ان اعرف ، أتقمني ؟ لنفرض اني تركتها تذهب وانني ضحيت بعواطفي فأني احب ان اعرف الى اين سوف تذهب . انا لا اريد ان أفقد متعة النظر اليها ؛ انا اريد ان اعلم في بيت من هي ، لكي اذهب وأراها بين الفينة والفينة ، ولكي تعرف ان الرجل الطيب الذي رباها ، والذي هو في مقام أبيها ، لا يزال يربعاها . واخيراً فتمة اشياء غير ممكنة . انا لا اعرف حتى اسمك ، فاذا ما ذهبت بها فلن اعرف . وأسفاً على القبرة الصغيرة ! الى اين ذهبت ؟ يجب على الاقل ان ارى قصاصة ورق بالية ، قطعة من جواز سفر ، او شيئاً ما . ومن غير ان يكفّ المسافر عن النظر اليه تلك النظرة التي نفذت ، اذا جاز التعبير ، الى اعماق الضمير ، اجابه في جرس وقور ثبت :

« - ومسيو تيناردييه ، إن الناس لا يأخذون جواز سفر لكي يأتوا الى مكان يبعد خمسة فراسخ عن باريس . اذا اخذت كوزيت اخذتها . هذا كل ما هناك . انك لن تعرف اسمي . انك لن تعرف مقري . انك

لن تعرف الى أين سامضي بها . وفي نيتي ان اجعلها لا تراك في حياتها
بعد اليوم ابدأ . سوف اكسر السلك الذي يطوق قدميها ، وسوف تمضي .
هل يوافقك ذلك ؟ نعم أم لا ؟

وكما تحسّ الشياطين والجنّ ، من بعض الأمارات ، أنها في حضرة
ربّي أسمى ، كذلك ادرك تيناردييه انه امام وجل قوي جداً . كان
ذلك أشبه بالحدس ؛ لقد فهمه ببصيرته الصافية الثاقبة . ففيا كان يجتسي
الحمر ، اللية البارحة ، مع سائقي العربات ، وفيا هو يدخن ، وفيا هو
يفغي الاغاني البذيئة ، جعل من همه أن يراقب الغريب طوال الوقت ،
وان يترصده مثل هرة ، ويدرسه مثل عالم رياضي . لقد تربص به
لحسابه الخاص ، للمتعة وبدافع من الغريزة ، وأحصى عليه الانفاس ،
في وقتٍ معاً ، وكان أحداً قد دفع اليه أجراً على ذلك . إن إيماءة
واحدة او حركة واحدة من إيماءات الرجل ذي السترة الصفراء أو
حركاته لم تفتنه . وحتى قبل أن يفصح الغريب عن اهتمامه بكوزيت ،
كان تيناردييه قد تنبأ بذلك . لقد باغت نظرات هذا المعجوز المتطلعة ،
الملتفتة ابدأ نحو الطفلة . علام هذا الاهتمام ؟ ومن هذا الرجل ؟ ولماذا
يرتدي مثل هذه الملابس البائسة ما دام كيس دراهمه حافلاً بذلك المال
كله ؟ تلك كانت اسئلة وجهها الى نفسه من غير أن يجد لها جواباً ،
فهي تقلقه وتثيره . لقد سلخ الليل كله وهو يفكر بها . إن هذا الرجل
لا يمكن ان يكون أبا كوزيت . أهو جدما ؟ واذن ، فلماذا لم يُعلن
عن نفسه منذ اللحظة الاولى ؟ فحين يكون للمرء حق في شيء ، يعتمد
الى إظهاره . وواضح ان هذا الرجل لا حق له في كوزيت . وإذن
فمن هو ؟ وتاه تيناردييه في ضروب من الافتراضات . لقد لمح كل
شيء ، ولكنه لم ير شيئاً . وأياً ما كان ، فحين بدأ محادثة هذا الرجل
- واثقاً من ان تمه سراً في ذلك كله ، موقناً من أن الرجل شديد
الرغبة في ان يظل مجهول الهوية - استشعر أنه قوي . حتى اذا جاءه

جواب الغريب الواضح الصارم وادرك أن هذه الشخصية الغامضة كانت غامضة لا أكثر ولا أقل ، استشعر أنه ضعيف . إنه ما كان يتوقع شيئاً من مثل ذلك . لقد هزمت ظنونه وأحداسه . واستجمع فكراته . وراز ذلك كله في ثانية . فقد كان تيناردييه واحداً من أولئك الرجال الذين يفهمون وضعاً ما ، من اللعة الأولى . وقدّر ان هذه هي اللحظة التي يتعين عليه فيها ان يمضي قدماً وعلى نحو صريح . لقد فعل ما يفعله القادة العظام في تلك اللحظة الحاسمة التي يعرفون هم وخدمهم أن يدركوها . لقد كشف القناع ، فجأة ، عن مدفعية .
وقال :

« يجب ان أحصل على الف وخمسة فرنك ، ياسيدي . »
وأخرج الغريب من جيبه الجانبي محفظة دراهم عتيقة مصنوعة من جلد أسود ، وفتحها وسحب منها ثلاث اوراق نقدية ووضعها على الطاولة . ثم إنه أراح إبهامه الضخم فوق هذه الاوراق ، وقال للفنديقي :
« أدع كوزيت . »

وفيا كان ذلك كله يجري ، ماذا كانت كوزيت تعمل ؟
لم تكد كوزيت تنهض من فراشها حتى سارعت الى حذائها الحشي ، فوجدت فيه القطعة الذهبية . إنها لم تكن ليرة نابوليونية ، ولكن احدى تلك القطع الجديدة ، ذوات العشرين فرنكاً ، التي سُكّت في عهد عودة آل بوربون الى العرش والتي حلّ ساق الزهر البرومي الصغير ، على وجهها ، محل تاج الفار . وشُدّعت كوزيت . لقد بدأ قَدَرُها يُسْكِرُها . إنها لم تدرِ أنها قطعة ذهبية ، فهي لم ترَ من قبل ليرة من ذهب ، فسارعت الى إخفائها في جيبها وكأنها قد سرقتها . ومع ذلك ، فقد استبشرت بها خيراً . وحزرت من أين جاءت تلك الهدية ، ولكن ضرباً من البهجة المليئة بالذعر سرى في أوصالها . كانت منشرحة الصدر ، وكانت فوق كل شيء ، ذاهلة مشدوهة . ان هذه الاشياء الرائعة الى هذا

الحد ، الجميلة الى هذا الحد ، بدت وهمية في عينيها . فالدمية قد أخافتها ، والليرة الذهبية قد أخافتها . لقد ارتجفت في دهش أمام هذا البهاء كله . أما الغريب فكان هو وحده الذي لم يوقع الرعب في فؤادها . على العكس ، لقد هدأ من روعها . فنذ الليلة البارحة - من خلال دهشها كله ، وفي أثناء رقادها - وهي تفكر بعقلها الطفلي الصغير في هذا الرجل الذي كان يبدو عجوزاً ، فقيراً ، وكثيباً الى هذا الحد ، والذي كان على مثل هذا الغنى ، وتلك الطيبة . ومنذ ان التقت هذا الرجل الطيب في الغابة ، بدا لها وكأن جميع الاشياء قد تغيرت من حولها . فكوزيت ، وكانت اقل سعادة من اذال سنونو في السماء ، لم تعرف قط معنى الاحتماء تحت جناح الأم . وطوال خمس سنوات ، اي منذ اقدم الايام التي كان في ميسور ذاكرتها ان ترقى اليها ، ارتجفت الطفلة المسكينة وارتعدت . كانت عارية أبداً تحت ربيع الشتاء الشرسة ، وها هي ذي الآن يتراوى لها أن جسها قد أمسى مكسواً . كانت روحها تستشعر لذع البرد ، من قبل ؛ أما الآن فهي دافئة . إن كوزيت لم تعبد خائفة من تينارديه الزوجة ؛ إنما لم تعد وحدها . إن ثمة شخصاً يراعاها ويُعنى بها .

وسارعت الى القيام بعملها الصباحي . ولكن هذه الليرة الذهبية اللويسية - التي كانت قد وضعتها في جيب مئزرها نفسه الذي سقطت منه قطعة الخمسة عشر دسو ، الليلة البارحة - ألفتها عن عملها . إنما لم تجرؤ على ان تمسها ، بيد انها كانت تنفق في كل مرة خمس دقائق متواصلة وهي تتأملها - وينبغي أن نعترف - مخرجةً لسانها . وفيما كانت تكنس السلم ، كفتت عن العمل ووقفت هناك جامدة ، ناسيةً مكنتها ، والعالم كله حولها ، وقد انهمكت في النظر الى تلك النجمة المتلألئة في قعر جيبيها .

وفي فترة من فترات التأمل هذه فاجأها تينارديه الزوجة .

كانت قد مضت للبحث عنها ، نزولاً عند ارادة زوجها . ومن عجب
لأنها لم تصفها ، ولم تقذفها بشتية .

لقد قالت في جرس يكاد يكون عذباً :

« كوزيت ، تعالي في الحال . »

وبعد لحظة ، دخلت كوزيت القاعة السفلى .

وتناول الغريب الصرّة التي كان قد جلبها معه ، وفكّتها . كانت
تلك الصرّة تحتوي على فستان صغير من الصوف ، ومئزر ، وصدرة
ذات كمين مصنوعة من قماش قطني خشن ، وتنورة داخلية ، ومنديل
للعنق ، وجوربين صوفيين ، وحذاء - مجموعة ثياب كاملة لفتاة في
الثامنة . وكانت تلك الملابس كلها سوداء .

وقال الرجل :

« خذي هذه ، يا بُنيّتي ، واذهي فالبسيها في صرعة . »

وكان الضمى يرتفع عندما وقعت أبطار سكان مونفيرماي الذين بدأوا
يفتحون ابوابهم على رجل ساذج فقير الثياب يجتاز الطريق المؤدية الى
باريس ، ممكاً بيد فتاة صغيرة ترندي ملابس حداد كاملة ، وتحمل
بين ذراعيها دمية كبيرة زهراء . لقد اتجها نحو ليفري .

كانا صاحبنا وكوزيت .

ولم يعرف الرجل أحد . واذا لم تعد كوزيت ترندي اسمالاً بالية
فقد عرفها نفرٌ قليل لبس غير .

لقد مضت كوزيت لسيلها . مع من ؟ كانت تجهل ذلك . الى
اين ؟ لم تكن تدري . كل ما فهمته أنها خلّفت وراءها مطعم تيناردية
الحقير . ولم يخطر في بال احد ان يوجه اليها كلمة وداع ، ولم يخطر
في بالها هي ان توجه كلمة وداع الى أحد . لقد غادرت ذلك البيت
مكروهةً كارهةً .

يا لها من مخلوقة رقيقة بائسة ، لم يعرف فؤادها حتى تلك اللحظة

سناً غير السحق 1

وسارت كوزيت في وصانة ، فاتحة عينيها الواسعتين ، ناظرة الى السماء . كانت قد وضعت ليرتها الذهبية اللويسية في جيب مئزرها الجديد . وبين الفينة والفينة ، كانت تنهني وتلقي نظرة عليها ، ثم تنو الى الرجل الطيب . لقد استثمرت ، بعض الشيء ، وكأنها قرب الله .

١٠

من يلتبس الاحسن قد يقع على الاسوأ

كانت مدام تيناردييه ، وفقاً لعادتها ، قد تركت زوجها وشأنه . وكانت تتوقع احدائاً ذات شأن . حتى اذا انقضت خمس عشرة دقيقة أو تزيد على ذهاب الرجل وكوزيت ، انتهى بها جانباً وأراها الألف والمحمسة فرنك .

وقالت :

- « ما هذا ؟ »

كانت هذه هي اول مرة تجرأت فيها ، منذ زواجهما ، على ان تنتقد عملاً من أعمال سيدها .

وأحسن بأثر الضربة .

وقال :

- « صحيح ؛ انتِ على صواب ، انا معتوه . أعطني قبعتي . » وطوى الاوراق المالية الثلاث ، وأقحمها في جيبه ، وانطلق باقصى ما يستطيع من مرعة ، ولكنه ضلّ الطريق ، آخذاً يمينه باديء الامر . ولكنه سأل بعض الجيران فهدوه سواء السبيل . لقد شوهدت القبرة

والرجل سائرين في اتجاه ليفري . فمضى في ذلك الاتجاه ، منطلقاً
بخطوات واسعة ، مخاطباً نفسه :

- وهذا الرجل هو من غير شك مليونير في ملابس صفراء ، أما
أنا فبهيمة . لقد أعطى ، اول الامر ، عشرين سو ، ثم خمسة فرنكات ،
ثم خمسين فرنكاً ، ثم الفاً وخمسة فرنك ، ودفعتها كلها في كثير من
اليسر . ولقد كان على استعداد لأن يدفع خمسة عشر الف فرنك .
ولكنني سوف أوقعه في الفخ مرة ثانية .

ثم صرة الثياب هذه المعدة مقدماً من اجل الفتاة الصغيرة ، كل هذا
كان غريباً . كان وراء ذلك سرّ خفي . وحين يضع المرء يده على
سرّ فإنه لا يفكره إن اصرار الاغنياء قطع من الاسفنج مليئة
بالذهب . ويتعّين على المرء ان يعرف كيف يعصرها . كانت هذه
الافكار كلها تعصف في دماغه . وقال :

- و أنا بهيمة .

إن في امكان المرء ، حين يغادر مونفيرماي ويبلغ منعطف الطريق
الى ليفري ، أن يرى الطريق تمتد امامه بعيداً بعيداً فوق النجد .
حتى اذا انتهى الى هناك قدّر أنه سوف يرى الرجل والفتاة الصغيرة
من غير ريب . ونظر الى اقصى ما تستطيع عيناه أن تنظرا ، ولكنه
لم ير شيئاً . واستعلم كرة اخرى . وفي غضون ذلك ، كان الوقت
يضيع . وقال له بعض عابري السبيل ان الرجل والطفلة اللذين يبحث
عنها مضيا نحو الغابة في اتجاه غاني . فسارع الى الانطلاق في هذا الاتجاه .
كانا قد سبقاه ، ولكن الطفلة تمشي في تودة ، على حين يتطلق هو
في سرعة . والى هذا فقد كان يعرف المنطقة معرفة جيدة .

وفجأة كف عن السير ، وصقع جيئنه مثل رجل نسي الشيء
الرئيسي ، رجل على وشك ان يرتد على آثاره .
وقال :

– « كان ينبغي ان اجي، بيندقيتي ! »

كان تيناردييه واحداً من اصحاب تلك الطبايع المزدوجة التي تبرز
بيننا في بعض الاحيان من غير ان تدري ، والتي تختفي من غير ان
تعرف ، لان القدر لم يُرنا إلا جانباً منها . فقد كتب على كثير
من الرجال ان يعيشوا هكذا مغورين نصفَ عمر . ففي الحال
الطبيعية الهادئة ، كان لدى تيناردييه ما هو ضروري لأن يضع – ولا
نقول لأن يكون – ذلك الذي تعودنا ان ندعوه تاجراً أميناً ، او
مواطناً صالحاً . وفي الوقت نفسه ، وفي بعض الظروف الخاصة ، تحت
وطأة بعض الهزات التي تثير طبيعته الدنيا ، كان في باطنه كل ما
يحتاج اليه المرء لكي يكون شريراً فائقاً . كان صاحب دكان يخفي
في بُرديه غول . ولا ريب في ان ابليس قد جلس القرفصاء لحظة ، في
زاوية ما من الثقب الذي يقطن فيه تيناردييه ، ودرس هذه الرائحة
المخيفة .

وبعد ان تردد لحظة ، قال في ذات نفسه :

– « ولكن هذا سوف ينجحها متسعاً من الوقت للهرب ! »

رواصل طريقه ، ماضياً الى الامام في سرعة ، وقد غلبت على
محياء سبأ من الثقة تقريباً ، وساقته فطنة كفطنة الثعلب استروح سرباً
من الجبلان .

والواقع أنه حين اجتاز المستنقعات ، وعبرَ على نحو موارب ذلك
المرج العريض المنبسط الى يمين شارع بيلفو ، وانتهى الى المجاز المعشوشب
الذي بطوق الكثيب ، أو يكاد ، والذي يستر القناة العتيقة التي تجرّ المياه
الى دير « شيل » لمح على دغل من الادغال قبة كان قد بنى عليها كثيراً
من الظنون والاحداس . كانت قبة رجل ، وكان الدغل منخفضاً ، وادرك
تيناردييه ان الرجل وكوزيت كانا جالسين هناك ، ولم يكن في ميسوره
ان يرى الطفلة ، من جراء قصرها ، ولكنه كان قادراً على ان يلمح

رأس الدمية .

ولم يمدح تينارديه . كان الرجل قد جلس هناك لكي يمكن كوزيت من ان ترتاح بعض الشيء . وازاح صاحب المطعم الدغل ، وبرز فجأة امام أعين هذين اللذين يبحث عنهما . وقال وهو يلهث لهائناً شديداً :

« عفواً ، وأنتس المعذرة يا سيدي ، ولكن هذه هي الالف والخمسة فرنك التي دفعتها الي . »

وفيا هو ينطق بذلك قدّم الاوراق المالية الى الرجل الغريب . ورفع الرجل عينيه وقال :

« ما معنى هذا ؟ »

فاجابه تينارديه في احترام :

« هذا يعني انني سوف أسترجع كوزيت يا سيدي . »

وارتعدت كوزيت ، وتشبثت بالرجل الطيب .

اما هو فأجاب ، ناظراً الى تينارديه في عينه مباشرة ، مباعداً ما بين مقاطع الحروف :

« أنت تـ - تر - جع كوزيت ؟ »

« نعم ، يا سيدي ، سوف أسترجعها . اريد أن اقول لك . لقد فكرتُ . في الواقع ، اني لا حق لي في ان اعطيك اياها . انا رجل امين كما ترى ، وهذه الفتاة الصغيرة ليست لي . انها ملك لأمها . لقد استودعتني امها اياها ، فليس في استطاعتي ان أسلمها إلا الى امها . وقد تقول لي : ولكن أمها ماتت . حسناً ، في هذه الحال لا أستطيع ان أسلم الطفلة إلا الى شخص يحمل اليّ امراً موقعاً من الأم ينصّ على ان من واجبي ان أسلم الطفلة اليه . هذا شيء واضح . »

ومن غير ان يجيب ، بحث الرجل في جيبه ، ورأى تينارديه الحافظة المنطوية على الاوراق المالية تبرز من جديد .

وسرت في اوصال الفندق رعدة من البهجة .
وقال فيما بينه وبين نفسه :

« حسن ! إصمد . انه يريد ان يرشوني . »

وقبل ان يفتح حافظة نقوده ، القى المسافر نظرة على ما حوله . كان المكان خالياً تماماً فلم تكن ثمة نفس واحدة لا في الغابة ، ولا في الوادي . وفتح الرجل حافظة نقوده وسحب منها لا الاوراق المالية التي كانت تيناردييه يتوقعها ، ولكن قصاصة من ورق ما لبث ان نشرها وقدمها الى صاحب الفندق قائلاً :

« أنت على صواب . إقرأ هذا ! »
وتناول تيناردييه الورقة ، وقرأ :

« هوتروي سور هير ، في ٢٥ آذار ، ١٨٢٣ »

« مسيو تيناردييه ، »

« سوف تسلّم كوزيت الى ناقل هذه الرسالة .
« إنه سوف يدفع اليك جميع الديون الصغيرة .
« لي الشرف ان احيك في احترام .
« فانتين . »

وأردف الرجل :

« انعرف هذا التوقيع ؟ »

كان توقيع فانتين حقاً . ولقد عرفه تيناردييه . ولم يكن ثمة ما يقوله . لقد استشعر غيضاً مضاعفاً ، فهو مغيظٌ لاضطرابه الى التخلي عن الرشوة التي منى النفس بها ، وهو مغيظٌ للهزيمة التي اصابته . وأضاف الرجل :

« في استطاعتك ان تحتفظ بهذه الورقة كأبصال . »

وانسحب تيناردييه في نظام .

ودمدم قائلاً :

- « هذا التوقيع مزور تزويراً بارعاً . حسن ، فليكن ذلك ا ،
ثم إنه بذل جهداً يائساً ، فقال :

- « هذا حسن ، يا سيدي . واذن فأنت الناقل المشار اليه .
ولكنّ عليك أن « تدفع جميع الديون الصغيرة » . إنها مدينة لي بمبلغ
ضخم . »

ونفض الرجل واقفاً ، وقال وهو ينفض بطرف سبابته بعض الغبار
عن رده المهترىء :

- « مسيو تيناردييه ، في كانون الثاني قدرت الأم انها مدينة لك
بمئة وعشرين فرنكاً . فأرسلت اليها في شباط مذكرة بمخسمة فرنك .
ولقد تلقيت ثلاثمئة فرنك في آخر شباط ، وثلاثمئة فرنك في مطلع آذار .
وانقضت منذ ذلك الحين تسعة اشهر ، كل شهر بمخمة عشر فرنكاً ،
وهو السعر المتفق عليه ، وهذا يجعل مطلوبك مئة وخمسة وثلاثين فرنكاً .
ولقد قبضت مئة فرنك مقدماً ، فيكون قد بقي لك خمسة وثلاثون
فرنكاً . ومع ذلك فقد اعطيتك ، منذ لحظة ، ألفاً وخمسة فرنك . »
واستشعر تيناردييه ما يستشعره الذئب لحظة يجد نفسه بين فكي
الشرك الفولاذيين .

وقال في ذات نفسه :

- « أيّ شيطان هو هذا الرجل ؟ »

وفعل ما يفعله الذئب . فانتفض انتفاضة قوية . كانت الجرأة قد
نجحت معه قبل الآن .

وقال في عزم ، طارحاً هذه المرة كل تظاهر بالاحترام :

- « ايها السيد الذي لا اعرف له امماً . سوف استرجع كوزيت
أو تعطيني ألف ريال . »

فقال الغريب في هدوء :
- « كوزيت ، تعالي . »
وأمسك كوزيت بيده اليسرى ، ورفع عصاه باليمنى ، وكانت على
الارض .

ولاحظ تيناردييه ضخامة المراوة ، ووحشة المكان .
واختفى الرجل في الغابة ، ومعه الطفلة ، مخلّفاً صاحب الفندق
جامداً مرتبكاً .

وفيا هما ينطلقان للاحظ تيناردييه منكبيه العريضين ، المقوسين بعض
الشيء ، وقبضته الضخمتين .
ثم وقعت عيناه على ذراعيه هو ، القميصين وبديه هو ، المهزولتين ،
وقال في ما بينه وبين نفسه :

- « لقد كنت مجنوناً حقاً اذ لم آت بينديتي ما دمت خارجاً
الى القنص . »

ومع ذلك فان الفندق لم يكف عن تعقبه ، قائلاً :

- « يجب ان اعرف الى اين سوف يذهب . »

وشرع يتبعهما من على مسافة ما . وكان قد بقي بين يديه شيطان ،
اولها سخرية مريرة ، هي قصاصة الورق المرقعة فانتين ، والثاني عزاء ،
وهو مبلغ الالف والخمسة فرنك .

كان الرجل يقود كوزيت في اتجاه « ليفري » و « بوندي » .
كان يمشي في تروادة ، مطأطئاً رأسه ، وقد رانت على وجهه سباب التفكير
والحزن . وكان الشتاء قد عرّى الغابة عن الاوراق ، بحيث اصبح في
ميسور تيناردييه ان يتبعهما بصره ، برغم بقائه بعيداً عنهما بعداً غير
يسير . وبين الفينة والفينة ، كان الرجل يتلفت فيرى ما اذا كان احد
يقتفي آثاره . وفجأة ، لمح تيناردييه . فما كان منه إلا ان دخل هو
وكوزيت غابة تقطع اشجارها في العادة ، فغابا عن العيان .

وقال تيناردييه :

« يا للشيطان ! »

وضاعف سرعته .

وأكرهته كثافة الغابة على أن يقترب منها . حتى اذا انتهى الرجل الى اسد اجزاء الغابة كثافة ، استدار راجعاً . وكان تيناردييه قد حاول الاختباء بين الاغصان ، ولكنه لم يوفق الى ان يمنع الرجل من رؤيته . والقي الرجل نظرة قلقه ، عليه . ثم هز رأسه ، واستأنف سيره . فما كان من الفندقتيّ إلا أن تعقبه كرة أخرى . وتقدّما على هذا النحو ممتي خطوة او ثلاثئة خطوة . وفجأة ، استدار الرجل من جديد . ولمح الفندقتيّ . ونظر اليه هذه المرة نظرة كالحة الى حدّ جعل تيناردييه يقدر أن « من غير المجدي ، الذهاب الى أبعد . فرجع من حيث أتى .

١١

رقم ٩٤٣٠ يظهر كرة اخرى

وكوزيت تربحه في اليانصيب

إن جان فالجان لم يميت .

فحين سقط في البحر ، او على الاصح حين ألقى بنفسه فيه ، كانت كما قد رأينا غير راسفٍ في الاغلال . لقد سبغ تحت الماء الى سفينة راسية سُند اليها مركب من المراكب .

ووجد سبيلاً مكتنته من الاختباء في هذا المركب حتى المساء . وفي موهن من الليل قذف بنفسه كرة اخرى في الماء ، وانتهى الى

الساحل على مسافة غير بعيدة من رأس « برون » .
واذ كان المال لا يعوزه فقد تمكن من الحصول على بعض الملابس ،
هناك . فقد كانت في ضواحي بالاغوييه حانة صغيرة تروّد الفارين من
سجن الاشغال الشاقة بالملابس ، وكانت تجارة رابحة . وعندئذ سلك
جان فالجان سبيلاً غامضاً مترحلاً ، شأن جميع اولئك الشاردين التعساء
الذين يحاولون ان يضلّوا أرواح القانون والقدر الاجتماعي . ووجد
مأوى ، باديء الامر ، في برادو ، قرب بوسيه . ثم اتجه نحو « غران
فيلار » قرب بريانسون ، في « الألب العليا » . فراراً تحسسي قلق ،
وسبيل اشبه بسبيل الخلد ذات التشعبات المجهولة . ولقد اكتشف في
ما بعد شيء من آثاره في « إين » ، فوق مقاطعة سيفرييو ، وفي
البيرينييه ، عند « آكون » ، في مكان يدعى « غرانج دو دوميك »
قرب قرية شافاي ، وفي ضواحي بيريفو ، عند بروثي ، وهي قضاء
من أفضية « شابيل غرناغيه » . واخيراً وصل الى باريس . ولقد
رأبناه بعدُ في مونفيرماي .

وكان اول همومه ، لدن بلغ باريس ، ان يشتري ثوب حداد لفتاة
صغيرة يتراوح عمرها ما بين السابعة والثامنة ، وان يبحث بعد ذلك
عن مكان يبيت فيه . حتى اذا تم له هذا مضى الى مونفيرماي .

ويذكر القاريء انه كان قد قام ، عند فراره الاول او حوالى
ذلك الحين ، برحلة خفية لمحت العدالة وميضاً منها .

والى هذا ، فقد مرى الاعتقاد بأنه قد مات ، وذلك ما كتف
الظلمة التي اكتفتة . وفي باريس ، وقعت بين يديه احدى الصحف التي
دونت الواقعة . فاستشر الطمأنينة وقدراً من الامن يكاد يعدل ذلك
الذي كان خليقاً به ان يستشعره لو انه مات حقاً .

وفي مساء اليوم نفسه الذي وُفق فيه جان فالجان الى انتراع كوزيت
من محالب تبناردييه وزوجته ، عاود الدخول الى باريس . لقد دخل

المدينة ، هو والطفلة ، عند هبوط الليل ، من باب مونسو . وهناك
استأجر عربية ذات دولابين أقلته الى ساحة المرصد . ثم ترجل من
العربة ، ودفع الأجر الى السائق ، وأمسك بكوزيت من يدها ،
وانشأ يمشان ، في الليل البهيم ، عبر الشوارع المهجورة المجاورة لـ «أورسين»
والـ «غلامبير» ، نحو جادة المستشفى .

كان النهار غريباً حافلاً بالانفعالات التي حملها الى كوزيت . وكانا قد
أكلا خلف الأسيجة المكوّنة من الاشجار الشائكة خبزاً وجيناً اشترياهما
من بعض المطاعم الحقيرة المتعزلة ؛ وكانا قد انتقلا عدة مرات من عربية
الى عربية ، وقطعا مسافاتٍ فصاراً على اقدامها ، فلم تشك ولم تتذمر ،
ولكنها كانت متعبة ؛ ولقد ادرك جان فالجان ذلك من جذبها
ليده اثناء السير جذباً اشدّ وطأة من ذي قبل . وحملها على ظهره .
ووضعت كوزيت رأسها ، من غير ان تفلت كاترين ، على كتف
جان فالجان ، واستسلمت للرقاد .

الكتاب الرابع

بيت غوربو العتيق

١

الاستاذ غوربو

منذ اربعين سنة ، كان المنزله المتوحد الذي يغامر في التقدم الى
مجاهل « لا سالبيريير » ، ويصعد في الجادة حتى « باب ايطالية » ،
ينتهي الى مناطق بعينها حيث يمكن القول ان باريس قد اخفت . انها
لم تكن بقعة مهجورة ، فقد كان ثمة عابرو سبيل . ولم تكن ريفاً ،
فقد كانت ثمة بيوت وشوارع . ولم تكن مدينة ، فقد كانت الشوارع
ملاى بالاخاديد ، مثل الجواد الكبيرة ، وكان العشب نامياً على حوافها .
ولم تكن قرية ، فقد كانت المنازل مرتفعة جداً . ماذا كانت اذن ؟

كانت بقعة آهلة ليس فيها احد من الناس ؛ كانت بقعة مهجورة ينزلها
نفر من الناس ؛ كانت جادة من جوادة المدينة العظيمة ، شارعاً من
شوارع باريس ، اشدّ وحشة - في الليل - من غابة ، واكثر كآبة
- في النهار - من مقبرة .

كانت حيّ « مارشييه أو شيفو » القديم .

ولو قد غامر هذا المتنزّه بالمضيّ الى ما وراء جدران « مارشييه أو
شيفو » الاربعة المتداعية ، ولو قد ارتضى ان يذهب حتى الى ابعـد
من شارع « بيتي بانكويه » بعد ان يخلف الى يمينه فناءً تحيط به
اسوار عالية ، ثم مرجاً مرصعاً بأكداس من قشر الدبّغ شبه ما
تكون بتلك السدود الضخمة التي قنيتها كلاب الماء ؛ ثم حظيرةً تقصّ
بجانب البناء وأكوام من أرومات الاشجار والنشارة والنجارة كانت
ينبع من أعلاها كاب ضخم ، ثم جداراً طويلاً منخفضاً متهدماً ذا
باب صغير أسود هرم يكوره الطحلب المثقل بالازهار في أيام الربيع ،
ثم - في البقعة الاكثر وحشة - بناءً مروعاً متهدماً كتب عليه باحرف
ضخام « ممنوع إصاق الاعلانات » - نقول لو قد غامر هذا المتنزّه
الجسور بذلك كله اذن لانتهى الى زاوية شارع « فيشي سان مارسيل » ،
وهي رقعة لا يعرفها غير القليل . هناك ، قرب احد المصانع ، وبين
جدارين من جدران الجنائن كان يُرى آنذاك بيت عتيق متهدم يبدو ،
للنظرة الاولى ، صغيراً مثل كوخ ، ومع ذلك فقد كان واسعاً مثل
كاثدرائية . كان ينهض وحائط جملونه * متجه نحو الجادة ، ومن هنا
صغره الظاهري . لقد كان البيت كله محجوباً تقريباً . إن المرء ما كان في
مبسوره ان يرى منه غير الباب واحدى الوافذ ليس غير .

ولم يكن ذلك البيت المتداعي مؤلفاً من اكثر من دور واحد .

* الجملون بناء على هيئة سنام الجمل . وهو يعرف في الفرنسية بـ pignon وفي
الانكليزية بـ gable .

وكانت الحاحية التي تبده الناظر اليه ، الراغب في درسه ، اول ما تبدهه ، ان ذلك الباب ما كان يمكن ان يكون ، في يوم من الايام ، غير باب بيت حقير ، على حين ان النافذة كان يمكن ان تكون لو ركبت في حجر مربع او منحوت لا في حجر مرضوم * - نافذة قصر من القصور .

كان الباب مجرد مجموعة من أكواخ خشبية أكلها السوس ، مُشد بعضها الى بعض ، على نحو أخرق ، بعوارض تشبه قطعاً من الوقود قُدت قداً رديئاً . وكان يفتح مباشرة على سلم شديدة الانحدار ذات درجات عالية يعلوها الوحل ، والجص ، والغبار - سلم يبلغ عرضها عرض الباب ، وتبدو من الشارع وكأنها تنهض على نحو ممودي مثل مرقة ، وتختفي في الظلام بين جدارين . وكان أعلى الفسحة الشائبة التي ينطلق عليها هذا الباب مقعماً بمجاز علوي ضيق نُشرت في وسطه فوهة مثلثة الزوايا كانت حين يوصد الباب بمثابة كوة وخادعة ** في آن معاً . وعلى داخل الباب كانت فرشة مغمسة بالحبر قد رسمت بضربتين من ضربات مُجمع اليد الرقم ٥٢ ، وفوق الحاجز كانت الفرشة نفسها قد خربشت الرقم ٥٠ حتى ليردد الوافد الجديد ويتساءل : « اين أنا » . إن اعلى الباب يقول : « في المنزل ذي الرقم ٥٠ » . ولكن داخله كان يجيب : « لا ، في المنزل رقم ٥٢ » . اما الاسمال العبارية اللون المتدلية مثل الستائر حول الخادعة المثلثة الزوايا فلن نحاول ان نصفها .

كانت النافذة عريضة ، وعلى ارتفاع غير يسير . وكانت ذات مصاريع خارجية ، وأطر ذات الواح زجاجية عريضة . بيد ان تلك الالواح الزجاجية العريضة كانت قد أصيبت بجروح مختلفة أخفتها وأعلنت عنها ، في وقت معاً ، ضمادات ورقية غير بارعة . وكانت المصاريع الخارجية محطمة مفككة الى حد جعلها تهدد عابر السبيل بالحظر ، اكثر مما تصون النازلين في البيت . كانت تعوزها ، وهنا وهناك ، العوارض الخشبية

* رضم الحجارة جعل بعضها على بعض من غير ان ينحتها ويسويها .
** الخادعة : هي الباب الصغير الذي يكون في الباب الكبير .

الافقية ، وقد استعوض عنها بالواح سُمِّرَت عمودياً ، بحيث ان ما كان في اول الامر مصاريع خارجية ، انتهى الى ان يصبح مصراعاً مصقحاً . وكان ذلك الباب بظهره القدر ، وتلك النافذة بسياها اللائقة ، وغم تهدمها ، منظوراً اليها هكذا في بنابة واحدة ، يتركان في النفس مثل الاثر الذي يتركه مشهد شحاذين بمزقي الثياب يمضيان في اتجاه واحد ويمشيان جنباً الى جنب ، وقد تكشفت كل منها ، تحت الاسمال نفسها ، عن سيبا خاصة ، فأما احدهما فأشبهه برجل سلخ عمره كله شعاذاً ، وأما الآخر فكان في يوم ما شريفاً من الاشراف .

وكانت السلم تقود الى بناء فسيح جداً هر أشبه شيء بسقيفة مُحَوَّلت الى بيت . وكان ثريان المواصلات الرئيسي في هذا البناء رواقاً طويلاً تتفتح الى يمينه والى يساره أشباه غرف ذات أبعاد مختلفة ، غير آهلة الا في النادر ، وهي اقرب الى ان تكون حوانيت صغيرة خشبية منها الى ان تكون غرفاً . وكانت هذه الحُجُرَات تطلّ على الاراضي المجاورة غير الواضحة المعالم . وكانت كلها مظلمة ، قابضة للصدر ، ساحبة ، كشيبة تذكر بالمقابر ؛ وكانت تخترقها ، تبعاً لمواضع الشقوق وكونها في السقف أو في الباب ، أشعة الشمس الباردة حيناً ، ورياح الشمال المتلوجة حيناً آخر . ومن الخصائص الطريفة الماتعة التي يمتاز بها هذا الضرب من البيوت ضخامة عناكبها .

والى يسار الباب الرئيسي ، المطلّ على الجادة ، كانت نافذة صغيرة مسدودة تشكل ، على ارتفاع ستة اقدام تقريباً عن الارض ، كوة مربعة ملأى بالحجارة التي قذفها بها الصبية اثناء مرورهم من هناك . كان جزء من هذا البناء قد هُدم منذ قريب ، ولكن ما بقي منه اليوم لا يزال في ميسوره ان يعطي فكرة عما كان عليه من قبل إن البناء ، بوصفه كلاً واحداً ، لا يزيد عمره على مئة عام . والمئة عام شبابٌ بالنسبة الى كنيسة من الكنائس ، ولكنها شيخوخة بالنسبة الى

بيت من البيوت . لكأن بيت الانسان يشاركه في وجوده الموجز ،
على حين ان بيت الله يشاركه في سرمديته .

وكان سعاة البريد يدعون البيت رقم ٥٠ - ٥٢ ؛ بيد أنه كانت
معروفاً في الحي بـ « بيت غوربو » .
فلننظر من اين جاء هذا اللقب .

ان متصيدي الصفاثر التافهة الذين يجمعون النوارد والحكايات كما
يجمع دارس النباتات والحشائش اعشابه ، ويشكّون التواريخ الزائلة في
ذواكرهم بدبوس ، يعرفون انه كان في باريس ، في القرن الماضي ،
حوالى سنة ١٧٧٠ ، نائبان عامان في الـ « سانتليه » * احدهما يدعى « الغراب »
Corbeau والآخر يدعى « الثعلب » Renard - وهما اسمان تنبأ بهما لافونتين .
وكانت الفرصة جديّة مواتية لأرسال النكتة ، فليس من المعقول ان يضعها
جماعة المساعدين القضائين . وهكذا ما لبثت أروقة قصر العدل أن ضجت
بالتحريف التالي ، في أبيات عرجاء بعض الشيء :

« كان الاستاذ الغراب جائئاً فوق أحد الملفات
مسكاً في منقاره حكماً بالاعدام حيناً .
وأغرّت الراححة الاستاد الثعلب
فروى على مسميه هذه الحكاية :
هائي ، صباح الخير ! الخ .. »

واذ اغتاظ هذان الموظفان المخلصان لهذا المزاح المستقيم ، واذ كانت
عواصف الضحك التي تعقبه تتعارض وكرامتها ، فقد اعتزما تغيير اسميهما
ملتسبين من الملك ان يميز لهما ذلك . وقدّمت العريضة الى لويس
الخامس عشر في ذلك اليوم نفسه الذي انحنى فيه ، بنحشوع ، سفير البابا
والكاردينال « لا روش ايمون » ، في حضرة جلالته ، لكي يضع كل

* Châtelet وكان مقر محكمة الجنابات في باريس .

منها فردة من بابوج مدام دو باري * في رجليها العاريتين وهي تنهض من السرير . وواصل الملك - وكان يضحك - ضحكه ذاك ، وانتقل في حبور من الأسقفين الى النائبين العامين ، وأحلّ رَجُلِي القضاء هذين من اسميها ، أو كاد . فقد أجاز للاستاذ كوربو Corbeau (الغراب) ، مع سرور الملك ، ان يضيف ذيلًا الى الحرف الاول من اسمه ، بحيث امسى غوربو . أما الاستاذ رينار Renard (الثعلب) فكان اقلّ حظاً ، اذ لم يفز باكثر من إذن اجاز له ان يضع حرف P قبل حرف ال R ، بما جعل الكلمة « برينار » Prenard ** ، وهو اسم لم يكن اقلّ ملائمة من الاسم الاول .

والآن ، فقد كان الاستاذ غوربو هذا ، وفقاً للرواية المحلية ، صاحب البناء المرقم ٥٠-٥٢ ، جادة المستشفى ، وكان هو ، كذلك ، مبتدع النافذة الفخمة .

ومن هنا اكتب ذلك البناء اسمه : بيت غوربو .

ومقابل رقم ٥٠-٥٢ تنهض ، بين اشجار الجادة ، شجرة دردار سامقة ، شبه مية . وتجاهها تقريباً امتد شارع « باب غوبلين » وهو شارع كان آنذاك من غير منازل ، ومن غير تعبيد ، وكانت تحيط به اشجار هزيلة خضراء او موحلة تبعاً لفصول السنة ، حتى يتصل ، عند زاوية قائمة ، بالسور الذي يطوق باريس . كانت رائحة كبريتات الحديد تقوح ، هبات هبات ، من سطوح مصنع مجاور .

وكان باب باريس قريباً جداً . ففي عام ١٨٢٣ كان سور المدينة لا يزال قائماً .

وكان هذا الباب نقهه يملأ الدهن بالصور القائمة . كان على الطريق

* Contesse du Barry معظية لويس الخامس عشر وقد أعدمت في عهد الارهاب

(١٧٤٣ - ١٧٩٣) .

** ومنها الرجل الشره .

المؤدبة الى «بيستر» . ومن هناك كان السجناء المحكوم عليهم بالموت ، في عهد الامبراطورية وعهد عودة آل بوربون الى العرش ، يدخلون باريس ، ككرة اخرى ، يوم إعدامهم . وهناك وقعت ، حوالي عام ١٨٢٩ ، تلك الجريمة الخفية التي 'دعيت « جريمة باب فونتينبلو » ، والتي لم توفق السلطات قط الى اكتشاف أبطالها - مسألة فاجعة لما 'تجل' بعد ، ولغز مروّع لما 'يُحلّ' . فاذا تقدمت بضع خطوات الى أمام نجد شارع كرولبارب المشؤوم حيث طعن أولباش بمنجبره الفتاة الايفرية المعازة ، تحت قصف الرعد ، على طريقة المآسي المسرحية . واذا تقدمت ، ككرة ثانية ، بضع خطوات ، انتهت الى دردارات باب « سان جاك » البغيضة المقطوعة الرؤوس ، تلك الوسيلة التي اصطنعها محبو البشر لاختفاء المفصلة ، الى ساحة الاعدام تلك المدينة المخزية التي اقامها مجتمع دكايني مديني مومر 'يُقبل من عقوبة الموت ، ومع ذلك فهو لا يجرؤ على ان يلغيا في جلال ، او يحتفظ بها في سلطان . ومنذ سبع وثلاثين سنة ، وباستثناء « ساحة سان جاك » تلك ، التي بدت وكأنها رازحة تحت وطأة قضاء سبقي محتوم والتي كانت مروّعة دائماً ، كانت النقطة الاكثر عبوساً في هذا الشارع العابس هي في اغلب الظن تلك البقعة التي نهض فيها بناء ٥٠ - ٥٢ العتيق ، والتي لا تزال منقّرة الى اليوم .

ولم تشرع البيوت المدنية 'تطلع رؤوسها هناك إلا بعد خمس وعشرين سنة . فقد كانت المحلة مقبّعة . فبالإضافة الى الافكار الكثيرة التي تستبد بك هناك ، كنت تستشعر انك بين « لاساليتيريير » * البادية قبته لناظريك ، وبيستور * * القريب بابها اليك - يعني بين جنون المرأة وجنون

* La Salpêtrière مأوى لفسوة المجانن في باريس ، وانت تعالج فيه ايضاً المتهومات والمصابات بالهستيريا .

** Bicêtre قرية فرنسية فيها مأوى شهير للمجانن والمجانين .

الرجل . وعلى مدى البصر لم يكن ثمة ما يُرى غير المسالخ ، وسور المدينة ،
وقليل من واجهات المصانع الشبيهة بالشكنات او الاديرة . ففي كل مكان
اكواخ واكداس من حطام الجبس ، وجدران قديمة سوداء كثوب حِداد
الارملة ، وجدران جديدة بيضاء كالأكفان . وفي كل ناحية صفوف اشجار
متوازية ، وابنية ناهضة على نحو مستقيم : ابنية منخفضة مسطحة ، وخطوط
طويلة باردة ، وتلك الكآبة الحِدادية التي توحى الزوايا القائمة . لا تفاوت
في صفحة الارض ؛ لا سُذوذ في الفن المعماري ؛ لا انحراف او التواء .
وكان ذلك في مجموعه شيئاً مثلوجاً نظامياً بشعاً . وليس من شيء يقبض الصدر
كالتناظر *symétrie* فالتناظر هو السأم ، والسأم هو روح الاسمى والكآبة .
ان اليأس يتشاءب . وفي استطاعتنا ان نتخيل شيئاً أفتح من جهنم التي
نسام فيها العذاب ، هي جهنم التي نصاب فيها بالسأم . ولو قد كان ثمة
مثل جهنم هذه ، اذن لكان هذا الجزء من جادة المستشفى جديراً بان
يكون هو المدخل اليها .

وحين يهبط الليل ويختصر النهار ، وبخاصة في الشتاء ، في تلك اللحظة
التي تجرّد فيها ريح المساء شجرات الدردار من اوراقها الناصلة الزاوية ،
حين تكون الظلمة حالكة تعوزها النجوم او حين يحدث القمر والريح
صدوعاً في السحب ، تصبح هذه الجادة ، فجأةً ، مروعة . كانت الخطوط
المستقيمة نفوس وتختفي في الظلام مثل فلذ اللانهاية . فلا يتالك عابر السبيل
من ان يفكر في تقاليد البقعة الدامية التي لا نحصى . فقد كان في
وحشة هذه المنطقة حيث اقتشفت جمهرة كبيرة من الجرائم ، شيء مخيف .
ان المرء ليخيل اليه ان قلبه يجدته بان في هذه الظلمات أشراكاً ، واذا
بجميع الاشكال المختلطة في العتمة تبدو مريبة ، واذا بالتجاويف الطويلة المربعة
التي يلحها بين كل شجرة وشجرة ، تبدو كالتقبور . في النهار كانت تلك
البقعة بشعة ، وفي المساء كانت كثيبة ، وفي الليل كانت مشؤومة .
وفي الصيف ، عند الفسق ، كان المرء يرى ههنا وههناك بعض

النسوة العجايز الجالسات ، تحت شجر الدردار ، على مقاعد جعلتها
الامطار شبه عفة . كانت هاتيك العجايز الطبيبات مدمنات للشحاذة .

وعلى الجملة ، فان هذا الحي الذي بدا شيئاً زال زمانه اكثر مما بدا
شيئاً عتيقاً ، أخذ منذ ذلك الحين يتخذ هيئة اخرى . لقد أمسى كل من
يرغب في رؤيته ، ابتداءً من تلك الفترة ، مضطراً الى الاسراع . ففي
كل يوم كان يزول جزء من اجزاء ذلك المجموع . فالآن ، ومنذ عشرين
سنة خلت ، كانت نهاية خط اورليان الحديدي هناك ، خارج الضاحية
القديمة تماماً ، فهي تبقى على قيد الحركة . فحيثما نجد في ضواحي عاصمة
من العواصم مستودعاً من مستودعات السكة الحديدية ، فاعلم ان ثمة
قرية نوت ، ومدينة تولد . لكأنما حول هذه المراكز الكبرى لنشاط
الامم ، وحول دمدمة هذه الماكينات الجبارة ، وحول خيول الحضارة
العلاقة هذه التي تأكل الفحم وتقيء النار ، ترتجف الارض الملائى بجرانيم
الحياة ، وتفتح فيها لتبتلع منازل الناس القديمة وتطلع المنازل الجديدة .
إن المنازل القديمة لتنتهار ، وإن المنازل الجديدة لتنبثق .

ومنذ أن غزا مستودع سكة حديد اورليان اراضي لاساليترييو ،
والشوارع القديمة الضيقة المجاورة لحنادق « سان فيكتور » و « حديقة
النباتات » ترتجف ، وقد اخذت تجتازها ثلاث مرات او اربع مرات
يومياً ، وفي عنف ، سيول من عربات المسافرين ، وعجلات الكراء ،
والمركبات العامة التي ترد البيوت الى الورا . خلال فترة من الزمان -
ذات اليمين وذات الشمال . ذلك بان ثمة أشياء تتراهى غريبة في
الآذان ، ومع ذلك فهي صحيحة مئة بالمئة . وكما ان من الصواب
القول إن الشمس تعمل على إلغاء واجهات البيوت المتجهة
نحو الجنوب في المدن الكبرى ، فكذلك لا يُكره ان مرور
العربات الموصول يزيد في عرض الشوارع إن أعرض حياة جديدة
لواضحة للعيان . ففي ذلك الحي البلدي القديم ، وفي زواياه الأشد

إيجاشاً ، بدأ بلاط الشوارع يبرز ، واخذت الارصفة تنبتق وتمتدّ الى مسافات أطول فأطول ، حتى في تلك المواطن التي ما تزال خلواً من عابري السبيل . وذات صباح - ذات صباح تاريخي في تموز سنة ١٨٤٥ - شوهدت قدور سوداء مملأى بالزفت تطلق الدخان هناك . وفي ذلك النهار كان في ميسور المرء ان يقول ان الحضارة وصلت الى شارع الـ «اورسين» ، وان باريس قد دخلت ضاحية « سان مارسو » .

٢

عش لبوم ودُخْلة هـ

أمام بيت غوربو العتيق هذا وقف جان فالجان . لقد اختار مثل جوارح الطير ، المكان الأشدّ انعزالاً لكي يبني عشه .
وبحث في صدرته ، واخرج منها ضرباً من مفتاح تعنوا له الاقفال كلها ، وفتح الباب ، ودخل ، ثم أعاد اغلاق الباب في عناية ، ورفق السلم وهو لا يزال حاملاً كوزيت .
وعند أعلى السلم اخروج من جيبه مفتاحاً آخر فتح به باباً ثانياً . كانت الغرفة التي دخلها واعاد اغلاقها في الحال ضرباً من العملية ، فسيحة بعض الشيء ، ليس فيها من الاثاث غير حشيتة ممددة على الارض ، وطارلة ، وبضعة كراسي . وكان في احدى الزوايا موقد مشعل تبدو جمراته للعيان .
وأضاء مصباح الجادة هذه الغرفة الحظيرة اضاءة باهتة . وفي طرفها الاقصى ، كانت غرفة صغيرة تحتوي على سرير ذي 'سيور' . وعلى هذا السرير وضع جان فالجان الطفلة من غير ان يوقظها .

* الدخّل والدخْلة طائر صغير مفرد .

وقدح بالزند ناراً ، وأضاء شمعة ؛ وكان ذلك كله مُعداً على الطاولة مقدماً . وكما فعل في الليلة البارحة انشأ مجدق الى كوزيت في نظرات ملأى بنشوة الجذل ، وقد كادت انطباعة الطيبة والحنان الغالبة عليها ان تبلغ حد الحبل . وكانت الفتاة الصغيرة قد استسلمت للرقاد - بتلك الثقة الهادئة التي لا ترافق الا القوة التصوي او الضعف الاقصى - من غير ان تدري مع من كانت ، وواصل نومها من غير ان تعرف اين كانت .

وانحنى جان فالجان وقبّل يد الطفلة . ولتسعة اشهر خلت قبل يد الام التي كانت ، ايضاً ، قد استسلمت منذ لحظة ، للرقاد . وملاً فؤاده ذلك الاحساس عينه ، ذلك الاحساس الفاجع ، التقوي ، الممض .

وركع قرب سرير كوزيت .

كانت الشمس قد اثمرت ، ومع ذلك فالطفلة ما تزال نائمة . وعبر نافذة العلية شعاع شاحب من أشعة شمس كانون الاول ورسم على السقف خيوطاً طويلة من الظل والضوء . وفجأة ارتجّت كارة قالع حجارة ، مُثقلة بأحمالها ، فوق حصباء الجادة وهزّت البناء العتيق وكأنها عاصفة ، فاذا به يرتجف من أساسه الى قمة رأسه .

وأفاق كوزيت بجفلة ، وصاحت :

« نعم ، مدام ! ها قد جئت ! ها قد جئت ! »

ووثبت من السرير ، وأجفانها ما تزال نصف مغمضة بثقل النوم ، وبسطت ذراعها نحو زاوية الجدار .

وقالت :

« آه ، يا الهي ، يا الهي ، أين مكنتني ؟ »

وهنا كانت عيناها قد انفتحتا على مدامها ، فرأت وجه جان فالجان

الباسم .

وقالت الطفلة :

- « اوه ، نعم ، هذا صحيح ! صباح الخير ، يا سيدي . »
ان الاطفال ليتقبلون البهجة والسعادة في سرعة وفي ألفة لانهم هم
انفسهم ، بالفطرة ، عنوان السعادة والبهجة .

وبصرت كوزيت بكاترين عند قدم سريرها ، فاستولت عليها في
الحال . وفيما هي تلعب ، وجهت الى جان فالجان مثة من الاسئلة :
اين هي ؟ وباريس ، اهي بلدة كبيرة ؟ ومدام تيناردييه ، اهي بعيدة
جداً ؟ هل ستراجع كرة اخرى ؟ الخ . الخ . وفتاة صاحت :

- « ما اجمل هذا المكان ! »

كان كوخاً مخيفاً ، ولكنها استنشقت نسيم الحرية .

واردفت آخر الامر :

- « اليس من واجبي ان اكنس ؟ »

فقال جان فالجان :

- « المي ! »

وهكذا انقضى النهار . ومن غير ان تمعب نفسها بمحاولة فهم شيء ،
نعت كوزيت بسعادة تمتنع عن التعبير ، بين هذه الدمية ، وهذا
الرجل الطيب .

٣

بوسان يمتزجان فيولدان سعادة

وطلع صباح اليوم التالي على جان فالجان وهو على مقربة من
كوزيت ايضاً . كان ينظر هناك ، من غير حراك ، ليرى اليها

وهي تستيقظ .

كان شيء جديد يُداخل روحه .

إن جان فالجان لم يحب شيئاً في يوم من الايام . لقد سلخ خمساً وعشرين سنة وهو وحيد في هذا العالم . إنه لم يكن ، ذات يوم ، أباً أو عاشقاً ، أو زوجاً ، أو صديقاً . وفي سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كان نكدآ ، كالح الوجه ، غفياً ، جاهلاً ، نفوراً . كان فؤاد هذا المعجوز المحكوم عليه بالاشغال الشاقة مليئاً بالبتولات . إن أخته وأطفال اخته لم يخلفوا في نفسه غير ذكرى غامضة وبعيدة ، ما لبثت آخر الامر ان تلاشت . لقد بذل غاية جهده للعثور عليهم ، حتى اذا لم يجدهم نسيهم . فالطبيعة البشرية هكذا خلقت . اما عواطف شبابه الرخصة الاخرى ، إن عرف شيئاً من ذلك ، فقد سقطت في هاوية . وحين رأى كوزيت ، حين أخذها ، حين ذهب بها وانقذها ، استشعر ان فؤاده قد عرته هزة . لقد استيقظ كل ما فيه من مشاعر وانفعالات واندفع في عنف نحو هذه الطفلة . كان يقرب من الفراش الذي ترقد فيه ، ويرتجف هناك من البهجة . لقد استشعر أسواقاً باطنية مثل أمّ من الامهات ، من غير أن يدري ما هي . ذلك بأنها جدّ مبهمة وجدّ عذبة هذه العاطفة العظيمة الغريبة التي تعمّر القلب في حبه الاول .

يا له من قلب شقيّ عجوز لا يزال غضاً طرياً !

ولكن ، لما كان هو في الخامسة والحسين وكانت كوزيت في الثامنة ، فان كل ما كان يمكن أن يستشعره من الحب في حياته كلها ذاب في ضرب من الاشعاع يجلّ عن الوصف .

كانت تلك هي الرؤيا البيضاء الثانية التي تبدّت له . كان الاسف قد أطلع في افقه فجر الفضيلة ، ثم جاءت كوزيت فأطلعت في افقه ذاك فجر الحب .

وكرّرت الايام القليلة الاولى في غمرة من هذا الانشدها .

وغدت كوزيت هي الاخرى ، من غير ان تدري ، شخصاً آخر .
يا لها من كائنة صغيرة بائنة ! كانت صغيرة جداً حين فارقتها أمها فهي
لا تتذكرها البتة . وكما يفعل جميع الاطفال ، وهم في ذلك أشبه بطلائع
الكرمة المغضة التي تتعلق بكل شيء ، حاولت كوزيت أن تحب .
ولكنها ما كانت لتقدر على النجاح . لقد صدّها الناس جميعاً : تينارديه
وزوجته ؛ واولادها ؛ والاولاد الآخرون . وكانت قد أحبت الكلب
ولكنه مات . وبعد ذلك لم يرض شخص ما ، بل لم يرض شيء ما ،
ان تكون له صلة بها . وأمرٌ فاجع ينبغي ان نقوله - وقد ليحنا اليه
من قبل - ان فزادها كان بارداً حتى في الثامنة . ولم تكن هذه غلطتها .
إن ملكة الحب ما كانت هي الشيء الذي يعوزها . وأسفاه ! انما كانت
تعوزها امكانية الحب . وهكذا فنذ النهار الاول بدأ كل ما فيها من
فكر وشعور محبّ هذا الرجل الطيب . لقد احسّت اليوم بما لم تحس
به قط من قبل - استشعرت أنها تتفتح وتتمو .

لقد كفّ الرجل الطيب عن ان يكون في عينيها عبوزاً أو فقيراً .
لقد وجدت جان فالجان جميلاً ، تماماً كما قد وجدت الكوخ جميلاً .
تلك هي آثار الفجر ، والطفولة ، والصبا ، والبهجة . وإن لجدّة
الارض والحياة صلةً بذلك . فليس شيء اشدّ سحراً من الأصباغ
الزاهية التي تنفصها السعادة على العلية . لقد كانت لنا جميعاً ، في ماضي
ايامنا ، مسكن حقيق خرافيّ .

لقد اقامت الطبيعة هوةً عريضة - فترة خمسين عاماً - ما بين جان
فالجان وكوزيت . ولكن هذه الهوة ردمها القدر . لقد جمع القدر ،
فجاءةً ، وقرن بقوته التي لا تقاوم ، ما بين هاتين الحياتين المقتلعتي
الجدور ، المتباينتين في السن ، المتشابهتين في الأسى . والحسّ ان
إحداها تمّت الاخرى . فقد كانت غريزة كوزيت تبحث عن أب ، كما
كانت غريزة جان فالجان تبحث عن ولد . وكان في اجتماعها ما يفيد

معنى عشور كلّ منهما على ضالته . وفي تلك اللحظة العجيبة التي تماشّت فيها أيديهما التعم أحدهما بالآخر . وحين تبادلت روحاهما النظر ، ادركا ان كلّاً منهما في حاجة الى رفيقه ، وتعانقا عناقاً حاراً .

ولو أردنا ان نحمّل الكلمات معناها الاشدّ شمولاً وإطلاقاً اذن لكان في ميسورنا ان نقول ان جان فالجان - وقد فصل عن كل شيء بمقدران القبر كما فصلت رفيقته الصغيرة - كان الرجل الأرملة ، وان كوزيت كانت الفتاة اليتيمة . وهذا الوضع انتهى بجان فالجان الى ان يصبغ ، بمعنى سماوي ، أبا كوزيت .

والواقع ان الانطباع الحفيّة التي أحدثتها في نفس كوزيت ، وسط غاية « شيل » ، يدُ جان فالجان تلك التي قبضت على يدها في الظلام لم تكن وهماً ولكن حقيقة . لقد كان دخول هذا الرجل الى قدر تلك الطفلة أشبه شيء بتدخل الله .

وفي غضون ذلك ، كان جان فالجان قد أحسن اختيار مخبأه . كان هناك في حالٍ من الأمن بدت كاملة غير منقوصة .

وكانت الغرفة ، ذات الحجيرة الجانبية ، التي احتلها مع كوزيت ، هي تلك التي تطل نافذتها على الجادة . وكانت هذه النافذة هي الوحيدة في ذلك المنزل . ولم تكن ثمة نظرات جارٍ يخشى أذاها لا من هذه الناحية ولا من الناحية المقابلة .

وكان الطابق الاول من رقم ٥٠-٥٢ أشبه شيء بملحقٍ خرب . كان يؤدي دور الاسطبل بالنسبة الى زارعي البقول في السبخ ، ولم يكن ثمة سبيل يصله بالطابق الاعلى . كان معزولاً عنه بالسقف الذي لم يكن فيه لا سلم ولا باب سقف ، والذي كان بمثابة « الحجاب الحاجز » للسكن العتيق . وكان الدور العلوي يحتوي ، كما قلنا ، على عدة غرف وبضع عليّات كانت واحدة منها فقط آهلة بامرأة عجوز خدمت جان فالجان بوصفها مدبّرة منزل . اما سائر الغرف فكانت مهجورة .

كانت هذه المرأة العجوز ، المشرفة بلقب « المستأجوة الرئيسية » ،

والمكلفة في الواقع بمهام الحارسة او البوابة ، هي التي أجرتة هذا المأوى يوم عيد الميلاد . وكان قد أوهمها انه ثري أفقرته « سندات اسبانيا » ، وانه يعتزم ان يقطن هناك مع حفيدته . وكان قد دفع اليها اجر العرفة عن ستة أشهر ، مقدماً ، وكاف العجوز في ان تؤثت العرفة والحجيرة على النحو الذي وصفنا . وكانت هذه المرأة العجوز هي التي أضرمت النار في الموقد ، وهيات لهما كل شيء ، ليلة وصولها . وتصرمت أسابيع . وعاش هذان المخلوقان عيشة سعيدة في ذلك المأوى الحفير .

ومنذ مطلع الفجر ، كانت كوزيت تضحك ، وتهذر ، وتغني . إن للاطفال اغانيهم الصباحية ، مثل الطيور .

وكان يتفق في بعض الاحيان ان يمك جان فالجان بيدها الصغيرة الحمراء ، التي شققها برد الشتاء ، ويقبلها . ولم تكن الطفلة المسكينة ، المتعوذة ان تُتصرّب ، لتفهم معنى ذلك ، فكانت ترتد الى الورا في حياء .

وفي بعض الاحيان كان يغلب عليها الجد ، وتأمل فستانها الصغير الاسود . إن كوزيت ما عادت ترتدي اسماً بالية ؛ إنها ترتدي ثوب الحداد . لقد فارقت الشقاء ودخلت الحياة .

وكان جان فالجان قد شرع يعلّمها القراءة . وأحياناً ، كان يتذكر - فيما هو يعلم الطفلة كيف تتهجى - أنه انما تعلم القراءة ، في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، لكي يفيد منها في عمل الشر . وها هو هدفه ذلك ينقلب الى تعليم القراءة لطفلة صغيرة . وعندئذ كان العجوز المحكوم عليه بالاشغال الشاقة يضحك ضحكة الملائكة الراشحة بالتأمل .

لقد استشعر أن في ذلك قعماً من قوة علوية ، استشعر انها ارادة كائن فوق البشر ، واستغرق في تفكيره الحالم . إن للافكار الخيرة ماويها كالافكار الشريرة سواء بسواء .

وكان تعليم كوزيت القراءة وتركها تلعب هما حياة جان فالجان كلها تقريباً . وبعد ذلك راح يحدّثها عن امها ويعلمها كيف تصلي . وكانت تناديه : أبي ، ولا تعرفه بغير هذا الاسم البتة .

كان يسلخ ساعات وهو يتأملها تلبس دميتهما ثيابها ثم تنزعها عنها ، ويستمتع اليها وهي تغني وتهذر . ومن ذلك الحين بدت الحياة في عينيه مملأى بالمتعة ، وبدأ الناس خيّرين منصفين . ولم يعد لينحي باللائمة ، بينه وبين نفسه ، على احد ما ، او ليحمله تبعة ظلم ما ، ولم يعد يرى اي سبب يدعوه الآن الى ان لا يعمرّ طويلاً ، بعد أن أحبته هذه الطفلة . لقد تطلّع الى مستقبل طويل تنيره كوزيت بضياء فاتن . والحق ان خير الناس ليسوا منزهين عن بعض الافكار الانانية . فقد كان يخاطر له ، احياناً ، وبضرب من الابتهاج ، انها لن تكون مليحة الوجه بحال .

وليس هذا غير رأي شخصي . ولكن اذا اردنا ان نعبّر عن فكرتنا كاملة ، في النقطة التي بلغها جان فالجان عندما شرع يجب كوزيت ، قلنا ان من غير الثابت عندنا أنه ما كان في حاجة الى هذا الزاد الجديد من الطيبة لكي يتسكن من مواصلة السير في الطريق القويم . كان قد رأى سوء خاق الناس وشقاء المجتمع في مظاهر جديدة مظاهر غير كاملة ، ولا تظهر مع الأسف غير جانب واحد من الحقيقة - القدر المقسوم للمرأة ملخصاً في فاتين ، وسلطة الدولة متمثلةً في جافير . لقد أعيد الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، هذه المرة ، لأنه عمل صالحاً . وكانت امواج جديدة من المرارة قد اجتاحتها ؛ وعصف به الاشمزاز والسأم . وكادت ذكرى الاسقف نفسها ان يعترها الكسوف لتعاود الظهور بعد ذلك وضاعة مظفّرة من غير شك ؛ ولكن هذه الذكرى المباركة اصابها الوهن آخر الأمر . ومن يستطيع ان يثبت ان جان فالجان لم يكن على وشك اليأس والتردي في هاوية الشر ؟ وهنا أقبل الحبّ فاذا به يغدو قوياً من جديد . وأسفاه ! إنه لم يكن

اقلّ ضعفاً من كوزيت . لقد اسبغ حمايته عليها ، فمحته هي القوة .
بفضله امسى في ميسورها ان تسير في طريق الحياة ؛ وبفضلها امسى في
ميسوره ان يلتزم الفضيلة . كان هو سناد هذه الطفلة ، وكانت هذه الطفلة
هي نقطة ارتكازه . ايه اها اللغز الالهي الذي لا يبر غوره ، لغز
توازن القدر !

٤

ملاحظات المستأجرة الرئيسية

كان جان فالجان من الحكمة بحيث حظّر على نفسه مغادرة الغرفة
في ساعات النهار . كان كل مساء يخرج للتنزه ، حوالى العسق ، فيتمشى
ساعةً او ساعتين ، وحده في بعض الاحيان ، ومع كوزيت في كثير
من الاحيان ، متخيراً ازقة الجادة الاكثر انعزلاً ، او قاصداً الى
الكنائس عندما يحبط الليل . وكان مولعاً بالذهاب الى كنيسة « سان
ميدار » ، وهي اقرب الكنائس الى مشواه . وكانت كوزيت ،
تبقى ، اذا لم يصطحبها جان فالجان ، الى جانب المرأة العجوز ؛ ولكن
الطفلة كانت تجد اعظم البهجة في الذهاب مع الرجل الطيب . كانت
تؤثر ان تقضي ساعة معه على أن تجلس وجهاً لوجه مع كاترين نفسها .
وكان يشي مسكاً بيدها ، ومجدتها أحاديث حلوة .

واقف ان أصبحت كوزيت لعوباً الى حد بعيد .
وكانت المرأة العجوز تدبّر المنزل وتنهض بأمر المطبخ ؛ وكانت هي
التي تخرج الى السوق لشراء الحاجات الضرورية .
لقد عاشت عيشة مقتصدة . كانت النار هزيلة دائماً في موقدها .
ولكن جان فالجان - شأن الناس الذين تكتنفهم ظروف حرجة - لم

محدث أيّ تغيير في اثاث الغرفة ، بل أبقاه كما كان في اليوم الأول .
كلّ ما في الامر أنه أوعز بأن يوضع بابٌ خشبيّ محلّ باب حجيّرة
كوزيت الزجاجي .

وكان يرتدي ، أبدأ ، سترونه الطويلة الصفراء ، وسرواله الاسود ،
وقبعته العنيفة . وفي الشارع كان الناس يحسبونّه شحاذاً . وكان يتفق ،
في بعض الاحيان ، ان تستدير النسوة الصالحات ، ويقدمن اليه فلساً .
وكان جان فالجان يأخذ الفلّس وينحن في انتضاع . وكان يتفق في
بعض الاحيان ايضاً ، ان يلتقي بانساً يلتس صدقة ، فلا يكون منه
إلا ان يلتفت الى وراه ليتأكد من ان احداً لا يراه ، ويقترّب من
المسكين خلسةً ، ويضع في يده قطعة نقدية ، هي غالباً قطعة فضية ،
ثم يسارع الى الابتعاد عنه . وكان لذلك ماوثه . لقد بدأ الناس
يعرفونه ، في الحي ، باسم الشحاذ الذي يوزع الصدقات .

وكانت « المستأجرة الرئيسية » - وهي مخلوقة مقطّبة الوجه ،
معبونة بالملاحظة الدقيقة لكل ما يتصل بالجيران ، على طريقة اهل
الضواحي - تراقب جان فالجان مراقبة دقيقة من غير ان تثير ارتياحه .
كانت صماء بعض الشيء ، وذلك ما جعلها مهذارة . وكان قد بقي لها
من ماضيها ستان ، الاولى في الفكّ الاعلى ، والثانية في الفكّ الاسفل ،
وكانت لا تقنأ تقرع هاتين السنين احدهما بالأخرى . وكانت قد وجهت
بعض الاسئلة الى كوزيت التي كانت - لجهلها كل شيء - غير قادرة
على أن تقول اكثر من أنها أقبلت من مونتيرماي . وذات صباح رأت
هذه الجاسوسة جان فالجان يمضي ، وعلى وجهه سيماء غريبة في نظر
المرأة الثرثرة ، الى احدى غرف البيت المهجورة . فتبعته بمثل خطى
هرّة عجوز ، ووفقت الى ان تراه ، من غير ان يراها هو ، من
خلال خصاص الباب المقابل مباشرةً . وكان جان فالجان قد ولّى ظهره
ذلك الباب ، زيادةً في الحذر من غير شك . وبصرت العجوز به

يبحث في جيبه ، ويخرج منها مِثْبرة ، ومقصاً ، وخبِطاً ، ثم يعيد الى فتق بطانة جانب من جوانب سترته الطويلة ويخرج من تحتها قصاصة ورق ضاربة الى الصفرة ما لبث ان نشرها . ولاحظت العجوز ، في ذعر ، انها ورقة نقدية من ذوات الالف فرنك . كانت هي الورقة الثانية ، او الثالثة ، من اوراق هذه الفئة ، التي وقعت عليها عيناها منذ ان ابصرت النور . وفرتّ والرعب يعصف بها .

وبعد لحظة دنا جان فالجان منها ، وسألها ان تصرف ورقة الألف فرنك هذه ، مضيفاً إنها دخله نصف السنوي ، الذي تلقاه البارحة . وفي ما بينها وبين نفسها ، تساءلت العجوز : « أين ؟ » إنه لم يغادر الغرفة إلا في الساعة السادسة مساءً ، وخزينة الدولة لا تظلّ مفتوحة - من غير شك - حتى تلك الساعة . وصرفت العجوز الورقة النقدية ، وأطلقت العنان لظنونها وأحداها . وادّت ورقة الالف فرنك هذه ، وقد علّقت عليها وضوعفت ، الى نشوء جمهرة من الأحاديث اللاهثة بين عجايز شارع « فينيي » سان مارسيل « الثرثارات .

وبعد بضعة ايام اتفق ان كان جان فالجان ، ينشر الحشب في الرواق ، غير مرتدي سترته الطويلة . وكانت المرأة العجوز في غرفته تنظفها وترتبها . كانت وحدها . ذلك أن كوزيت كانت تحدق ، في إعجاب ، الى الحشب المنشور . وبصرت العجوز بالسترة المعلقة بمسار ، وفحصتها . كانت البطانة قد خيبت من جديد . وتلمستها في عنابة ، واعتقدت انها ستجد في ثيابها وتخشياتها اكداساً من الورق . اوراقاً مالية اخرى من ذوات الالف فرنك من غير شك ا

ولاحظت ، الى جانب ذلك ، ان جيوبه كانت حافلة بمختلف ضروب الاشياء . لم تكن ثمة تلك الأبر والمقص والحياوط التي سبق لها ان رأتها فحسب ، ولكنها عثرت بالاضافة الى ذلك على حافظه دراهم ضخمة ، ومدية كبيرة جداً ، وعلى عدة لمسه من الشعر المستعار

— وهي ظاهرة تثير الريبة — ذات ألوان مختلفة . لقد بدا لها وكأن كل جيب من جيوب تلك السترة الطويلة يحتوي على شيء يُستعان به ضدّ حادث مفاجيء .
وعلى هذا النحو انتهى سكان البيت العتيق الى ايام الشتاء الاخيرة .

٥

قطعة نقدية من فئة الخمسة فرنكات

تقع على الارض فتحدث ضجة

وكان قرب سان ميدار شعاذ يجلس القرفصاء فوق حافة إثر عمومية مسدودة . وكان جان فالجان كثيراً ما يتصدق على هذا الرجل . إنه ما كان ليبراً به الا ويعطيه بضعة فلوس . وكان يتحدث اليه في بعض الاحيان . ولقد زعم حساد هذا الشعاذ انه يعمل في خدمة البوليس . كان خادماً عجوزاً في كنيسة من كنائس العوامّ ، في الخامسة والسبعين من العمر ، فهو يهيمهم بصلواته وأدعيته على نحو موصول . وذات مساء ، فيما كان جان فالجان يجتاز تلك الطريق ، ولم تكن كوزيت معه ، لمح الشعاذ جالساً في مكانه المألوف تحت مصباح الشارع المضاء منذ لحظة . وبدا الرجل ، وفقاً لعاداته وكأنه يصلي ؛ وكان منحنياً انحناءً كاملاً ، فتقدم جان فالجان نحوه ، ووضع في يده صدقته المعتادة . وفجأة ، رفع الشعاذ عينيه ، وحدّق الى جان فالجان ، ثم طأطأ رأسه في سرعة . وكانت هذه الحركة اشبه بوميض برق . وارتعد جان فالجان . لقد تراءى له انه لمح اللحظة على ضوء مصباح الشارع ، لا وجه خادم الكنيسة العجوز الوديع الفاجر الغم ، ولكن وجهاً

فظيحاً يعرفه جيداً . وغلب عليه مثل ذلك الشعور الذي يغلب على المرء حين يجد نفسه ، فُجأةً ، وتحت جنح الظلام ، وجهاً لوجه أمام نمر من الأتار . وارتدت الى الوراء ، مذعوراً متعجباً ، غير واجد الجرأة لا على أن يتنفس ولا على أن يتكلم ، لا على ان يبقى ولا على أن يفرّ ، مدداً نظره الى الشحاذ الذي عاود خفض رأسه المغطى بخرقة مزقة ، والذي بدا وكأنه ما عاد يحس بوجوده قط . في تلك اللحظة الغريبة حالت غريزة ما - لعلها غريزة حفظ الذات ، الخفية - بين جان فالجان وبين ان ينطق بكلمة . كان شكل الشحاذ ، وأسماه البالية ، وهيشته العامة هي هي لم يتغير منها شيء . وقال جان فالجان مخاطباً نفسه : « تبا لي ! اني معتوه ! أنا احلم ! متعيل ! » وانقلب الى غرفته قلقاً اعظم القلق .

ولم يجرؤ الا بثقّ للنفس ، على ان يعترف ، حتى لنفسه ، بأن الوجه الذي ظن أنه رآه كان وجه جافير .

وفي تلك الليلة ندم - وهو يفكر في المسألة - لعدم استجوابه ذلك الرجل بحيث يُكرهه على ان يرفع رأسه كرة أخرى .

وحين هبط الليل من اليوم التالي قصد الى هناك من جديد . كان الشحاذ في مكانه . وقال جان فالجان في عزم : « مساء الخير ، ايها الرجل الطيب ! » واعطاه فلساً . فرفع الشحاذ رأسه واجاب في صوت منتعب : « شكراً ، يا سيدي الطيب ، شكراً ! » انه لم يكن ، في الحق ، غير خادم الكنيسة المعجوز .

واطمأنت نفس جان فالجان اطمئناناً كاملاً . بل لقد شرع يضحك . وقال في ما بينه وبين نفسه : « يا للشيطان ! كيف كاد يخيل اليّ اني رأيت جافير ؟ آه ، يبدو ان بصري قد بدأ يضعف حقاً ! » ولم يعاود التفكير في ذلك .

وبعد بضعة أيام ، ولعلّ الساعة كانت الثامنة مساء ، كان جان

فالجان في غرفته يعلم كوزيت التهجية ، فتُرَدّد الاحرف من بعده في صوت مرتفع ، عندما سمع باب البناء العتيق يفتح ثم يوصد من جديد . وبدا ذلك غريباً في نظره . ذلك ان المرأة العجوز ، وكانت وحدها تشاركه السكنى في ذلك البيت ، كانت تأوي الى فراشها كل ليلة ، عند هبوط العتمة ، لكي توفر الشمع . واوماً جان فالجان الى كوزيت بان تلازم الصمت . لقد سمع وقع قدمين تصعدان السلم . لعلها المرأة العجوز وقد استشعرت مرضاً فقصدت الى الصيدي ثم عادت . وأضى جان فالجان . كان وقع القدمين ثقيلًا ، وكان يبدو وكأنه وقع قدمي رجل . ولكن المرأة العجوز كانت تنتعل حذاء غليظًا ، وليس ثمة ما يشبه وطء أقدام الرجال اكثر من وطء اقدم النسوة العجائز . ومع ذلك ، فقد أطفأ جان فالجان شمعته .

وطلب الى كوزيت ان تأوي الى فراشها ، قائلاً لها في صوت كالشمس :

« نامي في سكون كثير ! »

وفيا هو يقبلها من جبينها انقطع وقعُ القدمين . وظل جافاً فالجان صامتاً ، جامداً ، مديراً ظهره الى الباب ، جالساً على كرسيه الذي لم يتحرك عنه قط ، حابساً أنفاسه في الظلام . حتى اذا انقضت فترة طويلة لم يسمع خلالها شيئاً ما ، استدار من غير ان يحدث اي ضجة ، ورفع عينيه نحو باب غرفته فرأى من ثقب القفل نوراً ، وكان هذا النور اشبه بكوكب مشؤوم في خلفية الباب والجدار السوداء . كان ثمة من غير شك ، شخص ما ، يحمل شمعة ؛ وكان هذا الشخص يصغي .

وانقضت بضع دقائق ، واختفى النور . ولكنه لم يسمع وقع قدمين ، بما بدا وكأنه يؤذن بأن ذلك الشخص الذي كان يصغي لدى الباب قد خلع نعليه .

وانطرح جان فالجان على السرير من غير ان ينزع ثيابه ، ولكنه لم

يستطع ان يغمض عينيه تلك الليلة .

وعند الصباح ، فيما كان يُهوّم من الأعياء أفاق كرة اخرى على صرير باب غرفة قائمة في اقصى الرواق ، ثم سمع وقع خطى الرجل نفسه الذي ارتقى السلم في الليلة البارحة . واقترب ذلك الوقع . ووثب من سريره ، ووضع عينه على ثقب الباب ، وكان كبيراً ، رجاءً ان يلمح الشخص ، كائناً من كان ، الذي اتخذ سبيله الى ذلك البيت في موهن من الليل والذي استرق السمع لدى بابه . كان رجلاً ، في الواقع ، ذلك الذي مرّ بغرفة جان فالجان ، ولكن من غير ان يتوقف هذه المرة . وكان الرواق لا يزال مظلماً الى حدّ لم يمكّته من ان يتبين وجهه ؛ ولكن حين وصل الرجل الى السلم انعكس عليه من الحارج شعاع جعله يبرز مثل صورة مظلمة سوداء ، ورأى جان فالجان ظهره رؤيّة كاملة . كان الرجل طويل القامة ، يرتدي ريدنفوتاً طويلاً ، ويحمل تحت ذراعه هراوة ضخمة . كانت تلك هيئة جافير الرهيبة .

وكان في ميسور جان فالجان ان يلقي عليه نظرة اخرى من خلال نافذته المطلة على الجادة ، ولكن ذلك كان يقتضيه ان يفتح هذه النافذة ، وهذا ما لم يجرؤ عليه .

كان واضحاً ان هذا الرجل قد دخل الى البناء وفي يده مفتاح ، وكأنه يدخل الى بيته . من الذي اعطاه هذا المفتاح ؟ وما معنى هذا ؟ وعند الساعة السابعة صباحاً ، حين اقبلت المرأة العجوز لتنظف الغرفة ، رمتها جان فالجان بنظرة حادة ، ولكنه لم يوجه اليها ايما سؤال . وبدأت المرأة الطيبة في حال طبيعية .

وفيا هي تكنس ، قالت :

— « لعل سيدي سمع شخصاً ما ، يدخل البيت الليلة البارحة ؟ ، في مثل تلك السن ، وعلى تلك الجادة كانت الثامنة مساءً هي الليل الاشدّ حلكةً . »

واجابها في جرس ليس اكثر منه طبعية :
 - « بالمناسبة ، هذا صحيح . من كان ذلك الشخص ؟ »
 فقالت المرأة العجوز :
 - « إنه مستأجر جديد وَفَدَّ على المنزل . »
 - « وما اسمه ؟ »
 - « لم اعد اذكر ذلك . ديمون أو دومون . شيء من هذا القبيل . »

- « ومن هو ، مسيو دومون هذا ؟ »
 وتأماته العجوز ، لحظةً ، بعينها التَّمْسِيَتَيْنِ * الصغيرتين ، وأجابت :
 - « إنه رجل يعيش على دخله ، مثلك انت . »
 وجائز ان لا تكون العجوز قد رَمَت الى شيء ، ولكن جازت
 فالجان اعتقد أنها استهدفت بملاحظتها تلك أمراً ما .
 وحين مضت لسيلها نضد مئة من الفرنكات ، كانت في احد
 الادراج ، على شكل إضبع ، ووضعها في جيبه . وعلى الرغم من الخذر
 البالغ الذي اصطنعه في هذا العمل لكي لا يُسْمَع رنين الفضة ، فأنت
 قطعة نقدية من ذوات الخمسة الفرنكات افلتت من قبضته ، وكررت
 ضاجّةً فوق ارض الغرفة .

وعند الفسق ، هبط السلم ، وأجال طرفه في طول الجادة وعرضها .
 ولم يقع نظره على احد . لقد بدت الجادة مهجورةً هجراً كاملاً .
 صحيح ان من الجائز ان يكون رجلٌ ما ، محتبباً خلف شجرة .
 وارفق السلم من جديد .

وقال لكوزيت :

- « تعالي ! »

وأمسك بيدها ، وغادرا المكان .

* الشيبتين بيبي النمس .

الكتاب الخامس

المطاردة السوداء وتحتاج الى كلاب قنص صامته

١

خطوط الاستراتيجية المتعرجة

لكي نفهم الصفحات التي سوف لبي مباشرة" ، وصفحات اخرى سنقع
عليها في ما بعد ، يتعمق علينا ههنا ان نصّ على هذه الملاحظة :
انقضت سنوات طوال ومؤلف هذا الكتاب - الذي يجد نفسه ،
في أسف ، مضطراً الى التحدث عن نفسه - غائب عن باريس . ولقد
تغيرت باريس ، منذ ذلك الحين ، تغيراً كبيراً . إن مدينة جديدة
قد نشأت ، هي عنده ، بمعنى من المعاني ، مجهولة . وهو في غير
حاجة الى القول انه يحب باريس ؛ فباريس هي « مسقط رأس »

روحه . ومن طريق المدم وإعادة البناء أصبحت باريسُ شبابيه - باريس التي يحتفظ بها ، بخشوع ، في ذاكرته - باريساً قديمة ترقى الى عهد ماضٍ . فلندعه يتحدث عن باريس تلك وكأنها لا تزال قائمة . فقد يقود المؤلف قراه الى بقعة ما ، قائلاً : « في الشارع الفلاني كان البيت الفلاني ، ثم يتفق ان لا يكون قد بقي ، بعد ، لا شارع ولا بيت . وسوف يتحرى القراء الحقيقة ، اذا أحبوا ان يتجسسوا عناء ذلك . اما هو فيجمل باريس الجديدة ، وهو يكتب ، وباريس القديمة ماثلة نصب عينيه في صورة خادعة أنيرة لديه . إن ما يوقع في نفسه شعوراً عذياً ان يتخيل أنه لا يزال ثمة ، وراه ، شيء مما رآه حين كان في وطنه ، وان كل شيء لم يُزل ولم يتلاش . ذلك بأن المرء ، حين ينعم بالعيش في ارض الوطن ، يتوهم ان هذه الشوارع لا تعنيه في قليل او كثير ، وان هذه النوافذ ، وهذه السقوف ، وهذه الابواب ، ليست عنده بشيء ، وان هذه الجدران اجنبية بالنسبة اليه ؛ وان هذه الاشجار لا يميزها شيء عن الاشجار الاخرى ، وان هذه البيوت التي لا يدخلها البتة لا تغناء فيها ؛ وان حصباء الطريق التي يمشي عليها ليست غير حجارة . ولكن في ما بعد ، حين يُحرم المرء نعمة العيش في الوطن ، يجد ان هذه الشوارع عزيزة جداً ؛ وان هذه السقوف ، وهذه النوافذ ، وهذه الابواب قد ضاعت من يديه ، وان هذه الجدران ضرورية له ، وان هذه الاشجار غالية على فؤاده ، وان هذه البيوت التي لم يدخلها قط كان يدخلها كل يوم ، وانه قد خلف شيئاً من احسائه ، ومن دمه ، ومن قلبه ، فوق حصباء الطريق تلك . عندئذ يجد المرء ان جميع تلك المواطن التي لم يعد يراها ، والتي قد لا يراها اكرة اخرى ابدأ ، والتي احتفظ بصورتها في مخيلته ، تكتسب فتنة موجهة ، وتعاوده بمثل كآبة الشبح ، وتجعل الارض المقدسة تتراعى لناظريه ، فهي اذا جاز التعبير فرنسة نفسها .

ويجد أنه يحبها ، ويستحضرها كما هي ، كما كانت ، ويتشبث بها ، غير راغب في ان يغيّر شيئاً ، لأن الانسان يتعلق بصورة الوطن كما يتعلق بوجه امه .

فليسمع لنا اذن ان نتحدث عن الماضي في الحاضر . والآت ، نلتمس من القارئ ان يأخذ علماً بهذا ، ونستأنف الحديث .

كان جان فالجان قد غادر الجادة في الحال ، وشرع يجوب الشوارع في حذر ، مكسراً خطوط سيره ما وسعه تكسيروها ، مرتدأً فجأة على آثاره لكي يستيقن ان احداً لا يتعقبه .

وهذه المناورة من شبة الأيئل المطارد . وفي البقاع التي تخلّف القدم أثراً فيها تتمتع تلك المناورة - الى جانب حسناتها الاخرى - بالقدرة على خداع القانصين والكلاب من طريق الآثر المضادة . وذلك ما يُدعى ، في علم القنص بالكلاب ، « عودة الأيئل الزائفة الى كئناسه » .

كان القمر بدرآ . ولم يكن جان فالجان مغضباً لذلك . فقد فصل القمر ، وهو ما يزال جدهً قريب من الافق ، مواشير ضخمة من الضوء والظلّ في الشوارع . وكان في ميسور جان فالجان ان ينساب في محاذاة المنازل والجدران ، في الجانب القائم ، وان يراقب الجانب المضيء . ولعله لم يُدرك إدراكاً كافياً ان الجانب القائم ، قد فاتهُ . ومع ذلك ففي جميع الشوارع الصغير المبهورة المجاورة لشارع بوليفو ، كان على مثل اليقين من ان احداً لا يلحق به

ومشت كوزيت من غير ان تسأل أيما سؤال . كانت آلام السنوات الست الأولى من حياتها قد أدخلت شيئاً من روح الطاعة العمياء الى طبيعتها . والى هذا - وهذه ملاحظة سوف نرجع اليها في اكثر من مناسبة - فقد ألفت ، من غير ان تعيها وعياً كاملاً ، صفات صديقها الطيب الفارقة وغرائب القدر . وفوق ذلك كله ، فقد كانت

تستشر الأمن ، ما دامت الى جانبه .

ولم يكن جان فالجان يدري ، اكثر من كوزيت ، الى اين كان يقصد . كان مفوضاً أمره الى الله ، كما فوضت هي أمرها اليه . لقد بدا له أنه يمك ، هو ايضاً ، بيد كائن اكبر منه . لقد استشر ان كائناً غير منظور ، يقوده . واخيراً ، فلم تكن عنده أيما فكرة معدة ، أو أيما خطة ، أو أيما مقصد . بل إنه لم يكن واثقاً كل الثقة من أن ذلك الرجل هو جافير . والى هذا ، فقد يكون هذا الرجل جافير ، من غير ان يعلم انه جان فالجان . ألم يكن متكرراً ؟ ألم يعتقد القوم أنه قد مات ؟ ومع ذلك ، فقد حدثت اشياء غريبة منذ بضعة ايام . إنه في غير ما حاجة الى مزيد من ذلك . لقد واطن العزم على ان لا يدخل بيت غوربو كرة اخرى . وكالحيوان المطرود من مأواه ، راح يبحث عن ثقب يجتئيه فيه ويثا مجد ثقباً يقم فيه .

واجتاز جان فالجان متاهات عديدة متباينة في حي موفسار الذي كان قد أوى حتى في تلك اللحظة الى الرقاد ، وكأنه لا يزال مجاً في ظل نظام القرون الوسطى ، وتحت نير منع التجول ليلاً . لقد احدث مزاولات مختلفة في استراتيجية حكيمة ما بين شارع سانسييه وشارع كوربو ، وشارع باتوار سان فيكتور وشارع بُوري ليرميت . ان ثمة بيوتاً في تلك البقعة ، ولكنه لم يدخل ايأ منها لعدم وقوعه على ما يلائمه منها . وكان موقناً من انهم اذا كانوا يقفون اثره ، اتفاقاً ، فلا ريب في انهم قد اضاعوه الآن .

وحين اعلنت ساعة « سان ايتيين دو مون » الحادية عشرة عتبرَ شارع بونتواز أمام مكتب مفوضية البوليس الذي يحتل المبني رقم ١٤ . وبعد بضع لحظات دعتة الفريزة التي تحدثنا عنها من قبل الى ان يلتفت الى الورا . وفي تلك اللحظة رأى في وضوح - بفضل مصباح المفوضية الذي تم عليهم -

ثلاثة رجال كانوا يقبعونه عن كذب يمرون واحداً إثر واحد تحت ذلك المصباح في الجانب المظلم من الشارع . ودخل احد هؤلاء الرجال المجاز المؤدي الى بيت المفوضية . ولقد بدا له الرجل السائر في الظلمة مريباً على نحو لا يجتمل الشك .

وقال لكوزيت :

— « تعالي ، يا بنيتي ! »

وسارع الى مغادرة شارع بونتواز .

وقام بدورة ، وطاف حول « مجاز البطاركة » الذي كان موصداً بسبب من انتصاف الليل ، وأغذت السير في شارع الـ « إيبه دو بوا » وشارع الـ « آر باليت » ، وغاص في « شارع البريد » . وكانت ثمة ساحة ، حيث تقوم اليوم كلية رولين ، وحيث ينشعب شارع « نوف سانت جانفييف » .

(ولنا في حاجة الى القول إن شارع « نوف سانت جانفييف » هو شارع قديم ، وان مركبة بريد واحدة ما كانت تجتاز ، مرة كل عشر سنوات ، « شارع البريد » ، وكان شارع البريد هذا ، في القرن الثالث عشر ، أهلاً بالخزافين ، واسمه الحقيقي هو شارع الخزف .)

وسفع القمر اشعة مشرقة على هذه الساحة . واختبأ جان فالجان في مدخل بيت من البيوت ، مقدراً ان في ميسوره ، اذا ما كان هؤلاء الرجال يواصلون مطاردته ، أن يراهم على وجه التأكيد رؤبة واضحة وهم يجتازون هذه الرقعة المضاة .

والواقع ان اولئك الرجال ما لبثوا ان برزوا بعد ثلاث دقائق أو أقل . كانوا الآن أربعة . كانوا كلهم ذوي قامات طويلة ، وكانوا يرتدون سترات طويلة سمراء ، ويعتصرون بقبعات ممدورة ، ومجملوت هراوات ضخمة بأيديهم . ولم تكن قاماتهم الطويلة وقبضاتهم العريضة

اكثر ترويعاً من سيرم المشؤوم في الظلام . كان يجتبل للمرء أنهم
اربعة اشباح تنكرت بلباس المواطنين .

وكفوا عن السير في وسط الساحة وشكلوا حلقةً اشبه بحلقات
الناس حين يتبادلون الرأي . كانت تبدو عليهم سيما التردد . واستدار
ذلك الذي تراءى انه يقودهم ، و اشار بيده اليمنى ، اشارة كلها عزم ،
فحو الجهة التي كان جان فالجان فيها . وبدا واحد من الآخرين وكأنه
يشير في شيء من العناد الى الجهة المعاكسة . ولحظة استدار قائمهم
اضاء القمر وجهه اضاءةً تامة ، وتبين جان فالجان وجهاً جافير تينناً كاملاً .

٢

من حسن الطالع ان في ميسور

العربات ان تعجتاز جسر اوسترليتز

ونفد الشك عند جان فالجان . ولكنه لم ينفد ، لحسن الحظ ،
عند اولئك الرجال . وأفاد من ترددهم . كان ذلك وقتاً يضاع بالنسبة
اليهم ، ووقتاً يُكنسب بالنسبة اليه . وبارح المدخل الذي كان يجتبيء
فيه ، واغذت السير في « شارع البريد » متجهاً نحو « حديقة النبات » .
وبدأت كوزيت تستشعر التعب . فرفعها بين ذراعيه ، وحملها . لم
يكن في الشوارع احد ، ولم تكن المصابيح العامة قد اضيئت بسبب
من القمر .

وضاعفَ سرعته .

وفي بضع خطى ، وصل الى معمل غوبليه الحزفي ، وكان على
واجهته خطٌ قديم ، جعلته أشعة القمر مقروءاً في وضوح :

« هنا مصنع ابن غوبله ؛
تعالوا واختاروا جراراً وأباريق ،
وأصماً للزهور ، وانايب ، وآجرآ .
ولكلّ وافد يبيع القلب مرّبات من بلاط . »

وخلف وراءه « شارع المفتاح » ، ثم عَين « سان فيكتور » ،
ومضى في محاذة « حديقة النيات » ، سالكاً الشوارع المنخفضة ، حتى
انتهى الى رصيف النهر . وهناك اجال البصر في ما حوله . كان الرصيف
مهجوراً ؛ وكانت الشوارع مهجورة . ولم يكن احد خلفه . وتنفس
الصعداء .

وانتهى الى جسر اوسترليتز .

وكانت السلطة لا تزال تتقاضى رسماً من عابري ذلك الجسر .
وقدم نفسه الى موظف المكوس ، في مكتبه ، ودفع اليه فلساً .
فقال الموظف :

- « ينبغي ان تدفع فلسين . انت تحمل طفلةً تستطيع ان تمشي .
إدفع رسماً عن شخصين . »
ودفع ، وقد غاظه ان يلفت عبوره النظر . إن كل فرار يجب ان
يكون انزلاقاً .

كانت كارّةٌ ضخمة تعبر الـ « سين » في تلك اللحظة عينها ، وكانت
مثله متخذةً الضفة اليمنى . وذلك شيء يمكن ان يفيد منه جان فالجان .
إن في ميسوره ان يجتاز الجسر كله في ظلّ تلك الكارّة .

وحوالى منتصف الجسر رغبت كوزيت ، وقد خديرت وجلاها ، في
أن تسير . فأنزلها الى الارض ، وأمسك بيدها .

واذ اجتاز الجسر لمح اكداماً من الحشب قائمة امامه ، منحرفة قليلاً
الى ناحية اليمين . فمضى في ذلك الاتجاه . وكان عليه لكي يبلغ ذلك
المكان ، ان يغامر في اجتياز رقعة واسعة من الارض ، مكشوفة مضادة .

ولم يتردد . كان واضحاً أن اولئك الذين تعقبوا خطواته قد أضلّوا السبيل . واعتقد جان فالجان انه امسى في نجوة من الحظر . هذا صحيح ، ولكن احداً لم يكن يتبعه .

وأطلّ على شارع صغير ، هو شارع شومان فيرمان انطوان ، بمتد بين مستودعين للخشب مطوقين بجدران . وكان هذا الشارع ضيقاً ، مظلماً وكأنه صنع خصيصاً من أجله . وقبل ان يدخله ، التفت الى وراه . ومن موقعه ذاك كان في ميسوره ان يرى جسر اوسترايتز بطوله .

وفي تلك اللحظة ، دخل الجسر اربعة أشباح . وسرت في اوصال جان فالجان رعدة كتلك التي تسري في جسم الطريدة حين ترى الى الكلاب تتعقبها من جديد .

كان قد بقي عنده أمل واحد ، وهو ان يكون هؤلاء الرجال لما يدخلوا الجسر ، ولم يدهوه لحظة اجتاز الرقعة الواسعة المضاءة بمسكاً بيد كوزيت .

في تلك الحال ، يكون في ميسوره - اذا ما اندفع في الشارع الصغير المنبسط أمامه ، واذا ما وفق الى باوغ مستودعي الخشب ، والمستنقعات ، والحقول ، والارض الفضاء - ان ينجو بنفسه . لقد بدا له ان في إمكانه ان يفوّض أمره الى هذا الشارع الصامت . فدخله .

٣

انظر مخطط باريس عام ١٧٢٧

وبعد ان خطا نحواً من ثلاثئة خطوة بلغ نقطة افترق فيها الشارع . لقد انشعب الى شارعين ، ينعطف احدهما ، منحرفاً ، نحو الشمال ،

وينعطف الآخر ، منحرفاً ، نحو اليمين . كان امام جان فالجان مثل
فرعيّ حرف ٧ ، فأبيّ الفرعين يختار ؟
ولم يتردد قطّ . وانعطف نحو اليمين .
لماذا ؟

لأن الفرع الايسر يقود الى الضاحية ، يعنى الى المناطق الآهلة
بالسكان ؛ ولأن الفرع الايمن يقود الى البرية ، يعنى الى المناطق
المهجورة .

ولكنها ما عادا يمسيان ، الآن ، في سرعة . لقد أعافت خطوات
كوزيت خطوات جان فالجان .

ورفها عن الارض حاملاً اياها من جديد . وأسندت كوزيت رأسها
الى كتف الرجل الطيب ، ولم تنبس بيئت شفة .

وكان يستدير ، بين الفينة والفينة ، وينظر خلفه . وكان يحرص على
ان يلقم الجانب المظلم من الشارع أبداً . كان الشارع مستقيماً وراه .
وفي المرتين الاوليين او المرات الثلاث الاولى التي استدار فيها ، لم يَرَ
شيئاً . كان الصمت عميقاً ، ولقد واصل سيره في شيء من الاطمئنان .
وفجأة ، بدا له ، حين استدار كرتة اخرى ، انه رأى شيئاً يتحرك
بعيداً في الظلام ، عند ذلك الجزء الذي اجتازه من الشارع .

وانطرح الى الامام ، ولا تقول مشى ، راجياً ان يجد شارعاً
جانبيّاً يفرّ من خلاله ، ويروغ كرة اخرى من مطارده .
ووصل الى جدار .

بيد ان هذا الجدار لم يحل بينه وبين الذهاب الى ابعد . كان جداراً
يحيط بزقاق معترض ينتهي به الشارع الذي كان جان فالجان فيه
آنذاك .

وهنا ايضاً تعيّن عليه ان يقرر : أينطلق الى اليمين ام ينطلق الى
الشمال ؟

ونظر الى اليمين . كان الزقاق يمتد الى بقعة قائمة بين بعض الابنية التي كانت إما سقائف أو أهراء ، ثم ينتهي فجأة . كان آخر هذا الزقاق غير النافذ بادياً للعيان - جداو ضخم ايض .

ونظر الى الشمال . كان الزقاق من هذه الناحية مفتوحاً ، وكانت يتصل ، على بعد مئتي خطوة تقريباً ، بشارع كان هو رافداً من روافده . وفي ذلك الاتجاه بالذات كانت السلامة .

ولحظة قرّر جان فالجان ان ينمطف شمالاً ، لكي يحاول بلوغ الشارع الذي رآه عند نهاية الزقاق ، لمسح عند زاوية الزقاق والشارع الذي كان على وسك الانطلاق نحوه شبه تمثال اسود جامد .

كان شخصاً ما - رجلاً - كلف بالوقوف هناك من غير شك ، وكان ينتظره قاطعاً الطريق عليه . وأجفل جان فالجان .

وهذا الجزء من باريس الواقف فيه جان فالجان المحظّة ، والواقع بين ضاحية سان أنطوان ولا لاراييه ، واحد من تلك الاجزاء التي غيرتها الاعمال الحديثة من قبة الرأس الى اخصم القدم ، مبشّعة اياها في زعم بعض الناس ، بمحثة اياها في زعم بعضهم الآخر . لقد ولت جنائن الحضر ، ومستودعات الحشب ، والابنية العتيقة . وحلت محلها اليوم شوارع واسعة جديدة ، ومدرجات ، وسيركات ، وميادين سباق ، ومحطات للسكة الحديدية ، وسجن ، هوسجن مازاس . يعني التقدم ، كما نرى ، وملطّفاته

منذ نصف قرن ، كانت البقعة التي انتهى اليها جان فالجان تدعى في اللغة الشعبية الدارجة التي تصرّ على اطلاق اسم « الامم الأربع » على « مؤسسة فرنسة » واسم « فايدو » على « الاوبرا كوميك » - نقول كانت تلك البقعة تدعى « بيكبوس الصغير » في هذه اللغة . « باب سان جاك » ؛ « باب باريس » ؛ « حاجز الرقياء » ؛ « بورشيون » ؛ « غالبوت » ؛ « سيلبستين » ؛ « كابوسين » ؛

الـ « مايل » ، « الـ « بورب » ، « شجرة الكاركوفي » ، « بولونية الصغيرة » ، و « بيكبوس الصغير » ، تلك هي أسماء باريس القديمة التي تعوم فوق الاسماء الجديدة . إن ذاكرة الشعب لتطفو فوق حطام الماضي هذا .

وكان لا « بيكبوس الصغير » - الذي لم يكن له في الواقع وجود حقيقي إلا بشق النفس ، والذي لم يكن أكثر من تصميمٍ حيٍّ من أحياء السكنى - ذلك المظهر الرهباني الذي لمدينة إسبانية تقريباً . كانت الطرق معبدة تعبيداً رديئاً ، وكانت الشوارع مُنشأة على نحو هزيل . فوراء الشارعين أو الثلاثة الشوارع التي نوسك ان نتحدث عنها لم يكن ثمة غير الأسوار والوحشة . فلا دكان ، ولا عربة . بل لا شمعة مضاءة هنا وهناك ، في النوافذ ، الا نادراً . كانت الانوار كلها تطفأ بعد الساعة العاشرة . جنائن ، وأديرة ، ومتودعات خشب ، وغياض ، وبضعة منازل منخفضة متناثرة ، وجدران ضخام لا تقل ارتفاعاً عن المنازل .

كذلك كان هذا الحيّ في القرن الماضي . ولكن الثورة غيرت معاملة تغييراً كبيراً . كانت السلطات الجمهورية قد هدمت بعض ابنيه وشقت الشوارع اليه ومن خلاله . لقد اقيمت مستودعات النفايات هناك . ومنذ ثلاثين سنة وهذا الحيّ يُسمى محوياً تدريجياً بأنشاء أبنية جديدة . أما اليوم فقد سُطِبَ نهائياً . والـ « بيكبوس الصغير » الذي لا يحتفظ أيما مخطط من المخططات الحاضرة بأثر من آثاره كان يحتل مكانه على نحو واضح في مخطط عام ١٧٢٧ الذي نشره في مدينة باريس دونيز تيوري ، شارع سان جاك ، تجاه شارع بلاتو ، وفي مدينة ليون جان جيرين ، شارع ميرسيير ، في « برودانس » . وكان لا « بيكبوس الصغير » ما دعواته منذ لحظة لا شوارع ، مؤلفة من شارع « شومان فير سان انطوان » منشعباً الى فرعين اثنين ، ومتخذاً في ناحية اليسار

اسم بيكبوس الصغير ، وفي ناحية اليمين اسم شارع بولونسو . وكان فرعا ٧ متصلين عند قمتها بمثل قضيب معدني . وكان هذا القضيب المعدني يدعى شارع « دروا مور » . وهناك كانت ينتهي شارع بولونسو . أما شارع بيكبوس الصغير فكان يمضي الى أبعد ، مصعداً نحو سوق لينوار . وكان الوافد من « سين » حين ينتهي الى أقصى شارع بولونسو يجرد الى يساره شارع « دروا مور » منعطفاً انعطافاً حاداً على شكل زاوية قائمة ، ويبعد أمامه سور ذلك الشارع ، والى يمينه امتداداً أبتو لشارع « دروا مور » من غير منفذ ، يدعى زقاق جانرو .

في تلك النقطة كان جان فالجان .

لقد أجهل ، كما ذكرنا من قبل ، حين لمح ذلك الشكل الاسود الواقف وقفة الحرس عند زاوية « دروا مور » وشارع بيكبوس الصغير . لم يكن ثمة شك . كان ذلك الشبح يراقبه .
ما الذي يجب أن يفعله ؟

لم يبق ثمة متسع من الوقت للارتداد . وإن ما رآه يتحرك في الظلام ، على مسافة ما خلفه ، في اللحظة السابقة ، كان من غير شك جافير وزمرته . ولعل جافير قد انتهى الآن الى أول الشارع الذي كان جان فالجان في نهايته . وكان جافير ، كما تؤذن القرائن كلها ، يعرف هذا الشرك الصغير ، وكان قد اتخذ احتياطاته بأن ارسل واحداً من رجاله ليحرس المنفذ . وفجأة ، عصفت هذه الأحساس الشديدة الشبه بالحقائق في دماغ جان فالجان القلق ، مثل حفنة من الغبار تتطاير في وجه ربيع مفاجئة . لقد تأمل زقاق جانرو ؛ كانت ثمة اسوار عالية . وتأمل شارع بيكبوس الصغير ؛ كان ثمة حرس . لقد رأى هذه الصورة الكالحة تتكرر سوداء فوق بلاط الطريق الابيض المغمور بأشعة القمر . كان التقدم الى أمام يعني الانقراض على ذلك الرجل . وكان الارتداد

المخبراء يعني إلقاء نفسه بين يدي جافير . واستشعر جان فالجان وكأنه مطوق بسلسلة كانت تضيّق الحناق عليه شيئاً بعد شيء . ورفع عينيه الى السماء في بأس .

٤

جان فالجان يتلمس

في الظلام سبيله الى النجاة

لكي نفهم الصفحات التالية يتعين علينا ان نكوّن فكرة دقيقة عن زقاق دروا مور ، وبخاصة الزاوية التي يشكلها الى يسارك وانت تغادر شارع بولونسو لتدخل هذا الزقاق . وكان زقاق « دروا مور » مطوقاً من ناحية اليمين تطويقاً كاملاً تقريباً ، حتى شارع بيكبوس الصغير ، منازل تبدو عليها سماء الفقر ، ومن ناحية الشمال ببناء مفرد ذي خطوط قاسية مؤلف من عدة بيوت كانت ترتفع تدريجياً دوراً أو دورين ، فيما هي تقرب من زقاق بيكبوس ، بحيث أن هذا البناء الشديد الارتفاع من ناحية زقاق بيكبوس كان شديد الانخفاض من ناحية شارع بولونسو . هناك ، عند الزاوية التي تحدثنا عنها ، أمسى البناء منخفضاً الى حد جعله مجرد حائط ليس غير . ولم يكن هذا الحائط ينتهي ، على نحو متعامد ، الى الشارع . لقد بدا وكأنه شقة جدار بُرت على نحو منحرف تاركة فسحة عريضة نجحها زاويتها عن اعين المراقبين اللذين قد يتفق ان يقف احدهما على مسافة ما في شارع بولونسو ، والآخر على مسافة ما في شارع « دروا مور » .

ومن زاويتي الشقة المتبورة هاتين ، كان الجدار يمتد على شارع

بولونسو حتى منزل يحمل رقم ٤٩ ؛ وعلى شارع « دروا مور » ، حيث كان ارتفاعه اقل بكثير ، حتى ذلك البناء الكالح الذي تحدثنا عنه ، قاطعاً حائط جملونه المثلث الجانبي ، محدثاً بذلك زاوية منعكسة جديدة في الشارع . وكان جدار الجملون هذا مظهر كئيب . لم يكن المرء ليرى قمة ، غير نافذة واحدة ، او على الاصح مصراعين مجعوبين بصفحة من الزنك ، موصلين ابدأ .

إن أوضاع المواطن التي نصفها هنا دقيقة الى حد صادم ، وهي توظف من غير شك ذكرى غالية جداً في اذهان سكان الحيّ القدماء . وكان يملأ شقة الجدار المتتورة هذه شيء يشبه جداراً هائلاً حقيراً . وكان ذلك مجتمعاً واسعاً غير منسقى من الواح عمودية ، أعلاها أعرض من أدناها ، وقد شدت بعضها الى بعض بسور من حديد طويلة معترضة . والى جانب ، كان باب للعربات ذو أبعاد عادية ، لا يرقى انشاؤه ، من غير شك ، الى أبعد من خمسين عاماً . ورفعت شجرة زيزفون اغصانها فوق شقة الجدار المتتورة ، وكانت الجدار مغطى بالبلاط من ناحية شارع بولونسو .

وفي الحظر الدائم الذي كان يحيط بيجان فالجان تكشفت هذه البناية الكالحة عن وجه منعزل غير أهل لفت نظره اليها ، وأجال طرفه فيها على نحو خاطف . وقال فيما بينه وبين نفسه إنه إذا ما وفق الى دخولها فقد ينعم بالسلامة . وعاوده الامل حين خطرت له هذه الفكرة . وعند منتصف واجهة البناء المطللة على شارع « دروا مور » احاطت بنوافذ الادوار كلها انايب رصاصية عتيقة . وكانت فروع هذه الانايب الممتدة من أنبوب رئيسي الى كل منها ترسم على الواجهة شبه شجرة . ولقد بدت ثشعبات هذه الانايب بمرافقها المثة مثل قضبان الكرمة المجردة من أوراقها ، والملتفة على واجهات الليوت الريفية القديمة . وكان هذا العريش العجيب ذو الاغصان المؤلفة من صفائح وحديد

اول ما لفت انتباه جان فالجان . فأجلس كوزيت ، مسنداً ظهرها الى أحد الاعمدة ، طالباً اليها ان تلزم السكون ، ومضى الى حيث يسّ الانبوب بلاط الشارع ، لعله يجد وسيلة تساعد على ان يتسلق الجدار ، من هناك ، ويدخل المنزل . ولكن الانبوب كان متصدعاً بعيد عهد الاستعمال ، ولم تكن مثبتاته لتمسك به إلا بشق النفس . والى هذا ، فقد كانت نوافذ هذا البيت الصامت ونوافذ الغرف القائمة تحت السقف نفسها ، مسلحة بقضبان حديدية غليظة . ثم ان القمر كان يضيء هذه الواجهة إضاءة كاملة ، وخلق بالرجل الذي كان يراقبه من اقصى الشارع أن يراه يتسلق الجدار . وأخيراً ، ما الذي يفعله بكوزيت ؟ كيف يرفعها الى قمة بيت ذي ثلاثة أدوار ؟ واطرح فكرة التسلق بواسطة الأنبوب ، ودبّ على طول الجدار الى شارع بولونسو .

وحين بلغ شفة الجدار المتبورة حيث ترك كوزيت ، لاحظ أن أحداً لا يستطيع أن يراه هناك . لقد تخلّص ، كما شرحنا للنظرة ، من النظرات جميعاً أياً كان مصدرها . والى هذا ، فقد كان الظلام يلفه . وأخيراً ، فقد كان ثمة بابان . لعلمهم أن يقتحموهما . وكانت واضحة أن الجدار ، الذي رأى فوقه الزيزفون واللبلاب ، يطلّ على حديقة كان في ميوره ان يختمها فيها على الاقل - على الرغم من ان الاشجار ما تزال مجردة من الاوراق - ويمضي بقية الليل هناك . كان الوقت ينقضي . إن عليه ان يعمل في سرعة . وجربّ باب العربات ، فوجد في الحال أنه موصل من الداخل والخارج .

واقترب من الباب الكبير الآخر وقد همّراً فؤاده أمل أعظم . كان هراً الى حدّ مروّع ، وكان حجمه الهائل قد جعله حتى أقلّ صلابة . كانت ألواح الحشبية عفتة ، وأربطته الحديدية - وهي ثلاثة - جدّة . لقد

بدا اختراق هذا النطاق النخِرَ أمراً ميسوراً .
حتى اذا امتحن هذا البابَ رأى أنه لم يكن باباً . فلبس فيه
رزات ، أو صفائح حديدية ، أو قفل ، أو خصاص في الوسط .
وكانت العصابات الحديدية تطوقه من جانب الى جانب على غير انقطاع .
ومن صدوع الألواح الخشبية لمحَ رصماً * وحجارة ألحم ما بينها بالملاط على
نحو أخرق ، كالتي كان لا يزال في ميسور عابري السبيل ان يروها منذ
عشر سنوات . لقد اضطر الى الاعتراف في انشده ان هذا الباب
الكاذب لم يكن غير زخرف زَيْن به ذلك الجدار . وكان يسيراً عليه
ان ينزع لوحاً خشبياً ، ولكنه سوف يجد نفسه ، عندئذ وجهاً لوجه
مع جدار من الجدران .

٥

وهو ما كان متعذراً لو ان الشوارع

أضيئت بالغاز

في تلك اللحظة بدأت ضجة مخنوقة نظامية تعلن عن نفسها على مسافة
ما . وغامر جان فالجان فأتلع عنقه حول زاوية الشارع . كانت مفرزة
مؤلفة من سبعة جنود او ثمانية جنود قد انعطفت اللحظة نحو شارع
بولونسو . لقد رأى وميض حراهم . كانوا مقبلين في اتجاهه .

وتقدم الجنود ، وقد تبين على رأسهم قامة جافير الطويلة ، في تودة
وفي حذر . وبين القينة والقينة كانوا يقفون . كان واضحاً انهم
يستكشفون كل زاوية من زوايا الجدران ، وكل فرجة من فرج

الرض الحجارة غير المنعوتة .

الابواب والازقة .

وإنما كان هؤلاء الجنود - وهنا لا سيبل الى ان 'يُخدع الحدس -
يوثفون دورية من العسس التقاها جافير ، وطلب اليها ان تضع نفسها
بنصرته .

وسار مساعدا جافير بين صفوفهم .

وكانوا في حاجة الى ربع ساعة تقريباً ، بسبب من بطئهم وكثرة
توقفهم ، حتى يبلغوا البقعة التي تطأها قدما جان فالجان . كانت لحظة
مروعة . إن بضع دقائق لتفصل جان فالجان عن تلك الهاوية الهيفة
التي ففرت فها ، امامه ، للمرة الثالثة . ولم يعد سجن المحكوم عليهم
بالاشغال الشاقة ، الآن ، سجن الاشغال الشاقة وحسب . لقد امسى
ذلك السجن ضياع كوزيت الى الابد . يعني حياة شبيهة بباطن القبر .
كان ثمة الآن شيء واحد ممكن .

وكانت لجان فالجان هذه الميزة التي تمكننا من القول انه كان يحمل
جرايين في آن معاً . فأما الجراب الاول فكان ينطوي على افكار
قدسي ، وأما الجراب الثاني فكان ينطوي على المواهب الرهيبية التي
يتمتع بها محكوم عليه بالاشغال الشاقة . ولقد كان يلتبس العون من
واحد من هذين الجرايين ، تبعاً لما يقتضيه المقام .

والى جانب براعته الاخرى ، كان قد امسى - كما نذكر جيداً ،
وبفضل هروبه المتكرر من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في
طولون ، استاذاً في ذلك الفن الذي لا يُصدّق والذي يجعل المرء قادراً
على ان يرفع نفسه ، من غير سلاّم ، ومن غير كلاليب ، بالقوة العضلية
وحدها ، ومن طريق الاستناد الى مؤخر عنقه ، والى كتفيه ، ووركيه
وركيته ، مستعيناً او يكاد ببعض تنوءات الحجر النادرة - ان يرفع
نفسه على هذا النحو ، عند زاوية جدار قائمة ولو الى اعلى الدور السادس
من بناية ما عند الحاجة . وهو فن جعل زاوية ساحة الكونسيرجيزي

بباريس رهيبه وشهيره ، بعد ان فرّ منها « باتومول » المحكوم عليه بالاشغال الشاقة .

وقاس جان فالجان ، بعينه ، الجدار الذي رأى اغصان شجرة الزيزفون فوقه . كان ارتفاعه يبلغ ثمانية عشر قدماً تقريباً . وكانت الزاوية التي شكلتها مع حائط جملون البناية للضحمة ملأى ، في جزئها الاذن ، بركام من الحجارة مبنيّ على شكل مستطيل لعل القصد من اقامته كان صيانة هذه الحلوة الملائمة من غارات ذلك الضرب من الطيور التي ندعوها عابرة السبيل . والواقع ان هذا الملء الوقائي لزوايا الجدران كثير الشيع في باريس .

وكان ارتفاع هذا الركام يبلغ نحواً من خمسة أقدام . ومن قمته ، كانت المسافة الواجب اجتيازها للوصول الى الجدار لا تزيد على اربعة عشر قدماً .

وكان الجدار مغطى بطبقة من الحجارة المسطحة لا تنوء فيها على الاطلاق .

كانت كوزيت هي العقبة . فكوزيت ما كانت تعرف كيف تسلق جداراً . أيتخلى عنها ؟ إن ذلك لم يخطر في بال جان فالجان . وما كان حملها أمراً ممكناً . فأن كامل قوة المرء ينبغي ان تُحشد للقيام بمثل ذلك التسلق العجيب . ولا ريب في ان أقلّ عبء خليق بان يفقده مركز ثقله ، ويهوي به الى الأرض .

كان الموقف يقتضي حبلاً . ولم يكن عند جان فالجان شيء من ذلك . وأين يستطيع ان يجد حبلاً ، عند منتصف الليل ، في شارع بولونسو ؟ وبمينا ، لو كان لجان فالجان في تلك اللحظة بملكة ، اذن لتنازل عنها من أجل حبل .

إن لجميع الحالات القصوى بروقها التي تُعطينا في بعض الاحيات ، وتلهمنا في بعض الاحيان .

والتقت نظرة جان فالجان اليانسة بعمود المصباح العام في زقاق جانزو .
في ذلك العهد لم تكن شوارع باريس تضاء بغاز الاستصباح . فما
إن يهبط الليل حتى تنار مصابيح الشارع ، التي كانت مُقامة على مسافات
معيّنة ، والتي كانت تُرفع وتُخفض بجبلٍ يخترقه الشارع من أقصاه الى
أقصاه ، ويجري عبر ثقوب الأعمدة . وكان الملوّى الذي يلتفّ حوله
هذا الجبل مخبوءاً ، تحت المصباح ، في صندوق حديدي صغير يحتفظ به
الموظف المكلف إنارة المصابيح ، وكان الجبل نفسه مصوناً ، حتى ارتفاع
بميينه ، في بيت معدني .

وبقوة صراعٍ أسمى ، اجتاز جان فالجان الشارعَ بوثة واحدة ،
واقنعم الزقاق ، وكسر لسانَ قفل الصندوق الصغير برأس مديته ؛
وما هي الا لحظة حتى انقلب الى كوزيت كرةً اخرى . كانت معه
جبل . إن مخترعي الجبل اليانسين هؤلاء لينطلقون ، في صراعهم مع
القدر ، انطلاقاً خاطفاً ، عند الحاجة .

وفي غضون ذلك كانت الساعة ، والمكان ، والظلمة ، وانهاك جان
فالجان ، وسلوكه العجيب ، ورواحه وبجيته - كانت هذه كلها قد
شرعت تقلق كوزيت . ولقد كان خليقاً بأبما طفلة غيرها ان تطلق ،
منذ فترة بعيدة ، صيحات عالية . أما هي فاكتفت بأن جذبت جان
فالجان من ذيل ستروته الطويلة . كانت ضجة الدورية المقتربة تُسمع
أوضحَ فأوضحَ على نحوٍ موصول .

وقالت ، في همس :

- « ابي ، انا خائفة . من القادم ؟ »

فأجابها الرجل التمس :

- « هس ! إنها السيدة تيناردييه ! »

وارتعدت كوزيت .

واضاف :

« لا تقولي كلمة . دهيني أمل . واذا صرخت ، واذا بكيت ،
 فعندئذ نسعك السيدة تينارديه . لقد جاءت لكي تستودك . »
 ثم إن جان فالجان - من غير ما تعجل ، ولكن من غير ان
 يكرر عملاً ما مرة ثانية ، وفي عزم ثابت وسريع ، وهو شيء يكون
 ادعى الى الدهش حين نذكر ان دورية العسس وجافير قد ينقضان
 عليه في اي لحظة - نزع رباط عنقه ، وأمره حول جسد كوزيت
 تحت الذراعين ، محاذراً ان يصيب الطفلة اذى ما ، وشد رباط الرقبة
 هذا الى طرف الحبل بواسطة العقدة التي يدعوها الملاحون « عقدة
 السنونو » ، وعض على طرفه الآخر باسنانه ، ونزع نعليه وجوريه طارحاً
 اياها فوق الجدار ، وارثق ركام الحجارة المنية على شكل مستطيل ،
 وشرع يرفع نفسه عند زاوية الجدار وحائط الجلون في صلابة وثقة بالغتين
 وكان تحت عقبيه ومرقبه مراقي وسلام . ولم تكده تنقضي نصف
 دقيقة حتى كان على ركبتيه ، فوق الجدار .

وراقبه كوزيت ذاهلة ، من غير ان تنبس بكلمة . فقد كان في
 وصية جان فالجان وفي اسم السيدة تينارديه ما أصابها بالكم ،
 وفضأة ، سمعت صوت جان فالجان يدعوها في همن :
 - « أسندي ظهرك الى الجدار . »

وأطاعت .

فأضاف جان فالجان :

- « لا تنطقي بكلمة ، ولا تخافي . »

واستشعرت انها ترتفع عن الارض .

وقبل ان تجد متسعاً من الوقت للتفكير ابن كانت ، ألفت نفسها
 عند قمة الجدار .

وأخذها جان فالجان بين يديه ، ورضعها على ظهره ، وامسك يديها
 الصغيرتين بيده اليسرى وانبطح على بطنه ، ودب فوق قمة الجدار حتى

انتهى الى الزاوية المتورة . وكما سبق له ان قدر ، كان ثمة بناية يتحدّر سطحها من أعلى السياج الخشي الى قريب جداً من الارض ، تحدراً رقيقاً ينتهي به الى ان يمس شجرة الزيفون .

وكانت تلك ظاهرة سارة ، لأن الجدار كان في ذلك الجانب أعلى مما كان في جانب الشارع بكثير . ولمح جان فالجان الارض ، من تحته ، على عمق بعيد .

كان قد بلغ سطح السقف المنحدر ، ولما يغادر قمة الجدار ، حين أعلنت جلبة عنيقة وصول دورية العسس . وسمع صوت جافير الراعد : - « فتشوا في الزقاق ! إن شارع « دروا مور » تحت الحراسة ، وكذلك شارع بيكوس . اؤكد لكم أنه في الزقاق ! » واندفع الجنود الى زقاق جانزو .

وانزلق جان فالجان هابطاً السطح ، متشبثاً بكوزيت حتى بلغ شجرة الزيفون ، ووثب الى الارض . وسواء أكان ذلك ثمرة الذعر أم ثمرة الشجاعة ، فان كوزيت لم تهمس همسة واحدة . كانت يداها قد أخذتا بعض الشيء .

٦

بدء احجية

ووجد جان فالجان نفسه في شبه حديقة واسعة جداً وذات مظهر فريد ؛ حديقة من تلك الحدائق المحزونة التي تبدو وكأنها جعلت لكي ترمى في الشتاء وفي موهن من الليل . كانت تلك الحديقة مستطيلة الشكل ، في اقصاها صف من شجر الحور الضخم ، وفي زواياها أدواح فارعات الطول ، وفي وسطها فسحة غير ظليلة ، حيث تنهض شجرة منعزلة بالغة

العِظَم ، ثم بضع شجرات مشيرة ملتوية شعناء مثل عوامج ضخام ،
ومسالك من الحضر ، وَمَبْطَخَةٌ * كانت الاواني الزجاجية التي تغطي ثمراتها
تلتصق تحت اشعة القمر ، وبئر قديمة . وكان هنا وهناك مقاعد حجرية
بدت سوداء من اثر الطحلب . وكانت الممرات محوطة بشجيرات كثيفة ،
بالغة الاستقامة . لقد غطي العشب نصفها ، والطحلب الاخضر ساثرها .
وكان الى جانب جان فالجان البناية التي مكّنه سطحها من الهبوط ،
وركام من الحطب ، وخلف الحطب ، في محاذاة الحائط تماماً ، تمثال من
حجر لم يعد وجهه الا بتر غير قناع سائه بدا على نحو ضبابي في غمرة
الظلام .

وكان البناء خراباً ، ولكن بعض الغرف المهتمة كان يمكن ان
تميّز فيه . وكانت احدى تلك الغرف غاصة بما فيها ، بما يؤذن بأن
القوم يتخذون منها سقيفة .

وكانت بناية شارع « دروا مور » الكبيرة المرتجعة على شارع
بيكبوس الصغير تطلّ على هذه الحديقة بواجهتين مربعتين . وكانت هاتان
الواجهتان الداخيلتان أشدّ كآبة من الواجهات الخارجية نفسها . كانت
جميع النوافذ مقضبة بالحديد . ولم يكن ثمة ضوء ما . وفي الأدوار
العليا كانت مصاريع كالتي توجد في السجون . وكانت احدى هاتين
الواجهتين تلقي بظلمتها فوق الأخرى ، فينطرح على الحديقة مثل قطعة
ضخمة من قماش أسود .

وما كانت العين لتقع على أيما منزل آخر . كان اقصى الحديقة
مضمجلاً في الضباب وفي الظلام . ومع ذلك فقد كان في ميسور المرء
ان يتبين ، على نحو غامض ، جدراناً تتقاطع ، وكانت وراء ذلك
اراضٍ مزروعة اخرى ، وان يتبين ايضاً سطوح شارع بولونسو
المنخفضة .

* المبطخة زاوية من الحديقة تفرد لزراعة البطيخ .

وايس في ميدور الانسان ان يتخيل شيئاً اكثر ضراوة واشد انغزاًل من هذه الحديقة . فلم يكن ثمة احد ، وهو امر طبيعي بسبب من تقدم الليل . ولكن المكان بدا وكأنه لم 'يُجعل لكي يمشي فيه إنسان ما ، حتى في راتعة النهار .

وكان أول هموم جان فالجان ان يبحث عن حذائه وأن ينتعله . ثم ان يدخل السقيفة مع كوزيت . والحق ان الرجل الذي يحاول الهرب لا يستشعر ابدأ انه محجوب على نحو كافٍ عن اعين مطارديه . واذ كانت الطفلة تفكر ببناردويه الزوجة تفكيراً موصولاً فقد شاركته غريزته ، فربضت اكثر ما استطاعت أن تربض .

وارتعدت كوزيت ، والتصقت به . وصمعا جلبة الدورية التي كانت تجوس خلال الزقاق والشارع بحثاً عنهما ، وصدى التماس بين بنادقهم وبين الحجارة ، ونداءات جافير للحرس الذين أقامهم ههنا وههناك ، ولعنايته المتزجة بكلمات لم يكن في ميسورها ان يتيئناها . وبعد ربع ساعة ، بدا وكأن هذه الزجرة العاصفة قد شرعت تنأى . ولم يأخذ جان فالجان نفساً .

كان قد وضع يده ، في رفق ، على فم كوزيت . ولكن العزلة التي وجد نفسه فيها كانت ساكنة سكوناً عجيماً الى درجة جعلت تلك الجلبة المروعة ، المهتاجة الى أبعد الحدود ، القريبة الى ابعد الحدود ، لا تُلقى عليها ولو ظلاً من كدر . لقد بدا وكأن هذه الجدران مبنية من زجاج الحجارة الصم التي يتحدث عنها الكتاب المقدس .

وضجة ، وفي غمرة من هذا السكون العميق ، ارتفعت ضجة جديدة ، ضجة سماوية ، السهية ، لا سيبل الى وصفها ، ضجة فاتنة بقدر ما كانت تلك مروعة . كانت ترنيمة انبثقت من الظلام ، مزاجاً مذهلاً من الصلاة والتناغم في صمت الليل القاتم الخيف ، أصواتاً نسائية ،

ولكنها أصوات تحمل نبرات العذارى الصافية ، ونبرات الاطفال الساذجة ، تلك الاصوات غير الارضية الشبيهة بالتي لا يفتأ الوليد يسمعها ، والتي تتردد في مسمعي المرء ساعة الاحتضار . وانما انطلقت هذه الاغنية من البناية الكالحة المطلة على الحديقة . وفي تلك اللحظة التي تباعدت فيها جلبة الأبالسة لم يكن عجباً ان يُخيل الى السامع أنها جوقـة من الملائكة تقرب تحت جنح الظلام .

وركعت كوزيت وجان فالجان على رُكبهما .

انهما لم يعرفا ماهية ذلك ، لئنهما لم يعرفا اين كانا ، ولكنها كليهما ، الرجل والطفلة ، التائب والبريئة ، استشعرا ان عليهما ان يبشوا على رُكبهما .

ومن عجب ان هذه الاصوات لم تمنع البناية من ان تبدو موحشة . كانت أشبه بأغنية خارقة في منزل مهجور .

وفيا كانت هذه الاصوات تتغنى ، استغرق جان فالجان فيها استغراقاً تاماً . إنه لم يعد يرى الليل . لقد رأى سماء زرقاء . لقد بدا وكأنه يحس بانبساط هذه الاجنحة التي غلكتها كلنا في باطننا .

وخمدت الاغنية . واعلمها ان تكون قد استمرت فترةً طويلة . فلم يكن في ميسور جان فالجان ان يدري . إن ساعات النشوة الروحية ليست أبداً غير دقيقة واحدة .

وغرق كل شيء في الصمت ككرةٍ اخرى . لم يبق شيء في الشارع ، ولم يبق شيء في الحديقة . لقد تلاشى كل شيء ، ذلك الذي كان يتهدد ، وذلك الذي كان يوقع الطمأنينة في النفس . وداعبت الريح العشب الجاف فوق قمة الجدار ، محدثة ضجة خفيفة ، رفيقة ، كثيفة .

الأحجية تستمر

كانت ربيع الليل الشمالية قد هبت ، وهو ما آذن بأن الساعة كانت تتراوح من غير شك ما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية صباحاً . ولم تنطق كوزيت المسكينة بكلمة ما . واذا كانت قد جلست الى جانبه ، وامسدت رأسها اليه ، فقد ظن جان فالجان انها نائمة . وانحنى قليلاً ، ونظر اليها . كانت عيناها مفتوحتين على مداهما ، وكانت ترين على وجهها سياه أوجعت فؤاد جان فالجان .

كانت لا تزال ترتجف .

فقال جان فالجان :

- « هل انت ناعمة ؟ »

فأجابت :

- « انا اشعر ببود شديد . »

وبعد لحظة ، اضافت :

- « ألا تزال هناك ؟ »

فقال جان فالجان :

- « من ؟ »

- « مدام تيناردييه . »

وكان جان فالجان قد نسي الوسيلة التي اصطنعها ليضمن سكوت كوزيت . وقال :

- « اوه ! لقد ذهبت . لا تخافي شيئاً بعد الآن . »

وتنهدت الطفلة ، وكأنّها ثقلاً قد رُفع عن صدرها .

كانت الارض رطبة ، وكانت السقيفة مشرعة من جنباتها جيماً ،

وكانت الريح تزداد برودة لحظة بعد لحظة . ونزع الرجل الطيب سترته الطويلة ولفّ كوزيت بها .

- « هل نحمين بالدفء ، الآن ، اكثر من ذي قبل ؟ »

- « اوه ، نعم ، يا أبتِ ! »

- « حسن ، انتظريني هنا لحظة . سوف ارجع في الحال . »

وغادر المكان الحربي ، ومضى في محاذاة البناية الكبيرة ، التماساً لمأوى افضل . لقد وجد ابواباً ، ولكنها كانت كلها موصدة . وكانت جميع نوافذ الدور الارضي مقضبة بالحديد .

وفيا هو يميناز زاوية البناء الداخلية ، لاحظ انه انتهى الى بضع نوافذ مقنطرة لمع عندها بصيصاً من النور . ونهض على رؤوس اصابعه ، وحدق من خلال إحدى تلك النوافذ . كانت جميعها تنفتح على قاعة واسعة ، مفروشة ببلاطات عراض ، تشطرها عقود واساطين ، حيث لم يكن في وسع المرء ان يتبين غير وميض ضئيل وظلمات كثيفة . وكان ذلك الوميض ينبعث من قنديل مضاء في احدى الزوايا . كانت القاعة مبهجورة ، وكان كل شيء ساكناً . ومع ذلك فقد وقع في نفسه انه رأى ، بإنعام النظر ، شيئاً منبسطاً على ارض القاعة ، شيئاً بدا وكأنه مغطى بكفن . وكان له شكلاً إنسانياً . كان منبطحاً على بطنه ، مستقبلاً الارض بوجهه ، متصالب الذراعين ، جامداً جمود الموت . ولقد كان خليقاً بالرائي أن يقول ، بسبب من شبه افعى كانت ترحف فوق ارض القاعة ، ان حبلاً كان يطوّق عنق ذلك الشكل المشؤوم .

وكانت القاعة كلها غارقة في ذلك الضباب الذي يرين' على الاماكن الباهة الاضاءة ، والذي يضاعف الذعر .

وكثيراً ما قال جان فالجان منذ ذلك الحين إنه ، على الرغم مما شاهده خلال حياته من مشاهد كثيرة لا تكاد تُحصى ، فان بصره لم يقع على ما هو افظع وادعى الى الرعب من تلك الصورة الملتغزة

المحققة لسرّ عجيب ما ، ليس يعرفه ، في ذلك الموطن الكالح ، والتي
تُلح على هذا النحو الضبابي في الليل . كان بما يروّع المرء ان يفترض
أنها قد تكون مبنية ، وكان بما يروّع أكثر ان يظن انها قد تكون
على قيد الحياة .

وأنس من نفسه الجرأة على ان يضغط جبينه على الزجاج ، وان
يراقب ليرى ما اذا كان ذلك الشيء سوف يتحرك . وقضى على هذا
فترة طويلة ، في ما بدا له ، ولكن على غير طائل . ان الشكل
المنبسط لم يُبدِ حراكاً . وفجأةً ، عصف به دعر يجلّ عن الوصف ،
وولى فراراً . لقد انطلق نحو السقيفة من غير ان يجرؤ على النظر الى
وراء . فقد بدا له أنه اذا ما التفت فسوف يرى تلك الصورة تعدو
خلفه في خطى واسعة ، هازةً بذراعيها .

وبلغ السقيفة الحربة مهوراً منقطع النفس . وخذلته ركبتهاه ،
وتخلّب العرق البارد من مامّ جسده جميعاً .

ان كان ؟ مَنْ ذا الذي قدّر له يوماً أن يتخيل أيما شيء مثل هذا
للضرب من القبر في قلب باريس ؟ ما هذا البيت الغريب ؟ بناء حافل
بالاسرار الليلية ، ينادي الارواح ، تحت جنح الظلام ، بأصوات
الملائكة ، حتى اذا أقبلت فاجأها بمنزل هذا المشهد الرهيب - بعيداً
بفتح باب الجنة المشعّ ، ويفتح باب القبر الخيف . أكان ذلك بناء
حقاً ، بيتاً ذا رعم في الشارع ؟ ألم يكن هذا حلاً ؟ كان في حاجة
الى ان تتقرّى يدها الجدران باللمس لكي يصدق ذلك .

كان البرد ، والقلق ، والاهتياج ، وما عاناه في تلك الليلة من
آلام - كانت هذه كلها توقع في جسده حمى حقيقية . وانشأت افكاره
كلها تتصادم في دماغه .

واقترب من كوزيت . كانت فاتحة .

الاحجية تتعقد

كانت الطفلة قد القت رأسها على حجر واستسلمت للرقاد .
وجلس قريبا ، ونظر اليها . وشيئا بعد شيء ، فبا هو يتأملها ،
هدأ روعه ، واستعاد صفاء ذهنه .

كان واضحا انه ادرك هذه الحقيقة ، التي أمت أساس حياته منذ
اليوم ، وهي أنها ما دامت على قيد الحياة ، وما دامت الى جانبه فلن
يكون في حاجة الى شيء ابدأ إلا من أجلها ، ولن يخشى شيئا ابدأ
إلا بسبب منها . إنه لم يحس حتى بذلك البرد الشديد الذي كان يستبد
به وقد نزع سترته الطويلة ليغطيها بها .

وفي غضون ذلك ، ومن خلال التأمل الحالم الذي استغرق في خضمه ،
طرقت سمعه ، فترة ما ، ضجة فريدة . كانت أشبه بصوت جُلجل*
يتأيل . وإنما انبعثت تلك الضجة من الحديقة . وسمعت في وضوح ،
على الرغم من انها كانت واهنة : لقد أشبهت تلك الموسيقى البدائية
الغامضة التي تعزفها جلاجل البقر ، ليلاً ، في مراعيها .

تلك الضجة حملت جان فالجان على الالتفات .

ونظر ، فرأى ان في الحديقة شخصاً ما .

كان مخلوق شبيه بالرجل يمشي وسط الاواني الزجاجية التي تغطي
ثمرات البطيخ ، ناهضاً حيناً ، منحنيماً حيناً ، متوقفاً حيناً ، كل ذلك
في حركات نظامية وكأنما كان يسحب او يبسط شيئاً على الارض .
وكان ذلك المخلوق اعرج في ما يبدو .

وارتعد جان فالجان بارتعاشة المساكين الموصولة . إنهم يجدون كل

* الججل : الجرس الصغير . وجهه جلاجل .

شيء معادياً ومريباً . فهم يجذرون النهار لأنه يساعد رجال السلطة على رؤيتهم ، ويجذرون الليل لأنه يساعد أولئك الرجال على مياغتهم . منذ لحظة ، كان يرتعد لان الحديقة خالية ؛ وها هو ذا الآن يرتعد لأن ثمة شخصاً فيها .

وانتقلَ كرةً اخرى من خضمّ المخاوف الوهمية الى خضمّ المخاوف الحقيقية . وقال في ذات نفسه : لعل جافير وجواسيسه لما بغادروا المكان ، وأنهم قد خلّفوا من غير وبيب شخصاً ما ليراقب الشارع ، وانه اذا ما اتفق لذلك الشخص ان اكتشف وجوده في هذه الحديقة فسوف يستعدي الناس على اللص ، ويسلمه الى السلطة . وفي رفق ، رفع كوزيت الثالثة ، بين ذراعيه ، وحملها الى أقصى زاوية من زوايا السقيفة خلف ركام من الأثاث القديم لم يعد موضع الاستعمال . ولم تتحرك كوزيت .

ومن هناك ، راقب حركات ذلك المخلوق الذي كان يمشي في الرقعة المزروعة بطيخاً . ومن عجب ان صوت الجلبجل كان يتبع كل حركة من حركات هذا الرجل . فاذا ما اقترب الرجل ، اقترب الصوت . واذا ما ابتعد الرجل ، ابتعد الصوت . وحين كان الرجل يأتي بحركة مفاجئة ، كان يصاحب تلك الحركة ارتجافٌ في الصوت . وحين كان يتوقف ، كانت تلك الضجة تنقطع . لقد بدا واضحاً أن الجلبجل كان مشدوداً الى ذلك الرجل . ولكن ، ايّ معنى يمكن ان يُستفاد من ذلك ؟ ايّ رجل هو ذاك الذي يُعلّق في عنقه جلبجل ، كما يُعلّق في عنق كبش او ثور ؟

وفيا هو يفكر في هذه الاسئلة ، لمسَ يدي كوزيت . كانتا مثلوجتين .

وقال :

- « آه ، يا السّهي ! »

وناداهما في صوت خفيض :

- « كوزيت ! »

فلم تفتح عينها .

وهزتها في قوة .

ولم تستيقظ .

فقال :

- « أيمكن ان تكون قد ماتت ؟ »

ووثب واقفاً ، وهو يرتعد من قمة رأسه حتى اخمص قدميه .

واندفعت الى عقله ، كيفما اتفق ، أفظع الافكار وأدعاها الى الذعر .

قمة لحظات تحاصرنا فيها الافتراضات البشعة الخيفة مثل جبهة من آلهة

الجميم ، وتفتح ابواب دماغنا . وحين يكون اولئك الذين نحبهم في

خطر يخترع قلنا مختلف ضروب الحماقات . وتذكيراً ان النوم في

المواء الطلق ، وفي الليالي الباردة ، قد يكون مهلكاً .

كانت كوزيت شاحبة ، وكانت قد انطرحت على الارض ، عند

قدميه ، من غير ان تأتي بحركة .

وأصغى الى انفاسها . كانت تنفس ، ولكن تنفساً بدا له واهناً

وعلى وشك ان يجمد .

ما السبيل الى تدفئتها ؟ ما السبيل الى ايقاظها ؟ لقد طرد كل شيء

من تفكيره ما خلا هذا . واندفع في يأس الى خارج المكان الحرق .

كان ضرورياً جداً ان توضع كوزيت في فراش ما ، وتضرم النار

الى جانبها ، وان يتم ذلك في مدى لا يتجاوز ربع ساعة .

الرجل ذو الجمل

ومضى مباشرةً الى الرجل الذي رآه في الحديقة . كان قد حمل بيده لفة المال التي كانت في جيب صدره .

وكان ذلك الرجل مطأطأ الرأس . فلم يره مقبلاً نحوه . وما هي الا بضعة خطوات حتى كان جان فالجان على مقربة منه .
وحاذاه جان فالجان هاتفاً :

« مئة فرنك ! »

وأجفل الرجل ، ورفع عينيه .

وتابع جان فالجان :

« مئة فرنك تكسبها ، اذا آويتني هذه الليلة . »

واضاء القمر وجهه جان فالجان الذاهل إضاءة كاملة .
وقال الرجل :

« ماذا ! هذا انت ، ايها الاب مادلين ! »

وكان في هذا الاسم الملفوظ هكذا ، في تلك الساعة المظلمة ، وفي ذلك المسكان المجهول ، وعلى لسان ذلك الرجل المجهول ، ما جعل جان فالجان يرتد الى وراه .

كان مستعداً لكل شيء عدا هذا . فقد كان المتكلم رجلاً عجوزاً ، متقوس الظهر ، أعرج ، مرتدياً ثياباً هي اشبه بثياب الفلاحين ، وعلى ركبته البسرى واقية للرؤكب جلدية يتدلى منها جرس ضخم بعض الشيء .
أما وجهه فكان في الظل ، فليس من سبيل الى ان يتبينه المرء .

وفي غضون ذلك كان الرجل الساذج قد نزع قلنسوته ، وهنّف

وهو يرتجف :

- « آه ، يا الهي ! كيف جئت الى هنا أيها الأب مادلين ؟
من اين دخلت ، أوه ، أيها الرب يسوع ! هل هبطت من السماء ؟
اذا كنت قد هبطت من مكان ما فليس من ريب في انك هبطت من
هناك . وما الذي دهاك ؟ فأنت لا ترتدي رباط عنق ، ولا تعتمر
بقبعة ، وليس على جسدك سترة . ما ؟ اتدري انك كنت جديراً بأن
تروّع اي امرئ لا يعرفك ؟ لا سترة ؟ يا الهي ! أين القديسون
في هذه الايام ؟ ولكن كيف دخلت الى هنا ؟ »

ولم تكن ايّ من كلماته لتنتظر الاخرى . كان الرجل المعجوز
يتحدث في ذلاقة ريفية لم يكن فيها ما يقلق . ولقد قيل ذلك كله في
مزيج من الانشده والطبيرة الساذجة .
وسأله جان فالجان :

- « من انت ؟ وما هذا البيت ؟ »

فصاح الرجل المعجوز :

- « اوه ، حقاً ، هذا حسن . انا الرجل الذي وظّفته هنا ، وهذا

البيت هو المكان الذي وظّفني فيه . ماذا ؟ انت لا تتذكرني ؟ »

فقال جان فالجان :

- « لا . وكيف اتفق ان عرفتي ؟ »

فأجاب الرجل :

- « لقد أتقنت حياتي . »

والتفت ، فأضاعت أشعة القمر صفحة وجهه ، فعرف جان فالجان

أنه فوشلوفان المعجوز .

وقال جان فالجان :

- « آه ! هذا أنت ؟ أجل ، أنا أذكرك . »

فقال الرجل المعجوز في نبرة عتاب :

- « هذا سارّ جداً . »

واضاف جان فالجان :

« وماذا تفعل هنا ؟ »

« أوه ! أنا أعطي بطيخاتي . »

وفي الحق ان فوشلوفان كان يحمل في يده ، لحظة دنا منه جان فالجان ، طرفَ حصير من قصب كان منهكاً في نشره فوق مسكبة البطيخ . وكان قد نشر على هذا النحو عدداً من الحُصُر خلال الساعة التي قضاها في الحديقة . كانت هذه العملية هي التي حملته على القيام بتلك الحركات الخاصة التي لاحظها جان فالجان من السقيفة .

واضاف :

-- « لقد قلت لنفسي : القمر نير ، وسوف تُصْفَعُ الارضُ .

لعل من الخير أن ألبس بطيخاتي سترايتها . و ... »

وهنا نظر الى جان فالجان ثم اضاف مُرسلاً ضحكة عالية :

« ... لقد كنتَ تحسَنَ صنعاً لو انك مُعْنيتَ بنفسك مثل هذه

العناية ! ولكن كيف جئتَ الى هنا ؟ »

واذ وجد جان فالجان ان ذلك الرجل يعرفه ، باسم مادلين على

الاقبل ، فقد اطرح ما كان يلتزمه من حذر شديد . وضاعف اسئلته .

فدا - ويا للعجب ! - انها قد تبادلا دوريهما . لقد قام هو -

المتطفّل - بدور المستجوب .

« وما هذا الجلبجل المعلق بركبتك ؟ »

فأجابه فوشلوفان :

« هذا ؟ إن الغرض منه ان يجتنبني القوم . »

« كيف ؟ لكي يجتنبك القوم ؟ »

وغمز فوشلوفان بعينه على نحو لا سبيل الى وصفه .

« آه ، يا الهي ! ليس يوجد في هذا البيت غير النساء . غير عدد

كبير من الفتيات . ويبدو ان من الخطر الالتقاء بي . ان الجلبجل

بجذّرهن . فحين اجيء يذهبن . »

« ما هذا البيت ؟ »

« ولكن ، انت تعرف جيداً ! »

« لا ، انا لا أعرف . »

« ولكنك أنت الذي جعلتني بستانياً في هذا المكان ! »

« أجبني وكأنني لا أعرف شيئاً البتة . »

« حسناً ، انه اذن دير بيكبوس الصغير . »

وتذكر جان فالجان . كانت المصادفة ، يعني العناية الالهية ، قد قذفت به على وجه الضبط في دير حيّ سان انطوان هذا حيث كانت فوشلوفان المعجوز قد أدخلت ، بناء على توصية منه ، بعد ان أقعده السقوط من عربته ، قبل عامين اثنين . وكرّر وكأنما كانت يخاطب نفسه :

« دير بيكبوس الصغير ! »

واستأنف فوشلوفان :

« ولكن ، يا للشيطان ! كيف استطعت ، حقاً ، ان تدخل

الى هنا ، انت ، ايا الاب مادلين ؟ عبثاً تحاول إقناعي بانك قديس .

أنت رجل ، ومحظورٌ على الرجال ان يدخلوا الى هنا . »

« ولكنك هنا . »

« ليس هنا رجلٌ غيري . »

فأردف جان فالجان :

« ومع ذلك فينبغي ان أبقى هنا . »

فصاح فوشلوفان :

« آه ، يا السهي ! »

واقترب جان فالجان من الرجل المعجوز وقال له في جرس فاجع :

« ايا الاب فوشلوفان ، لقد انقذت حياتك . »

فأجابه فوشلوفان :

- « لقد كنتُ انا اول من تذكر ذلك . »
- « حسناً ، في استطاعتك ان تقدم اليّ اليوم مثل تلك الخدمة
التي قدمتها اليك بالامس . »
وأمسك فوشلوفان بيديه المرمتين المتجمعتين المرتجفتين يدي جان
فالجان القويتين . وانقضت بضع ثوانٍ قبل ان يوفّق الى الكلام .
واخيراً صاح :

- « أوه ! اذا استطعتُ أن اردّ اليك بعض جميلك ، فسوف
يكون ذلك فضلاً من عند الله . انا ! انا اتقد حياتك ! سيدي العمدة ،
ان الرجل المعجوز تحت تصرفك ! »
لكأنّ حبروراً رائعاً قد غلب على وجه هذا المعجوز فتهلّل به . لقد
بدا وكأنّ شعاعاً قد انبتق من وجهه .
وأضاف :

- « ما الذي تطلب اليّ ان أعمله ؟ »
- « سوف اشرح لك ذلك . أعندك غرفة ؟ »
- « عندي كوخ منعزل ، هناك ، خلف خرائب الدير العتيق ،
في زاوية لا يراها احد . إنّه هناك ثلاث غرف . »
وكان الكوخ ، في الحق ، محجوباً خلف الخرائب وفي منأى عن
اعين الرقباء الى حد جعل جان فالجان يعسى عنه .
وقال جان فالجان :

- « حسن . سوف اسألك ، الآن ، امرين . »
- « ما هما ، يا سيدي العمدة ؟ »
- « اولاً ، ان لا تقول لأحد ما تعرفه عني . وثانياً ، ان لا
تحاول ان تعرف من ذلك شيئاً إضافياً . »
- « كما تريد . أنا أدري انك لا تستطيع ان تفعل الا ما يشرف

وانك كنت دائماً رجلاً من رجال الله . والى هذا ، فأنت انت الذي
وضعتني هنا . هذا المكان لك . واذا طوع أمرك .

- « حسن جداً . والآن ، تعال معي . سوف نذهب لأنني بالطفلة . »
فقال فوشلوفان :

- « آه ! هناك طفلة ! »

ولم يزد على ذلك كلمة واحدة ، وتبع جان فالجان كما يتبع كلب
سيده .

وفي أقلّ من نصف ساعة كانت كوزيت قد أمست وردية اللون
بفضل اللمب المنبعث من نار قوية ، ونامت في سرير البستاني المعجوز .
وكان جان فالجان قد عاود ارتداء رباط عنقه وسترته الطويلة . وكانت
قبعة التي قذف بها من فوق الجدار قد وُجدت ورفعت عن الارض .
وفيما كان جان فالجان يلبس سترته الطويلة كان فوشلوفان قد نزع واقية
ركبته ذات الجبل ، وعلقها بمسار قرب مصرع النافذة ، فهي تزين
الجدار . كان الرجلان يتدفآن ، وقد اسندا برفتيهما الى مائدة كانت
فوشلوفان قد وضع عليها قطعة من جبن ، وشيئاً من الحبز الاصفر الدون
وزجاجة خمر ، وكأسين . وقال المعجوز جان فالجان واضعاً يده
على ركبته :

- « آه ! ايها الاب مادلين ! انك لم تعرفني لأول وهلة ! انت
تنقذ الناس ، ثم تنسام ! اوه هذا غير حسن ! انهم يذكرونك .
أنت جاهد تنكر الجليل ! »

وفيه يتضح كيف أضاع جافير الطريقة

والواقع ان الاحداث التي رأينا القحظة وجهها الآخر ، اذا جاز للتعبير ، انما تمت في ظل ايسر الاحوال والملابس .

عندما فرّ جان فالجان - في ليل ذلك اليوم نفسه الذي اعتقله جافير خلاله قرب سرير فانتين المحتضرة - من سجن مونتروي سور مير البلدي ، قدر البوليس ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة الهارب من وجه العدالة قد اتجه ، من غير شك ، نحو باريس . فباريس درودر صاحب يضيع فيه كل شيء . وكل شيء يختفي في دوامة العالم هذه كما يختفي في دوامة البحر . وليس من غابة تستطيع ان تخفي رجلاً كما يخبئه هذا الحشد . والفارتون على اختلاف اصنافهم يعرفون ذلك . انهم يذهبون الى باريس وكأنهم يذهبون الى مكان يعرفهم ؛ فثمة بالوعات تُتجى وتنفذ . ورجال الشرطة يعرفون ذلك ايضاً ، فهم انما يبحثون في باريس عن اضاعوه في ايما مكان آخر . ولقد بحثوا هناك عن عمدة مونتروي سور مير السابق . ودعي جافير الى باريس لمساعد الشرطة في مباحثها .

واحق ان جان فالجان قد ساعد ، في قوة ، على اعتقال جان فالجان من جديد . ولقد أساد مسيو شابوييه ، امين سر الشرطة في عهد الكونت آنغليز ، بالحلمة والذكاء اللذين تكشفت عنها جافير في تلك المناسبة . ومن ثم وقتى مسيو شابوييه ، الذي سبق له ان أسبغ حمايته على جافير ، الى ان ينقل مفتش مونتروي سور مير الى مركز الشرطة بباريس . وهناك ، أثبت جافير بطرائق مختلفة أنه - ولتقلها برغم ان الكلمة تبدو غريبة لم يُسمع بمثلا في الكلام على مثل تلك المصلحة - عظيم الفائدة باستقامة وشرف .

وكان قد اطرح التفكير في جان فالجان نهائياً - فعند كلاب القنص هذه الموكلة ابدأ بطرائدها يطس ذئب اليوم على ذكرى ذئب الأمس - عندما قرأ في كانون الاول عام ١٨٢٣ صحيفة ما ، وهو الذي لم يقرأ الصحف في يوم من الايام . ولكن جافير جعل من همه - بوصفه ملكياً - ان يعرف تفاصيل دخول « الامير القائد العام » * المظفر الى بايون . حتى اذا تم قراءة المقالة التي اثارت اهتمامه لفت نظره في الاسطر الدنيا من احدى الصفحات اسم من الاسماء ، هو اسم جان فالجان . لقد اعلنت الصحيفة ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة جان فالجان قضى نجه . وانما سبق الخبر في عبارة جازمة الى حد جعل جافير لا يشك في صحته البتة . لقد اكتفى بالقول : « إن هذا يضع حداً للمسألة » ، ثم التى الصحيفة جانباً ، وأقلع عن التفكير في ذلك . وبعد فترة اتفق ان حوّلت مذكرة بوليسية من مديرية شرطة الـ « سين ايه واز » الى مديرية شرطة باريس عن حادث اختطاف طفلة وقع ، كما قيل ، في ظروف خاصة ، في قضاء مونفيرماي . وقد نصت تلك المذكرة على ان طفلة صغيرة في السابعة او الثامنة من العمر كانت أمها قد عهدت في تربيتها الى فندقيّ من اهل المنطقة ، قد سرقها من ذلك الفندق وجعل مجهول . وكانت هذه الطفلة الصغيرة تُعرف بكوزيت . وكانت ابنة فتاة تدعى فانتين ، ماتت في المستشفى ، وليس ثمة من يعرف متى كانت وفاتها أو ابن . وانتهت هذه المذكرة الى جافير ، فلم تكده عيناه تقعان عليها حتى استغرق في التفكير . كان هذا الاسم ، فانتين ، معروفاً عنده جيداً . لقد ذكر ان جان فالجان جعله ينفجر ، هو جافير ، بالضحك حين سأله مهلة ثلاثة ايام لكي يذهب التماساً لابنة هذه الخلوقة . وذكر ان جان فالجان اعتقل في باريس لحظة كان يصعد الى مركبة مونفيرماي العمومية . ولقد قاده

* يقصد دوق آنغوليم الذي قاد حملة اسبانية ، وقد ورد ذكرها في الجزء السابق .

بعض الدلائل الى الاعتقاد ، آنذاك بأن هذه كانت المرة الثانية التي امتطى فيها متن هذه العربة ، وانه كان قد قام ، الليلة البارحة ، برحلة اخرى الى ضواحي تلك القرية لأن احداً لم يره في القرية نفسها . اي شيء كان يعمله في منطقة مونفيرماي هذه ؟ ذلك ما لم يستطع احد ان يجزره . ولكن جافير فهمه الآن . كانت ابنة فانتين هناك . ولقد ذهب جان فالجان التماساً لها . وها قد سرق رجل مجهول تلك الطفلة . من عساه يكون هذا الرجل المجهول ؟ أيكن ان يكون جان فالجان ؟ ولكن جان فالجان قد مات . ومن غير ان يقول كلمة لاحد ، امتطى جافير متن العربة العمومية عند « بلاديتين » ، زقاق بلانشيت ، وسافر الى مونفيرماي .

لقد توقع ان يجد ايضاحات هامة هناك ، ولكنه لم يجد غير غموض كبير .

ففي الايام الاولى كان تيناردييه وزوجته قد أذاعا ، في غمرة من غيظهما ، نبأ ذلك . وأحدث اختفاء القبيرة ضجة في القرية . وفي الحال اتخذت القصة عدة اشكال ، ورؤيت روايات مختلفة ، انتهت بأن . أمست حادثة اختطاف . ومن هنا مذكرة ' البوليس التي اشرنا اليها . وأياً ما كان ، فحين همدت الفورة الاولى ادرك تيناردييه في غير ابطاء ، تحذوه غريزته الرائعة ، أن ليس من مصلحته أن يستعدي النيابة العامة الملكية ، وان أولى نتائج شكاواه في ما يتصل باختطاف كوزيت ، سوف تكون تركيز عين العدالة الناقبة عليه هو ، تيناردييه ، وعلى كثير من متاعبه التجارية . إن آخر ما تتسناه اليوم هو ان تحمل اليها شمعة . وقبل كل شيء ، كيف يفسر الخمسة عشر الف فرنك التي تسلمها ؟ وغير وجهته بغنة ، وكَمْ فم زوجته ، وتظاهر بالدهش كلما حدثه امرؤ عن الطفلة المسووقة . إنه ما كان يعرف عن ذلك شيئاً . ولا ريب في أنه تشكى ، في الحال ، أن « ننتزع » منه تلك الفتاة

الصغيرة العزيزة بمثل هذه السرعة ؛ ولقد كان يفضل ، بدافع من الحنان المحض ، ان يحتفظ بها يومين اضافيين او ثلاثة ايام إضافية . ولكن جدّها هو الذي جاء يطلبها ، وهو شيء طبيعي اكثر من اي شيء آخر في العالم . كان قد اضاف الجّد الى القصة ، وهو ما بداسائفاً في الآذان . على هذه الحكاية وقع جافير في مونفيرماي . وكان في ذكر الجّد ما استبعد جان فالجان ، وأخرجه من الحساب .

ومع ذلك فقد طرح جافير بعض الاسئلة ، وكانها مسابير * في رواية تيناردييه : « من كان هذا الجّد ، وما اسمه ؟ » وأجاب تيناردييه في بساطة : « انه مزارع غني . لقد رأيت جواز سفره . انا اعتقد انه يدعى مسيو غيوم لامبير . »

إن لامبير اسم وقور جداً بوقع الطمأنينة في الفؤاد . ورجع جافير الى باريس .

وقال مخاطباً نفسه :

— « إن جان فالجان ميتٌ حقاً . وإني لمعتوه . »

وكان قد شرع ينسى هذه القصة كلها ، عندما سمع بعضهم يتحدث ، خلال شهر نوار ١٨٢٤ ، عن رجل غريب يقطن في ابرشية سان ميداو ، ويدعى « الشحاذ الذي بوزع الصدقات . » وكان هذا الشخص ، كما قيل ، رجلاً يجيأ على كَدخلِهِ ، وليس يبرف احدٌ اسمه تماماً - رجلاً يعيش وحده مع فتاة صغيرة في الثامنة ، لا تدري من أمرها غير شيء واحد وهو أنها أقبلت من مونفيرماي . مونفيرماي ! إن هذا الاسم ليتكرر دائماً ، وإنه ليلفت انتباه جافير . واذف جاسوس عجوز من جواسيس الشرطة المتسولين - وهو مستخدم قديم في احدى الكنائس كان ذلك الشخص يتصدق عليه - معلومات جديدة ، فقال : « هذا الرجل شديد الثفرة من الناس ، فهو لا يغادر منزله إلا ليلاً ، وهو لا يتحدث

* جمع مبار وهو ما يتحن به غور الماء ليعرف مقداره .

الى احد ، ما عدا الفقراء في بعض الاحيان ، ولا يدع أحداً يتعرّف إليه . إنه يرتدي سترة عتيقة صفراء مخيفة تساوي عدة ملايين ، لأنها محشوة كلها بالاوراق النقدية . ، واثار ذلك فضول جافير من غير ريب . ولكي يرى الى هذا الغني الغريب عن كُتب من غير أن يُجفله ، فقد استعار ذات يوم من المستخدم في الكنيسة ملابسه الرثة والمكاث الذي تعود جاسوس الشرطة العجوز ان يجلس فيه القرفصاء كل مساء مخنئاً بأدعيته ، متجسماً من خلال صلواته .

وفي الواقع فقد وفدَ « الشخص المريب » ، الى جافير المنتكّر على هذا النحو ، وتصدّقَ عليه . وفي تلك اللحظة رفع جافير رأسه . وأصابه ، إذ اعتقدَ انه عرف جان فالجان ، مثل تلك الصدمة التي اصابت جان فالجان اذ اعتقد انه عرف جافير .

ومع ذلك ، فلعلّ الظلمة قد خدعته ؛ فقد كان موت جان فالجان أمراً مثبتاً عند السلطات . ولكن بقيت في نفس جافير شكوك ، وشكوك جدية . وفي حال الشك ، ما كان جافير - وهو الحذر الذي يسمي جهده لاجتناب الخطأ - ليأخذ بمخناق أيما رجل على الاطلاق .

ولحق بصاحبه حتى بيت غوربو . وأغرى « المرأة العجوز » بالكلام ، وهو أمر لم يكن عسيراً قط . وأيدت العجوز رواية السترة المحشوة بطائنها بالملايين ، وقصّت عليه حكاية الورقة النقدية ذات الألف فرنك . لقد رأتها ! لقد لمستها ! واستأجر جافير غرفة . وفي تلك الليلة نفسها نزل فيها . واسترق السمع عند باب المستأجر الغريب ، راجياً ان يبلغ أذنيه جرسُ صوته ، ولكن جان فالجان لمح شمعته من خلال القفل ، وأحبط سعي الجاسوس بالتزام الصمت .

وفي اليوم التالي ، ارتحل جان فالجان . ولكن العجوز سمعت صدى قطعة الخسة الفرنكات التي أفلتت منه وهي تجري على الارض ، فخطر لها انه على وشك الرحيل ، وسارعت الى إعلام جافير بالأمر قبل حدوثه .

وفي الليل ، حين غادر جان فالجان الغرفة ، كان جافير يترصده خلف شجرات الجادة مع رجلين اثنين .

وكان جافير قد سأل مديرية الشرطة أن تمدّه بقوة اضافية ، ولكنه لم يصرّح باسم الشخص الذي كان يرجو الغاء القبض عليه . كان ذلك سرّاً من أسراره ، واقد احتفظ به لثلاثة اسباب : أولاً ، لأن اقلر افشاء للسرّ خليق به ان يحذر جان فالجان . وثانياً ، لان اعتقال محكوم بالاشغال الشاقة قديم فاردّ معدود بين الاموات - مجرم كانت سجلات العدالة قد صتفته الى الابد بين الاشوار الذين هم من الضوب الاشد خطراً - سوف يكون فوزاً رائماً لن يتركه رجال الشرطة الباريسية القدماء ، من غير شك ، لو افد جديد مثل جافير ؛ ولقد كان يخشى ان ينتزعوا منه طريده المارب من سجن الاشغال الشاقة . واخيراً ، لأن جافير - بوصفه فناناً - كان مولماً بالمفاجآت . لقد كان يكره تلك الانتصارات المبشر بها والتي يُزيل بها طول التحدث عنها مقدماً . كان يجب ان يُتقن رواثعه في الظلام ، ليكشف الثقب عنها بعد ذلك فجأة .

كان جافير قد تعقب جان فالجان من شجرة الى شجرة ، ثم من زاوية شارع الى زاوية شارع ، ولم يدعه يغيب عن نظريه لحظة واحدة . وحتى في تلك اللحظات التي استشمر جان فالجان خلالها انه على اعظم ما يكون من الامن والسلامة ، كانت عين جافير مسرّة عليه .

لماذا لم يفتق جافير القبض على جان فالجان ؟ لأنه كان لا يزال في ريب من أمره .

وينبغي ان نذكر ان الشرطة ، في ذلك العهد ، لم تكن تستشعر الراحة والقدرة على حرية التصرف . كانت الصحافة الحرة قضايقتها . والحق ان بعض الاعتقالات الاعتبارية التي أعلنتها الصحف تردّد صداها

حتى في قاعة البرلمان ، بما جعل مديرية الشرطة جبانة مخلوعة الفؤاد .
كان الاعتداء على الحرية الشخصية شيئاً خطيراً . وكان ضباط البوليس
يخشون ارتكاب الاخطاء . لقد جعلتهم المديرية مسؤولين عن ذلك ،
فاذا ما وقع ضابط في خطأ خسراً وظيفته . ولتخيل الاثر الجدير بهذه
الفكرة الموجزة المكررة في عشرين صحيفة ان تتركه في باريس :
« أمس ، القي القبض على رجل عجوز اشتمل رأسه شيباً ، وهو مثير
محتوم كان يقوم بنزهة مع حفيدته البالغ عمرها ثمانية أعوام ، وسبق
الى سجن الشرطة كمحكوم عليه بالاشغال الشاقة قاراً من وجه العدالة ! »
ولنكرر ، الى هذا ، ان جافير كانت له وساوسه . وانضافت
وصايا ضميره الى وصايا مدير الشرطة . لقد كان في ريب من أمر
الرجل حقاً .

وأدار جان فالجان ظهره ، وراح يمشي في الظلام .
وكان الحزن ، والقلق ، والحصر النفسي ، وثقل المهوم ، وهذا
الشقاء الجديد الذي اكرهه على الفرار تحت جنح الظلام والى البحث
من غير تبصر عن مأوى في باريس يلجأ اليه هو وكوزيت ، واضطراره
الى ان يكتف بخطوته وفقاً لحطوة طفلة صغيرة - كل ذلك كان قد
غير مشية جان فالجان ، وهو لا يدري ، وطبع هيئته بطابع
الشيخوخة الى حد جعل في الامكان خداع البوليس نفسه ، المتجسّد في
جافير . وكان في تعذر المغالاة في الاقتراب منه ، وملابسه التي تذكر
بؤدب عجوز مهاجر ، وفي تصریح تيناردييه الذي جعله جدياً ، واخيراً
في الاعتقاد بأنه قد لقي حتفه في سجن الاشغال الشاقة ، ما عزز
الشك المتعاضم في ذهن جافير .

وخطر له ، لحظة ، ان يطلب اليه فجأة ابواز أوراغه . ولكن اذا
لم يكن هذا الرجل جان فالجان ، واذا لم يكن هذا الرجل مثوياً عجوزاً
محمود السيرة فأغلب الظن انه لص متصل اتصالاً مميحاً بارعاً بشبكة

الجرمة الباريسية الغامضة ، او رئيس عصابة خطيرة من عصابات قطاع الطرق يتصدق على الفقراء إخفاء لمواهبه الاخرى ، وهي حيلة قديمة . ولا ريب في انه كان له رفاق ، وشركاء في الجريمة ، وملاحيء قريبة يفرع اليها . وكل هذا اللف والدوران الذي كان يقوم به في الشوارع يبدو وكأنه يدل على انه لم يكن رجلاً بسيطاً صالحاً . فالقاء القبض عليه باسرع مما يجب من باب « قتل الدجاجة التي تبيض ذهباً » . واي بأس في الانتظار ؟ كان جافير مرقناً احسن اليقين من انه لن يفرّ .

وهكذا واصل تقدمه في كثير من الارتباك ، موجهاً الى نفسه عشرات من الاسئلة عن هذه الشخصية اللغز .

ولم يتأكد من ان الرجل هو جان فالجان من غير ريب إلا بعد ذلك بكثير ، في شارع بونتواز ، وبفضل ضوء ساطع تدفق من احدى الحانات .

إن في هذا العالم مخلوقين يستطيع الطرب ان يعصف بهما في قوة وعنف : الأم التي تجرد ولدها الضائع ، والنمر الذي يهتدي الى فريسته من جديد . لقد احسّ جافير بهزة الطرب هذه .

ولم يكذب يتحقق بما لا يحتمل الشك ان الرجل العجوز هو جان فالجان ، الاشعالي* الرهيب ، حتى انتبه الى انه على رأس قوة لا تعدو رجلين اثنين ، وعندئذ طلب من مفوضية بوليس شارع بونتواز أن 'تمدّه بقوة اضافية . فقبل ان يمك المرء بقضيب ذي أسواك يغلف يديه بقفاز .

وكان في هذا التأخر والوقوف في ساحة رولين للتشاور مع رجاله ما جعله يفقد الأثر . ومع ذلك ، فرعان ما حزر أن جان فالجان

* نسطنح هذه الصيغة ، أحياناً ، لتقوم مقام « المحكوم عليه بالاشغال الشاقة » حين يتمذر لإلحاق النعت بذلك التعبير المؤلف من اربع كلمات .

راغب في ان يتخذ من النهر حائلاً بينه وبين مطارديه . ونكس رأسه وفكر ، مثل كلب ضخم يضع انفه في التراب لكي يستيقن بأنه على جادة الصواب . واندفع جافير ، بسداد غريزته البالغ ، اندفاعاً مباشراً نحو جسر اوسترليتز . وطرح سؤالاً على مأمور المكوس أطلعته على جليّة الأمر - « هل رأيت رجلاً يصطحب فتاة صغيرة ؟ » فأجابه المأمور : « لقد دفعتة فلسين . » ووصل جافير الى الجسر في الوقت المناسب ، فبصر بجان فالجان على الضفة الاخرى من النهر ، يقود كوزيت بيده عبر الارض للفضاء التي كانت أشعة القمر تنيرها . لقد رآه يدخل شارع « شومان فير سان انطوان » ، وفكر في زقاق جانزو القائم هناك مثل شرك من الاشراك ، وفي المنفذ الوحيد من شارع « دروا مور » ، الى شارع بيكبوس الصغير . وعمل على ان « يضمن المسالك الامامية » ، كما يقول الصيادون فسارع الى ارسال احد رجاله ، من طريق فرعية ، لحراسة ذلك المنفذ . ومرت دورية من المسس عائدة الى مخفر دار الصناعة ، فصادرها وحملها على مرافقته . ففي مثل هذه اللعب يُعتبر الجند اوراقاً قوية رابجة . والى هذا فالقاعدة تقول بأن اصطياد الخنزير البري يقتضي علم القانص وقوة الكلاب . حتى اذا أتمّ هذه الاستعدادات واستشعر ان جان فالجان قد وقع في الشرك المؤلف من زقاق جانزو الى اليمين ، ومساعدته الى الشمال ، ومنه هو نفسه ، جافير ، في المؤخرة - عندئذ تناول قبضة * من السوط .

ثم انه بدأ يلعب . لقد استمتع بلحظة نشوى تمور بالحبث . فتروك طريقه يمضي أمامه ، عارفاً أنه اسيره ، راغباً في ان يرجيء - اكثر ما يستطيع الارجاع - لحظة اعتقاله ، سعيداً بان يستشعر أنه قد وقع في قبضته وبأن يراه حراً طليقاً ، ناظراً اليه في مثل لذة المنكبوت التي تدع الذبابة تطنّ ، والهزة التي تدع الفأرة تعدو . إن الحلب والبرثن ليجدان

* القبضة (باصا المية) : ما تروثه بأطراف اصابعه .

متعة ضخمة في اختلاجة الحيوان الواقع في قبضتها . اي بهجة ينطوي عليها ذلك الحق !

كان جافير مجبوراً . لقد كانت حلقات شبكته محكمة التلاحم ، وكان واثقاً من النجاح . لم يبق عليه ، الان ، غير إطباق يده .

وإذ صعبه ذلك النفر من رجال الشرطة ، فقد كانت فكرة المقاومة مستحيلة مهما يكن جان فالجان نشيطاً ، شديد البأس ، يائساً .

وتقدم جان فالجان في ثؤدة ، جاسماً في طريقه جميع زوايا الشارع الخفية ، فاحصاً إياها ، كما يفعل المرء بجيوب لص من اللصوص .

حتى اذا وصل الى وسط النسيج الذي حاكه ، لم يجد الذبابة هناك . فتصور حنقه وسخطه .

لقد استجوب الحارس الذي أقامه عند شارعي « دروا مور » و « بيكبوس » . إن ذلك الشرطي ، الذي لزم مركزه من غير ان يبدي حراكاً ، لم يرَ الرجل يمرّ .

قد يتفق في بعض الاحيان ان يسترد أبلّ حريته ورأسه مغطى ، يعني أنه يفرّ على الرغم من ان كلب القنص جاثم فوقه ، وعندئذ لا يدري أقدم الصيادين ما يقولون . إن دو فيفيه ، ولينيقييل ، وديبريز * ليصابون بالذهول . وفي مناسبة مشابهة تتضح بحجية الامل صاح آرتونج : « إنه ليس أبلّاً . إنه ساحر ! »

كان جافير يتمنى لو يُطلق مثل هذه الصيحة .

وعرفت خيبة أمه لحظة من اليأس والغيظ الشديد .

من الثابت ان نابوليون ارتكب اخطاء كثيرة في الحرب ضد روسيا ، وان الاسكندر ارتكب اخطاء كثيرة في حروبه بالهند ، وان قيصر ارتكب اخطاء كثيرة في الحرب الافريقية ، وان كوروش

* وم صيادون مشهورون . وكذلك آرتونج .

ارتكب اخطاء كثيرة في حربه ضد سيثية ، وان جافير ارتكب اخطاء كثيرة في هذه الحملة ضد جان فالجان . لعله قد أخطأ بتورده في إثبات هوية الأشعالي العتيق ، فقد كانت النظرة الاولى خليقة بأن تكفيه . ولقد اخطأ إذ لم يُلْتَق القبض عليه ، بكل بساطة ، في ذلك البيت المتداعي . ولقد اخطأ إذ لم يعتقله حين عرفه معرفةً يقينية في شارع بونتواز . ولقد اخطأ إذ تشاور مع مساعديه ، والقمر بدر ، في ساحة رولين . صحيح ان طلب النصح مفيد ، ومن الخير ان يعرف المرء ويستجوب من بين كلابه ذلك النفر الجدير بالاعتماد . ولكن القانص لا يستطيع ان يتخذ من الاحتياطات اكثر مما ينبغي حين يطارد حيوانات قلقة جزوعة كالذئب والمحكوم عليه بالاشغال الشاقة . وجافير بانهماكه الشديد في وضع كلابه السلوقية على الطريق ، نبهه فريسته الى الخطر إذ جعلها تستروح المطاردة ، وأغراها بالفرار . ولقد اخطأ فوق ذلك كله إذ لعب ، بعد ان اهتدى الى الاثر من جديد في جسر اوستوليتز ، تلك اللعبة الرهيبة الصبائية التي قضت بأن يُمَكَّ مثل هذا الرجل بالطرف الاقصى من الحيط . لقد حَسِبَ نفسه أقوى بما كان في الواقع ، واعتقد ان في استطاعته ان يلاعب الأسد كما تُلَاعَب الفأرة . وفي الوقت ذاته ظنّ نفسه أضعف مما ينبغي عندما قدر ان من الضروري ان يلتمس المدد من مديرية الشرطة . فقد كان ذلك الاحتياط مشؤوماً ، بما اضاع عليه من وقت ثمين . لقد ارتكب جافير جميع هذه الاخطاء ، ومع ذلك فقد كان واحداً من اكثر رجال البوليس السريّ حكمةً واشدهم استقامة في التاريخ كله . لقد كان ، بأقوى معاني الكلمة ، ما يُدعى في فن القنص بالكلاب و كلباً حكيماً ، . ولكن من ذا الذي يتصف بالكمال ؟

إن لكبار المتمرسين بقيادة الجيوش نصيبهم من الحور ، والاختفاق .

والحماقات الكبرى تتألف عادةً ، كالجبال الضخام ؛ من جبهة من الخيوط . خذ الجبل الضخم خيطاً خيطاً ، خذ جميع الدوافع الصغيرة المقررة كلاً على حدة ، تقطعها واحدة إثر واحدة ، وعندئذ تقول : « هذا كل ما هنالك ! » . ولكن اضفرها وأحكم إبرامها تصبغ قوة جسيمة . إنها آتيلاً * يتردّد بين ماريان ** في الشرق وفالانتينيان *** في الغرب ؛ وهنبيعل يتأخر في كابوا ؛ ودانتون يستسلم للرقاد في « آرسيس سور أوب » .

وأياً ما كان ، فحتى في اللحظة التي أدرك جافير خلالها ان جان فالجان أفلت من يده لم يفقد صوابه . واذ كان واثقاً من ان الاشغاليّ الفارّ لا يستطيع ان يكون بعيداً ، فقد بثّ الارصاد ، وأقام الاشراك والمكامن ، وجاس خلال الحيّ طول النهار . وكان اول ما رآه ، ذلك التغير الطاريء على مصباح الشارع العمومي الذي 'قطع حبله - أمانة' ثمينة ولكنها أضلته السبيل ، مع ذلك ، بان جعلته يوجه مباحثه كلها نحو زقاق جانرو . فقد كان في ذلك الزقاق جدران شديدة الانخفاض تطل على حدائق كانت حدودها تمتد الى بعض الاراضي الواسعة غير المزروعة . وكان واضحاً ان جان فالجان قد فرّ في ذلك الاتجاه . والحق ان جان فالجان كان خليقاً بان يفعل ذلك ، لو انه تقدّم الى أبعد قليلاً في زقاق جانرو ، وعندئذ يتعذر العثور عليه . وراّد جافير تلك الحدائق والاراضي وكأنه يبحث عن ابرة ضائعة .

* Attila ملك الهون ، وقد تغلب على عدد من اباطرة الشرق والغرب . ثم ارتدتّ اخيراً على ضفاف الدانوب ، حيث توفي عام ٤٥٣ م .

** Marcien ماريانوس فلافوس امبراطور الشرق الروماني وقد دام حكمه من عام ٤٥٠ الى عام ٤٥٧ .

*** Valentinien الثالث امبراطور الغرب الروماني وقد دام حكمه من عام ٤٢٥ الى ٤٥٥ .

وعند الصباح ابقى في ذلك المكان رجلين ذكيين عهد ليهما في أمر
الرقابة ، وانقلب الى مديرية الشرطة خجلاً مثل جاسوس من جواسيس
الشرطة اعتقله لص من اللصوص .

الكتاب السادس

پیکچوس الصغیر

شارع بيكوس الصغير ، رقم ٦٢

لم يكن ثمة ، منذ نصف قرن ، ما يمثل باب العربات النموذجي الكبير ، في ذلك العهد ، أكثر من باب العربات المؤدي الى البناء ذي الرقم ٦٢ في شارع بيكوس الصغير . وكان هذا الباب مُشَرَعاً على نحو نصفي مغري الى ابعاد حدود الاغراء ، كاشفاً عن شيئين ليسا فاجعين جداً : فناء مطوق بجدران مزدانة بالعرائش ، ووجهه بوابٍ يقطع الوقت متنقلاً من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين . وفوق الجدار الخلفي كان المرء يرى شجرات كبيرة . وحين تُبهِج اشعة الشمس

الفناء ، وتبهج كأس من الحمر البواب يكون من العسير عليك ان تمر
برقم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير ، من غير ان تتصرف حاملاً فكرة
ضحكة . ومع ذلك فقد كان ذلك الذي لحته موطناً قائماً .

لقد انقسم الجدار . أما المنزل فصلتى وبكى .

ولو قد وفقت ، وهو امر ليس باليسير ، الى ان تخطى البواب
- وهو يكاد يكون مستحيلاً على الكثرة المطلقة من الناس لانه كانت
تمة كلمة سر سحرية يجب ان تعرفها - نقول اذا وفقت الى تخطى
البواب فعندئذ تدخل من ناحية اليمين دهليزاً صغيراً يؤدي بك الى سلم
محصورة بين جدارين ، ضيقة الى حد يجعلها لا تتسع لصاعدتين اثنتين
في وقت واحد . واذا لم تسح لنفسك بأن يروعا ورق الجدران
الأصفر ذو الاساس الشوكولاتي اللون الممتد على طول السلم ، واذا
غامرت في الصعود ، تصل الى منبسط أول ، ثم الى منبسط ثان ،
وتبلغ الدور الثاني برواق يتبعك فيه الصنغ الأصفر والقاعدة الشوكولاتية
في عنادٍ وديع . إن السلم والرواق مضاءان بنافذتين جميلتين . وفجأة
ينعطف الرواق ، ويسمي مظلاً . فاذا تجاوزت ذلك الرأس انتهيت ،
بعد بضعة خطوات ، الى باب يزيد غموضاً وأمراراً كونه غير موحد
إيصاداً كاملاً . وتدفع الباب ، فتجد نفسك في غرفة صغيرة تبلغ
مساحتها نحواً من ستة اقدام مربعة ، مفروشة ارضها بالبلاط ، مفسولة ،
نظيفة ، باردة ، مزدانة الجدران بورق نانكين ذي الزهيرات الخضراء ،
الذي تباع اللفة الواحدة منه بخمسة عشر سو . إن ضوءاً أبيض باهتاً
يقبل من نافذة عريضة ذات الواح زجاجية صغيرة كانت الى اليسار ،
وكانت تستغرق عرض الغرفة كله . وتنتظر ، فلا ترى احداً . ونصفي ،
فلا تسع خطوة ما ، أو صوتاً بشرياً ما . ان الجدار عاري . وليس
في الغرفة اثاث ، حتى ولا كرسي واحد .

وترجع البصر ككرة اخرى فتوى في الجدار الذي يواجه الباب

فتحة" مربعة الزوايا تبلغ مساحتها نحواً من قدم مربع ، مغطاة بحاجز من القضبان الحديدية المتعارضة ، السوداء ، الصلبة ، ذات العُمد ، التي أُلِّفَت مَرَبَّعات - وكدتُ أقول خلايا شبكية - يقل طولها عن إنش واحد . إن زهيرات ورق نانكين الخضراء لتتقدّم في هدوء وفي نظام حتى هذه القضبان الحديدية من غير ان يروّعها أو يشتنها ذلك الاحتكاك الفاجع . ولو قد فرضنا ان كائناً حياً كان من الهزال بحيث يحاول ان يدخل الفتحة المربعة او يخرج منها إذن لحال ذلك الحاجز بينه وبين ما ينتهي . إنه ما كان يجيز للجسد ان يدخل ، ولكنه كان يجيز ذلك للعين ، يعني للعقل . ويبدو ان القوم قد فكروا في هذا ، بدليل أنهم أَرَدَفُوا الحاجزَ بصفحة من التنك رُكِبَت في الجدار المتخلف عنه بعض الشيء وتناثر فيها ألفٌ من الثقوب هي اكثر ميكروسكوبية من ثقوب المرغاة . وفي ادنى هذ الصفحة كانت فرجة اشبه ما تكون بقم علبه من علب البريد . وكانت شريطة عريضة تتصل بجرس معلق الى بين الفتحة المقضبة .

وتحرك هذه الشريطة ، فيرن جرس ، وتسمع على مقربة دانية منك صوتاً تجفل منه وترتعد .

ويسأل الصوت :

« من هناك ؟ »

إنه صوت امرأة ، صوت عذب ، عذب الى درجة جعلته فاجعاً . وهنا ايضاً كانت ثمة كلمة سحرية يجب ان نعرفها . فاذا جهلتها لم تسمع الصوت ككرة اخرى ، ويرتد الجدار صامتاً من جديد وكان ظلمة القبر الموحشة كانت في الجانب الآخر .

أما اذا عرفت الكلمة فعندئذ يضيف الصوت :

« أدخل الى اليمين . »

وبعد ذلك تلاحظ الى يمينك ، تجاه النافذة ، باباً مزججاً يعلوه

إطار مزجج أيضاً مدهون باللون الرمادي . وترفع المزلاج ، وتجتاز الباب ، وتحسّ بمثل ذلك الشعور الذي يغلب عليك حين تدخل مقصورة ذات شبّاك ، في احد المسارح ، قبل أن يُخفّض الشباك وتضاء الأنوار . انك في الواقع في شبه مقصورة مسرحية ما يكاد يضيئها نور الباب الزجاجي الباهت ، ضيقة ، مؤتة بكرسيين هرمين ، وحصير من قصب مقطّع الأوصال - مقصورة حقيقية واجهتها في ارتفاع المتكأ يعلوها لوح من خشب أسود . وكانت تلك المقصورة ذات شبّاك ، إلا أنه لم يكن شبّاكاً من خشب مذهب ، كشبابيك الاوبرا ، ولكن شبّاكاً من اعمدة حديدية تداخلت على نحو تخيف ورُسخت في الجدار بمشبتات تشبه كل منها بُجج كفّ منسبة الاظفار .

وبعد بضع دقائق ، حين تبدأ عينك تألفان هذه العتمة الكهفية ، تحاول ان تنظر من خلال القضبان الحديدية ولكنك لا ترى الى ابعد من ستة إنشات ليس غير . هناك تبصر حاجزاً من مصاريع النوافذ السوداء وقد نُثبتت ودُعِمت بعوارض خشبية مدهونة بلون خبز الزنجبيل . وكانت هذه المصاريع ذات مفاصل ، وكانت تنقسم الى أضلاع هزيلة متطاولة ، وتغطي عرضَ القضبان الحديدية بكامله . إنها كانت موصدة ابداً .

وبعد بضع لحظات تسمع صوتاً يناديك من وراء هذه المصاريع ، قائلاً :

— « أنا هنا . ماذا تريد مني ؟ »

إنه صوت محبّب الى النفس ، وقد يكون في بعض الاحيان صوتاً تهيم به القلوب . ولا ترى احداً . وما تكاد تسمع تردّد نفّسٍ من الانفاس . لقد بدا وكأنه كان صوتاً شبحياً يتحدث اليك من خلال باب القبر . ولو قد برزتَ هناك في بعض الاحوال الضرورية ، وهي نادرة جداً ، فعندئذ يفتح امامك ضلع ضيق من اضلاع تلك المصاريع ،

ويغدو الصوت الشبهي طيفاً . فخلف القضبان الحديدية ، وخلف المصراع ، ترى على مقدار ما تسمح القضبان الحديدية ، رأساً لا تلمح منه غير النغم والذقن . أما سائرُه فمحبوبٌ بنقاب أسود . وتلمح قميصاً نسائياً أسود ، وشكلاً غير واضح المعالم يجلته كفنٌ أسود . ويتحدث هذا الرأس معك ، ولكنه لا ينظر اليك ، ولا يبتسم لك البتة .

ان النور المنبعث من ورائك مركزٌ على نحو يجعلك ترى الرأس في النور ، ويجعله يراك في الظل . إنه نورٌ رمزي . وفي الوقت نفسه ، نحدق عينك في لفحة من خلال هذه الفرجة التي انفتحت ، الى ذلك المكان المحبوب عن أعين الرقباء .

إن ظلمة كثيفة تغلف هذا الشكل اللابس ثوب الحديد . وتبحث عينك في هذه الظلمة ، وتحاول ان تستبين أي شيء يحيط بالطيف . وما هي إلا فترة قصيرة حتى تدرك أنك لا ترى شيئاً . إن ما تراه هو الليل ، والفراغ ، والظلمات ، وضباب الشتاء ممزوجاً ببخار القبور ، ضربٌ من الهدوء المروع ، وصمتٌ لا تقع فيه على شيء ، حتى على الزفرات نفسها - ظلام لا تبيّن فيه شيئاً ، حتى الاطراف .

إن ما تراه عينك هو الجزء الداخلي من دير . إنه الجزء الداخلي من ذلك البيت الصارم المظلم الذي يدعى دير البرنارديات للسجود السرمدي . وهذه المقصورة ، التي كنت فيها ، هي غرفة الاستقبال . وهذا الصوت ، الذي خاطبك أول مرة ، هو صوت البوابة القاعدة ابدأ ، جامدة صامتة ، عند الجانب الآخر من الجدار ، قرب الفتحة المربعة ، تصونها القضبان الحديدية والصفحة ذات الالف ثقب ، مثل قناع خوذة مزدوج .

أما الظلمة التي غرقت فيها المقصورة المقضبة فناشئة عن ان غرفة الاستقبال ذات النافذة المطلّة على العالم الخارجي لم يكن لها أيما نافذة تطل على ناحية الدير . إن الأعين الدنيوية ينبغي ان لا ترى شيئاً من

هذا المكان المقدس .

بيد أنه كان ثمة شيء وراء هذا الظلام ؛ كان ثمة نور ؛ كان ثمة حياة في هذا الموت . وعلى الرغم من ان هذا الدير كان أمتنع من ايما دير آخر ، فسوف نحاول ان ندخله ، وان نأخذ القاريه معنا ، فنروي بأوسع ما نستطيع من الاسهاب شيئاً لم يره أصحاب القَصَص قط ، فلم يُقدّر لهم بالتالي أن يَرَوْوه في يوم من الايام .

راهبات الطاعة لمارتن فيرغا

هذا الدير الذي كان قد سلخ ، عام ١٨٢٤ ، دهرأ طويلاً في شارع بيكوس الصغير ، كان جماعة من الراهبات البرنارديات اللواتي يدن بالطاعة لمارتن فيرغا .

وهكذا فهؤلاء البرنارديات لم يكن ينسبن الى كليرفو ، مثل البرنارديين ، ولكن الى سيتو ، مثل البنيديكتيين . وبكلمة ثانية فانهن كن من رعايا القديس بنيديكت (بينوا) لا من رعايا القديس برنارد .

وكل مطلع على الكتب القديمة يعلم أن مارتن فيرغا انشأ عام ١٤٢٥ رهبانية من البرنارديات - البنيديكتيات ، وانه جعل لمنكدة مقرها الرئيسي ، وأسس في آللالا فرعاً لها .

ثم ان فروع هذه الرهبانية انتشرت في جميع بلدان اوروبة الكاثوليكية .

وتلقيح رهبانية ما برهبانية اخرى على هذا النحو ليس شيئاً غير شؤف في الكنيسة اللاتينية . ونحن نجتزئء بالاشارة الى رهبانية واحدة

هي رهبانية القديس بينوا التي نتحدث عنها هنا . فهذه الرهبانية تنشعب منها ، باستثناء راهبات الطاعة لمارتن فيرغا ، أربع أخويات ، اثنتان في ايطالية ، هما اخوية الـ « مون كاسان » ، واخوية « سان جوستين » ، في بادوا ، واثنتان في فرنسا ، هما اخوية « كلوني » ، واخوية « سان مور » ، وتسع رهبانيات هي « فالومبروزا » ، و « غرامون » ، و « السابويون » ، و « الكامالدوليون » ، و « الكرتوزيون » ، و « المتصنون » ، و « الاوليفيتيون » ، و « السيلفيستريوت » ، واخيراً رهبانية « سيتو » . لان رهبانية « سيتو » نفسها ، وهي اصل رهبانيات اخرى ، لا تعدو ان تكون فرعاً من رهبانية القديس بينوا . إن رهبانية سيتو ترقى الى عهد القديس روبرت ، راهب موليم ، في ابرشية لانغر ، عام ١٠٩٨ ؛ على حين ان الشيطان الذي اعتزل الناس وازوى في صحراء سويياكو (كان عجوزاً ، فهل أمسى ناسكاً ؟) إنما طرد ، سنة ٥٢٩ ، من هيكل أبولو القديم حيث كان يجيأ الى جانب القديس بينوا البالغ عمره آنذاك سبع عشرة سنة .

والواقع ان الأنظمة التي تخضع لها راهبات مارتن فيرغا البرنارديات البنيديكتيات هي أقسى الأنظمة الرهبانية على الاطلاق ، باستثناء أنظمة الكرمليين الذين يشون حفاةً ، ويطوقون حناجرهم بقطعة من خيزران ، والذين لا يجلسون أبداً . انهن ينشعن بالسواد ، ويرتدين قميصاً يرتفع وفقاً لأمر القديس بينوا الصريح ، حتى الذقن ، وثوباً من نسيج صوفي غليظ ذا ردين واسعين ، وحجاباً صوفياً كبيراً ، والقميص الذي يرتفع الى الذقن وقد سُتق على شكل مربع فوق الصدر ، وعصابة الرأس التي تتخفف حتى العينين . تلك هي ملابسهن ، وكلها سوداء ، ما خلا عصابة الرأس فهي بيضاء . والراهبات الحديثات المهدي بالترهب يرتدين الملابس نفسها ، مع فارق وحيد هو ان ملابسهن هذه بيضاء كلها . اما الراهبات ذوات النذور فيتميزن فوق هذا بسبعة تحملها

كل منهن بجنبها .

وتقوم راهبات مارتن فيرغا البرنارديات - البنيديكتيات بالسجود الـرمدي على غرار الراهبات البنيديكتيات المعروفات بـ « سيدات سرّ القربان المقدس » ، اللواتي كان لهن في باريس ، عند مطلع هذا القرن ، ديران احدهما في الـ « تامبل » والآخر في « شارع نوف سانت جانفييف » . وفي ما عدا ذلك فان راهبات « بيكبوس الصغير » البرنارديات - البنيديكتيات اللواتي نتحدث عنهن كنّ يؤلفن رهبانية مستقلة تمام الاستقلال عن « سيدات سرّ القربان المقدس » الحبيسات في « شارع نوف سانت جانفييف » ، وفي الـ « تامبل » . كانت ثمة فروق كثيرة بين أنظمة الجماعتين ، وكان ثمة بعض الفروق في الزي . كانت راهبات « بيكبوس الصغير » البرنارديات - البنيديكتيات يرتدين قميصاً اسود ، على حين كانت بنيديكتيات سرّ القربان المقدس وشارع نوف سانت جانفييف يرتدين قميصاً أبيض ويزينّ صدورهن الى ذلك بتمثال للمصلوب مصنوع من الفضة او من النحاس المذهب يبلغ طوله نحواً من ثلاث بوصات . ولم تكن راهبات بيكبوس الصغير يحملن تمثال المصلوب هذا . والحق ان السجود الـرمدي ، المشترك بين دير بيكبوس الصغير ودير التامبل ترك الرهبانيتين مختلفتين كل الاختلاف . فثمة تشابه في هذه الناحية فقط بين سيدات سرّ القربان المقدس وبرنارديات مارتن فيرغا كما كان ثمة تشابه في درس وتبجيد جميع العجائب المتصلة بطفولة يسوع المسيح وحياته وموته ، وبالعدراء ، بين رهبانيتين منفصلتين أتمّ الانفصال ومتعديتين في بعض الاحيان : رهبانية الـ « اوراتوار » الايطالية التي أسسها في فلورنسة فيليب النيري ، ورهبانية الـ « اوراتوار » الفرنسية التي أسسها في باريس بيير دو بيول . و « اوراتوار » باريس تدعي حق التصدر ، اذ كان فيليب النيري مجرد قديس ، على حين كان بيول كاردينالاً .

ولنعد الى انظمة مارتن فيرغا الاسبانية الصارمة .

ان راهبات هذا الدير البرنارديات - البنيديكتيات يمتنعن عن اكل اللحم طوال العام ؛ ويصمن الصوم الكبير واياماً اخرى كثيرة خاصة من ؛ وينهضن من نومهن الاول في الساعة الواحدة صباحاً لكي يقرأن كتاب فرض الكهنة ، وينشدن صلاة السحر حتى الساعة الثالثة ؛ وينمن في فُرُش من قش وعلى شرانف من نسيج صوفي غليظ في جميع فصول السنة ؛ ولا يدخلن الى الحمام ابدأ ؛ ولا يشعلن ناراً البتة ؛ ويعاقبن انفسهن يوم الجمعة من كل اسبوع ؛ ويلتزمين قاعدة الصمت ، فلا تتحدث احداهن الى الاخرى إلا في اوقات الاستراحة ، وهي قصيرة جداً ؛ ويلبسن قمصاناً صوفية خشنة طوال ستة اشهر ، من ١٤ ايلول ، وهو عيد ارتفاع الصليب ، حتى عيد الفصح . وهذه السنة الاشهر تنطوي على تخفيف ؛ فالنظام يقضي بان يكون ذلك على مدار العام كله . ولكن قميص الصوف الحشن هذا ، غير المحتل في حر الصيف ، كان يورث لابسانه ضروباً من الحمى والتشنج العصبي . فكان ضرورياً أن يصار الى تحديد استعماله . وحتى مع هذا التلطيف ، فقد كانت الراهبات يُصَبَن بعد الرابع عشر من ايلول ، حين يرتدين هذه القمصان ، بحمى تستمر ثلاثة ايام او اربعة ايام . الطاعة ، الفقر ، العفة ، الثبات على الحياة الرهبانية - تلك هي ندورهن التي كانت انظمتن تجعل الوفاء بها اشد صعوبة وعسراً .

فكانت رئيسة الدير تُنتخب من قبل « الامهات » اللواتي كن يسمين « الامهات الصوتيات » لأن هن صوتاً في مجلس الراهبات . ولم يكن القانون ليجيز اعادة انتخاب الرئيسة اكثر من مرتين ، وهذا ما جعل أطول ولاية ممكنة لرئيسة ما لا تعدو تسع سنوات .

وما كن يرين قط الكاهن المحتفل بالقداس ، الذي كان محبوباً عنهن ابدأ بستار صوفي يبلغ ارتفاعه تسعة اقدام ، وكن في اثناء العظة حين

يكون الكاهن في الكنيسة ، يسبلن حجبهن على وجوههن . إن عليهن دائماً ان يتحدثن في صوت خفيض ، ويمشين وقد غضضن من ابصارهن ، وطأطأن رؤوسهن . ولكن رجلاً واحداً يستطيع ان يدخل الدير ، هو كبير اساقفة الابرشية .

والحق ان ثمة رجلاً آخر قادراً على ذلك ، هو البستاني . ولكنه دائماً رجل عجوز ؛ ولكي يكون وحده في الحديقة على نحو موصول ، ولكي تحذر الراهبات منه فيجتنبه ، فقد عُلق برُكبتة جرس صغير .

وهن يدنّ للرئيسة بخضوع مطلق اعمى . انه الخضوع المطابق للقوانين الكنسية بكل ما ينطوي عليه من انكار للذات . الخضوع للاباية ، للاشارة الاولى *ad nutum, ad primum signum* ، وكأنا هو امتثال لصوت المسيح ، *ut voci Christi* ؛ الخضوع في الحال ، في سعادة ، في مواظبة ، وفي ضرب من الطاعة العمياء *promptè, hilariter, perseveranter et caeca* ، كالمجرد في يد العامل *quasi limam in manibus fabri* ، *quadam obedientia* ، فهن لا يستطعن ان يقرأن او يكتبن شيئاً مهما يكن من غير اذن واضح صريح . *legere vel scribere non addiscerit sine expressa superioris licentia* .

وكانت كل منهن تؤدي ، بدورها ، ما يسمينه « الاستغفار » . والاستغفار صلاة يُقصد بها التكفير عن جميع الخطيئات ، وجميع الاخطاء التي تُتفرف فوق سطح الارض ، وعن كل خلل ، وكل مخالفة ، وكل بغي وكل جريمة تُرتكب فيها . فطوال اثنتي عشرة ساعة متعاقبة ، من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الساعة الرابعة صباحاً ، او من الساعة الرابعة صباحاً حتى الساعة الرابعة بعد الظهر ، تظل الراهبة « المستغفرة » راكمة على الحجر ، امام القربان المقدس ، مشبوكة اليدين ، مطوّقة العنق بمجبل . حتى اذا غدا التعب غير محتمل انطرحت على بطنها ، متصالبة الذراعين ، مستقبلة الارض بوجهها . ذلك كل نصيبها من الراحة .

وفيا هي على هذا الوضع تصلي من اجل جميع المذنبين في الكون . إن هذا شيء عظيم حتى الاعجاز .

وإذ كانت الراهبات يقمن بهذا الصنيع أمام وتد تحترق في أعلاه شمعة طوية فقد كن يقنن من غير تمييز « أدت صلاة الاستغفار » أو « ركعت امام الوند » . بل ان الراهبات ليؤثرن ، بدافع من الضعة والحشوع ، هذا التعبير الأخير المنطوي على معنى من العقوبة والاذلال .

وإداء صلاة الاستغفار عملية تستغرق فيها النفس كلها . فالراهبة الجاثية امام الوند لا تلتفت ولو سقطت خلفها ساعة .

والى هذا ، فهناك ابدأ راهبة راکعة امام القربان المقدس . وهذا الركوع يستمر ساعة من زمان . وهن يتناوبن هذه المهمة كالجند في اثناء العمل . وذلك هو السجود السرمدي .

والرئيسة و « الامهات » يحملن دائماً ، تقريباً ، اسماء ذات جلال خاص تذكر ، لا بالقدسين والشهداء ، ولكن بلحظات من حياة يسوع المسيح ، مثل الأم « ميلاد » ، والأم « حمل » ، والأم « تقدمة » ، والأم « آلام » . بيد ان اسماء القديسات ليست محظورة .

وحين ترى اليهن لا تبصر غير أفراعهن . وكلهن ذوات اسنان صفراء . فما دخلت فرشاة اسنان الى الدير قط . ان تنظيف الاسنان بالفرشاة بمثابة الدرجة العليا من سلم ادنى درجاتها خسارة النفس .

وكل منهن لا تضيف ، في كلامها ، شيئاً ما الى ضمير المتكلم المفرد ، فهن لا يملكن شيئاً ، ولا ينبغي أن يتعلقن بشيء . انهن يضمنن الاشياء كلها الى ضمير جماعة المتكلمين فتقول الواحدة منهن : حجابتنا ، وسبختنا . واذا تحدثت عن قميصها قالت : « قميصنا » . وفي بعض الاحيان كن يولعن بشيء من الاشياء الصغيرة ، بكتاب صلاة ، بأثر نفيس ، بمدالية مقدسة . فما ان يدوكن انهن قد شرعن يهنن بذلك

الشيء ، حتى يتعبن عليهن اطراحه . إنهن يتذكرن كلمة القديسة تيريز التي قالت لها سيدة عظيمة ، لحظة دخولها في رهبانيتها : « اسلمي لي ، يا أمّ ، ان ابعث في طلب نسخة من الكتاب المقدس أنا شديدة التعلق بها . فاجابتها بقولها : « آه ، أنت شديدة التعلق بشيء ! وياي افضل ، والحالة هذه ، ان لا تدخلني الى ديرنا . »

ومعذور على ابي منهنّ ان تزوي - ان يكون لها بيت ، أو غرفة . إنهن يعشن في قلايا * مفتوحة . وحين تلتقي احداهن بالآخرى تقول : « الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس ! » فتجيبها زميلتها : « الى الأبد ! » وتجري المجاملة الاحتفالية نفسها حين تطرق احداهن باب الاخرى . فما إن يُمس الباب حتى يُسمع من الجانب الآخر صوت عذب يقول في عجلة بالغة : « إلى الأبد ! » ومثلّ جميع الطقوس يصح هذا الصنيع ، بسبب من العادة ، ميكانيكياً . وقد تقول احداهن في بعض الاحيان « إلى الأبد ! » قبل ان نجد الاخرى متعمداً من الوقت لكي تنطق بهذه الجملة الطويلة حقاً : « الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس ! » وعند « راهبات الزيارة » تقول الراهبة التي تدخل : « *Avé Maria* » ** فتجيبها تلك التي دخل عليها في قلبيتها : « *Gratia plena* » *** . ذلك هو سلامهن ، وهو « بمثلية نعمة » حقاً .

وفي كل ساعة من ساعات اليوم يقرع ناقوس كنيسة الدير ثلاث دقائق إضافية . وعند هذه الاشارة تقطع الرئيسة ، والامهات الصوتيات ، والراهبات ذوات النذور ، والراهبات القائمات بالاعمال اليدوية ، والراهبات المستجديات ، وطلبات الترهّب - عند هذه الاشارة يقطن ما كنّ يقلنّه ، او ما كنّ يفعلنّه ، او ما كنّ يفكرون فيه ،

* القلايا : جمع قلية ، وهي الصومعة .

** السلام عليك يا مريم .

*** المتأنة نعمة .

ويقلنَ جميعاً في صوت واحد ، اذا كانت الساعة الخامسة مثلاً : « في الساعة الخامسة ، وفي كل ساعة ، الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس ! » فاذا كانت الساعة الثامنة قلنَ : « في الساعة الثامنة ، وفي كل ساعة الخ ... » وهكذا ، وفقاً للساعة كائناً ما كانت .

وهذه العادة ، المقصود بها أن تقطع التفكير وأن تردّه دائماً الى الله ، معروفة في كثير من الرهبانيات . ولكن الصيغة هي التي تختلف ليس غير . وهكذا فانهم في رهبانية « الطفل يسوع » يقولون : « في هذه الساعة ، وفي كل ساعة ، فليُضرم حبُّ يسوع فؤادي ! »

وراهبات مارتن فيرغا البينديكتيات - البرنارديات ، اللواتي كنَّ حبيسات « بيكبوس الصغير » لحسين سنةً خلت ، ينشدنَ قداساتهنَّ الاحتفالية في نبراتٍ ثقيلة ، وترتل كنسي صافٍ ، رافعات أصواتهن دائماً طوال القداس . وحيثما وجدت في كتاب القداس نجمةً فاصلة ، يقفنَ ويقلنَ في صوت خفيض : « يسوع - مريم - يوسف » . وفي الصلاة على الميت يُنشدنَ في نبرة منخفضة الى درجة يكاد يتعذر على الاصوات النسائية ان تهبط اليها . وإنما يحدث ذلك اثرأ مؤلماً فاجعاً .

وكانت راهبات « بيكبوس الصغير » قد جعلنَ كهيفاً تحت مذبحهنَّ المرتفع لدفن من يتخطّفه الموت من اعضاء الرهبانية . والحكومة ، كما كنَّ يسمّينها ، ما كانت لتجيز وضع الجثث في هذا الكهيف . وهكذا كنَّ يفارقنَ الدير عند الوفاة . وكان ذلك يجزّهنَّ ويروّعنهن وكانه مخالفة للشريعة .

وكنَّ قد فزنَ - وتلك تعزية ضئيلة - بامتياز يتبع لهنَّ أن يُدفنَ في ساعة مخصوصة ، وفي مكان مخصوص في مقبرة « فوجيرار » القديمة الواقعة في ارض كانت من قبل ملكاً لرهبانيتهنَّ .

وكل خميس يسمع هؤلاء الراهبات القداس الصارخ ، وصلاة الماء ، وجميع الصلوات ، فعلمهنَّ يوم الأحد من كل اسبوع . والى هذا ،

فهن يتقيدن في ضبط كليّ بجميع الاعياد الصغيرة التي لا يعرفها أبناء الحياة الدنيا ، والتي كانت الكنيسة سخية بها في ما مضى في فرنسا ، ولا تزال سخية بها في اسبانية وايطالية . ولا نهاية لذهابهن الى الكنيسة . أما عدد صلواتهن والمدة التي تستغرقها فليس ثمة ما يمكننا من أن نقدم فكرةً حسنة عنها خيراً من ان ننقل هذه الكلمة الساذجة التي صدرت عن واحدة منهن : « ان صلوات طالبات الترهيب مروّعة ، وصلوات الراهبات الحديثات العهد بدخول الدير أسوأ ، وصلوات الراهبات ذوات النذور أسوأ وأسوأ . »

ومرةً كل اسبوع يلتئم مجلس الراهبات ، فتدير الرئيسة الاجتماع ، وتشهده « الامهات » . وتقبل كل راهبة بدورها ، وتزكع على الحجر وتعتزف ، في صوت عالٍ ، أمامهنّ جميعاً ، بالاعطاء والآثام التي ارتكبتها في اثناء الاسبوع . وتتشاور « الأمهات » ، إثر كل اعتراف ويُعلنُ العقوبة جهاراً .

وبالاضافة الى الاعتراف العلني الذي يحتفظن له بجميع الاعطاء الخطيرة ، بعض الشيء ، كان عندهن للاخطاء غير المميتة ما يسمينه « عقاب الخطيئة » . وإنما يقضي ذلك العقاب بأن تنطرح الراهبة على وجهها ، أثناء الصلاة ، أمام رئيسة الدير حتى تشير هذه الاخيرة - التي لا تتحدث عنها الراهبات إلا بقولهنّ « أمّنا » - الى الراهبة المعاقبة ، بضربة رقيقة على كرسيتها الخشبي ، أنّ في ميسورها ان تنهض . ويُنزّل « عقاب الخطيئة » بالراهبة لاتفه الاسباب ، كأن تكسر كأساً ، او تمزق حجاباً ، او تتأخر في الصلاة بضع ثوان على نحو غير اراديّ ، او تخرج على اللحن في الكنيسة - إن أياً من هذه الآثام يكفي لانزال « عقاب الخطيئة » . و « عقاب الخطيئة » تلقائيّ مئةً بالمئة . فالمدنية

نفسها (وهذه الكلمة هي في محلها من وجهة النظر الاشتقاقية *) هي التي تحاكم نفسها ، وهي التي تُنزل العقاب بنفسها . وفي الاعياد وأيام الأحد تنشد الصلوات اربع من الامهات المرتلات امام مقراً كبير ينظم اربعة مقارء فرعية . وذات يوم استهلت احدى الامهات المرتلات مزموراً يبدأ بـ *Ecce* ، وبدلاً من ان تلفظ *Ecce* لفظت هذه العلامات الموسيقية الثلاث في صوت مرتفع : *ut , si , sol* . ولقد خضعت ، بسبب من شroud الفكر هذا ، لعقاب استغرق فترة الصلاة بكاملها . وبما جعل الغلظة ضخمة جداً أن مجلس الراهبات لم يتالك عن الضحك عند حدوثها .

وحين تُدعى احدى الراهبات الى غرفة الاستقبال ، ولو كانت الرئيسة نفسها ، فأنها تُسدل حجابها ، كما نذكر ، على نحو لا يُبدي من وجهها غير الفم .

والرئيسة وحدها تملك حق الاتصال بالغرباء . أما سائر الراهبات فلا يستطعن أن يرين غير اقربائهن الأذنين ، وفي مناسبات فادرة جداً . واذا اتفق ان وفد شخص ما ليرى راهبة كان يعرفها او يجيبها قبل دخولها الدير اقتضى ذلك مقابضة رسمية . فاذا كان الزائر امرأة فقد يُجاز لها هذا في بعض الاحيان . وعندئذ تُقبل الراهبة ، فتتحدث اليها المرأة من خلال المصاريع التي لا تُفتح أبداً إلا للأم أو لأخت . ولا نحتاج الى القول ان الزائرين من الرجال لا يحظون بذلك الاذن البتة .

ذلك هو نظام القديس بينوا ، وقد جعله مارتن فيرغا اكثر صرامة . إن هؤلاء الراهبات لسن مرحات ، متورّدات ، فاضرات ، شأن فتيات الرهبانيات الاخرى عادة . إنهن صاحبات الوجوه ، آخذات باسباب الجِدِّ . وبين سنة ١٨٢٥ وسنة ١٨٣٠ أصيبت ثلاث منهن بالجنون .

* على اعتبار ان كلمة « الخطيئة » او « عقاب الخطيئة » *Coupe* وكلمة المذب *Coupable* مشتقتان في الفرنسية من جذر واحد ، كما ترى .

ضروب من القسوة والصرامة

وتسلخ المرشحة لدخول الدير سنتين على الأقل ، بوصفها طالبة ترهب ، واربع سنوات في الغالب قبل ان تصح عضواً في الرهبانية . ثم تقضي اربع سنوات أخرى بوصفها راهبةً مستجدةً . ونادراً ما تعلن النذور النهائية قبل ثلاث وعشرين سنة أو اربع وعشرين سنة . إن راهبات مارتن فيرغا البرنارديات - البنيديكتيات لا يقبلن في رهبانيتهن أرمة ما . وهن يُخضعن انفسهن ، في قلاياهن ، لضروب من الأمانة المجهولة التي التي لا يحق لمن أن يتحدث عنهما أبداً .

ويومَ تُتمّ الراهبة المستجدة نذورها الرهبانية تُجلى في أحسن زينة ، وتُجلى رأسها بالزهر الابيض ، ويُصقل شعرها ويجعد . ثم إنها تُكَبّ على وجهها ، ويُنشر فوقها حجاب كبير أسود ، وتُنشد صلاة الموتى . وعندئذ تنقسم الراهبات صفتين ، يمرّ احدهما على مقربة منها قائلاً في نبرة نائحة : « لقد ماتت اختنا ! » ، فيجيبه الآخر في صوت مرنان : « إنها تحيا في السيد المسيح ! »

وفي الفترة التي ترقى اليها هذه القصة ألحقت بالدير مدرسة داخلية ، تضمّ عدداً من الفتيات النييلات ، كان معظمه من الموصرات . وكان من ابرز هؤلاء الآنستان « دو سانت أولير » و « دو بيليسين » ، وفتاة انكليزية تحمل اسم « تالبوت » الكاثوليكي الشهير . وإنما سببت هاته الفتيات - اللواتي نشأتهن الراهبات بين اربعة جدران - على الخوف من العالم ومن العصر . فقد قالت احدها لنا ذات يوم : « إن النظر الى حصباء الطويق جعلني ارتجف من قمة رأسي الى اخص قدمي » . وكن يرتدين ملابس زرقاء ، ويعتبرن بقلنسوة بيضاء ، ويزينن صدورهن بصدان من فضة او نحاس مذهب . وفي بعض الاعياد الكبرى ، وبخاصة يوم عيد القديسة مارتا ، كان يُسمح لهنّ كنعمة عظيمة وسعادة قصوى ، أن يرتدين ملابس الراهبات ويؤدين صلوات القديس بينوا وطقوسه يوماً كاملاً . وفي البدء كانت الراهبات ذوات النذور يُعرهنّ ملابسهنّ السوداء . ولكن ذلك بدا مدنساً للقديسات ، فحظرتة الرئيسة . ولم يُجَزَّ هذه الأعادة إلا للراهبات المستجدات . وبما يلفت النظر أن هذا التمثيل - الذي كان يُتسامح به ويُشجّع في الدير بروح تبشيرية خفية من غير شك ، ولكي يُغرس في نفوس هؤلاء الفتيات الصغار حبّ قبليّ للالاس المقدسة - كان متعة حقيقية وساوى صحيحة للطالبات . كنّ يتلهين به ليس غير . كان شيئاً جديداً ، كان تغييراً للجوّ . وإنما لسيبان طفليان ساذجان لا يوفقان على أية حال الى جعلنا نفهم ، نحن الدنيويين ، تلك السعادة التي ينطوي عليها الامساك بمنضحة الماء المقدس ، والوقوف ساعات وساعات على القدمين ابتغاء الانشاد على نحو رباعيّ امام مقرأ من المقارى .

والطالبات يخضعن لجميع طقوس الدير ، خلا ضروب التقشف والأمانة . وهناك فتيات معدن الى العالم ؛ وعلى الرغم من أنهم سلخن عدة سنوات من الزواج فانهم لما يوفقن الى الاقلاع عن عادة القول في مرعة بالغة كلما قرع امرؤ بابهنّ : « إلى الابد ! » . ومثل الراهبات ، كان

محظوراً على الطالبات الداخليات ان يرين احداً غير انسابهن ، في غرفة الاستقبال . وحتى أمهاتهن لم يكن يجاز لهن ان يعانقهن . وحسبك دليلاً على الشدة التي اصطنعت في تطبيق هذه القاعدة ان فتاة زارتها أمها مصطحبةً اختاً لها صغيرة في الثالثة من العمر . وبكت الفجأة ، فقد كانت شديدة التوق الى تقبيل اختها . مستحيل . والتمست ان يُسمح للطفلة بأن تُمّرَ يدها الصغيرة ، على الاقل ، من خلال القضبان الحديدية لكي يكون في ميسورها ان تقبّلها . ولكنهن أبينَ ذلك عليها ، وفي نبرة تكاد ترشح بالسخط .

ومع ذلك فقد ملأت الفتيات الصغيرات هذا البيت المهيب بذكرات
فائنة .

ففي بعض الساعات ، كانت الطفولة تلتصق في هذا الدير . لقد دقت
ساعة الاستراحة ، ودار بابٌ على مفاصله . وقالت الطير : حسن !
هوذا سرب من الفتيات الصغيرات ! إن فيضاً من الفتوة قد أغرق هذه
الحديقة التي تخترقها ممرات على شكل صليب ، مثل كفن من الاكفان .
وإن وجوهاً مشعّة ، وجباهاً بيضاً ، وعيوناً ساذجة تطفح بالضياء
البهيج ، وضروباً من الفجر مختلفات ، قد تناثرت في تلك الظلمة .
فبعد ترتيل المزامير ، وقرع النواقيس ، ودقّ أجراس الحزن ، وأداء
الصلوات انفجر ، فجأةً ، أزيز هؤلاء الفتيات الصغيرات أحلى وأعذب
من أزيز النحل . لقد فُتح قفير الجدّل ، ولقد حملت كلٌ عسلها .
لقد لعبن ؛ لقد نادَيْن ؛ لقد شكّلن جماعات ؛ لقد ركضن .
وهذّرت في الزوايا أسنان صغيرة جميلة بيضاء . ومن بعيد راقبت
الحُجُبُ ضحك الضاحكات : ظلال تتجسّس على الأشعة ؛ ولكن ما
ضرهنّ ! إنهن يتلألأن ويضحكن . وهذه الجدران الاربعة المحزونة
كانت لها لحظات من الافتتان ايضاً . لقد شاركت ، هي الاخرى -
وقد أضيئت على نحو باهت بما انعكس عليها من ابتهاج غامر - في
دوران النحل العذب هذا . وكان ذلك أشبه شيء بوابل من الرياحين
يهطل على هذه الجنائز . لقد اخذت الفتيات الصغيرات بأسباب المرح
والعبث تحت أعين الراهبات ؛ إن نظرات العصمة لا تُزعج البراة .
وهكذا ، فبفضل هؤلاء الاطفال كانت ثمة ساعة غير متصّعة وسط

جمهرة من الساعات العابئة الصارمة . لقد وثبت الصغيرات ، ووقعت
الكبيرات . ففي هذا الدير امتزجت البهجة بالسأم . ولم يكن ثمة شيء
احفل بالفئنة والبهاء من هذه النفوس الناضرة . ولو قد رأى هرمير
هذا المشهد إذن لضحك مع بيرو * ولقد كان في هذه الحديقة السوداء
من الصبا ، ومن الصحة ، ومن الضجة ، ومن الصياح ، ومن السعادة
ما يكفي لازالة التجمعات عن وجوه السيدات المعجائز جميعاً ، سواء
منهن عجائز الملحمة او عجائز الحكاية ، عجائز العرش او عجائز الكوخ ،
من هيكوب ** الى « الأوزة الأم » ***

وفي هذا البيت ، اكثر من أيما مكان آخر في ما يبدو ، كانت
تسمع « نغثات الاطفال » هذه التي تمور بالطلاوة والتي تجعل المرء
يضحك ضحكاً حافلاً بالتفكير . فضمن هذه الجدران المائتة الأربعة
صاحت طفلة في الحامسة من عمرها ذات يوم : « أماء ! إن فتاة كبيرة
قالت لي اللحظة إني لن أبقى هنا ، بعد ، اكثر من تسع سنوات
وعشرة أشهر . ما أعظم سعادتي بذلك ! »

وهناك ، ايضاً ، دار هذا الحوار المأثور :

احدى الامهات الصوتيات . - « لماذا تبكين ، ابنتي الطفلة ؟ »

الطفلة (وعمرها ست سنوات) متهددة . - « لقد قلت لأليس
إني اعرف درس تاريخ فرنسة . فقالت لي بل انت لا تعرفينه . وأنا
اعرفه حقاً . »

* Charles Perrault (١٦٢٨ - ١٧٠٣) كاتب فرنسي وضع عدة حكايات عن

الجن خلدت اسمه .

* Hécube زوجة بريام ، وام هيكتور وباتريس وغيرها . وقد خسرت في
خلال حرب طروادة جميع اولادها تقريباً البالغ عددهم تسعة عشر ، ورأت زوجها
المجرز بريام وزوجها بوليكسين وابنتها وحفيدها يُذبحون تحت عينها ...

*** هي الراوية الخرافية لحكايات بيرو الدائرة كلها حول الجن ، وقد نشرت
هذه الحكايات اول مرة عام ١٦٩٧ .

أليس (وعمرها تسع سنوات) . - « لا ؛ إنها لا تعرفه . »
الأم . - « كيف ذلك ، يا بُنيتي ؟ »
أليس . - « لقد قالت لي ان أفتح الكتاب عند أي موضع منه ،
وأن أسألها أي سؤال من أسئلة الكتاب ، قائلة إن في استطاعتها ان
تجيب عنه . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « إنها لم تجب عن السؤال . »

- « حسن . ماذا سألتها ؟ »

- « لقد فتحت الكتاب كيفما اتفق ، طبقاً لقولها ، ووجهت إليها
اول سؤال وقعت عليه . »

- « وما كان ذلك السؤال ؟ »

- كان : « وما الذي حصل في ما بعد ؟ »

وهناك ، ايضاً ، أبديت هذه الملاحظة المبيقة حول ببقاء نعمة
بعض الشيء كانت لاحدى السيدات العاملات في المدرسة الداخلية :

- « أليست لطيفة ؟ إنها تأكل أعلى قطعة الخبز المدهونة بالزبدة
مثل سيده من السيدات ! »

ومن فوق بلاطة من بلاطات هذا الدير التَّقَط هذا الاعتراف ،
الذي كتبتة مقدماً ، لكي لا يُنسى ، خاطئة صغيرة في السابعة من
العمر :

- « أبتِ ، أنا اهتم نفسي بأني كنت بخيلة . »

« أبتِ ، انا اهتم نفسي بأني قد زينت . »

« أبتِ ، أنا اهتم نفسي بأني رفعت عيني نحو الرجال . »

وفوق مقعد من مقاعد هذه الحديقة المشوشة ارتجل هذه القصة فم
وردي في السادسة من العمر ، وسمعتها أعين زُرُق في الرابعة والخامسة
من العمر :

- وكانت ثلاثة ديوك صغار تعيش في بلد مليء بالازهار . فقطفت
الديوك تلك الازهار ووضعتها في جيوبها . وبعد ذلك قطفت الديوك
الأوراق ووضعتها في 'لعبها' . وكان في البلد ذئب ، وكان فيه غابات
كثيرة . وكان الذئب في الغابات ، ولقد أكل الديوك الصغار . ،
وكذلك ، هذه القصيدة الاخرى :

- « كانت هناك ضربة عصا .

« إن بوليشينيل * هو الذي سددها الى المرة .

« ولم 'يفد' ذلك شيئاً . ولكنه أوجعها .

« ثم جاءت سيده فوضعت بوليشينيل في السجن . ،

وهناك ، ايضاً ، قيلت هذه الكلمات الرقيقة المزققة للقلب على لسان
لقطة صغيرة كان الدير ينشئها ابتغاء وجه الله . لقد سمعت الغتيات
الاخريات يتحدثن عن امهاتن فهممت في زاويتها قائلة :

- « أما أنا فأن أمي لم تكن هناك عندما 'ولدت' ! »

وكانت في الدير بوابة بدينة كان المرء يراها دائماً تجتاز الاروقة في
سرعة ، حاملةً حزمة مفاتيحها ، وكان اسمها الاخت آغاثة . وكانت
الفتيات الكبيرات الكبيرات ، ومن اللواتي يزيد عمرهن على العاشرة ،
ينادينها آغانوكليس ** .

وكانت قاعة الطعام غرفة واسعة متطاولة ومريجة لا ينفذ اليها النور
إلا من نافذة رواق ذات حنية ناتئة نقش في مستوى الحديدية . وكانت
مظلمة رطبة ، وملأى - كما قالت الفتيات الصغيرات - بالبهائم . ذلك
بأن جميع المواطنين المجاورة كانت تزودها بأنصبتها من الحشرات . ولقد
أطلق على كل من زواياها الأربع ، في لغة الطالبات ، اسم 'خاص'

* عاتم على المهرج ، عند الفرنسيين ، ويقابله في عامتنا « كراكوز » و«عواظ» .

** Agathoclès طاغية سيراكيوس احدى مدن صقلية . وكان عدواً لدوداً للقرطاجيين

(٣٦١ - ٢٨٩ ق . م)

معتبر . فهناك زاوية العناكب ، وزاوية الأساريع * ، وزاوية قوارض الحشب ، وزاوية الصراصير . وكانت زاوية الصراصير قرب المطبخ ، وكانت تحظى بأجلال كثير ، بسبب من انها كانت أدفاً من سائر الزوايا . ومن قاعة الطعام ، انتقلت هذه الاسماء الى المدرسة وساعدت هناك ، كما ساعدت في كلية مازاران القديمة ، على التمييز ما بين أربع أمم . وكانت كل طالبة تنتمي الى احدى هذه الأمم الأربع تبعاً للزاوية التي تجلس فيها الى المائدة في غرفة الطعام . وذات يوم ، فيما كان كبير الاساقفة يقوم بزيارته الرعائية ، رأى فتاةً صغيرة جميلة متوهجة الحدين ذات شعر أشقر فاتح تدخل الى البص الذي كان يمرّ به . فسأل طالبةً اخرى ، وكانت سمراء ساحرة ذات وجنتين نضرتين ،

افققت ان كانت قريباً منه :

- « من هذه الفتاة الصغيرة ؟ »

- « إنها عنكبوت ، يا صاحب السيادة . »

- « عجيب ! وتلك ؟ »

- « إنها صرصور . »

- « وتلك ؟ »

- « إنها أسروع . »

- « حقاً . ومن أنت ؟ »

- « انا قارضة من قوارض الحشب ، يا صاحب السيادة . »

ولكل بيت من هذا الضرب فرائده . ففي مطلع هذا القرن كانت إيكووين موطناً من تلك المواطن الجميلة الصارمة حيث نمت ، في ظل يكاد يكون جليلاً ، طفولة الفتيات الناضرات العود . ففي إيكووين يميّز عند تنظيم موكب القربان المقدس بين العذارى وزارعات الرياحين . وكانت قمة ايضاً « المظلات » و « المباخر » ، وقد حمل الاولون حبال

* دود ايض الابدان ، ينسلخ فصير فراشاً . واحده أسروع ويسروع .

المظلة ، وأرجح الآخرون المباخر امام القربان المقدس . وكانت الرياحين تُعاد الى زارعاتها لا ينازعهن في ذلك احد . وكانت اربع « عذارى » يشبهن في مقدمة الموكب . وفي صبيحة اليوم العظيم لم يكن من غير المألوف أن تسمع هذا السؤال في حجرة النوم :

- « ايكنّ عذراء ؟ »

وتروي السيدة كامبان ان « فتاة صغيرة » في السابعة من العمر قالت لـ « فتاة كبيرة » في السادسة عشرة تراست الموكب ، على حين ظلت هي ، الفتاة الصغيرة ، في المؤخرة :

- « أنتِ عذراء ، أنتِ . اما أنا فلت كذلك ! »

٥

شواغل

وفوق باب حجرة الطعام كُتبت باحرف سوداء ضخمة هذه الصلاة التي كانت تدعى « الصلاة الربانية البيضاء » ، والتي كانت تلك القوة على ان تقود الناس الى الجنة مباشرة :

- « الصلاة الربانية البيضاء التي صاغها الله ، والتي قالها الله ، والتي وضعها الله في الجنة . في الليل ، حين أويت الى الفراش ، أوجدت (كذا) * ثلاثة ملائكة مستلقين على صريري ، أحدهم عند قدّم السرير ، والآخران عند مقدمه ، ومريم العذراء الطيبة في الوسط ، وقد قالت لي إن عليّ أن أنام ، وان لا ارتاب في شيء . إن الرب الرحيم

. « في الاصل Je trouvis بدلاً من Je trouvais اي « وجدت » فالخطأ يتمثل في كيفية صياغة الفعل الماضي من « وجد » ولا لم يكن من سبيل الى التعبير عن ذلك في العربية فقد رأينا أن تؤدي المعنى المطلوب بوضع فعل « أوجد » بدلاً من فعل وجد ، أي استعمال صيغة الفعل الرباعية بدلاً من صيغته الثلاثية .

هو ابي ، والعدراء الطيبة هي أمي ، والرسل الثلاثة هم إخوتي ، والعدراءى الثلاث هن أخواتي . إن القميص الذي ولد فيه الاله ليلف جدي . وان صليب القديسة مارغريت لمكتوب على صدري . وتقضي السيدة العدراء عبر الحقول ، باكية من اجل الرب ، وتلتقي بالسيد القديس يوحنا . سيدي القديس يوحنا ، من اين أقبلت ؟ لقد أقبلت من « آف سالوس » . انت لم تَرَ الرب الاله ، اليس كذلك ؟ إنه على شجرة الصليب ، متدلي القدمين ، مسرّ اليدين ، وعلى رأسه قبة صغيرة من الشوك الابيض . إن كل من يردد هذا ثلاث مرات عند المساء ، وثلاث مرات عند الصباح ، يفوز بالجنة في آخر الامر .

وفي سنة ١٨٢٧ كانت هذه الصلاة المميّزة قد طمست تحت طبقة من الورق مثلثة ألصقت على الجدار . وهي تذوى حتى هذه الساعة في ذاكرة بعض فتيات ذلك العهد الصغيرات ، وقد امسين الآن سيدات عجاثر .

وكان تمثال ضخم من غائيل المصلوب معلق على الباب ، يتمّ زخرف غرفة الطعام هذه التي كان بابها الوحيد يفتح ، كما نحسب اننا قد ذكرنا ، على الحديقة . وكانت طاولتان ضيقتان ، يحيط بكل منهما مقعدان خشيان ، تمتدان في خطين متوازيين من اقصى قاعة الطعام الى اقصاها . وكانت الجدران بيضاء ، والطاولتان سوداوين ، فقد كان هذان اللونان الحدادبان هما مظهر التنوع الأوحد في الاديرة . وكانت وجبات الطعام خشنة ، وكانت اغذية الصغيرات أنفسهن صارمة . فكانت الوجبة المترفة عبارة عن طبق واحد يتألف من شيء من اللحم والحضر مجتمعين ، او من سمك مملح . بيد ان هذه اللائحة الموجزة ، التي تُخص بها الطالبات الداخليات وحدهن ، كانت شيئاً نادراً جداً . وانما كانت الفتيات الصغيرات يأكلن في صمت ، تحت عيني « الأم » المكلفة مراقبتهن ذلك الاسبوع ، والتي كانت تفتح وتغلق ، بين الفينة والفينة ، وفي ضجة ، كتاباً خشبياً ، كلما خطر ببال ذبابة ان تحوم أو تطنّ خلافاً للقاعدة .

والواقع ان هذا الصمت كان يُتَّبَل بِسَيَرِ القديسين تتلى بصوت عال من كرسي صغير ذي مِقْرَأ قائم عند قدمي تمثال من تماثيل المصلوب . وكانت الفارئة طالبة كبيرة تُتَخَار لاداء هذه المهمة طوال اسبوع كامل . وكانت توضع على الطاولة المجردة ، وعلى مسافات بعينها ، آنية فخارية بموهة كانت كل طالبة تغسل فيها قدحها المعدني ووضنها بنفسها ، وكن أحياناً يُلقين في تلك الآنية بعض النفايات ، كقطعة من لحم قاسية او سمكة فاسدة ؛ وكان ذلك يعرضهن للعقاب . وكانت تلك الآنية تدعى البرك المستديرة .

وكانت الطفلة التي تقطع جبل الصمت « ترم بلسانها صلياً » . ابن ؟ على الارض . كانت تلص ارض الحجر . كان التراب ، تلك النهاية الواضعة حدّاً لجميع المباح ، يُكَلَّف بمعاينة أحكام الرياحين الصغيرة المسكينة هذه حين تُتهم بالزفزة .

وكان في الدير كتاب لم يطبع منه في ايما يوم من الايام غير نسخة وحيدة محظورة قراءتها . ذلك هو نظام القديس بينوا ؛ سرّ ينبغي ان لا تنفذ اليه عين من الاعين الدنيوية غير الطاهرة .

Nemo regulas seu, constitutiones nostras, externis communicabit .

ووفقت الطالبات ، ذات يوم ، الى سرقة هذا الكتاب ، فأخذن يقرأنه في لهفة قراءة كثيرة ما قوطعت بالحرف من ان تفاجهن احدى الراهبات على تلك الحال ، وهكذا اضطررن الى إغلاق المجلد في سرعة بالغة . إنهن لم يفزّن من هذه المخاطرة الكبيرة بغير متعة ضئيلة . ولقد اعتبرن بعض الصفحات المبهمة الباحثة في آثام الصبية الصغار « اكثر صفحات الكتاب إمتاعاً » .

لقد لعبن في ممر من ممرات الحديقة نهضت على طولها بضع شجرات مشمرة مهزولة ، ورغم المراقبة الشديدة وقوة العقوبات كن يوفقن ،

* كلام لانيي مناء : لا يجوز لاحد أن يروح بأنظمتنا وقوانيننا الى الغرابة .

في بعض الاحيان ، حين تهزّ الريح الاشجار ، الى ان يلتقطن ، خلسةً تفاحةً فجةً ، أو مشمشةً فاسدةً ، أو إجاصةً يسرح فيها الدود . وسوف أترك الكلام الآن لرسالة موجودة بين يديّ ، رسالة كتبته منذ خمس وعشرين سنة طالبة سابقة ، هي اليوم السيدة دوقة ... ، احدى نساء باريس الاكثر أناقةً ، فقد جاء في هذه الرسالة بالحرف الواحد : « كانت الواحدة منا نخبيء إجاصتها أو تفاحتها ما وجدت الى ذلك سيلاً . حتى اذا صعدنا لنضع الشراشف على الاسرة في انتظار طعام العشاء وضعتها تحت مبادتها ، ثم أكلتها ليلاً في سريرها . فاذا لم تتمكن من ذلك أكلتها في الكنيف . » كانت تلك احدى مُتعهنّ الاكثر حيوية .

وذات مرة ، عند زيارة رئيس الاساقفة للدير ايضاً ، راهنت احدى الفتيات الصغيرات ، الآنة بوشار ، وهي متعاهرة من امرة مونجورينسي ، على انها سوف تسأله ان يمنح الطالبات عطلة يوم ، وهو شيء مروّع في مجتمع كالج الى هذا الحد . وقبيل الرهان ، ولكن اباً من اولئك اللواتي اشتركن فيه لم تعتقد انها سوف تجرؤ على ذلك . وحين سنحت الفرصة ، فيما كان رئيس الاساقفة يستعرض الطالبات انبثقت الآنة بوشار من الصفوف ، مثيرةً دعر رفيقاتها التي لا يوصف ، وقالت : « مونسينيور ، عطلة يوم واحد . » وكانت الآنة بوشار طويلة القامة ، ناضرة العود ، ذات وجه وردّي صغير ليس في العالم اجل منه . وابتسم مسيو دو كيلين وقال : « وكيف ، ايها الطفلة العزيزة ، تطلبين عطلة يوم واحد ليس غير ؟ خذي ثلاثة ايام ، اذا شئت . أنا أمنحك عطلة ثلاثة ايام . » ولم تستطع الرئيسة ان تفعل شيئاً ، فقد تكلم رئيس الاساقفة . كانت فضيحةً بالنسبة الى الدير . ولكنها كانت بهجةً بالنسبة الى المدرسة الداخلية . وفي ميسور القراء ان يتخيّلوا النتيجة .

بيد ان هذا الدير الفظّ لم يكن من شدة التحصين بحيث تعجز حياة

العالم الخارجي العاطفية ، وبحيث تعجز المساة وتعجز المغامرة الحبيبة نفسها ، عن النفاذ اليه . ولائبات ذاك تجتريء بالنص ، في اختصار ، على واقعة حقيقية لا وراء فيها ، وإن لم يكن لها في ذاتها صلة بقصتنا هذه إذ لا يربطها بها أيما خيط على الاطلاق . وإنما نشير الى هذه الواقعة لكي نتم صورة الدير في ذهن القارىء ، ليس غير .

حوالى تلك الحقبة كانت في ذلك الدير امرأة غريبة ليست براهبة - امرأة كانت تعامل في احترام كبير ، وتدعى مدام آلبيرتين . إن احدآ لم يكن يعرف عنها شيئاً غير أنها معتوهة ، وان العالم الخارجي كان يفترض أنها ميتة . ولقد كان وراء هذه القصة ، كما قيل ، بعض الترتيبات المالية الضرورية لزواج ضخم .

كانت هذه المرأة البانعة الثلاثين من العمر أو تكاد ، السمراء المليحة ، تحددق بعينها السوداوين الواسعتين تحديقاً ضارباً . أكانت ترى ؟ لا أحد بدري . وكانت تنزلق انزلاقاً اكثر مما تشي مشياً . وما كانت لتتكلم . ولم يكن الناظر اليها ليثق ثقةً كاملة من انها تننفس . فقد كان منحراها رفيقين شاحبين وكانها لفظت اللحظة آخر نفس من أنفاسها . وكان لمس يدها اشبه شيء بلنس الثلج . وكانت على رقة شبحية عجيبة . فحينما دخلت أرقعت البرد في أوصال الجمع . وذات يوم رأتها احدى الراهبات مارة فقالت لزميله من زميلاتها : « إن الانسان ليحسبها ميتة . » فأجابتها هذه بقولها : « لعلها كذلك ! »

لقد رويت قصص كثيرة عن مدام آلبيرتين . كانت موضوع فضول الطالبات الداخليات الدائم . وكان في الكنيسة سدة تدعى الكوة . وفي هذه السدة ، حيث لم يكن يوجد غير فتحة مستديرة واحدة هي كوة من الكوى ، كانت مدام آلبيرتين تشهد الصلوات والخدمات الدينية . وكانت تستقل بذلك المكان عادةً ، لأن الواعظ أو الكاهن المحتفل بالقداس كان يرى من تلك السدة المرتفعة ، وهو امرٌ محظور

على الراهبات . وذات يوم ارتقى المنبر كاهن شاب ذو رتبة رفيعة هو دوق دو روهان ، عضو المجلس الاعلى الفرنسي ، الذي كان ضابطاً في فرقة «الفرسان الحمر» عام ١٨١٥ ، عندما كان أميراً لليون ، والذي توفي بعد ذلك ، عام ١٨٣٠ كاردينالاً ورئيس اساقفة بيزانسون . وكانت هذه اول مرة يعظ فيها مسيو دو روهان في دير بيكوس الصغير . وكان من دأب مدام آلبيرتين ان تستمع الى العظات وتشهد الخدمات الدينية في صمت عميق وسكينة كاملة . اما في ذلك اليوم فأنها لم تكلم ترمى مسيو دو روهان حتى نهضت نصف نهضة وصاحت وسط سكون الكنيسة الشامل : « ماذا ؟ اوغوست ؟ » وُبهت جماعة الراهبات كلها ، والتفتن الى الورا . ورفع الواعظ عينيه ، ولكن مدام آلبيرتين كانت قد ارتدت الى جودها الصامت . إن نفساً من العالم الخارجي ، إن الناعة من حياة كانت قد مرت ، لحظة ليس غير ، أمام هذا الشكل الميت المتلوج ، ثم تلاشى كل شيء وانقلبت المجنونة ، كرة اخرى ، الى جنة .

ومع ذلك فان هاتين الكلمتين أطلقنا لسان كل قادرة على الكلام في ذلك الدير . فما اكثر الاشياء التي انطوت عليها تلك الـ « ماذا ؟ أوغوست ؟ » وما اكثر الاجاءات ! فقد كان اسم مسيو دو روهان ، في الواقع ، هو أوغوست . وكان واضحاً ان مدام آلبيرتين تنتسب الى ارقى طبقة في المجتمع ، ما دامت قد عرفت مسيو دو روهان ، وانها كانت تحتل هي نفسها مكانة رفيعة ما دامت قد تحدثت بمثل هذه الدالة عن نبيل على مثل هذا العظم كله ، وانه كانت لها صلة ما به ، لعائنا صلة قرابة ، ولكنها حميمة جداً من غير شك ، ما دامت تعرف « اسمه الصغير » .

وكانت درقتان قاسيتان جداً ، هما مدام دو شوازيل ومام دو سيران ، كشيئاً ما تزوران الدير ، الذي كان يفتح ابوابه لهما ،

من غير شك ، بفضل مكانتهن النسوية الرفيعة ، فتوقعان الذعر الشديد في المدرسة الداخلية . فما ان تمر السيدتان العجوزان حتى ترتجف الفتيات الصغيرات البائسات ويخفضن اعينهن .

وفوق هذا ، فقد كان مسيو دو روهان ، من غير ان يدري ، موضوع انتباه الطالبات واهتمامهن . وكان قد عُيِّن في تلك الفترة بالذات ، بانتظار رفعه الى كرسي الاسقفية ، نائباً لرئيس اساقفة باريس . وكان من عادته ان يكثر من الجيء الى الدير لينشد في اثناء الخدمات الدينية المقامة في معبد راهبات بيكبوس الصغير . ولم يكن في مسيور أيّ من الحبيسات الصغيرات ان تراه بسبب من الستارة الصوفية الغليظة ، ولكنه كان ذا صوت عذب ، ورقيق بعض الشيء ، فما انقضت برهة حتى أصبحن يعرفنه ويميزنه من سائر الاصوات . لقد كان فارساً من حاشية الملك . والى هذا فقد قيل انه كان شديد الحب للزينة ، وإن رأسه كان مكسوّاً بشعر كستنائي جميل مصفّفٍ دوائرٍ دوائرٍ ، وانه كان يتنطق بنطاقٍ عريض متموج رائع ، وإن ثوبه الكهنوتي كان على نحو ليس له في الاناقة ضريب . لقد شغل الى ابعد الحدود جميع هذه التحيلات الفنية التي لا تزيد اعمار صاحباتها على الستة عشر ربيعاً . ان صوتاً ما لم ينفذ من الخارج الى قلب الدير ، ومع ذلك فقد تقضت سنةً نفذ فيها اليه صوتُ فلوتٍ او ناي . كان ذلك حدثاً ذا خطر ، ولا تزال طالبات ذلك العهد يذكرنه الى اليوم .

كان نايّاً يعزف عليه شخصٌ ما في جوار الدير ، وكان ذلك الناي يعزف اللحن نفسه دائماً ، وهو لحن غدا اليوم نسياً منسياً : يا حبيبتي زيتولبا ، تعالي وتربّعي على عرش روعي ! وكن يسمعه مرتين او ثلاث مرات يومياً .

وانفذت الفتيات الصغيرات ساعاتٍ في الاستماع الى ذلك اللحن ؛ واضطربت الامهات الصوتيات ؛ وعصف الدوار بالرؤوس ؛ وهطلت

العقوبات تظالماً . ودام ذلك عدة أشهر . وتدلّثت الفتيات كلهن ، قليلاً أو كثيراً ، بحبّ الموسيقى المجهول . فقد تخيّلت كلّ منهن أنها زيتولبا . وكان صوت الناي يُقبل من ناحية شارع « دروا مور » . وكنّ على اتم الاستعداد لأن يقدمن كل شيء ، لأن يضحين بكل شيء ، لأن يجاولن كل شيء ، لكي يرّين ولو ثانية واحدة ليس غير - بل لكي يلمحن هذا « الشاب » الذي كان يعزف هذا العزف العذب على ذلك الناي ، والذي كان يتلاعب في الوقت نفسه ، من غير أن يدري ، بقلوبهنّ جميعاً . والواقع ان بعض الفتيات كن يهربن من باب خلفي ، ويصعدن الى الدور الثالث المطلّ على شارع « دروا مور » محاولات أن يرينه ، معرفّات أنفسهن لأيام بكاملها من العذاب . ولكن عبثاً . وذهبت إحداهن الى حدّ ان تمدّ ذراعها فوق رأسها من خلال القضبان الحديدية وتلوّح بمنديلها الأبيض . وخطّت فتاتان خطوةً أوسع في ميدان الجراة . فقد وجدتا وسيلة للتسلق الى اعلى السطح ، فحاطرتا بنفسيهما ، ووفقتا آخر الأمر الى رؤية « الشاب » . كان رجلاً عجوزاً مهاجراً ، مكفوف البصر مهدّماً ، يعزف على الناي في عِلّيته قتلاً للضجر .

٦

الدير الصغير

كانت ضمن سور « بيكبوس الصغير » هذا ثلاثة أبنية متميّزة كل التميّز : الدير الكبير حيث تحيا الراهبات ، والمدرسة الداخلية حيث تنزل الطالبات ، وأخيراً ما كان يدعى الدير الصغير . وإنما كان هذا بناء منفصلاً ذا حديقة ، تنقسم السكنى فيه عدة راهبات عجائز ينتسبن الى

رهبانيات مختلفة ، بقايا أديارٍ خربتْها الثورة ؛ مجموعة من كل الالوان ، السوداء ، والرمادية ، والبيضاء ، من مختلف الجماعات وجميع الاصناف الممكنة ؛ وهو ما نستطيع ان ندعوه ، اذا جاز مثل هذا التزاوج بين الكلمات ، ضرباً من « الدير اللابس ثوباً متعدد الالوان كتوب المهرج » .

فمنذ عهد الامبراطورية أجزى لجميع هؤلاء العوانس البائسات ، المشتتات ، المشردات ، أن يجدن مَفزَعاً تحت أجنحة الراهبات البنيديكتيات - البرنارديات . وعينت الحكومة لمنّ جعلاً صغيرة ؛ ولقد استقبلتْهن راهبات « بيكبوس الصغير » في لفقة . وكان ذلك خليطاً عجيباً . وكانت كل منهنّ تتّبع نظامها الخاص . وفي بعض الاحيان ، كان يُجاز للطالبات ، كنسليّة كبرى ، أن يقمن بزيارتهم ، حتى لقد احتفظت هذه الذواكر الغضة ، في جملة ما احتفظت به ، بذكرى الأم باسيل الطاهرة ، والأم سكولاستيك الطاهرة ، والأم يعقوب .

ووجدت احدى هذه اللاجئات نفسها في بيتها تقريباً . كانت راهبة من راهبات « سانت أور » ؛ وكانت هي الراهبة الوحيدة التي عمّرت من بين المنتسبات الى تلك الرهبانية . وكان دير راهبات « سانت أور » القديم يشغل في مطلع القرن الثامن عشر هذا البيت نفسه الذي امسى في ما بعد ملكاً لراهبات مارتن فيوغا البنيديكتيات . وحقّ أن هذه الراهبة الطاهرة - المعدّمة الى حدّ لم يمكّنها من ان ترتدي لباس رهبانيّتها البهيّ ، وهو ثوب ابيض ذو وشاح قرمزي - كانت قد خلعتّه ، في تقوى ، على شخصٍ خشيّ صغيرٍ كانت تربه لزاراتها في رضا وارتياح . حتى اذا حضرتها المنية أوصت به للدير . في عام ١٨٢٤ كان قد بقي من هذه الرهبانية راهبة واحدة ، اما اليوم فليس باقياً منها غير دمية .

وبالاضافة الى هؤلاء الامهات الفاضلات كانت بضع عجائز من نساء العالم الخارجي قد حصلن من الرئيسة على إذن يميزهنّ ، مثل مدام

آلبيرتين ، ان يتسكن في الدير الصغير . وكانت بين هؤلاء مدام بوفور دوتبول ، والمركيزة دوفرين . واخرى لم تكن تُعرف في الدير إلا بالضجة الهائلة التي اعتادت ان تحدثها وهي تتمخط . وكانت الطالبات يسيئنها مدام فاكارميني * . . .

وحوالى سنة ١٨٢٠ او ١٨٢١ التمت مدام جينليس ، التي كانت تحرر في ذلك العهد مجلة صغيرة تدعى « الجَسُور » ، الاذن باحتلال غرفة في دير بيكبوس الصغير . وأوصى دوق اورليان بقبولها . وضحّ القفير بالطنين ، وارتعدت الامهات الصوتيات كلهن . فقد سبق لـ مدام جينليس ان ألقت عدة روايات ، ولكنها اعلنت انها كانت اول من يكره هذه الروايات ، وبعد ذلك كانت قد انتهت الى مرحلة تقواها الضارية . وساعدها الله ، وساعدها الامير ايضاً ، فدخلت .

وما هي الا سنة اشهر او ثمانية اشهر حتى غادرت الدير ، مبررة ذلك بان الحديقة غير ظلية . واستبدت الطرب بالراهبات . فعلى الرغم من بلوغها من الشيخوخة فقد كانت لا تزال تعزف على القانون ، وفي براعة فائقة .

وعند مغادرتها الدير ، تركت طايعها في قَلْبِيتها . فقد كانت مدام جينليس مؤمنة بالخرافات ، مولعة باللغة اللاتينية . والواقع ان هاتين الكلمتين تقدمان لنا صورةً جانبيةً حسنةً عنها . وبعد بضع سنوات ، كان لا يزال في ميسور المره ان يرى هذه الابيات اللاتينية الحسنة الملتصقة في خزانة صغيرة في قَلْبِيتها حيث كانت تحفظ اموالها وجواهرها . وإنما كتبت هذه الابيات بخطها ، وبجبر احمر ، على ورقة صفراء ، وكانت تؤمن بأن في مقدرتها ان تطرد اللصوص وتروّعهم .

* نحن الملاحظة ان لفظه Vacarmine في الفرنسية تفيد معنى الضجة والضوضاء والجلبة فكان الطالبات قد سمّين تلك الراهبة « السيدة ضجة » .

*Imparibus meritis pendent tria corpora ramis:
Dismas et Gesmas , media est divina potestas ;
Alta petit Dismas , infelix , infima , Gesma .
Nos et res nostras conservet summa potestas .
Hos versus dicas , ne tu furto tua perdas .*

وهذه الابيات التي ترقى الى القرن السادس تجعل المرء يتساءل ،
أكان اسما لصبي "جلجثة" * « ديسماس » و « جيستاس » ، كما يعتقد
الناس ، أم « ديسماس » و « جيستاس » ؟ وهذا الرمز الاخير
للكمة خليق به ان ينافي ما ادعاه الفيكونت دو جيستاس ، في القرن
الماضي ، من انه متحدر من اللص المشؤوم . وفرق هذا فقد كانت
الأيمان بأن هذه الابيات تضرّ وتنفع عقيدة "جوهريّة عند رهبانية
المضيفات ، او خادمات المرضى .

وكانت كنيسة الدير ، المشيدة على نحو يجعلها تفصل ، جهد الطاقة ،
ما بين الدير الكبير والمدرسة الداخلية ، مَعْبِداً مشتركاً ، طبعاً ،
للمدرسة الداخلية والدير الكبير والدير الصغير جميعاً . وحتى الجمهور ،
كان يُجاز له الدخول اليها من شبه مَحَجَّرٍ صحيّ ينفتح على الشارع .
ولكن كل شيء كان يُنظَّم على نحو يجعل من المتعذر على ايّ من
اهل الدير رؤية وجهه من الوجوه الخارجية . تخيلُ كنيسة تهيمن يدُ
جِبّارة على جوقه المنشدات فيها ، وتلوها بحيث لا تشكل ، شأنها في
الكنائس العادية ، امتداداً خلف المذبح ، ولكن شبه غرفةٍ او كهفٍ

* « هناك ثلاثة اجسام تتدل باستحقاقات مختلفة ،

ديسماس وجيساس ، وبينهما السلطة الالهية ،

إن ديسماس يرتفع نحو الاعالي ، اما جيساس فيهبط الى الهاوية ،

فتحافظ السلطة الالهية علينا وعلى ممتلكاتنا .

ردّد هذه الابيات إذا أردت ان لا يسرق اللصوص اموالك . »

** جلجثة ، أو موضع الجمجمة ، جبل قرب القدس ، صلب عليه يسوع المسيح .

ولما جلجثة هما اللسان اللذان جُملا احدهما عن يمينه ، والآخر عن يساره ، وصلبا

مه .

مظلم الى يمين الكاهن ؛ تخيّل هذه الغرفة وقد أوصدت بالستارة البالغ ارتفاعها سبعة اقدم والتي تحدثنا عنها آنفاً ، وكدّس في ظلّ هذه الستارة ، وعلى كراسي خشبية ، راهبات الجوقة الى اليسار ، والطالبات الى اليمين ، والراهبات القائمت بالاعمال اليدوية والراهبات المستجيدات في المؤخرة تَفُزُ بفكرة ما عن راهبات « بيكبوس الصغير » حين يشهدن القداس . وكان هذا الكهف المدعو الجوقة ، يتصل بالدير من طريق مجاز ضيق . وكانت الكنيسة تستمدّ الضوء من الحديقة . وحين كانت الراهبات يشتركن في احتفالات دينية تفرض انظمتن عليهن التزام الصمت فيها ، كان الجمهور لا يحس بوجودهن إلا من خلال صوت المقاعد الكنسية المرتفعة حيناً ، المنخفضة حيناً آخر .

٧

بعض الصور المظلمة في هذا الظلام

في مدى الست السنوات التي تفصل عام ١٨١٩ عن عام ١٨٢٥ كانت رئيسة « بيكبوس الصغير » هي الآنسة دو بلومور ، الذي كان اسمها الديني الأم إينوسانت . كانت من أسرة مارغريت دو بلومور ، مؤلفة « سيور قديسي وهبانية القديس بينوا . » وكان قد أُعيد انتخابها للرئاسة . امرأة في نحو الستين ، قصيرة ، بدينة ، « تغني مثل القدر المصدوعة » كذلك تقول الرسالة التي سبق ان استشهدنا ببضعة اسطر منها . ولكنها كانت امرأة بمتازة ، وكانت الشخصية المبتهجة الوحيدة في الدير كله ، ومن أجل ذلك حظيت بأعظم الاحترام والاجلال .

وكانت الأم إينوسانت تشبه جدتها مارغريت ، مؤرخة الرهبانية

وعالمتها . كانت حسنة الثقافة ، واسعة الاطلاع ، عالمة ، بارعة ، شديدة الشغف بالتاريخ ، محسوة باللاتينية ، متخمة باليونانية ، ملأى بالعبرية ، وراهباً اكثر منها راهبة .

وكانت نائبة الرئيسة راهبة اسبانية عجوزاً تكاد تكون مكفوفة البصر ، هي الام سينيريس .

وكانت ارفع « الامهات الصوتيات » مقاماً الامّ سانت هونورين ، الحازنة ، والام سانت جيرترود ، معلمة الراهبات المستجندات الاولى ، والام سان آنج ، المعلمة الثانية ، والام « البشارة » ، القبة على الكنيسة ، والام سان اوغوستين ، المريضة ، وهي الحبيثة الوحيدة في الدير كله ؛ ثم الام سانت ميشيلد (الآنسة غوفان) وكانت غضة العود ذات صوت ساحر ؛ والام ديزانج (الآنسة دروييه) التي كانت من قبل في دير « راهبات الرب » وفي « دير الكنز » بين « جيزور » و « مانبي » ؛ والام سان جوزيف (الآنسة دو كوغولودو) ؛ والام سانت آديلايد (الآنسة دو فيرني) والام « الرحمة » (الآنسة دو سيفيوانت التي لم تستطع احتمال اسباب التقشف والامانة) ؛ والام « الرأفة » (الآنسة دو لا ميلتيير التي قبلت في الستين من عمرها ، بوغم النظام ، وكانت غنية جداً ؛ والام « العناية الالهية » (الآنسة دولودينير) ؛ والام « تقدمة العذراء » (الآنسة سيغويانزا) التي كانت رئيسة في عام ١٨٤٧ ؛ واخيراً الام سانت سيليني (اخت المثال سيرانثي) وقد اصيبت بالجنون ؛ والام سانت سانتال (الآنسة دو سوزون) وقد اصيبت بالجنون ايضاً .

وكان بين اكثرهن جمالاً ، ايضاً ، فتاة فاتنة في الثالثة والعشرين ، من جزيرة بوربون ، وكانت تتحدر من سلالة الفارس روز . ولقد عرفها الناس في العالم الخارجي باسم الآنسة روز ، على حين دعت هي نفسها الامّ « انتقال العذراء » .

وكانت الام سانت ميشيلد ، المكلفة بالانشاد والجوقة ، تفيد من

الطالبات ، بسرور ، في هذه المهام . كان من دأبها ان تأخذ سُليماً موسيقياً كاملاً منهنّ ، يعني سبع طالبات ، من سنّ العاشرة حتى السابعة عشرة ، متناسقات الاصوات والقامات ، وتدعوهن الى الانشاد واقفات ، ينتظهنّ صفّ اتخذن مواقعهن فيه وفقاً للسنّ ، فهو يبدأ بالصغرى وينتهي بالكبرى . وكان ذلك يعرض على الانظار شيئاً اشبه بشبّابة من الفتيات الصغيرات ، ضرباً من مصفارٍ حيٍّ مصنوع من ملائكة .

وكانت الطالبات يُخبِئْنَ من بين الراهبات القائنات بالأعمال اليدوية ، بخاصة ، الاخت سانت اوفرازي ، والاخت سانت مارغريت ، والأخت سانت مارتا ، التي كانت مضطربة العقل ، والاخت سان ميشيل التي كان أنفها الطويل يُضحكهنّ .

وكان اولئك النسوة جميعاً لطيفاتٍ مع هؤلاء الفتيات جميعاً . كانت الراهبات قاسياتٍ على انفسهنّ لیس غير . فلم تكن النار تُضرم إلا في المدرسة الداخلية ؛ وكان الطعام المقدم في هذه المدرسة ، اذا ما قيس بطعام الدير ، شيئاً فآخرأ . والى هذا ، فقد كنّ يتعمن بألف ضربٍ من العناية . كل ما في الأمر أن الراهبة كانت اذا مرت بها طفلة وألقت عليها التحية ، اعتصمت بالصمت فلم تردّ على تحية الطالبة قط .

وأدت قاعدة الصمت هذه الى هذه النتيجة ، وهي ان الكلام انتزع ، في الدير كله ، من الكائنات الحية ومُنح للجهادات . ففي بعض الاحيان كان ناقوس الكنيسة هو الذي يتكلم ، وفي بعض الاحيان كان المتكلم هو جُلجل البستاني . وكان ثمة جرسٌ مرنانٌ جداً موضوعٌ الى جانب المرأة البوابة فهو يُسمع في ارجاء البيت كله . وكان هذا الجرس يُفصح بنبواته المتباينة ، التي كانت ضرباً من التلغراف المقوّي للصوت ، عن جميع أفعال الحياة المادية التي يتعين القيام بها ، ويدعو الى غرفة الاستقبال ، عند الاقتضاء ، هذه او تلك من أهل الدير . فقد كان لكل شخص ولكل شيء دقّته الخاصة . فدقة الرئيسة

واحد وواحد . ودقة نائبة الرئيسة واحد واثنان . وكانت ستة وخمسة
 'تعلن بدء الدرس ، بحيث أن الطالبات كنّ لا يقطن لهن ذاهبات
 الى الدرس ابدأ ، ولكن يقطن لهن ذاهبات الى ستة وخمسة . وكانت
 اربعة واربعة هي دقة مدام دو جينليس الخاصة . وكانت تسع في
 كثير من الاحيان . فتقول اللواتي لا يحببن القريب ابدأ . وهذا
 هو الشيطان الرباعي . ، وكانت الدقات التسع عشرة تعلن حدثاً
 خطيراً . إنه فتح باب الجزء المحرم من الدير إلا على أهله - صفحة
 حديدية مروعة شائكة بالمزاج لا تدور على مفاصلها إلا امام رئيس
 الاساقفة

فباستثنائه واستثناء البستاني ، كما قد ذكرنا ، لم يكن في ميسور
 أيما رجل أن يدخل الى الدير . أما الطالبات فرأين رجلين آخرين :
 اولها المرشد ، الأب بانيس العجوز ، القبيح ، الذي كنّ يتمن بامتياز
 النظر اليه أثناء الانشاد ، من خلال قضبان نافذة ما . والثاني معلم
 الرسم ، مسيو آنسيو *Ansioux* ، الذي تدعوه الرسالة التي اقتطفنا بضعة
 أسطر منها مسيو آنسيو *Anciot* ، وتصفه بقولها إنه أحسب عجوز
 راعب .

ونحن نرى أن جميع الرجال كانوا مختارين .
 كذلك كان هذا الدير الغريب .

٨

« بعد القلوب الحجارة »

بعد أن رسمنا ملامح الدير الاخلاقية رسماً أولياً نرى ان من المفيد

* وقد ورد في الاصل ، باللاتينية هكذا : *Post Corda Lapides*

أن نقول بضع كلمات في هيئته المادية . ولقد كَوَّن القارىء حتى الآن فكرةً ما عن ذلك .

كان دير « بيتي بيكبوس سان انطوان » يستغرق ، تقريباً ، كامل المربع المنحرف الكبير المشكل من تقاطع شارع بولونسو ، وشارع « دروا مور » ، وشارع بيكبوس الصغير ، والزقاق المسدود المدعوّ في الخرائط القديمة شارع أوماربه . وكانت هذه الشوارع الأربعة تحيط بذلك المربع المنحرف مثل خندق من الخنادق . وكان الدير مؤلفاً من عدة أبنية وحديقة . وكانت البناية الرئيسية ، اذا ما اعتُبرت جملةً ، مجموعةً من المنشآت النغلة التي تبدى ، إن نُظِر إليها نظرةً طائر ، أشبه شيء بمشقة مطروحة على الارض .

كانت ذراع المشقة الكبرى تمتدّ على طول شقة شارع « دروا مور » الواقعة ما بين شارع بيكبوس الصغير وشارع بولونسو . أما ذراعها الصغرى فكانت واجهةً عاليةً ، رماديةً ، قاسيةً ، مشبكةً تطلّ على شارع بيكبوس الصغير . وكان باب العربات ، رقم ٦٢ ، هو حدّها الاقصى . وحوالى منتصف هذه الواجهة كان الغبار والزمامد قد بيّضا باباً عتيقاً منخفضاً مقنطراً نسجت العناكب خيوطها عليه ، ولم يكن ليُفتح غير ساعة او ساعتين يوم الأحد وفي المناسبات النادرة حين يُخْرَج من الدير جثمان راهبة . كان هو المدخل العمومي للكنيسة . وكان مرفق المشقة قاعةً مربعةً تُصطَنَعُ مكتباً ، وكانت الراهبات يسميها « بيت المؤونة » . وفي الذراع الكبرى كانت قلايا « الأمهات » و « الاخوات » والراهبات المستجدات . وفي الذراع الصغرى كانت المطابخ ، وقاعة الطعام ، مبطنّةً برواق الدير ، وكانت الكنيسة . وبين الباب رقم ٦٢ وزاوية زقاق أوماربه الموصد كانت المدرسة التي لم يكن في ميسور المرء ان يراها من الخارج . أما بقية المربع المنحرف فألفت الحديقة التي كانت أدنى من مستوى شارع بولونسو الى حدّ جعل

الجدران مرتفعة من الداخل اكثر من ارتفاعها من الخارج بكثير . وكان في وسط الحديقة ، المهدّبة بعض الشيء ، وعند قمة رابية صغيرة ، شجرة شربين جميلة ، محدّدة الرأس مخروطية الشكل ، تنفصل عنها ، وكأننا تنفصل من نقطة الدائرة في ترّس ، أربعة ممرات عريضة يتخللها ثمان ضيقة تمتد اثني اثنين بحيث كانت خريطة الممرات الهندسية خليقة بأن تشبه - لو كان السياج دائرياً - صليباً وضع على دولا ب . وكانت الممرات ، المبسطة كلها نحو جدران الحديقة غير المنتسقة ، ذات أطوال متباينة . وكانت تكتنفها شجيرات غيب الثعلب . وفي طرف الحديقة الاقصى امتدّ صفّ من شجرات الحور الضخام من خرائب الدير القديم القائمة عند زاوية شارع « دروا مور » إلى بناية الدير الصغير القائمة عند زاوية زقاق اوماربه . وأمام الدير الصغير كان ما يدعى الحديقة الصغيرة . أضف الى هذا المجموع فناءً ، ومختلف ضروب الزوايا التي شكّلتها عدة من الابنية المنفصلة ، وجدراًناً كجدران الجون ، وصقاً طويلاً أسود من السطوح الممتدة في محاذاة الجانب الآخر من شارع بولونسو والتي تشكّل المنظر الوحيد والمكان المجاور الوحيد للذين 'نظّل' عليها المؤسسة ، وعندئذ تستطيع ان تكون فكرة كاملة عما كان عليه ، خمس واربعين سنة خلت ، دير بيكوس الصغير الخاص بالراهبات البونارديات . لقد بُني هذا البيت المقدس على ارض ملعب للتنس حظي بشهرة واسعة ابتداءً من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر وكان يدعى « ملعب الشياطين الأحد عشر ألفاً » .

والى هذا فقد كانت هذه الشوارع كلها من أقدم شوارع باريس . وهذا الاسمان ، « دروا مور » و « اوماربه » عتيقان جداً . والشوارعان اللذان يحملانها هما أشدّ عتقاً ايضاً . فقد كان زقاق اوماربه يدعى زقاق موعو ؛ وكانت شارع « دروا مور » يدعى شارع ال « إيفلانتييه » لان الله فتح الازهار قبل ان يقطع الانسان

قرن من الزمان في زي الراهبات

ما دمنا نفصل القول في ما كان من قبلُ دير بيكبوس الصغير ، وما دمنا قد جرؤنا على ان نفتح نافذة على هذا الملاذ المنعزل فأنت القاريء سوف يغفر لنا استطراداً آخر غريباً عن موضوع هذا الكتاب ولكنه يميّز ومفيد اذ بعلمنا أن لرواق الدير المستوف نفسه شخصياته الغريبة الشاذة .

فقد كان في الدير الصغير راهبة في المئة من عمرها وفدت من دير فونتيفرو . والواقع انها كانت قبل الثورة من نساء المجتمع الرفيع . ولقد اكثرت من الكلام عن ميو ميرومسنيل ، وزير العدل في عهد الملك لويس السادس عشر ، وعن سيده ما ، تدعى الرئيسة دوبلا ، وكانت تعرفها معرفة جيدة . فقد كان مما يُبهجها وبشير زهوها ان تسوق هذين الاسمين في كل مناسبة . وكانت تروي عجائب عن دير فونتيفرو ، وانه كان مثل مدينة من المدن ، وانه كان في داخله شوارع .

وكانت تتحدث بلهجة بيكاردية أجهت الطالبات الداخليات . وكلّ عام ، كانت تجدد نذورها في أبة . وكان من دأبها ان تقول للكاهن عند حلقتها اليمين : « إن مونسينيور القديس فرانسوا أعطاه لمونسينيور القديس جوليان ؛ ومونسينيور القديس جوليان أعطاه لمونسينيور القديس

* يعنى بالقارىء ان يعلم ان كلمة إيفلانتيه Eglantier تعنى الترسين ، وهو زهر ، وان كلمة « مور » Mur تعنى الجدار ، وإنما تشاد الجدران من حجارة .

اوزيب ؛ ومونسينيور القديس اوزيب أعطاء لمونسينيور القديس بروكوب النخ . الخ ، وهكذا فاني اعطيك إياه ، يا أبتِ ! ، وعندئذ كانت الطالبات يضحكن ، لا في أردانهن كما يقولون ، ولكن في حُجُبِهِنَّ ، ضحكاتٍ صغيرةٍ ساحرةٍ مكبوححة كانت تحمل « الأمهات » على العبوس والتقطيب .

وذات يوم كانت الراهبة المتوية تروي بعض الحكايات . فقالت : إن الرهبان البرنارديين كانوا في أيام صباها لا يسمحون لفوسان الملك بأن يتقدموا عليهم في المجالس . كان قرن من الزمان يتكلم ، ولكنه كان القرن الثامن عشر . وتحدثت عن عادة الخمر الاربعة التي كانت سائعة في شامباتني وبورغوني قبل الثورة . فحين كانت شخصية كبيرة ، من مثل مارشال فرنسة ، او امير من الامراء ، او دوق من الدوقات ، او عضو في المجلس الاعلى ، يمر بمدينة من مدن بورغوني او شامباتني كانت هيئة المدينة تستقبله ، وتخطب بين يديه ، وتقدم اليه أربع كؤوس فضية صُبت فيها اربعة ضروب من الخمر . وكانت منقوشاً على الكأس الأولى : خمر الفرد ؛ وعلى الثانية : خمر الاسد ؛ وعلى الثالثة : خمر اطروف ، وعلى الرابعة : خمر اظنوير ، وكانت هذه النقوش الاربعة تعبر عن درجات السكر الاربعة المنحدرة : الاولى تلك التي تُسبج ، والثانية تلك التي تُهيج ، والثالثة تلك التي تُجبل ، والاخيرة تلك التي تجعل الشارب وحشياً .

وكان لديها في احدى الحزائن المقلعة شيء غريب كانت شديدة الهيام به . ولم يكن نظام دير فونتيفرو ليحظره . وكانت لا تروي هذا الشيء لاسرى ، ما . فقد كان من دأبها ان توصل الابواب على نفسها - وهو أمرٌ يُعجزه نظامها - وتختبئ كلما أرادت النظر إليه . حتى إذا سمعت وُفِعَ أقدام في الرواق اغلقت الحزانة أمرع ما تستطيع إغلاقها بيديها المرمتين . وما إن يتحدث إليها احد في ذلك حتى تعنم

بالصمت ، على الرغم من ولوعها بالكلام . وكان أكثر النسرة فضولاً
ينقلبن خائبات أمام صمتها ، وأكثرهن إصراراً ينقلبن خائبات أمام عنادها .
وكان هذا ، أيضاً ، موضوع تعليق عند كل عاطلة عن العمل وكل من
أصابها السأم في الدير . إذ ما الذي يمكن أن يكونه ذلك الشيء ،
النفيس جداً ، السري جداً ، الذي كان كنز الراهبة المثوية هذه ؟ لا
سك في أنه كتاب مقدس ما ، أو سبحة فريدة ، أو ذخيرة مثبتة .
لقد تهنّ في مفازة من الأحاس والافتراضات . حتى إذا توفيت العجوز
المسكينة هرعن إلى الحزاة بأسرع بما يقضي به العرف ، في ما يبدو ،
وفتحنها . فوجدن موضوع فضولهن تحت نسيج قطني ثلاثي مثل كأس
مقدسة على شكل صحفة صغيرة . كانت صحفة من صحاف فينزا *
تمثل أحبة شرعن في الطيران وقد طاردهن غلمان صيادلة مسلّحون
بعاقن ضخام . والمطاردة ملأى بالاياءات المضحكة والأوضاع الهزلية .
ولقد أثنن أحد الأحبة بالطعنات ، فهو يناضل ، وهو جرت جناحيه
الصغيرين ، محاولاً أن يعاود الطيران ، ولكن الغلام الطافر مرحاً يطلق
ضحكة شيطانية . المغزى : - الحب مهزوماً بالمغص . وهذه الصحفة
الغريبة جداً فوق ذلك ، والتي ربما كان لها شرف الإجماء بفكرة ما الى
موليير ، كانت لا تزال موجودة في أيلول ، عام ١٨٤٥ . كانت معروضة
للبيع في دكان من دكاكين السلع المستعملة في جادة بومارشيه .
إن هذه العجوز الطيبة لم تكن ترغب في استقبال زائر يفد من العالم
الخارجي لرؤيتها ، لان خوفاً الاستقبال - كما قالت - كانت مظلة
أكثر مما ينبغي .

* مدينة إيطالية اشتهرت قديماً بصناعة الخرف .

اصل « السجود السرمدى »

ومع ذلك فغرفة الاستقبال هذه التي تكاد أن تكون قَبْرية ، والتي حاولنا أن نعطي القارىء فكرة عنها ، مظهرٌ محليّ محضٌ لا نفع على مثله ، بالصرامة نفسها ، في الأديرة الأخرى . ففي دير شارع الـ « تامبل » ، على الحُصوص ، الذي كان ينتمي في الحق الى رهبانية أخرى ، استعِض عن المصاريح السود بستائرٍ سمراء ، وكانت غرفة الاستقبال نفسها صالمةً مبلطةً بالخشب ، محجوبةً نوافذها بالشاش الموصلي الأبيض ، مزدانةً جدرانها بضروب من الصور ، ومنها رسم راهبة بنيدكتية حسرت عن رأسها ، وباقات من الزهر ، بل ورأس رجل تركي أيضاً .

وبإثنا نهضت في حديقة دير شارع الـ « تامبل » نفسها شجرة الكستناء الهندية تلك التي كانت تعدّ أكبر زميلاتها وأجملهن في فرنسا ، والتي اشتهرت عند شعب القرن الثامن عشر الطيب بأنها أمّ جميع شجرات الكستناء في المملكة .

وكما ذكرنا سابقاً ، كان يحتلّ دير الـ « تامبل » هذا راهباتُ السجود السرمدى البنيديكتيات ، وهن غير أولئك البنيديكتيات المنبثقات من « سيتو » . ورهبانية السجود السرمدى هذه ليست قديمة جداً ، فهي لا ترقى الى أكثر من مئتي عام . ففي سنة ١٦٤٩ دُنّس القربان المقدس مرتين متواليتين ، خلال بضعة أيام ، في اثنتين من كنائس باريس ، في كنيسة « سان سولبيس » وكنيسة « سان جان آنغريف » - وهو خرق للقدسيات مروّع ونادرٌ أحدث هزة عنيفة في المدينة كلها . فأقام النائب لأسقفى رئيس دير « سان جيرمان دي بريه » مركباً دينياً مهيباً حشد

له كهانه جميعاً ، وقدّس * فيه سفير البابا . ولكن هذه الكفارة لم تكن كافية في نظر سيدتين نبيلتين هما مدام كورتين ، المركيزة دو بوك ، والكونتس دو شاتوفيو . فهذا الانتهاك لحرمة « سر المذبح البالغ الجلال » رغم أنه عابر ، لم يبرح ذهني هاتين النسيتين القدسيتين ؛ ولقد بدا لهما أن لا سبيل الى أن يُكفّر عنه الا « بسجود سرمدي » في دير ما . فقدّمتا كلتاهما ، الواحدة عام ١٦٥٢ ، والأخرى عام ١٦٥٣ ، هباتٍ ضخمة الى الأم كاترين دو بار ، الملقبة بكاترين القربان المقدس ، وكانت راهبة بنيدكتية ، لكي تتمكنها من تأسيس دير تابع لرهبانية القديس بينوا ابتغاء تحقيق هذا الغرض التقوي . وانما مُنحت الأم كاترين دو بار الاجازة الأولى لانشاء هذه المؤسسة من لدن مسيو دو ميتر رئيس دير « سان جيرمان » شرط « أن لا تُقبّل فيها أي فتاة لا تحمل الى الدير دخلاً سنوياً قدره ثلاثئة ليرة ، أي رأس مال مقداره ستة آلاف ليرة » . وبعد رئيس دير « سان جيرمان » أجاز الملك انشاء المؤسسة ببراءة خاصة . ثم ان مجلس المحاسبة والبرلمان أقرّا كلا من الاجازة الصادرة عن رئيس الدير والبراءة الملكية ، في عام ١٦٥٤ .

ذلك هو أصل الرهبانية البنيديكتية للسجود السرمدي للقربان المقدس ، في باريس ، وهذا هو تكريسها الشرعي . ولقد جدّد البناء الذي احتله أول دير من أديرة هذه الرهبانية ، في شارع كاسيت ، بأموال مدام دو بوك ومدام دو شاتوفيو .

وهذه الرهبانية ، كما نرى ، ينبغي أن لا يُخلط بينها وبين رهبانية البنيديكتيات الملقبات براهبات سيتو . لقد انبثقت من رئيس دير « سان جيرمان دو بويه » كما انبثقت « سيدات القلب المقدس » من الرئيس العام للسويسيين ، و « راعبات المحبة » من الرئيس العام للعازاريين .

* قدس الكاهن : أقام القداس .

وهي كذلك مختلفة^١ كل الاختلاف عن راهبات دير « بيكوس الصغير » البرنارديات اللواتي استعرضنا حياتهن الداخلية من لحظة . ففي سنة ١٦٥٧ أجاز البابا الكسندر السابع لراهبات « بيكوس الصغير » البرنارديات - ببراءة خاصة - أن يارسن السجود السرمدي مثل راهبات القربان المقدس البينديكتيات . ولكن كلاً من الرهبانيتين ظلت ، مع ذلك ، محتفظة باستقلالها وشخصيتها .

١١

نهاية « بيكوس الصغير »

منذ عودة أسرة بوربون الى العرش ، شرع دير « بيكوس الصغير » يذوي ويتلاشى . وكان ذلك جزءاً من موت الرهبانية العام ، تلك الرهبانية التي ولت بعد القرن الثامن عشر ، كما ولت جميع الرهبانيات الدينية . ان التأمل ، كالصلاة ، ضرورة من ضرورات الانسانية . ولكنه ، مثل أي شيء مسته الثورة ، سوف يتحول ويتغير ؛ وبدلاً من أن يكون معادياً للتقدم الاجتماعي سيصبح مؤاتياً له .

وأقفر دير « بيكوس الصغير » في مرعة . وفي عام ١٨٤٠ كان الدير الصغير قد زال ، وكانت المدرسة الداخلية قد زالت أيضاً . لم يبق ثمة لا النسوة العجائز ، ولا الفتيات الصغيرات . كانت الأوليات قد قضينَ نجهن ، وكانت الأخريات قد مضينَ لسيلهن . ** Volaverunt **

إن نظام « السجود السرمدي » قاس إلى درجة توقع الذعر في النفس . ويتقهقر النداء الرباني ، فلا تنضم إلى الرهبانية مجنّدات جديدات . ففي سنة ١٨٤٥ كانت الرهبانية لا تزال قادرة على ان تجمع من هنا

* في اللاتينية ؛ ومعناها : لقد رحمن .

وهناك بعض الراهبات القائرات بالاعمال اليدوية ، ولكنها عجزت عن أن تفوز بأيّ من راهبات الأناشيد الجماعي . منذ اربعين عاماً كان عدد الراهبات مئة تقريباً ، ومنذ خمسة عشر عاماً لم يكن ثمة غير ثمانٍ وعشرين . فكم يبلغ عددهن اليوم ؟ وفي عام ١٨٤٧ كانت رئيسة الدير شابة ، وهذا دليل على ان إمكانية الاختيار كانت محدودة . إنها كانت دون سنّ الاربعين . وكلما تناقص العدد ، تعاظم التعب . إن واجبات كلّ منهن تصبح اشدّ عسراً ؛ ومن ذلك الحين تقرب تحت ابصارهن ، تلك اللحظة التي لن يبقى فيها غير دزينة من الاكتاف الموجهة المتقوسة للهبوض بنظام القديس بينوا الثقيل . إن العبء عنيد لا يعرف المرونة ، وإنه ليظلّ هو نفسه بالنسبة الى العدد القليل كما قد كان بالنسبة الى العدد الكثير . إنه يُبْهَظ ؛ إنه يسحق . وهكذا قَضَيْنَ مَحْبَبَتِنَا .

ومنذ أن كان مؤلف هذا الكتاب لا يزال يعيش في باريس ماتت اثنتان منهنّ ، احدهما كانت في الخامسة والعشرين والاخرى كانت في السادسة والعشرين . وهذه الاخيرة كان في ميسورها أن تقول مع جوليا آلبينولا *Hic Jaceo, vixi annos viginti et tres.* وبسبب من هذا الانحطاط ألقع الدير عن تعليم البنات .

والحق انه لم يكن في ميسورنا ان نجتاز بهذا البيت المظلم المجهول ، فوق العاديّ ، من غير ان ندخل ونُدخل معنا اولئك الذين يرافقوننا والذين يصفون البنا ونحن نروي - ولربما كان ذلك لفائدة بعضهم - قصة جان فالجان الكشيبة . لقد ألقينا نظرةً على هذه الجماعة المفعمة بجماراتها العتيقة التي تبدو اليوم بالغة الجِدَّة . إنها الحديقة المسوّرة . *Hortus conclusus* . ولقد تحدّثنا عن هذا الموطن الفريد في إسهاب منتقد ، ولكن في احترام ، بقدر ما يمكن التوفيق بين الاحترام والانتقاد على الاقل . إننا لا نفهم كل شيء ، ولكننا لا نُهين شيئاً .

* في اللاتينية ، ومعناها : هنا أقمت حيث عشت ثلاثاً وعشرين سنة .

فنهج بعيدون عن تهلل جوزيف دو ميتر الذي يذهب الى حد تقديس
الجلاد بُعدنا عن سخريه فولتير الذي يذهب الى حد التهمك على تمثال
المصلوب .

ولنقل ، بالمناسبة ، إن هذه مخالفة للمنطق يقع فيها فولتير . ذلك
أن فولتير كان خليقاً به أن يدافع عن يسوع كما دافع عن كالا* . وحتى
عند اولئك الذين يُنكرون سرّ التجسّد اي شيء يمثله تمثال المصلوب ؟
إته يمثّل الحكيم مضرّجاً بدمائه .

إن الفكرة الدينية لتجتاز ، في القرن التاسع عشر ، بأزمة . فنحن
ننسى اشياء كثيرة بما تعلّمناه ، وإنا نحسن بذلك صنعاً شرط ان
نتعلّم - ونحن ننسى امراً ما - شيئاً غيره . فليس من فراغ في
القلب الانساني ! إن بعض الاشكال لتهدّم ، ومن الخير ان تُهدّم
شرط ان يعقبا الانشاء .

وفي غضون ذلك فلندرس الاشياء التي زالت . إن من الضروري أن
نفهمها ، ولو من أجل اجتنابها ليس غير . إن كل تزوير للماضي ينتحل
اسماً ، وإن هذه المزورات مواءمة بأن تدعو نفسها المستقبل : والحق
ان ذلك الشبح - الذي هو الماضي - كثيراً ما يزور جواز سفره .
فلنستعدّ للشرك . فلنأخذ حذرنا . ان للماضي وجهاً هو الحرافة ،
وقداعاً هو الرباء . فلنشهر الوجه ، ولنمزق القناع .
اما الأديرة فتعجبنا بمشكلة مركّبة : مشكلة حضارة ، وهذه تدينها ؛
ومشكلة حرية ، وهذه تحميها .

* Jean Calas تاجر من تولوز انهم خطأ بأنه قتل ابنه لكي يحول بينه وبين
الارتداد عن البروتستانتية . وقد حكم عليه البرلان قضي تحت دولاب التعذيب عام
١٧٦٢ . وقد اعيد اليه اعتباره سنة ١٧٦٥ بعد ان دافع فولتير عنه ذفاعاً مثيراً .

للانهاية .

وليس هذا هو الموطن المناسب لبسط بعض الآراء بطأً مسهباً .
ومع ذلك ، ففيما تثبتت بتحفّظاتنا ، وبقصور التعبير عندنا ، بل
وبسخطنا ايضاً تشبهاً قوياً ، يتعين علينا ان نقول إننا كلما وقفتنا
في الانسان ، على اللانهاية - سواء أأحسنا فيها أم أمي - استبدت بنا
الاحترام على نحوٍ لا إرادي . إن في الكنيس ، وفي المسجد ، وفي
المبكل الهندي أو الصيني ، وفي معبد الهنود الحمر جانباً بغيضاً غفته ،
وجانباً ربيعاً نهم به . فياله موضوعاً يتفكّر فيه العقل ، وباله
معدواً لا ينضب من مصادر التأمل ، انعكاسُ الله ذاك على الجدار
الانساني !

٢

الدير بوصفه واقعة تاريخية

من وجهة نظر التاريخ ، والعقل ، والحقيقة ، تقف الحياة الرهبانية
موقف المتهم الذي دانته المحكمة .

إن الاديرة ، حين تكثر في بلد من البلدان ، هي عُقد تتركب
السير ، منشآت معوّقة ، مراكز كسلٍ حيث ينبغي ان تقوم مراكز
عمل . والمؤسسات الرهبانية تمثل بالنسبة الى المؤسسة الاجتماعية العظمى
ما تمثله الطفيليات بالنسبة الى شجرة السنديان ، والتأليل بالنسبة الى
الجسم البشري . ففي ازدهارها وممناها إفقار البلاد . واذا كان النظام
الرهباني صالحاً في فجر الحضارة ، حين حارب الوحشية بالروحانية
مخففاً من وطأتها ، فإنه مؤذٍ في الادوار التي تبلغ فيها الشعوب مبلغ
الرجولة . والى هذا ، فعين يسترخي النظام الرهباني ويدخل في دور

التفسخ - وهو الدور الذي نراه فيه ، اليوم - يصبح مهلكاً للأسباب نفسها التي جعلته 'منجياً' في دور صفائه .

لقد كان للاعتكاف في الأديار زمانه . فالصوامع برغم ما أسدته من فائدة في المرحلة الأولى من الحضارة الحديثة ، قد عاقت نمو هذه الحضارة ، وأضرّت بتطورها . والأديرة ، بوصفها مؤسسة* ، وبوصفها طريقة من طرائق تثقيف البشر ، كانت صالحة* في القرن العاشر ، وموضع خلاف في القرن الخامس عشر ، وإلها لبغيضة* في القرن التاسع عشر . والحق ان 'جذام الحياة الرهبانية كاد يتأكل حتى الهيكل العظمي' امتين عظيمتين ، الأمة الإيطالية والأمة الإسبانية ، وكانت أحدهما نور أوروبا والآخرى مجدها طوال قرون من الزمان . وإذا كانت هاتان الامتان الماجدتان قد اتخذتا سبيلهما ، في عصرنا هذا ، الى الشفاء فالفضل في ذلك راجع* الى علم حفظ الصحة * السليم الحازم الذي وضعت قواعده عام ١٧٨٩ .

والدير - دير النساء العتيق ، بخاصة - كما كان يبدو حتى على عتبة هذا القرن ، في ايطالية ، والنمسا ، واسبانية ، ليس غير تخشّر من أشدّ تخشّرات القرون الوسطى عبوساً وإظلاماً . إنه في تلك البلدان نقطة التقاطع لضروب من المخاوف والاهوال . والدير الكاثوليكي ، على الحصر ، مليء بأشعة الموت السوداء .

ولكن الدير الأسباني أشدّ مآتمة* من سائر الأديار كلها . هناك ترتفع في الظلمة - تحت عقود ملأى بالضباب ، تحت قباب لا تكاد تبدو بسبب من العتمة - مذابيح ضخمة مثل برج بابل ، سامقة كالكاندرايات . هناك تتدلى من السلاسل في غمرة الظلام تماثيل للمصوب ضخمة بيضاء . هناك نستلقي ، عارية* على خشب الأبنوس ، تماثيل للمسيح عاجية هائلة ، دامية لا تحضبة* بالدم فحسب ، فظيعة بديمة ،

* يقصد الثورة الفرنسية .

تمّ مرافقتها عن عظامها ، وتمّ عظام رُكبها عن أغشيتها ، وتمّ جراحتها عن لُحها ، وقد توجت بأشواك من فضة ، وسمرت بماسير من ذهب ، وبدت على جباهها قطرات دم من ياقوت أحمر ، وترقرقت في أعينها دموع من ألماس . إن اليواقيت وقطع الألماس لتبدو مبلّلة ، وإنها لتُجري الدموع ، هناك في الاجزاء الدنيا ووسط العتمة ، من مآقي مخلوقات محجّبات نُحدّثت خواصرها ومُزّقت بالانسجة الصوفية الغليظة ، وبالسياط ذوات الرؤوس الحديدية ، وسُحقت أُنداؤها بمُضْرٍ صغيرة مصنوعة من غصون الصفصاف ، وُجِلّفت رُكبها بالصلاة الموصولة . نسوة يحسبن انفسهن زوجاتٍ . أشباح تتخيل أنها في عداد الطبقة العليا من الملائكة . أتفكر هاته النسوة ؟ لا . ألهنّ إرادة ؟ لا . هل يعشقن ؟ لا . هل يعشن ؟ لا . لقد تحوّلت أعصابهنّ الى عظام ، ولقد تحولت عظامهن الى حجارة . إن حجابهن هو الليل منوجاً . وإن نَفَسَهن ، تحت ذلك الحجاب ، يشبه شيئاً لا سبيل الى وصفه : تنفّسَ الليل الفاجع ذاته . إن رئيسة الدير ، وهي هامة* من الهامات ، تطهّرن وتروّعن . إن النقاء هناك ، مقطّباً كالبحر الوجه . تلك هي أديرة أسبانية القديمة - مغاور للعبادة الرهيبة ، أجاجار عذارى ، مواطنٌ وحشيةٌ ضاربة .

كانت اسبانية الكاثوليكية رومانية اكثر من رومة نفسها . وكان الدير الاسباني هو نموذج الدير الكاثوليكي . هناك ، كان الهواء عابقاً بروائح الشرق . وكان رئيس الاساقفة - « كيسلر آغا » * السام - يوصد بالحديد سراي الارواح هذه التي نذرت نفسها لله ، ويتجسس

* الهامة روح الميت او القتل . وكان الرومان يعتقدون ان ارواح المجرمين واضرابهم تطوف تائهة في الارض لكي تروّع الأحياء . اما العرب فكانت تزعم ان روح القتل الذي لم يدرك بثأره تصبح هامة فتزقو عند قبره بقول اسقوني اسقوني ، فاذا ادرك بثأره طارت .

** تمبير تركي كان يطلق في عهد العثمانيين على رئيس الحصيان السود .

عليها . كانت الراهبة هي محظية السلطان ، وكان الكاهن هو الحصي . كانت النسوة المولعات بالعبادة هنّ النسوة المختارات ، في أحلامهنّ ، وكنّ مدلّياتٍ بالمسيح . ففي الليل ، كان الفنى الجميل العساري ينزل عن الصليب ، ويصيح طرب القليّة المفرط . إن اسواراً عالية لتذود شواغل الحياة الواقعية جميعها عن « السلطنة » الصوفية التي تنظر الى « المصلوب » نظرتها الى « السلطان » . ذلك بأن نظرة واحدة الى الخارج تُعتبر خيانةً من الحياة . لقد حل سجن الدير * الأرضي محل الكيس الجلدي . فما كانوا يقدفون به ، في الشرق ، الى البحر ، كانوا يقدفون به ، في الغرب ، الى الأرض . ففي كلتا الناحيتين كانت بعض النساء يَلْتَمَعْنَ توجّعاً : اللجة لهؤلاء ، والحفرة لأولئك . هنا المتفرقات ، وهناك المومودات . توازي مخيف !

وفي أيامنا هذه ، أمسى من دأب أنصار الماضي ، وقد عجزوا عن انكار هذه الأشياء ، أن يبتسوا لها . لقد صار زياً عندهم ، وهي طريقة ملائمة وغريبة ، أن يكتبوا موحيات التاريخ ، وأن يدحضوا تعليقات الفيلسفة ، وأن يحدفوا جميع الحقائق البغيضة ، وجميع المسائل المظلمة . « موضوعات للهجاء » ، كذلك يقول البارعون . فيردد الحمى : « الهجاء » . فجان جاك * هجاء ؛ وديدرو هجاء ، وفولتير في دفاعه عن « كالا » ، و « لابار » * * * ، و « سيرفين » * * * هجاء . ولست

* في الأصل in pace وهو الاسم الذي يطلق على سجن الدير والقائم تحت الأرض حيث كانت تحبس الآثام حتى الموت . والتعبير لاتيني معناه « في سلام » .
** يقصد جان جاك روسو .

*** La Barre نبل فرنسي (١٧٤٧ - ١٧٦٦) اتهم بتشويه تمثال من قائل بل المصلوب فصدر عليه الحكم بالموت ، فنصل رأسه عن جسده ، ثم أحرق رغم عدم شوعية المحاكمة واستنكار الرأي العام . وقد دافع عنه فولتير وحاول ان يبيد اليه اعتباره ، بعد الموت . ولكن عبثاً . ثم ان « المؤتمر الوطني » أعاد اليه هذا الاعتبار (في ٢٥ برومير ، السنة الثانية للجمهورية) .

**** Sirven رجل بروتستانتي (١٧٠٦ - ١٧٦٤) حكم عليه برلمان تولوز بالموت بتهمة قتل ابنته لكي يحول بينها وبين اعتناق الكاثوليكية . ولكن دفاع فولتير ادى الى اعادة اعتباره بعد خمس سنوات من إعدامه .

أدري من الذي اكتشف أخيراً أن تاسيت * كان هجاء ، وأن نيرون كان ضحية ، وأن علينا من غير شك أن نشفق « على هولوفيرن ** المسكين ذاك . »

بيد أن الحقائق عنيدة ، وليس من اليسير التغلب عليها . فقد رأى مؤلف هذا الكتاب ، بعينه الاثنيتين ، على نحو عشرين ميلاً من بروكسل ، غودجاً من القرون الوسطى ، هو في متناول كل انسان ، في دير فيلار - كوى السجون المظلمة المؤبدة في وسط المرج الذي كان في يوم من الأيام فناء الدير ؛ كما رأى على ضفاف ال « ديل » أربعة محابس حجرية مظلمة ضيقة نصفها تحت الارض ونصفها تحت الماء . تلك كانت سجوناً ديرية *in-paca* *** وفي كل من هذه المحابس بقية من باب حديدي ، ومرحاض ، ونافذة مقضبة بالحديد ، هي من الخارج على ارتفاع قدمين عن سطح النهر ومن الداخل على ارتفاع ستة أقدام عن سطح الارض . ان أربعة أقدام من مياه النهر لتجري في محاذة صفحة الجدار الخارجية . فالتربة المجاورة تظل مبللة أبداً . وهذه التربة المبللة هي الفراش الوحيد الذي تملكه نزيله ذلك السجن الديري . وفي أحد تلك المحابس لا يزال جزء من « نخل » حديدي مسمراً على الجدار . وفي محبس آخر كان في ميسور المرء أن يرى شبه صندوق مربع مصنوع من أربع صفائح من صوان هي أقصر من أن يستلقي فيها كائن بشري ، وأشد انخفاضاً من أن يقف فيها مستقيماً القائمة . هناك في داخل هذا الصندوق كانت توضع مخلوقة بشرية مثلنا ، ثم يوضع فوق رأسها غطاء من حجر . إنه هناك . إن في استطاعتك أن تراه . إن في استطاعتك

* المؤرخ اللاتيني الشهير . وقد سبق التعريف به في الاجزاء الماضية .
** احد قواد لبوخدنبر ، وقد قتلته « يهوديت » بأن دخلت الى خبائه وذبحته وهو قائم متفددة بذلك شبيها اليهودي .
*** راجع الهامش الاول على الصفحة السابقة .

أن تلمسه . هذه السجون الديرية ، هذه المحابس المظلمة ، هذه الرزّات الحديدية ، هذه الأغلال التي تطوّق الاعناق ، هذه الكوى العالية ، القائمة على مستوى مجرى النهر ، هذا الصندوق الحجري المغلق مثل القبر . بغطاء صواني ، مع هذا الفارق وهو انّ الميت هنا كان كائناً حياً ، هذه التربة التي هي وحل ، هذا المرحاض ، هذه الجدران التي ترشح ... أوه ، يا لها من أسنة هجّامة !

٣

بأي شرط نستطيع ان نحترم الماضي

إن الحياة الرهبانية ، كما قد كانت في اسبانية ، وكما تبدو في التيب هي ، بالنسبة الى الحضارة ، ضربٌ من داء اللّ . انها توقف الحياة ، على الفور . إنها بكلمة واحدة ، تُغخلي الديار من سكانها . والتزهب خصاء . وفي اوروبة كان التزهب آفة . أضف إلى هذا ، العنف الذي يُخضع له الضمير في كثير من الاحيان ، والدعوات الاجبارية الى الحياة الرهبانية ، والنظام الاقطاعي المنكمى على الدير ، وحق البكورية * الذي يُفرغ في حياة التزهب فائض الاُمرة ، والفظائع الوحشية التي وصفناها اللحظة ، وسجون الديرية ، والافواه الموصدة ، والأدمغة المسوّرة ، وكثيراً من المواهب التعمسة الملقاة في محابس النذور السرمدية ، وارتداء الثوب الرهباني للمرة الاولى ، ودفن النفوس وهي حية . أضف ضروب التعذيب الفرديّ هذه الى الحراب

* اي حق الولد البكر في امتلاك جميع الميراث دون سائر اخوته .

الذي يصيب الحياة القومية ، وعندئذ تجد نفسك - كائناً من كنت - ترتعد لمشهد ثوب الراهب وحجاب الراهبة ، هذين الكفتين من أكفان الابتداع الانساني .

ومع ذلك ، ففي بعض النقاط وفي بعض المواطن ، على الرغم من الفلسفة ، وعلى الرغم من التقدم ، تستمرّ الروح الرهبانية في وضوح القرن التاسع عشر ؛ وإن انبعثاً زهدياً غريباً يُدهش العالم المتمدن في هذه اللحظة . والحق ان اصرار المؤسسات الهرمة على البقاء الى الابد أشبه شيء بعناد العطر الزنخ الذي يتشبّث بشعرك ، ودعوى السمكة الفاسدة التي تُصرّ على ان تؤكل ، ولجاجة ثوب الطفل الذي يريد أن يكسو الرُّجل ، وحنان الجثث التي تعود لتعانق الأحياء !

إن الثوب ليتهف : « يالكُم من ناكرين للجميل ! لقد صُننكم في عهد ضعفكم فلماذا تتخلون عني الآن ؟ »

وإن السمكة لتقول : « لقد كنتُ ذات يوم في أعماق البحر ! »

وإن العطر ليصيح : « لقد كنتُ وردةً من قبل ! »

وإن الجثة لتتتم : « لقد أحبتك ! »

وإن الدير ليقول : « لقد مدّتك ! »

وليس لهذا كله غير جواب واحد : « في الماضي . »

فلأن نحلّ بتخليد الاشياء الميتة وحكم الجنس البشري بالتعويض ، وأن تُرجع العقائد المتهرئة ، ونذهب صناديق ذخائر القديسين من جديد ، ونخصّس اروقة الاديرة ثانية ، ونبارك صناديق بقايا اجساد القديسين ككرة اخرى ، ونجدّد الحرافات ، ونعيد تغذية التعصب ، ونضع مقابض جديدة لمناضع الماء المقدّس والسيوف ، وننشئ الحياة الرهبانية والروح العسكرية من جديد ، ونؤمن بمجلاص المجتمع البشري من طريق مضاعفة الطفيليات ، ونفرض الماضي على الحاضر - كل اولئك يبدو شيئاً غريباً . ومع ذلك فهناك أنصار لهذه النظريات . ولهؤلاء النظريين ،

وهم رجال فكر في النواحي الاخرى ، طريقة بسيطة جداً : انهم يتخلعون على الماضي طلاءً يدعونه النظام الاجتماعي ، والحق الالهي ، والاخلاق ، والامرة ، واحترام الاسلاف ، والسلطة العربية في القدم ، والتقاليد المقدسة ، والشرعية ، والدين . وهم ينطلقون هاتفين : « انتبهوا ! خذوا هذا ، ايها الناس الطيبون ! » وهذا الضرب من المنطق كان مألوفاً عند القدماء . لقد مارسه عرفاؤهم . كانوا يفركون عجلةً سوداء بالطباشير ، وبصيعون : « إنها بيضاء ! »

Bos cretatus

أما نحن فنوزع احترامنا هنا وهناك ، ولا نتعرض للماضي على الاطلاق شرطاً ان يُقرّ بأنه ميت . أما اذا أصر على الزعم بأنه حيّ فمندئذ نجاهه ونحاول ان نصرعه .

إن الحرافات ، والتطرف في التقوى ، والمرامة في الدين ، والآراء المقبولة من غير تحقيق أشبه بأطياف الموتى . ومع ذلك فهي تثبت بالحياة . إن لها في كيانها الحيالي أسناناً وأظافر ، وبتعين علينا أن نشبك معها في القتال ، جسداً لجسد ، ونشنّ عليها الحرب ، وان تفعل ذلك من غير مهادنة ؛ لأنه قد كُتب على الانسانية أن تصارع الأطياف صراعاً سرمدياً . وليس يسيراً على المرء أن يمك بخناق الظلّ ، ويطرحه أرضاً .

إن ديراً في فرنسة ، في وّصح القرن التاسع عشر ، هو مجمعٌ من اللبوم يواجه النهار . والدير ، متلبساً بجرم التقشف المشهود ، وسط مدينة عام ١٧٨٩ و عام ١٨٣٠ و عام ١٨٤٨ - رومة تتفتّح أكمامها في باريس - لا يمدو ان يكون خطأ في تأريخ الحوادث *anachronisme* . وفي الايام العادية ، ليس على من يريد أن يزيل خطأ من أخطاء التأريخ ويمحوه الا ان يحمله على تهجي السنة المدوّنة على صفحته . ولكننا لسنا في ايام عادية على الاطلاق .

فلنقاتل .

فلنقاتل ، ولكن فلنميز . فشيبة الحقيقة أنها لا تعرف الافراط ابدأ . وما حاجتها الى الغلو ؟ ان نمة اشياء يجب ان 'نهدم' ، واشياء ينبغي أن يُسلط عليها النور وتدرس ليس غير . أيّ قوة هائلة ينطوي عليها الفحص الملائف الجدّي ! فلنجتنب ان نحمل النار حيث يكفي النور وحده .

واذن ، فما دمنا في القرن التاسع عشر فنحن نقاوم الاعتكاف في الأديرة ، بوجه عام ، وعند كل أمة من الامم ، سواء في آسية او في اوروبة ، في الهند او في تركيا . إن من يقول « الدير » فكأنه قال « المستنقع » . إن قابليتها للتعفن واضحة ؛ إن ركودها وبيل ؛ إن تخمرها يصيب الشعوب بالحمى وينتهي بها الى المزال ؛ إن مضاعفتها خليقة بأن تصبح ضربة من ضربات المصريين . وليس في استطاعتنا ان نفكر ، من غير ان نرتعد ، بتلك الدير التي يتكاثر فيها « الفقراء » *fakirs* والكهان البوذيين ، والنساك ، والرهبان اليونانيون ، والمرابطون ، والكهنة البوذيين السياميون ، والدرابيش تكاثراً سريعاً كمثل تكاثر الحشرات والهوام .

حتى اذا قلنا هذا ، بقيت أمامنا المسألة الدينية . وهذه المسألة بعض الجوانب الخفية التي تكاد تكون راعية ، فليُسمح لنا بأن نواجهها على نحو مباشر .

٤

الدير من وجهة النظر المبدئية

يجمع للناس ويهيون حياة مشتركة . بأي حق ؟ بحق المشاركة .

انهم يوصدون الأبواب من دونهم . بأي حق ؟ بحق كل امرئ في أن يفتح بابه أو يغلقة .

انهم لا يخرجون من محبسهم . بأي حق ؟ بحق الذهاب والمجيء الذي ينطوي على حق المرء في البقاء في بيته .

وهناك ، في بيوتهم هذه ، ما الذي يفعلونه ؟

إنهم يتحدثون في صوت خفيض ؛ انهم يسمّرون أعينهم على الارض؛ انهم يتخلون عن العالم ، عن المدن ، عن الملاذ الحسية ، عن المباهج ، عن الاباطيل ، عن الحيلاه ، عن المصلحة الذاتية . انهم يرتدون ألبسة من نسيج صوفي غليظ أو من نسيج قطني خشن . وليس يملك أيّ منهم متاعاً مها يكن . فمن كان منهم غنياً يسي لحظة دخوله الى الدير فقيراً . إنه يحب الجميع ما كان يملكه . ومن كان منهم نبيلاً أو شريفاً أو سيداً اقطاعياً ، كما يدعونه ، لا يلبث أن يتساوى مع من كان فلاحاً . إن القليلة هي هي بالنسبة اليهم جميعاً . انهم كلهم يقصون شعرهم على النمط الاكليريكي نفسه ، ويرتدون الثوب الاكليريكي نفسه ، ويأكلون لحبز الاسود نفسه ، ويفترشون الحشبة نفسها ، ويُدفنون في التربة نفسها . ان المنح نفسه لعلى كل ظهر ، وان الجبل نفسه ليطوّق كل خصر . فاذا كان النظام يقضي بأن يسير جميع الرهبان حفاة ، ساروا كلهم حفاة . وقد يكون بينهم أمير ؛ ولكن هذا الامير ظلّ مثلهم جميعاً . لم يعد ثمة القاب . وحتى أسماء الاسر نفسها قد زالت . فهم لا يحملون غير الاسماء الصغيرة . انهم جميعاً يرزحون تحت مساواة اسمائهم بالمعمودية . لقد أذابوا أسرة الجسد ، وأقاموا في مجتمعهم أسرة الروح . فليس لهم بعدد أقرباء غير الجنس البشري كله . انهم يفيثون للفقراء ، ويُعْتَنون بالمرضى . وانهم يختارون اولئك الذين يتعين عليهم أن يطيعوهم . وينادي بعضهم بعضاً بقولهم : « أيها الاخ . »

وتعترضني قائلاً : « ولكن هذا هو الدير المثالي ! »

حسبي أنه دير يمكن الوجود حتى آخذه بعين الاعتبار .
ومن هنا جاز لي أن أتحدث عن أحد الاديار في الكتاب السابق ،
باحترام . انني اذا تركت القرون الوسطى جانباً ، وتركت آسية جانباً ،
واعتبرت الامر من وجهة النظر الفلسفية الحالية ، وراء ضرورات الجدل
المقاتل ، وشرط أن تكون الاديار ارادية مئة بالمئة فلا تضم جدرانها
غير نساك راغبين في هذا الضرب من الحياة ، فعندئذ لا أستطيع الا
أن أنظر الى الجماعة الرهبانية في شيء من الاهتمام الجدي ، وفي بعض
الاحيان بشيء من الاهتمام الناضح بالاحترام . فحيث توجد الجماعة
الرهبانية فتمه نظام حكم شعبي . وحيث يقوم نظام الحكم الشعبي فتمه
عدالة . ان الدير هو ثمرة هذه الصيغة : « المساواة ، الاخاء » . أوه ، ما
أعظم الحرية ! وباله من نجلٍ مجيد ! ان الحرية كافية لتحويل الدير
الى جمهورية ! .

فلنتابع .

هؤلاء الرجال والنسوة الذين يعيشون ضمن هذه الجدران الأربعة
ويرتدون الملابس الصوفية الحشنة السمراء إنما ينعمون بالمساواة وينادي
بعضهم بعضاً « اها الاخ » ، « وأيتها الاخت » . هذا حسن . ولكن ،
هل يعملون شيئاً آخر ؟

نعم .

ماذا ؟

إنهم مجدقون في الظلمة ؛ إنهم يركعون ؛ إنهم يضمّون يداً الى يداً .
ما معنى ذلك ؟

الصلاة

إنهم يصلّون .

لمن ؟

لله .

الصلاة لله . أيّ شيء تعنيه هذه الكلمة ؟

أوجد لانهاية خارج ذواتنا ؟ وهل هذه اللانهاية مفردة ، فطرية ، سرمدية - وهي ذات ماهية بالضرورة ، لانها لانهاية ، ولأنه اذا كانت المادة تعوزها فعندئذ تكون محدودة ، وهي عاقلة بالضرورة ، لانها لانهاية ، ولأنه اذا اعوزها العقل فعندئذ تكون قاصرة ؟ هل نوقظ هذه اللانهاية في نفوسنا فكرة الجوهر ، في حين أننا عاجزون عن ان ننسب الى انفسنا شيئاً غير فكرة الوجود ؟ وبكلمة اخرى ، أليست هي المطلق الذي لا نعدو نحن أن نكون منه بمثابة النسبي ؟

وفما تقوم لانهاية خارج ذواتنا ، أليس ثمة من لانهاية في ذات نفوسنا ؟ وهاتان اللانهايتان (ايّ مثنى راعب ا) ألا تستقرّ احدهما فوق الاخرى ؟ ألا تقع اللانهاية الثانية تحت اللانهاية الاولى ، اذا جاز التعبير ؟ أليست مرآة الاولى وانعكاسها ، وصداءها : لجة مشتركة المركز مع لجة اخرى ؟ وهذه اللانهاية الثانية ، أهي عاقلة أيضاً ؟ أهي تفكر ! أهي تحبّ ؟ ألها ارادة ؟ واذا كانت اللانهايتان عاقلتين فإن لكل منهما مبدأ مُريدأ ، وإن ثمة « أنا » في اللانهاية العليا ، و « انا » في اللانهاية السفلى . ان الـ « أنا » السفلى هي النفس ، وان الـ « أنا » العليا هي الله .

وإقامتنا الاحتكاك ، من طريق التفكير ، بين اللانهاية السفلى

واللانهاية العليا هي ما يدعى « الصلاة » .
يتبني ان لا نطرح شيئاً من العقل الانساني . فالكتب شر . يجب
ان نصلح ونحوّل . إن بعض ملكات الانسان موجهة نحو المجهول :
التفكير ، التأمل ، الصلاة . والمجهول اوقيانوس . ما الضير ؟ إنه
لبيرة المجهول المغناطيسية . التفكير ، التأمل ، الصلاة - تلك هي اشارات
الأبرة الحفية الكبرى . فلنحترمها . الى اين توجه إشعاعات النفس المهيبة
هذه ؟ نحو الظلمة ؟ يعني نحو النور .
إن عظمة الديمقراطية تتمثل في أنها لا تنكر شيئاً انسانياً ولا
تتبرأ من شيء انساني . فعلى مقربة من حقوق الانسان ، او الى جانبها
على الاقل ، تقوم حقوق الروح .
أن نسحق ضروب التعصب وأن نجد اللانهاية - ذلك هو القانون .
حذار ان تقصُر أنفسنا على السجود تحت شجرة الخليقة ، ونأمل
أفصانها المألئ بالنجوم . إن علينا واجباً : أن نتقف النفس البشرية ، ان
نصر اللغز على المعجبة ، أن نهم بما لا يُدَوِّك وننبذ ما لا يتفق
مع العقل ، أن لا نسلّم بشيء لا تعليل له إلا ضمن دائرة الضرووة ،
ان نطهر الايمان ، ان نغمو الحرافة عن وجه الدين ، وأن نزيل
الديدان عن جسم الرب !

٦

خيرية الصلاة المطلقة

أما طرائق الصلاة فكلها صالحة ، شرط ان تكون مخلصه . اقلب
كتابك ظهراً لبطن وكن في اللانهاية .
نحن نعلم ان ثمة فلسفة تُنكر اللانهاية . ولكن ثمة ايضاً فلسفة

اخرى مصنفةً مَرَضِيّاً ، تُنكر وجود الشمس . هذه الفلسفة تدعى
العمى .

ولأن نجعل من حاسة لا نملكها مصدراً للحقيقة ضرباً من الجسارة
الرائعة ينكشف عنه الرجل المكفوف .

والغريب في الامر هو الموقف المترفع ، الراشح بالشفقة ، الشاعر
بالامتياز ، الذي تفقه هذه الفلسفة - التي تتلمس طريقها تلمساً - من الفلسفة
التي ترى الله . انها تحمل المرء على ان يفكر بجُلْدٍ يصيح : « كم
يشيرون شفتي بجديهم عن الشمس ! »

نحن نعرف ان ثمة ملحدين مشاهير واقوياء . ولكن هؤلاء الرجال
ليسوا في الواقع ، وقد أُعيدوا الى الحقيقة بقوتهم نفسها ، واثقين كل
الثقة من انهم ملحدون . ان المسألة ، في ما يتصل بهم ، لا تعدو
ان تكون مسألة حدٍّ او تعزيف . وعلى اية حال ، فاذا كانوا لا
يؤمنون بالله فأنهم - لكونهم عقولاً ضخمة - ينهضون دليلاً على
وجود الله .

إننا نحسي ، فيهم ، الفلاسفة ، فيما نحن نخاصم فلسفتهم في غير ما
هوادة .

فلنتابع .

وشيء آخر رائع ، هو سهولة تسوية كل شيء - وفقاً لارتياح المرء -
من طريق الكلمات . والواقع ان مدرسة ميتافيزيكية شمالية 'مشرية'
بعض الشيء بالضباب ، تخيلت انها احدثت ثورة في الادراك البشري
عندما استعاضت عن كلمة « قوة » بكلمة « ارادة » .

ان قولك « النبات يريد » بدلاً من « النبات ينمو » خليق به أن
يكون خصباً بالمعنى اذا اضفت : « الكون يريد . » لماذا ؟ لأن
هذا سوف ينبثق منه : النبات يريد ، اذن فأن له « أنا » ؛ الكون
يريد ، اذن فأن له الـهأ .

أما نحن ، الذين لا نرفض على نفيض هذه المدرسة ، شيئاً ابتداءً *a priori* فإن التسليم بأن للنبات ارادة ، وهو ما تؤمن به هذه المدرسة ، يبدو أخطر من التسليم بأن للكون ارادة ، وهو ما تجرده هذه المدرسة .

ان انكار ارادة اللانهاية ، يعني الله ، لا يمكن ان يتم الا بشرط انكار اللانهاية نفسها . لقد اقمنا البرهان على ذلك .

وانكار اللانهاية يقود الى العدمية . ان كل شيء يصبح « مفهوماً من مفاهيم العقل » .

ومع العدمية يتعذر النقاش . لأن العدمي المنطقي يشك في ان 'محاورة موجود ، وليس واثقاً كل الثقة من أنه هو نفسه موجود .

ومن وجهة نظره ، من الجائز ان لا يكون هو نفسه ، في نظر نفسه ، غير « مفهوم من مفاهيم عقله » .

بيد انه لا يدرك البتة أنه يعترف جملةً بكل ما انكره بمجرد تلفظه بهذه الكلمة : العقل .

والخلاصة ، فإنه ما من سبيل تظل مفتوحة للعقل حين يأخذ المرء بفلسفة تجعل كل شيء ينتهي الى نتيجة واحدة ، هي مقطع « لا ، المفرد » .

وليس لـ « لا » غير جواب واحد هو : « نعم » .

ليس للعدمية مدى .

وليس ثمة عدم . فالصفر لا وجود له . وكل شيء هو شيء . لا

شيء هو لا شيء .

والانسان مجيماً بالاثبات اكثر بما يجيماً بالجيز .

بيد أن النظر ولقت النظر لا يكفيان . فالفلسفة يجب ان تكون

طاقة . يجب أن يكون جهدها وغايتها السمو بالجنس البشري . ينبغي

ان يدخل سقراط في آدم وينتهي ماركوس اوريلوس * . وبكلمة اخرى ، أن يُطلع من إنسان المتعة انسان الحكمة ، وأن يجوز جنة هذين الى كلية . إن العلم ينبغي ان يكون ودياً . المتعة اياها من غاية بائسة ، وياها من مطبخ مهزول ان البهيمة تنعم بالمتعة . التفكير ، ذلك هو انتصار النفس الحقيقي . فتقديم التفكير الى ظمأ الناس ، وإعطاء الجميع فكرة الله بوصفها أكسيراً ، والمؤاخاة عندم ما بين الضمير والعلم ، وجعلهم أناساً مستقيمين بهذا الجمع العجيب - تلك هي مهمة الفلسفة الحقيقية . ان الاخلاق هي الحقيقة مفتحة الأكام . وان التأمل يقود الى العمل . والمطلق ينبغي ان يكون عملياً . والمثل الأعلى ينبغي ان يُجْعَل هواء وطعاماً وشراباً للعقل الانساني . والمثل الاعلى له وحده الحق في ان يقول : تناولوا ، هذا هو لحمي ، وهذا هو دمي . والحكمة تناول مقدس . وانما على هذا الشرط تكف عن ان تكون جاً عقياً للعلم لكي تصبح الوسيلة الوحيدة والعليا لجمع شمل الانسانية ؛ لقد ارتقت من مستوى الفلسفة الى مستوى الدين .

والفلسفة ينبغي ان لا تكون مجرد برج مراقبة ، منشأ على الالغاز ، ابتغاء التحديق اليها منه ، في دعة ، من غير ما نتيجة سوى ارواء الفضول .

أما نحن فترجيء بسط افكارنا الى مناسبة اخرى مكتفين بالقول اننا لا نفهم ، لا الانسان كنقطة ابتداء ، ولا التقدم بوصفه هدفاً ، من غير هاتين القوتين اللتين هما المحرمان : الايمان والحب .

التقدم هو المدف ، والمثل الاعلى هو الصورة الأصلية .

وما المثل الأعلى ؟ انه الله .

* امبراطور روماني (١٢١ - ١٨١ ب . م) وقد اقر النظام في الامبراطورية ، وحدث حالة العبيد الارقاء ، وادى خدمة جليلة الى القانون المدني . واشتهر هذا الامبراطور بالحكمة والاعتدال وحب الفلسفة والأدب .

المثل الأعلى ، المطلق ، الكمال ، اللانهاية - كل هذه لا تعدو ان تكون مترادفات .

٧

احتياطات يجب ان تُتخذ في اللوم

ان على التاريخ والفلسفة واجبات سرمدية هي ، في الوقت نفسه ، واجبات بسيطة : أن يقاوما « كفافاً » * أسقفاً ، ودراكون ** قاضياً ، وترغاليون متشرعاً ، وتيباريوس *** امبراطوراً . وهذا واضح ، مباشرٌ ، صافٍ ، لا ليس فيه ولا فحوض . ولكن الحق في العيش المعتزل ، برغم أضراره ومساوئه ، يجب ان يُثبَّتَ ويُدْرَسَ في عناية . فالرهبانية مشكلة انسانية .

اننا حين نتحدث عن الأديرة ، تلك المواطن الغارقة في الخطأ ولكن على براءة ، وفي الضلال ولكن على حُسن نية ، وفي الجهل ولكن على تفانٍ ، وفي العذاب ولكن على استشهاد - إننا حين نتحدث عن هذه الاديرة ينبغي ان نقول ، دائماً تقريباً ، « نعم » و « لا » .
الديرُ تناقضٌ - فغايتة الخلاص ، ووسيلته التضحية . الدير هو اعلى مراتب الانانية مؤديةً الى اسمى مراتب إنكار الذات .
تحلُّ عن العرش لكي تتولى مقاليد الحكم - ذلك في ما يبدو هو

* Caïphe الكاهن اليهودي الذي حكم على يسوع ، واضطهد الرسل .
** Dracon احد الاراخنة والشرعين الاثينيين ، وكالت أحكامه قاسية الى درجة أنها كُتبت ، في ما زعموا ، بالدم . (اواخر القرن السابع قبل الميلاد .)
*** Tibère تيباريوس الاول ، ثاني الاباطرة الرومان (٤٢ ق . م - ٣٧ م) وكان رجلاً قديراً ولكنه شديد الفسوة كثير الشكوك .

شعار الحياة الرهبانية .

في الدير ، يتألم المرء لكي يبتهج . إنه يحسب حوالةً على الموت .
إنه يحسبُ النور السماوي في الليل الارضي . في الدير ، تُرتضى جهنم
بوصفها ثمناً يُدفع مقدماً ابتغاء الفوز بيرات السماء الموعود .
ان اصطناع الحجاب او الثوب الرهباني انتعازٌ نعوّض اللانهاية من
يُقدم عليه .

والذي يبدو لنا أن السخرية ينبغي أن تُطرح حين يُعالج موضوعٌ
مثل هذا . ان كل ما يتصل به جديّ ، طيّبهُ وخبيثه على حدّ
سواء .

ان الرجل الصالح يزوي ما بين عينيه ، ولكنه لا يتسم ابداً
ابتسامه شريرة . نحن نستطيع ان نفهم الغضب ، ولكننا لانستطيع
أن نفهم اللؤم .

٨

الايمان — القانون

بقيتْ بضع كلمات اخرى .

نحن نلوم الكنيسة حين تكون مشبعةً بالكائد . نحن نؤدري
الروحيّ حين يقسو على الزمني . ولكننا نعظم ، في كل مكان ،
الرجل المستغرق في التأمل .

نحن نتعني احتراماً للرجل الراكع .

الايمان ضرورة انسانية ، والويل لمن لا يؤمن بشيء .

والمرء لا يكون عاطلاً عن العمل لأنه مستغرق في التفكير . ان
ة جهداً منظوراً ، وجهداً غير منظور .

والتأمل جهد . والتفكير عمل .
ان الاذرع المتصالبة تشتغل ، وان الايدي المطبقة تعمل . وان
التحديد الى السماء كدح .
لقد سلخ طاليس أربع سنوات جامداً لا يتحرك . لقد انشأ
فلسفة .

وعندنا أن الرهبان ليسوا متبطلين ، وأن الحبساء ليسوا كسالى .
ان التفكير في « الظلمة » لهو شيء جدي .

ومن غير ان ننقض البتة ما قلناه اللحظة ، نعتقد أن تذكر القبر
على نحو موصول مناسب للاحياء . وفي هذه النقطة يتفق الكاهن
والفيلسوف : ينبغي ان نموت . ان الأب « لا تراب » ، يجب
« هوراس » .

ان مزج المرء حياته بشيء من مثول القبر هو شريعة الرجل
الحكيم ، وشريعة الناسك . فمن هذه الجهة يجنح الناسك والحكيم نحو
مركز مشترك .

ان قمة تقدماً مادياً ؛ نحن نرغب في ذلك . وان قمة ، ايضاً ،
عظمة اخلاقية ؛ ونحن نقشبث بذلك .
إن العقول الطائشة الرعناء تقول :

- « اي فائدة لهذه الوجوه الجامدة حينئذ سر الكون ؟ اي
خدمة تؤدي ؟ اي شيء عمله ؟ »

وأسفاه ! في حضرة تلك الظلمة التي تكتنفنا وتتربص بنا ، غير
عالمين ما الذي سيفعله بنا تبدد الاشياء جميعاً ، نجيب : « جائز ان
لا يكون قمة عمل اسمى من ذلك الذي تقوم به هذه النفوس » .
ونضيف : « وجائز ان لا يكون قمة جهد اكثر نفعاً . »

إن اولئك الذين يصلون دائماً ضروريون لاولئك الذين لا يصلون
ابداً .

وعندنا ان قوام المسألة كلها رهنٌ بمقدار التفكير الذي يمتزج
بالصلاة .

إن « لاينبتر » ، مصلياً ، لشيءٍ عظيم . وإن فولتير ، عابداً ،
لشيءٍ جميل . * *Deo erexit Voltaire* .

نحن للدين ضدّ الأديان .

نحن من اولئك الذين يؤمنون بحقارة الادعية والصلوات ، وبسوء
الصلاة .

والى هذا ، ففي هذه اللحظة التي نجتازها ، وهي لحظة لن تطبع
القرن التاسع عشر ، لحسن الحظ ، بطابعها ، وفي هذه الساعة الحافلة
بكثير من الناس المنخفضة جباههم انخفاضاً كبيراً والمرتفعة نفوسهم
ارتفاعاً يسيراً والمستغرقين بأشياء المادة المختصرة المشوّهة ، يبدو جميع
الذين نقوا انفسهم بأنفسهم موقرين في نظرنا . إن الدير تخلّص .
والتضحية بالنفس حتى حين يُساء توجيهها ، تظلّ هي التضحية بالنفس .
ولأن يجعل المرء من خطأ قاسٍ واجباً مفروضاً عليه - هذا الصنيع
له عظمتة الخاصة .

ولو قد نظرنا الى المسألة في ذاتها ، وعرضناها على محكّ الحقيقة حتى
نقتلها من نواحيها جميعاً بجناً مجرداً تزيمياً اذن لوجدنا ان للدير ، ولدير
النساء بخاصة - لأن المرأة في مجتمعنا هي التي تتحمل القسط الاعظم من
الآلام ، وفي منفى الدير هذا عنصر احتجاج - بعض الجلال من
غير شك .

هذا الوجود الرهباني الكالح المظلم الذي رسمنا بعض ملامحه ليس هو
الحياة ، لانه ليس الحرية ، وليس هو القبر لأنه ليس الكمال . إنه
ذلك الموطن الفريد الذي نلمح من احدى ناحيته وكأننا على قمة جبل
عالٍ ، الهوة التي نحن فيها ، ونلمح من الاخرى الهوة التي سوف

* في اللاتينية ، وتعني : « الرب حرك فولتير الى الثورة » .

نصير اليها . انه تخم ضيق كثير الضباب يفصل ما بين
 عالمين يضيئه كلاهما ويظلمانه في آنٍ معاً ، حيث يتوزج شعاع الحياة
 الواهن بشعاع الموت المبهم . إنه غسق القبر .
 أما نحن الذين لا نؤمن بما تؤمن به هاته النساء ولكن نعيش ،
 مثلهن ، بالايان فلا نستطيع ان ننظر ، من غير ضرب من الذعر
 الرفيق الورع ، ومن غير ضرب من للشفقة المفعمة بالحد ، الى هاته
 الكائنات المتفانيات ، الراجفات ولكن الواثقات من انفسهن - تلك
 النفوس المتضعة ولكن الجليية ، التي تجرؤ على العيش على تخم اللغز
 الاعظم نفسه ، منتظرات بين العالم الموحد دونهن والسما التي لما
 'تفتح لمن' ، متلفئات نحو الضياء الذي لا يربنه وليس لمن من العادة
 غير التفكير في أنهم يعرفن ابن هو ، وقد ووجهت آمالهن نحو الهاوية
 ونحو المجهول ، ومتمرت أعينهن على الظلمة الجامدة ، راكمات ،
 مذعورات ، ذاهلات ، مرتعدات ، نصف مرفوعات في بعض الاحيان
 بنضات الأبدية العميقة .

الكتاب الثامن

المقابر تأخذ ما يقدم إليها

١

وهو يعالج طريقة الدخول الى الدير

الى هذا البيت بالذات كان جان فالجان قد « هبط من السماء » ، كما قال فوشلوفان .

كان قد اجتاز جدار الحديقة عند زاوية شارع بولنسو . وكانت تلك الترنيمية الملائكية التي سمعها في جوف الليل هي صلاة السَّحَرِ تؤدبها الراهبات ؛ وكانت تلك القاعة التي لمحا في الظلام هي الكنيسة ، وكان ذلك الطيف الذي رآه ممدداً على الارض هو الراهبة المستغفرة ، وكان ذلك الجلبجل الذي أدهشه صوته على نحو غريب جداً هو جلبجل البستاني

المشهود الى ركبة الأب فوشلوفان .

وحين وُضعت كوزيت في الفراش ، كان جان فالجان وفوشلوفان قد احتسبا ، كما رأينا ، زجاجة من خمر وأكلا قطعة من جبن أمام نار ملتبهة . وإذ كانت كوزيت قد شغلت الفراش الأوحده في الكوخ ، فقد انطرح كل منها على حزمة من قش . وقبل ان يغمض جان فالجان عينيه كان قد قال : « يجب ان أبقى منذ اليوم ، ههنا . » وكانت بعض هذه الكلمات تطارد بعضها الآخر ، في رأس فوشلوفان ، طوال الليل .

وفي الحق ، ان أياً منها لم يكن قد استسلم للرقاد .

فأما جان فالجان ، فقد عَلمَ عَلمَ اليقين - وقد استشعر ان أمره قد اقتضح ، وان جافير بطارده - أنه هالك هو وكوزيت اذا ما رجعا الى المدينة . ومنذ ان قذفت به تلك الريح الجديدة التي هبت عليه ، الى هذا الدير لم يَطُفْ في ذهن جان فالجان غير خاطر واحد : أن يبقى هناك . والواقع ان هذا الدير كان ، لرجلٍ في مثل وضعه الشقي ، آمنَ مكانٍ وأخطر مكانٍ في وقت معاً . كان اخطر مكانٍ لأنه محظورٌ على الرجال دخوله . فاذا ما اكتشف جان فالجان فيه يُقبض عليه بالجرم المشهود وعندئذ لا يكون عليه إلا ان يخطو خطوةً واحدة من الدير الى الجحيم . وكان آمنَ مكانٍ ، لأنه اذا وُفق الى الفوز بأذن يجيز له البقاء هناك ، فمن ذا الذي سوف يُقبل الى ذلك المكان بحثاً عنه ؟ إن العيش في موطنٍ يمتنع على الناس هو السلامة عينها . وأما فوشلوفان فكان يقدح زناد الفكر . لقد بدأ بأن قرر أنه لا يفهم شيئاً من الأمر . كيف تأتسى لمسيو مادلين ان يفدَ الى هناك برغم هذه الجدران كلها ؟ إن جدران الدير ليس من اليسير تجاوزها . وكيف اتفق أن كان يصطحب طفلة ؟ إن المرء لا يتسلق جداراً شديد الانحدار وبين يديه طفلة . من هذه الطفلة ؟ من أين أقبلت كلاهما ؟

فمنذ ان دخل فوشلوفان الدير ، لم يسمع ايما حديث عن مونتيوري سور مير ، ولم يعرف شيئاً بما كان قد حدث . وكانت تغلب على مجا الأب مادلين سبياً لا تشجع على طرح الاسئلة ؛ وفوق هذا ، فقد قال فوشلوفان مخاطباً نفسه : « إن المرء لا يستجوب قدسياً . » وكان مسيو مادلين قد احتفظ ، عنده ، باعتباره كله . غير ان البستاني اعتقد ان في ميسوره ان يستنتج ، من بعض الكلمات التي نددت من جات فالجان ، ان من الجائز ان تكون الازمة قد انتهت بمسيو مادلين الى الافلاس ، وان يكون دائنوه يلاحقونه ، او ان يكون قد تورط في قضية سياسية فهو يلتبس مفزعاً محتبياً فيه ؛ وهو ما لم 'يجزن فوشلوفان ، البتة ، الذي كان مثل كثير من فلاحينا الشماليين ذا قلب بونابرتي عريق . واذ كان مسيو مادلين يبتغي الاختباء فقد اتخذ من الدير مفزعاً له ، وكان من الطبيعي ان يرغب في البقاء هناك . ولكن الشيء الذي لم يجد له تفسيراً ، والذي كان فوشلوفان يعاود النظر فيه ويحطّم في حله رأسه هو ان يكون مسيو مادلين هنا ، وان تكون هذه الفتاة الصغيرة معه . لقد رأهما فوشلوفان ؛ لقد لمسها ؛ لقد تحدث اليها ؛ ومع ذلك فإنه لم يصدق هذا . كان لغز من الالغاز قد اتخذ سبيله الى كوخ فوشلوفان . وكان فوشلوفان يجبط في غمرة من الظنون والأحداس ، ولكنه لم يَرَ على نحو واضح غير هذا : لقد أنقذ مسيو مادلين حياتي . ولقد كانت هذه الواقعة اليقينية الوحيدة كافيةً ، فاذا هي تمسك على ان يجزم أمره . وقال في ذات نفسه : « لقد جاء دوري الآن . » واطاف في وجدانه : « إن مسيو مادلين لم يفكر طويلاً الى هذا الحد عندما كان الموقف يقتضيه ان يُقعم نفسه تحت العربة لكي يسعيني من هناك . » ووطن العزم على ان ينقذ مسيو مادلين .

ومع ذلك ، فقد طرح على نفسه عدة اسئلة وأجاب عنها عدة أجوبة : « بعد الذي أسداه اليّ من معروف ، أبتعن عليّ ان أنقذه

ولو كان لصاً من الصوص ؟ - « سيان . » - « واذا كانت
سفاكاً ، فهل ينبغي لي أن انقذه ؟ - « سيان . » - « وبما أنه
قديس ، فهل سأنقذه ؟ - « سيان . »

ولكنّ ابقائه في الدير هو المشكل الأكبر ! ولم ينكص فوشلوفان
أمام هذه المحاولة التي توسك ان تكون وهمية . الواقع ان هذا الفلاح
البيكاردي المسكين ، الذي لم يكن لديه سلّم غير تفانيه واستعداده
للعمل الصالح وقليل من الذكاء الريفيّ القديم الموضوع هذه المرة في
خدمة غرض كريم ، أقدم على تسلق مستحيلات الدير ، ومنحدرات
نظام للقدّيس بينوا الوعة . فقد كان فوشلوفان رجلاً عجوزاً سلخ حياته
كلها أنانياً ، حتى اذا بلغ أرذل العمر ، أعرج عاجزاً ، ولم يعد له
من أرب في الحياة وجد متعة في أن يكون معترفاً بالجيل . واذا لم
تحمّدة تغريه بالنهوض بها اندفع نحوها ، مثل رجل يري في متناوله
على عتبة الموت ، كأساً من خمر جيدة لم يذق مثلها قط من قبل ،
فهو يكرعها في نهم . وفي استطاعتنا ان نضيف ان الهراء الذي تنشقه
طوال سنوات عدة في هذا الدير كان قد حطّم شخصيته ، وقدم اليه
آخر الامر ، عملاً صالحاً ضرورياً له .

وصاغ قراره : أن يتذرّ نفسه لانقاذ مسيو مادلين .

لقد وصفناه العظة بقولنا انه فلاح بيكارديّ مسكين . ان هذا
الوصف صحيح ، ولكنه ناقص . وفي هذه المرحلة التي انتهينا اليها من
القصة أمسى من الخير أن نتعرّف الى فوشلوفان تعرّفاً أوثق . كانت
فلاحاً ، ولكنه كان قبل ذلك كاتباً عادلاً ، وهو ما اضاف الى ذكائه
حذاقةً ، والى سذاجته أليّة . حتى اذا اخفق في اعماله لأسباب مختلفة ،
هبط من كاتب عدل الى سائق عربية وعامل . ولكنه كان قد احتفظ ،
برغم اللشائم وضربات السياط الضرورية للخيل في ما يبدو ، بشيء من
شبهة الكاتب العدل في نفسه . كان لا يخطيء في تصريف الافعال ،

وكان 'يحسن الحديث ، وهو شيء نادر في القرية . وكان الفلاحون الآخرون يقولون : انه يتحدث مثل رجل ذي قبعة ، تقريباً . والواقع ان فوشلوفان كان من ذلك الضرب الذي دعته معجبية القرن الماضي الحفيفة الماجنة « نصف بورجوازي ، نصف وبيتي » ، والذي ألقف عليه الاستعارات المأبطة من القصر الى الكوخ ، في خزائن دناءة النسب ، هذه البطاقات : « نصف فظّ ، نصف متحدثن - فلفل وملح » . وكان فوشلوفان ، برغم ان القدر ابتلاه كثيراً ، وأبلاه كثيراً حتى أمسى اشبه بنفس هرمة بائسة تهرأت خيوط نسيجها ، كان رجلاً سريعاً الى الانفعال ، ذا قلب مطاوع ، وهي خصلة ثينة تحول بين المرء وبين ان يكون شريراً في يوم من الايام . وكانت عيوبه ونواحي ضعفه ، اذ كان له نصيبه منها ، سطحية غير ذات خطر . واخيراً ، فقد كانت طلعمه من ذلك الضرب الذي يلفت انتباه المراقب . فلم يكن في ذلك الوجه المعجوز ابيّ من تلك التجاعيد البشعة ، التي تكون في أعلى الجبين والتي تتمّ عن الحُبث أو البله .

وعند انبلاج الفجر ، وبعد ان رأى في المنام أحلاماً هائلة ، فتح فوشلوفان عينيه ، فأبصر مسيو مادلين جالساً على كومة قشّ ، رانياً الى كوزيت المستسلمة للرقاد . ونهض فوشلوفان نصف نهضة ، وقال :
- « والآن وقد أصبحت هنا ، ما السبيل التي تعتمزم انتهاجها للدخول ؟ »

لقد لحّص هذا السؤال الموقف كله ، وأيقظ جان فالجان من تفكيره الخالم .

وتشاور الرجلان . فقال فوشلوفان :

- « قبل كل شيء ، انك لن تضع قدماً خارج هذه العرقة . لا أنت ولا الطفلة الصغيرة . ان خطوة واحدة في الحديقة تعني هلاكنا . »
- « هذا صحيح . »

واستأنف فوشلوفان حديثه :

- « مسيو مادلين ، لقد وصلت في وقت جيد جداً ، أعني في وقت سيء جداً . ان احدى هاته الراهبات مريضة على نحو خطر . من أجل ذلك تجد أنهم لا ينظرون كثيراً الى ناحتنا . لا شك في انها تختصر . أنهم يتلون صلوات الاربعين ساعة . والجماعة كلها في قلق وارتباك . ان ذلك يتأثر باهتمامهم . فالمرأة الموشكة على الرحيل هي قديسة . والواقع ، أننا جميعاً قديسون هنا . كل ما بينهن وبينني من فرق هو أنهم يقلن : « قليتنا » ، في حين اقول أنا : « كوخني » . أنهم يعترضن اداء صلاة الاحتضار ، ثم صلاة الموت . اننا سوف نكون آمنين اليوم ، في هذا المكان . ولكنني لست ادري ما الذي سيحصله الينا الغد . »

فلاحظ جان فالجان :

- « ومع ذلك ، فهذا الكوخ قائم تحت زاوية الجدار . انه محجوب بضرب من البناء الحربي . ان ثمة اشجاراً . إنهم لا يستطيعون ان يريئنه من الدير . »

- « وانا اضيف ان الراهبات لا يقربن منه البتة . »

فقال جان فالجان :

- « حسناً ؟ »

وكانت علامة الاستفهام التي تبعته تلك الكلمة تعني : يبدو لي ان في استطاعتنا ان نظل محبسين هنا . وكان جواب فوشلوفان عن علامة الاستفهام هذه ان قال :

- « هناك الفتيات الصغيرات . »

فسأله جان فالجان :

- « أية فتيات صغيرات ؟ »

ولم يكف فوشلوفان يفتح فمه ليشرح الكلمات التي نطق بها منذ لحظة

حتى نسمع الناقوس يقرع قرعة واحدة .
وقال :

« لقد ماتت الراهبة . هوذا الناقوس ينعاهما . »
وأشار الى جان فالجان بأن يصفي .
وقرع الناقوس مرة ثانية .

« انه النعي » ، يا مسيو مادلين . ان الناقوس سوف يقرع مرة
كل دقيقة ، طوال اربع وعشرين ساعة ، حتى يفادو الجثمان الكنيسة .
وفي العطل ، لا تكاد الكرة تجري الى هنا حتى يندفعن برغم الأنظمة
ويبعثن عنها مبعثوات كل ثمي . إن هاته الملائكة الفاتنات شياطين
حقاً . »
فتساءل جان فالجان :

« مَنْ ؟ »

« الفتيات الصغيرات . سوف يُكتشفُ أمرُك في وقت قريب .
انهن سوف يصعن : « ماذا ؟ رجلٌ ؟ » ولكن ليس ثمة خطرٌ ،
اليوم . لن تُعطي الفتيات عطلة . سوف يُخصَّصُ النهار كله للصلاة .
أنت تسمع الناقوس . دقة واحدة كل دقيقة ، كما قلت لك . انه النعي . »
« لقد فهمتُ ، ايها الاب فوشلوفان . هناك طالباتٌ داخلات . »
وفكَّر جان فالجان في ما بينه وبين نفسه :

« هنا ، اذن ، تستطيع كوزيت ان تتلقى العلم ايضاً . »
وهتف فوشلوفان :

« وحقّ الآلهة ! لو رأيتك الفتيات الصغيرات ! اي صبيحة
سوف يطلقن حين تقع أعينهن عليك ! وبأية سرعة سوف يولين فراراً .
فلأن يكون المرء ، هنا ، رجلاً ، اشبهُ شيء بالطاعون . ألا ترى
كيف شدّدن الى رجلي جلجلاً وكأنني وحش ضارٍ ؟ »
وفكَّر جان فالجان أعمق فأعمق . وتمم :

- « الدير سوف ينقذنا . »

ثم رفع صوته :

- « نعم ، الصعوبة هي في البقاء . »

فقال فوشلوفان :

- « لا . انها في الخروج . »

وأحس جان فالجان بالدم يجري بارداً في عروقه .

- « في الخروج ؟ »

- « أجل يا ميسو مادلين ، لكي تدخل ينبغي ان تخرج . »

وبعد ان انتظر احدى قرعات الناقوس حتى تتلاشى ، استأنف

فوشلوفان حديثه :

- « ليس من الخير ان يجذتك هنا على هذا الشكل . من أين

أقبلت ؟ اما انا فأعتقد انك سقطت من السماء ، لأنني أعرفك . وأما

الراهبات فسوف يعتقدن أنك دخلت من الباب . »

وفجأة سمعا قرعاً معقداً منبعهاً من ناقوس آخر .

فقال فوشلوفان :

- « اوه ! هذا الناقوس يدعو الأمهات الصوتيات . انهن يذهبن

الى مجلس الراهبات . ذلك انهن يعقدن مجلساً كلما مات شخصٌ ما . انها

لم تمت مع الفجر . والناس انما يموتون عادة ، مع الفجر . ولكن ألا

تستطيع ان تخرج من حيث دخلت ؟ دعنا نرى . انا لا استجوبك ،

ولكن من أين دخلت ؟ »

وشعب وجه جان فالجان . كان في مجرد التفكير بالهبوط من جديد

الى ذلك الشارع الرهيب ما اوقع الرعدة في اوصاله . أخرج من غابة

ملاى بالأغار ، ثم تحيّل ، بعد ان نجوت بنفسك ، ان صديقاً لك

ينصحك بالعودة ! وتحيّل جان فالجان ان رجال البوليس كلهم لا يزالون

يجوبون الشوارع ، وأن الشرطة تتربص به ، وان العسس في كل مكان ،

وَأَنْ كَفَبَضَاتٍ رَهِيبةً تَمْتَدُّ لِلأَخْذِ بِجَنْحَاهُ . وَلَعَلَّ جَافِيْرَ أَنْ يَكُوْنَ فِي زَاوِيَةِ
المُفْرَقِ . »

فَقَالَ :

« مُسْتَحْيِلٌ . إِفْتَرَضْتُ أَنْي هَبَطْتُ مِنَ السَّمَاءِ . »
فَأَجَابَهُ فَوْشَلُوفَانُ :

« آه ! أَنَا أَصْدَقُ ذَلِكَ ، أَنَا أَصْدَقُ ذَلِكَ . لَا دَاعِيَّ إِلَى أَنْ
تُخْبِرَنِي . لَا بَدَّ أَنْ اللهُ قَدْ أَخَذَ بِيَدِكَ ، لَكِي يَرِي إِلَيْكَ عَنْ كُتْبٍ ،
ثُمَّ أَفْلَتَكَ . كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَضْعَكَ فِي دَيْرٍ لِلرِّجَالِ .
لَقَدْ أَخْطَأَ . اسْمِعْ ، النَّاقُوسُ يُقْرَعُ مَرَّةً أُخْرَى . هَذَا تَنْبِيْهُ لِلبُؤَابِ
لَكِي يَنْهَبُ إِلَى الْبَلَدِيَّةِ وَيُحِيْطُ رِجَالَهَا عِلْمًا بِالْحَادِثِ ، لَكِي يَنْهَبُوا وَيُعَلِّمُوا
طَبِيْبِ الْأَمْوَاتِ فِيجِيءُ وَيَتَحَقَّقُ مِنْ أَنْ ثَمَّةَ امْرَأَةٍ مَيِّتَةٍ ، وَهَذِهِ كُلُّهَا
طَقُوسٌ خَاصَةٌ بِالْوَفَاةِ ، وَهَؤُلَاءِ السِّدَاتُ الطَّيِّبَاتُ لَا يَرْحَبْنَ بِهَذِهِ الزِّيَارَةِ
كَثِيْرًا ، فَالْأَطْبَاءُ لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ . أَنَّهُمْ يَرْفَعُونَ الْحِجَابَ ، بَلْ أَنَّهُمْ
يَرْفَعُونَ شَيْئًا أُخْرَى ، فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ . وَلَكِنْ مَا أَمْرَعُ مَا أَعْلَسُ
الطَّيِّبِ ، هَذِهِ الْمَرَّةُ ! فَمَا الْقِصَّةُ ، يَا تَرِي ؟ أَنْ صَغِيْرَتِكَ لَا تَزَالُ نَائِمَةً .
مَا اسْمُهَا ؟ »

« كَوْزِيْتٌ . »

« أَيْ بِنْتِكَ ، يَعْنِي أَنَّكَ جَدُّهَا ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

« نَعَمْ . »

« أَنْ الْخُرُوجَ مِنْ هُنَا سَهْلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا . أَنْ عِنْدِي بَابًا خَاصًّا يَ
يَنْفَتَحُ عَلَى الْفَتَاةِ . سَوْفَ أَقْرَعُهُ . فَيَفْتَحُ الْبُؤَابَ . وَلَسَوْفَ أَهْمَلُ سَلْتِي
عَلَى ظَهْرِي ، وَفِي جَوْفِهَا الْفَتَاةُ الصَّغِيْرَةُ . وَلَسَوْفَ أَخْرَجُ . الْإِبَّ فَوْشَلُوفَانُ
يُخْرَجُ حَامِلًا سَلْتَهُ ، هَذَا كُلُّهُ هَيِّنٌ . وَلَسَوْفَ تَطْلُبُ أَنْتِ إِلَى الْفَتَاةِ الصَّغِيْرَةِ
أَنْ تَلْتَزِمَ السَّكِيْنَةَ . وَلَسَوْفَ تَكُوْنُ مَحْبُوبَةً بِغَطَاءٍ . وَلَسَوْفَ أَتْرَكُهَا
بِأَمْرَعٍ مَا اسْتَطِيْعَ ، عِنْدَ صَدِيْقَةٍ لِي طَبِيْبَةٍ عَجُوزٍ ، بَالِغَةٌ مُخْضِرَةٌ وَفَاكِهِةٌ ،

في شارع و الطريق الاخضر ، . وهذه الصديقة صماء ، وعندها سرير صغير . وسوف اصرخ في اذن بائمة الحضر والفاكهة أنها ابنة اخي لي ، وأسألها ان تحافظ عليها حتى يوم غد . ثم ان الفتاة الصغيرة سوف ترجع معك ، لاني سوف اردّها اليك . يجب ان يتم هذا . ولكن كيف السبيل الى الخروج من هنا ؟ ،
وهز جان فالجان رأسه .

- « لا تدع احدآ يراني ؛ هذا كل شيء ، ايها الاب فوشلوفان . ابحث عن وسيلة ما لاجراحي انا ايضاً ، مثل كوزيت ، في سلة او تحت غطاء . »

وحكّ فوشلوفان أذني أذنه بالأصبع الوسطى من يده اليسرى ، وهي علامة على الارتباك الشديد .

والهاهما قرع الناقوس ، سرّة ثالثة ، بعض الألمان .
وقال فوشلوفان :

- « هوذا طيب الأموات يمضي لسبيله . لقد وآها ، وفرر أنها ميتة . هذا حسن . وجين يؤشر الطيب على الجواز الموصل الى الجنة يبحث متمهدو مواكب الدفن بتابوت . فاذا كانت « أمأ » كفتتها « الامهات » . واذا كانت « أخناً » كفتتها « الأخوات » . حتى اذا تم ذلك دفنتُ المسامير في النعش . ان هذا جزء من عملي كبستاني . فالبستاني ضرب من حفار القبور . انهم يضعونها في غرفة منخفضة في الكنيسة المتصلة بالشارع ، حيث لا يستطيع رجل ما أن يدخل ، باستثناء طيب الموتى . أنا لا أعدّ نفسي وحمّة النعش رجالاً . وفي تلك الغرفة أدق المسامير في النعش . ويقبل حمّة النعش ويأخذونها ، ويُعمل السائق سوطه ! هكذا يذهب الى الجنة . انهم يجيئون بصندوق ليس فيه شيء ، ثم يعودون به وفي داخله شيء . تلك هي حقيقة

الدفن . *De profundis* *

وشعّ خيط من خيوط الشمس المشرقة ، على وجه كوزيت النائمة التي بدت - وقد فتحت فيها نصف فتحة على نحو حالم - وكأنها ملاك يعبّ الضياء عباً . كان جان فالجان ينظر اليها . انه ما عاد بصفي الى فوشلوفان .

ولكن عدم الاصفاء ليس سبباً كافياً للصمت . وهكذا واصل البستاني العجوز الصالح لغوّه المماد ، في تودة وهدوء :

- « لقد أُعيدت الجثث في مقبرة فوجيوار . ويدّعون أن مقبرة فوجيوار هذه سوف تُلغى . انها مقبرة عتيقة ، لا تنسجم مع الانظمة ، ولا ترتدي اللباس الموحد ، وسوف تحال الى التقاعد . أنا آسف من أجل ذلك ، لانها مقبرة ملائمة . ان لي صديقاً هناك ، هو الأب ميتين ، حفار القبور . وللراهبات في هذا الدير امتياز يتحولن الحق في أن يحملن الى تلك المقبرة عندما يهبط الليل . ان ثمة أمراً صادراً عن مديرية الشرطة ، خاصاً حينئذ . ولكن أي شيء قد حدث منذ أمس ! لقد توفيت الأم كروسيكسيون والأب مادلين ... »
فقال جان فالجان مبتسماً ابتسامة محزونة :

- « قد دُفن . »

ورجع فوشلوفان الكلمة .

- « يا الهي ، لو قضيت حياتك كلها هنا اذن لكان ذلك دفناً حقيقياً . »

وقرّع الناقوس للمرة الرابعة . فسارع فوشلوفان الى نزع واقية ركبته ذات الجليجل عن المسار المعلقة به ، وأعاد شداها حول ركبته .
- « الناقوس يدعوني ، أنا ، هذه المرة . ان الام الرئيسية محتاجة اليّ . حسن ، أنا أخزّ نفسي بلسان ايزيمي . مسيو مادلين ، لا

* تعبير لانثني معناه : من الاعماق .

تتحرك ، انتظري . هناك شيء جديد . وإذا كنتَ جائعاً فهي ذي الحمر ،
والخبز ، والجبن .

وغادر الكوخ وهو يقول :

— « لقد جئت ا لقد جئت ا »

ورآه جان فالجان يجتاز الحديقة مسرعاً ، على قدر ما تسمح له
رجله العرجاء بذلك ، ناظراً في الوقت نفسه الى بطيخاته نظراً جانبياً .
وبعد عشر دقائق ، او اقل ، قرع الاب فوشلوفان — الذي كان
جلجله يحمل الراهبات على الفرار فيما هو يتقدم — أحدَ الابواب قرعاً
رفيقاً ، فأجابه صوت عذب : « الى الأبد ا الى الأبد ا » ، يعني :

« ادخل . »

كان ذلك الباب هو باب غرفة الاستقبال ، المحصص للبستاني يستعمله
حين يجتم الموقف الاتصال به . وكانت غرفة الاستقبال هذه ملاصقة
لقاعة مجلس الراهبات . كانت الرئيسة جالسة على الكرسي الاوحد ،
في غرفة الاستقبال ، تنتظر فوشلوفان .

٢

فوشلوفان يواجه الصعوبة

ان سماء قلعة رزينة تميز ، في ساعات الحرج ، بعض الطباع وبعض
المهن ، وتميز بخاصة رجال الدين وجماعة الرهبان . ولحظة دخل
فوشلوفان غرفة الاستقبال ، كانت آية الممّ المزدوجة تلك تطبع عينا
رئيسة الدير الآنسة « دو بلومور » الفائزة الواسعة العلم — الأمّ
اينوسانت التي كانت مبتهجة الفؤاد عادة .

وانحنى البستاني بتحية جازعة ، ووقف عند عتبة القليّة . كانت

الرئيسة تَمرَّ حبات سبحتها تحت ايامها ، فما إن رأتَه حتى رفعت عينيها وقالت :

« آه ! هذا أنت ، أيا الاب فوفان . »
كان هذا الاختصار مألوفاً في الدير .
وانحنى البستاني كرة أخرى .

« أيا الاب فوفان ، لقد دعوتك . »
« ها أنا ذا ، ايها الأم الموقرة . »
« اريد ان اتحدث معك . »

فقال فوشلوفان في جراءة اوقعت الرعب في نفسه هو :
« وأنا ، من فاجيتي ، عندي شيء أقوله للأم الموقرة جداً . »
ونظرت الرئيسة اليه :

« آه ، عندك ما تُسر به اليّ . »
« عندي توسل . »
« حسناً ، ما هو ؟ »

كان الرجل الطيب فوشلوفان ، الكاتب العدل السابق ، ينتمي الى ذلك الضرب من الفلاحين الذين لا يعترهم القلق والاضطراب ابداً . إن مزيجاً معيناً من الجهل والبراعة ليؤلف قوة ؛ انك لا ترتاب فيه ، وإنه ليستحوذ عليك . ففي اقل من سنتين سلخهما فوشلوفان في الدير وفتق الى ان يحقق نجاحاً في مجتمع الراهبات ذاك . كان وحده دائماً . وحتى فيما كان يُعنى بمجديفته لم يكن لديه في الاعم الاغلب ما يعمله غير أن يكون فضولياً . واذ كان على مبعده من جميع هاته اللسوة الغاديات الرائجات فقليلاً ما كان يرى أمامه غير ظلال مرفوفة . وبفضل حسن الانتباه ونفاذ البصيرة نجح في أن يكسو هذه الاطراف كلها رداءً من اللحم ، فاذا جهّز الموتى احياء في نظره . كان أشبه بأصم اكتب بصره حدةً ، وبأعمى غدا سمعه مرهفاً . لقد أفرغ همه في استكناه

المعاني التي تنطوي عليها مختلف دقات النافوس ، فوَقَّتْ الى ذلك حتى لم يعد في ذلك الدير الغامض الصوت شيء محبوباً عنه . لقد نطق ابو المول هذا ، مثرثراً ، مفرغاً امراره كافةً في أذنيه . واذا عرف فوشلوفان كل شيء ، فقد اخفى كل شيء . كان ذلك هو فته . لقد حسبه الديرُ كاه أبله ؛ وتلك ميزة عظيمة في الدين . و « الامهات » كن يقمن وزناً لفوشلوفان . كان أخرس نادر المثال . وكان يرحي بالثقة . والى هذا ، فقد كان نظامياً ، ولم يكن ليغادر الدير البتة ، إلا اذا دعت الى ذلك حاجة ملحوظة من حاجات الحديقة والبستان . وكانت هذا السلوك الرصين موضع اعجاب الراهبات . ومع ذلك فقد اطلع على أسرار رجلين اثنين : بواب الدير ، الذي كان يعرف غرائب غرفة الاستقبال ، وحقار للقبور ، الذي كان يعرف فرائد الجبانة . وعلى هذا النحو فقد كان يملك ضوءاً مزدوجاً ، في ما يتصل بهاته الراهبات . فأما احدهما فمسلط على حياتهن ، وأما الآخر فمسلط على ممانهن . ولكنه لم يسيء استعمال ذلك . وكانت جماعة الراهبات شديدة الولوع به . هرم ، اعرج ، لا يرى شيئاً . ولعله ان يكون اصمّ بعض الشيء - يا لها من سجايا وافرة ! إن من العسير إخلال امريء ما محله .

وفي مثل ثقة الرجل الشاعر بأنه موضع التقدير ، القى الرجل الطيب في حضرة الرئيسة الموقرة خطاباً ريفياً مطوّلاً جداً ، صمياً جداً . لقد أسهب في الكلام على عمره ، وعلى أسقامه ، وعلى عبء السنين الذي أمسى منذ اليوم مزدوج الوطأة عليه ، وعلى مطالب عمله المتزايدة ، وعلى اتساع الحديقة ، وعلى الليالي التي يتعبين عليه أن يسليها - شأنه الليلة البارحة مثلاً - حين اضطر الى ان يبسط حُصْر القصب على مساكب البطيخ من جراء القمر . واخيراً ختم كلامه بقوله إن له أخاً (وهذا اجفلت رئيسة الدير) ، أخاً لبس شاباً (واجفلت الرئيسة إجمالة ثانية ، ولكنها راسخة) وإن في استطاعة هذا الاخ ان يأتي -

إذا كان ذلك مرغوباً فيه - ويعيش معه ويمد إليه يد المساعدة ، وإنه كان بستانياً ممتازاً ، وان الجماعة تستطيع ان تتوقع منه خدمات افضل من تلك التي يؤديها هو اليها ؛ على حين أنه ، اذا لم يلحق أخوه بالدير ، فسوف يضطر هو - بوصفه الاكبر سناً ، وقد استشعر الشيخوخة والعجز عن النهوض بعبء العمل - الى مغادرة الدير ، آسفاً لذلك أعظم الاسف ، وإن لآخيه بنتاً صغيرة سوف تصحبه ، وسوف يكون في ميسورها ان تنشأ تحت راية الله في الدير ، ولعلها ان تصبح - فمن يدري ؟ - في يوم من الايام ، راهبة .

حتى اذا انتهى ، كفتت الرئيسة عن إمرار حبّات السبحة من خلال اصابعها ، وقالت :

- « هل نستطيع ، من الآن حتى المساء ، أن نحصل على قضيب حديدي قوي ؟ »

- « لأي غرض ؟ »

- « لكي نتخذ منه 'مخلاً' . »

فأجابها فوشلوفان :

- « نعم ، ابتها الأم الموقرة . »

ونضت الرئيسة ، من غير ان تضيف كلمة واحدة ، ومضت الى الغرفة التالية التي كانت قاعة مجلس الراهبات حيث كانت الامهات الصوتيات مجتمعات في اغلب الظن . وبقي فوشلوفان وحيداً .

٣

الأم اينوسانت

وانقضى ربع ساعة تقريباً . ورجعت الرئيسة وجلت على الكرسي

من جديد .

وبدا كلُّ منهما مستغرقاً في التفكير . وما نحن ننقل هنا ، احسن ما نستطيع النقل ، ذلك الحوار الذي تلا :

- « أيها الأب فوقان ؟ »

- « ابنتا الام الموقرة ؟ »

- « انت تعرف الكنيسة جيداً ؟ »

- « إن لي قفصاً صغيراً هناك أسمع منه للفداس والخدمات

الدينية . »

- « وهل دعتك امالك الى ان تدخل في يوم من الايام الجزء

الخاص بالجرقة ؟ »

- « مرة او ثلاث مرات . »

- « إن ثمة حجراً يبني ان يُرفع . »

- « أهو ثقيل ؟ »

- « إنها البلاطة الموضوعة الى جانب المذبح . »

- « الحجر الذي يغطّي الكهيف ؟ »

- « نعم . »

- « هذه مناسبة تنهض دليلاً على ان من الخير ان يكون هنا

رُجلان . »

- « الأمّ صعود ، القوية مثل الرجال ، سوف تساعدك . »

- « مها بلغت المرأة من القوة تظلّ اضعف من ان تضاهي الرجل . »

- « ليس عندها غير امرأة واحدة لتساعدك . وكلّ يعمل على قدر

طاقته . إن المعلم مايبون يعطينا اربعمئة وسبع عشرة رسالة من

القديس برنارد ، في حين يعطينا ميرونوس هورستوس ثلاثئة وسبعاً

وستين لبس غير ، ولكن هذا لا يدعوني الى احتقار ميرونوس

هورستوس . »

- « وانا كذلك . »
- « إن قيمة كل منا تقاس بمقدار مملكته بالنسبة الى قوته . إن الدير ليس مصنعاً للسن . »
- « والمرأة ليست رجلاً . إن اخي هو القوي ! »
- « والى هذا فسوف يكون عندك 'محل' . »
- « هذا هو المفتاح الوحيد الذي يناسب ذلك للضرب من الابواب . »
- « هناك حلقة في الحجر . »
- « ولسوف أمرت المحل من خلالها . »
- « ولقد أقيم الحجر بطريقة تجعله يدور على محور . »
- « حسن جداً ، ابنتها الأم الموقرة . سوف أفتح الكهيف . »
- « والامهات الاربع المرتلات سوف يساعدنك . »
- « وبعد أن يُفتح الكهيف ؟ »
- « يجب ان يُفتح من جديد . »
- « أهذا كل شيء ؟ »
- « لا . »
- « أصدرى الى اوارك ، ابنتها الأم الموقرة جداً . »
- « فوفان ، إن لنا ثقة فيك . »
- « انا هنا لكي أعمل كل شيء . »
- « ولكي تسكت عن كل شيء . »
- « نعم ، ابنتها الأم الموقرة . »
- « وحين يُفتح الكهيف ... »
- « أغلقه من جديد . »
- « ولكن قبل ... »
- « ماذا ، أيتها الام الموقرة ؟ »
- « يجب ان يُنزَل شيء الى هناك . »

وران الصت . وبعد اختلاجه من شفتها الصغيرة بدت أشبه
بالتودد ، أضافت الرئيسة :

- « ايها الأب فوقان ؟ »
 - « ايها الأم الموقرة ؟ »
 - « انت تعلم ان احدى « الامهات » توفيت هذا الصباح . »
 - « لا . »
 - « انت لم تسمع للناقوس اذن ؟ »
 - « إن المرء لا يسمع شيئاً في أقصى الحديقة . »
 - « حقاً ؟ »
 - « إني لا أتبيّن دقة الجرس الخاصة بي إلا بشقّ النفس . »
 - « لقد ماتت مع الفجر . »
 - « والى هذا ، فان الريح لم تهبّ صوبي ، هذا الصباح . »
 - « وإنما الامّ كروسيفكيون . احدى الطوباويات . »
- وصمتت رئيسة الدير ، وحركت شفتها لحظةً وكأنها تصلي صلاة
ذهنية ، ثم استأنفت كلامها :

- « منذ ثلاث سنوات ، ولجرت رؤيتها الأمّ كروسيفكيون ،
رجعت امرأةً يَنْسِينِيَّة * الى الطريق القويم . »
- « آه ، أجل . أنا أسمع النعيّ الآن ، ايها الأمّ الموقرة . »
- « لقد حملتها الامهات الى حجرة الموتى ، المؤدية الى الكنيسة . »
- « ادري . »

- « ليس في استطاعة رجل غيرك ان يدخل الى تلك الحجرة ،
ولا يجوز له أن يفعل . انبه جيداً . فسوف يكون من المستغرب أن
يُرى رجلٌ داخلًا الى حجرة الموتى ! »

* Janséniste من اتباع ينسنيوس Jansénius اللاهوتي الإسباني (١٥٨٥ - ١٦٣٨)
وكان له آراء خاصة في للنمة وحرية الارادة اثار عليه تامة للكنيسة الكاثوليكية .

- « في الأغلب ! »
- « هيه ؟ »
- « في الأغلب ! »
- « ماذا تقول ؟ »
- « أقول في الاغلب . »
- « اغلب من ماذا ؟ »
- « ايتها الأم الموقرة . انا لا أقول اغلب من ماذا . أنا أقول في الاغلب . »

- « لست أفهك . »
 - « لماذا تقول في الاغلب ؟ »
 - « لكي أقول كما تقولين ، ايتها الأم الموقرة . »
 - « ولكنني لم أقل في الأغلب . »
 - « انت لم تقوليها . ولكنني قلتها لكي أقول كما تقولين . »
 - وأعلنت الساعة التاسعة .
- فقال الرئيسة :

- « في الساعة التاسعة من الصباح ، وفي كل ساعة ، الحمد والسجود لقربان المذبح الأقدس . »
- فقال فوشلوفان :
- « آمين ! »

ودقّت الساعة في الوقت المناسب . لقد وضعت حداً للنقاش حول « في الاغلب » تلك . ولولا ذلك لكان من الجائز ان لا توفق الرئيسة وفوشلوفان الى الخروج من تلك الورطة أبد الدهر .

ومسح فوشلوفان جبينه .

وتتمت الرئيسة نمتةً قلبيةً قصيرة اخرى ، لعلها مقدسة ، ثم رفعت صوتها :

- « كانت الأم كروسيكسيون تردّ الناس ، في حياتها ، الى طريق الدين القويم . وفي ماتها ، سوف تجترح العجائب . »
- « إنها سوف تفعل ! ، كذلك اجاب فوشلوفان ، مصححاً خطوته ، باذلاً جهداً لكي لا يخطئ . كرتة اخرى . »

- « ايها الأب فوفان ، لقد بورك جماعة الدير بفضل الأم كروسيكسيون . ولا ريب في أنه لم يقيض بلبيع الناس أن يموتوا مثل الكاردينال دو بيروول وهو يتلو القداس الطاهر ، وان يلفظ نفسه الأخير وهو ينطق بهذه الكلمات : *Hanc igitur oblationem* * . ولكن من غير أن تتعم الام كروسيكسيون بهذه السعادة كلها ، فقد حظيت بميتة نفيسة . لقد احتفظت بوعيا حتى النهاية . لقد تحدثت الينا ، ثم تحدثت الى الملائكة . لقد اصدرت اوامرها الاخيرة الينا . ولو كانت لك ايمان أكبر بعض الشيء ، ولو كان في ميسورك ان تدخل الى قلبتنا اذن لشقت رجليك بجمرد لمها . لقد ايتست . ولقد شعرت بأنها تعود الى الحياة بالرب . كان ثمة شيء من الجنة في تلك الميتة . »
وَحَسِبَ فوشلوفان أنه كان بصفي الى صلاة ، فقال :

- « آمين ! »

- « ايها الأب فوفان ، يجب ان تنفد رغبات الموتى . »
وأحست الرئبة بضع حبات من سبحتها ، وكان فوشلوفان صامتاً . ثم تابعت :

- « لقد استشرت في هذه المسألة عدداً من الاكليركيين العاملين في خدمة الرب ، المنصرفين الى اداء المهام الكهنوتية في نجاح كبير . »
- « ايها الأم الموقرة ، ان المرء يسمع النعي هنا أحسن مما يسمعه في الحديقة بكثير . »

- « وفرق هذا ، فأنها اكثر من ميتة . إنها قديسة . »

« عبارة لاتيية تردد عند الشروع في القداس . ومنهاها مقدمة القربان .

- « مثلك ، أيتها الأم الموقرة . »
- « لقد نأمت في نعشها منذ عشرين عاماً ، بأذن خاص من أبينا المقدس ييوس السابع . »
- « ذلك الذي توجّ الامب بئو ونابوت . »
- وبالنسبة الى رجل حاذق مثل فوشوفان كانت الذكرى مشؤومة .
واغلب الظن ان الرئيسة ، المستغرقة في تفكيرها ، لم سمعه .
رواصلت كلامها :
- « ايها الأب فوفان ؟ »
- « أيتها الأم الموقرة . »
- « لقد رغب القديس ديودوروس ، رئيس اساقفة كبادوسية ، في ان لا تُكتب على قبره غير هذه الكلمة *Acorus* * ، وهي تعني دودة من ديدان التراب . وُنقذت تلك الرغبة . هل هذا صحيح ؟ »
- « أجل ، أيتها الأم الموقرة . »
- « وميزوكان المبارك ، رئيس دير آكيلا ، رغب في ان يدفن تحت المشنقة . وقد نفذت تلك الرغبة . »
- « هذا صحيح . »
- « والقديس تيرانس ، أسقف « بور » عند مصب نهر الـ « فير » ، في البحر ، رغب في ان تُنحفر على قبره العلامة التي تُوضع على قبور فتنة آبائهم أو امهاتهم ، رجاء ان يبصق المسافرون على قبره . وُنقذت تلك الرغبة . إن علينا ان نطيع الموتى . »
- « ليكون ذلك . »
- « إن جئان برنارد غويدونيس ، المولود في فرنسة قرب « روش أباي » ، قد « حمل » - بناء على رغبته ، وبرغم معارضة ملك قشتالة - الى كنيسة الدومينيكيين في ليموج ، على حين ان برنارد غويدونيس

* عنة او سومة .

- كان اسقف توربي في اسبانية . هل يستطيع احد انكار ذلك ؟
- « لا ، ايها الام الموقرة . »
- « لقد أثبت ذلك بلانتايفت دو لا فوس . »
- وأمرت بضع حبات اخرى تحت أصابعها في صمت . ثم استأنفت حديثها :
- « ايها الاب فوفان ، ان الام كروسيفكسيون سوف تدفن في النعش الذي ثامت فيه منذ عشرين سنة . »
- « هذا صحيح . »
- « إنه استمرار في النوم . »
- « سوف اضطر الى ان استرها في ذلك النعش اذن ؟ »
- « أجل . »
- « ولسوف نضع نعش الدفتان جانباً . »
- « تماماً . »
- « أنا تحت تصرف جماعة الدير الموقرة جداً . »
- « إن الامهات الاربع المرثلات سوف يساعدنك . »
- « لددق المسامير في النعش ؟ أنا لست محتاجاً اليهن . »
- « لا ، لأنزال النعش . »
- « الى اين ؟ »
- « الى الكهيف . »
- « اية كهيف ؟ »
- « الذي تحت المذبح . »
- وأجفل فوشلوفان :
- « الكهيف الذي تحت المذبح ! »
- « تحت المذبح . »
- « ولكن ... »

- « سوف يكون لديك قضيب حديدي . »
 - « اجل ، ولكن ... »
 - « وسوف ترفع الحجر بالقضيب بواسطة الحلقة . »
 - « ولكن ... »
 - « يجب ان نطيع الموتى . لقد كانت أمنية الأم كروسييفكيون
 ان تدفن في الكهف الذي تحت مذبح الكنيسة - لا أن تذهب الى
 التربة غير الطاهرة - وان تبقى بعد المئات حيث حلت في الحياة .
 لقد طلبت ذلك ، يعني لقد اصدرت أمرها بذلك . »
 - « ولكن هذا محذور . »
 - « لقد حظّره البشر ، وأمر به الله . »
 - « واذا اكتشف ذلك ؟ »
 - « إن لنا ثقةً فيك . »
 - « اوه ، من ناحيتي ، انا مثل حجر من حجارة جدارك . »
 - « لقد اجتمع مجلس الراهبات . ولقد قررت الامهات الصوتيات ،
 اللواتي شاورنهن ككرة اخرى ، واللواتي يتذاكرن الان ، ان تدفن
 الام كروسييفكيون ، وفقاً لرغبتها ، في نعشها تحت مذبحنا . نحيل
 أيا الاب فوفان الوضع اذا ما اجترحت العجائب من هنا ! ايّ مجد
 في الرب ستعم به جماعة الدير ! ان المعجزات تنبثق من القبور . »
 - « ولكن ، ابنتها الأم الموقرة ، واذا أقبل شرطي مفوض
 الصحة ؟ ... »
 - « لقد قاوم القديس بينوا الثاني ، في مسألة الدفن ، قسطنطين
 بوزونافوس * . »
 - « ومع ذلك ، فإن مفوض الشرطة ... »

* هو قسطنطين الرابع ، امبراطور الامبراطورية البيزنطية الشرقية
 (٦٤٨-٦٨٥)

- « وإن كونودمير ، احد الملوك الالمان السبعة الذين دخلوا «غالة» في عهد الامبراطور كونستانس ، اعترف في صراحة بحقّ الرهبان في ان يُدفنوا على الطريقة الدينية ، يعني تحت المذبح . »
- « ولكن مفتش الشرطة ... »

- « ان العالم ليس شيئاً أمام الصليب . ولقد أوصى مارتن ، الرئيس العام الحادي عشر للرهبانية القرطوسية ، أتباعه بهذه الوصية :

Stat crux dum voluitur orbis

- « آمين ! » كذلك قال فوشلوفان ، وهو رابط الجأش في التعبير عن نفسه على هذا النحو كلما سمع شيئاً من الكلام اللاتيني .
ان جماعة من المستمعين ، مهما يكن عدد افرادها ضئيلاً ، لتُرضي من سلخ فترة طويلة من الزمان وهو معتصم بالصمت . فيوم غادر الخطيب جيناستوراس السجن ، مفعم الصدر بذخيرة مكبوتة من البراهين ذوات الحدين والاقبسة المنطقية ، وقف عند أول شجرة التقاه ، وخطب فيها ، وبذل جهداً كبيراً لاقناعها . كذلك نهضت الرئيسة ، الخاضعة عادة لسدّ من الصمت ، بعد أن وجدت في خزائنها فائضاً ، وهتفت بمثل ثرثرة سدّ فتح بابه :

- « ان الى يميني بينوا ، والى شمالي برنارد . من هو برنارد ؟ هو أول رئيس لدير كليرفو . و « فونتسان » في بورغونني بلد مبارك لانه كان مسقط رأسه . كان اسم أبيه تيسلين ، وكان اسم أمه آليت . لقد بدأ في « سيتو » وانتهى الى « كليرفو » . لقد أسند اليه رئاسة الدير اسقف « شالون سور ساوون » غيوم دو شامبو . كان له سبعمئة تلميذ ، ولقة أسس مئة وستين ديراً . لقد أفحم آيتار في مجمع سان ، عام ١١٤٠ ، و « بيير دو برّوي » وتلميذه هـنوي ، وجماعة أخرى من الضالين تُعرف بـ « الرسولين » . لقد ألقم « آرنو

• في اللاتينية ومناها : الصليب ثابت لا يتزعزع ، والدنيا تدور دورانها .

دو بريس ، حجرأ ، وصقق الراهبَ رالف ، ذابح اليهود ، ورئس عام ١١٤٨ بجمع ريمس ، وحمل الكنيسة على أن تدين « جيلبرت دو لابوريه ، أسقف بواتيه ، وحملها على أن تدين « إيبون دو ليتوال » ، وأصلح ما بين الامراء ، ونصح الملكَ لويس الفتي * ، وقدم المشورة لبايا أوجين الثالث ، ونظّم « الهيكل » ، ودعا الى الحرب الصليبية ، واجترح متين وخمسين عجيبة في حياته ، تمّ له منها تسع وثلاثون في يوم واحد . ومن هو بينوا ؟ انه بطريوك مونت كاسينو ؛ انه المؤسس الثاني « للقديسة الديرية » ؛ انه باسيل ** الغرب . لقد أنجبت رهبانيته أربعين بابا ، ومثي كاردينال ، وخمسين بطريركاً ، وألفاً وستمئة رئيس أساقفة ، وأربعة آلاف وستمئة أسقف ، وأربعة أباطرة ، واثنني عشرة امبراطورة ، وستة وأربعين ملكاً ، واجدى وأربعين ملكة ، وثلاثة آلاف وستمئة قديس معلني القديسة ، ولا تزال قائمة منذ الف واربعمئة سنة . القديس برنارد من ناحية ، وشرطي اللجنة الصحية من ناحية ! القديس بينوا من ناحية ، ومفتش الصحة من ناحية ! الدولة ؛ دائرة الطرق العمومية ؛ الانظمة الجنائية ؛ القوانين ؛ الادارة ؛ هل ندرك هذه الاشياء ؟ إن كل امرئ لتثور تأثرته حين يرى الى الطريقة التي 'نعامل' بها . منهم بحرموتنا حتى من حقنا في ان نقدم رفاتنا الى يسوع المسيح ! إن لجنتك الصحية هي من اختراعات الثورة . يجب ان يخضع الله لمفوض الشرطة ؛ ذلك هو منطق هذا العصر . إصمت يا فوقان ! »

ولم يستشعر فوشلوفان الارتياحَ ، تحت وابل هذا التائب . وقابعت الرئيسة كلامها :

* Louis le Jeune هو لويس السابع وقد حكم فرنسا من عام ١١٣٧-١١٨٠
 ** للقديس باسيل ابو الكنيسة اليونانية (٣٢٩ - ٣٧٩) والمقصود انه بالنسبة الى الغرب بمثابة باسيل بالنسبة الى الكنيسة اليونانية ، الشرقية .

— « إن حقّ الدير في الدفن لا يمكن ان يشك فيه احدٌ . وليس
 عة من يُنكره غير المتعصبين والضالّين . نحن نحيا في عصر بلبلة فظيعة .
 فالناس يجهلون ما ينبغي لهم ان يعلموه ، ويعلمون ما ينبغي لهم ان
 يجهلوه . انهم أجلاف ملحدون . وهناك في هذا العصر اناس لا يميزون
 بين القديس برنارد العظيم وبرنارد المعروف بـ « برنارد الكاثوليك الفقراء » ،
 وهو أحد الرهبان الصالحين من اهل القرن الثالث عشر . وآخرون
 يحدّثون الى حدّ يجعلهم يقارنون ما بين دكة المشتقة التي أعدم بها لويس
 السادس عشر وصليب يسوع المسيح . إن لويس السادس عشر لم يكن
 غير ملك . فلنحدّر الله إذن ! لم يبقَ ثمة لا مستقيمون ولا زائفون .
 إنهم يعرفون اسم فولتير ، ولكنهم لا يعرفون اسم « سيزار دو بوس » *
 ومع ذلك فسيزار دو بوس طوباويّ سعيد وفولتير شقيّ منكود
 الحظّ . ورئيس الاساقفة الاخير نفسه ، كاردينال بييرغور ، لم يعرف
 ان شارل دو غوندرين قد خَلَفَ بيرويل ، وان فرانسوا بورغوان قد
 خَلَفَ غوندرين ، وأن جان فرانسوا سينو قد خَلَفَ بورغوان ،
 وان الاب « دو سانت ماريا » قد خَلَفَ جان فرانسوا سينو .
 والناس يعرفون اسم الاب « كوتون » لا لأنه كان أحد الثلاثة الذين
 عملوا في تأسيس رهبانية الـ « أوراتوار » ، ولكن لأنه كان موضوع
 تجديف للملك الهوغونوتي * هنري الرابع . وإذا كانت القديس فرانسوا
 دو سال قريباً الى نفوس ابناء هذا العالم فلأنه قد عُشِّ في القمار . ثم
 إن الناس يهاجمون الدين . لماذا ؟ لانه كان ثمة كهان أشرار ، لان
 ساغيتير ، اسقف غابّ ، كان أخاً لسالون ، اسقف امبيرون ، ولأن

* Cinq de Bus مؤسس « رهبانية إخوة العقيدة المسيحية » (١٥٤٤-١٦٠٧)
 وقد ترهب بعد أن سلخ صدر شبابه منشأ في اللدات والشهوات .
 « الهوغونوت لفظ يطلق على البرونستانات الفرنسيين .

كلاهما قد اتبع « مامون » * وما الذي يمكن ان ينتج عن هذا ؟ هل يمنع ذلك مارتن التوري من ان يكون قديماً ومن ان يقدم نصف رداؤه الى احد الفقراء ؟ إنهم يضطهدون القديسين . إن الناس ليغمضون أعينهم عن الحق . لقد غدت الظلمة شيئاً مألوفاً . وأشد الوحوش ضراوة هي الوحوش المكفوفة البصر . ان احداً لا يفكر في جهنم تفكيراً جدياً . اوه ! يا للشعب الشرير ! إن « باسم الملك » تعني اليوم « باسم الثورة » . ولم يعد الناس يعرفون لا حقوق الاحياء ولا حقوق الاموات . ولقد غدا الموت على نحو مقدس أمراً محظوراً . كما غدا القبر مسألةً مدنية . وهذا شيء رهيب ! لقد كتب القديس ليو الثاني رسالتين مسهبتين ، الاولى الى « بيير نوتير » والثانية الى ملك القوط الغربيين لكي يدفع ويسفه ، في المسائل المتصلة بالموت ، سلطة الأكسرخوس ** وسيادة الأمبراطور العليا . ولقد قاوم غوثيه أسقف سالون ، في هذه القضية ، اوثنون دوق بورغونني . ولقد سلمت القضاة القدماء بهذا . وفي العهود الماضية كنا نصوت في مجلس الراهبات حتى على المسائل الزمنية . وكان رئيس دير سيتو ، وهو مقدم الرهبانية ، مستشاراً ورائياً لهرمان بورغونني . إننا نفعل بموتانا ما يجوز لنا . أليس جثمان القديس بينوا نفسه في فرنة في دير فلوري المعروف بدير « سان بينوا سور لوار » برغم انه مات في مونت كاسينو بايطالية ، يوم السبت الواقع في الحادي والعشرين من شهر آذار عام ٥٤٣ ؟ إن هذا كله لا يقبل الجدل . أنا امقت جماعة المرتلين ؛ انا اكره رؤساء الاديرة ؛ انا أبغض المراهقة ، ولكني احقد اكثر على أيما شخص يُثبت لي خلاف ما قلت . وليس عليك إلا ان تقرأ « آرنول ويون » ،

* الاله المال عند الاشوريين . وقد أطلق هذا الاسم في « الكتاب المقدس » على شيطان المال خصراً ، وعلى الشيطان بصورة عامة ايضاً .
** تالب امبراطور القسطنطينية في ايطالية أو في افريقية .

و « غابرييل بوسلين » ، و « تريتيم » ، و « موروليكوس » ،
و « دوم لوقا داشري » .

وأخذت رئيسة الدير نقساً ، ثم التفتت نحو فوشلوفان :

- « أيها الاب فوفان ، هل حُصيت المسألة ؟ »

- « لقد حُصيت ، أيتها الام الموقرة . »

- « هل استطيع ان اتكل عليك ؟ »

- « سوف امثل امرك . »

- « حسن . »

- « إني أقفاني في خدمة الدير كل التقاني . »

- « لقد غدا واضحاً انك سوف تُغلق النعش . إن الأخوات

سوف يجملنه الى الكنيسة . وسوف تُتلى صلاة الميت . وبعد ذلك

يرجعن الى الدير . وبين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل سوف تأتي

انت ومعك الفضيبي الحديدية . ان كل شيء سوف يُصنع في سرية

كاملة . ولن يكون في الكنيسة غير « الأمهات » الاربع المرتلات ،

والأم « صعود » ، وأنت . »

- « والاخت التي ستكون في المركز ؟ »

- « إنها لن تلتفت . »

- « ولكنها سوف تسمع . »

- « انها لن تصغي . والى هذا ، فان ما يعرفه الدير لا يعرفه

العالم . »

وران الصمت لحظة . ثم استأنفت الرئيسة كلامها :

- « سوف تنزع جلملك . لا داعي الى أن تلمح الاخت التي في

المركز أنك هناك . »

- « أيتها الام الموقرة ؟ »

- « ماذا أيها الاب فوفان ؟ »

« سوف يقوم بها اليوم ، في الساعة الرابعة . لقد قنزع الناقوس الذي يدعو طيبب الموتى الى المجيء . ولكنك لا تسمع ايأاً من دقات الناقوس ، اذن ؟ »

« أنا لا أنتبه الا لدقاته الخاصة بي . »

« هذا حسن أيها الاب فوفان . »

« أيتها الأم الموقرة ، سوف أحتاج الى مغل يبلغ طوله ستة أقدام على الاقل . »

« من أين ستأتي به ؟ »

« حيث تكثر النوافذ المشبكة تكثر القضبان الحديدية . ان عندي كومة من الحدائد العتيقة في مؤخرة الحديقة . »

« قبل منتصف الليل بثلاثة أرباع الساعة . لا تنس . »

« أيتها الام الموقرة ؟ »

« ماذا ؟ »

« اذا احتجت الى القيام بأي عمل آخر مثل هذا ، في المستقبل ،

فان أخي قوي جداً . انه تركي . * »

« سوف تقوم بذلك بأمرع ما يمكن . »

« أنا لا أستطيع أن أسرع . انا عاجز . من أجل ذلك طلبتُ أن

يكون لي مساعد . اني اعرج . »

« العرج ليس جريمة ؛ انه قد يكون بركة . ان الامبراطور

هنري الثاني الذي قاتل غريغوري ، البابا الزائف ، واعد بينوا الثامن

الى الكرسي الرسولي كان له لقبان (*surnoms*) : القديس ، والاعرج . »

فغمغم فوسلوفان الذي كان ثقيل السمع ، في الواقع ، بعض الشيء :

* بطلق لفظ « التركي » في الفرنسية على الرجل القوي جداً .

- « ان معطفين (surtouts) اثني شيء عظيم ! » *
- « ايها الاب فوفان ، بخيل اليّ ، وقد فكرت في ذلك ، اتنا
سوف نحتاج الى ساعة كاملة . وهذا ليس بالشيء الكثير . كن قرب
المذبح العالي ، حاملاً القضيبة الحديدي ، في الساعة الحادية عشرة . إن
الصلاة ستبدأ عند منتصف الليل . وينبغي ان يتمّ كل شيء قبل ذلك
بربع ساعة او يزيد . »

- « سوف اعمل كل ما يثبت غيرتي على جماعة الدير . لقد تفاهمنا
على ما يلي : سوف ادق المسامير في النعش . وعند الساعة الحادية عشرة
تماماً سوف اكون في الكنيسة . وسوف تكون الامهات المرتلات
هناك ، وكذلك ستكون الأم « صعود » هناك . لو كان ثمة رجلان
لكان افضل . ولكن لا بأس ! سوف يكون معي نخلي . سوف
نفتح الكهيف ، وننزل النعش ، ثم نطلق الكهيف من جديد . وبعد
ذلك لن يكون ثمة اثر لايتا شيء . ان الحكومة لن ترتاب في شيء .
ابتها الأم الموقرة ، اهذا كل ما هنالك ؟ »

- « لا . »

- « وماذا بقي بعد ، اذن ؟ »

- « بقي التابوت الفارغ . »

وران الصمت . وفكر فوشلوفان . وفكرت الرئيسة .

- « ايها الاب فوفان ، ما الذي سوف نعمله بالنعش ؟ »

- « سوف ندمته في التراب . »

- « فارغاً ؟ »

وران الصمت ككرة اخرى . واوما فوشلوفان بيده اليسرى تلك

* وضمنا اللفظ الفرنسي بمد كلفني « لقبان » surnoms « ومعلمين » surtouts
حتى يلاحظ القارئ السبب الذي جعل فوشلوفان يفهم بهذا الجواب . ذلك انه
ظن أن رئيسة الدير قالت surtouts لا surnoms .

الإيحاء الخاصة التي تطرد سؤالا بفيضاً .

« ايتها الام الموقرة ، سوف استمر النعش في الغرفة السفلى من الكنيسة . وليس في استطاعة احد غيري ان يدخل الى هناك ، وسوف اغطي النعش بالكفن . »

« اجل ، ولكن حَمَلَة النعش سوف يلاحظون من غير شك ، حين يضعونه في عربة الموتى ، وحين ينزلونه الى القبر ، ان ليس في داخله شيء . »

فنهت فوشلوفان :

« آه ، يا للشئ ... ! »

وشرعت الرئيسة ترسم اشارة الصليب على صدرها ، وحدثت الى البستاني . لقد علقت « ... طان » * في حلقومه .

وسارع الى التفكير بوسيلة تنسيها ذلك التجديف .

« ايتها الام الموقرة ، سوف اضع بعض التراب في النعش . إن ذلك سيجعله ثقيلاً وكان فيه جثاناً . »

« انت على صواب . التراب لا يختلف عن الانسان في شيء . واذن فسوف تسوي مسألة النعش الفارغ ؟ »

« سوف ادبر الامر . »

واستعاد وجه الرئيسة صفاءه ، وكان حتى تلك اللحظة مضطرباً مكفهاً . واومأت اليه ايماءة رئيس يسرح مرؤوساً . فتقدم فوشلوفان نحو الباب ، وفيما هو يقادر الغرفة رفعت الرئيسة صوتها في رفق :

« اياها الاب فوفان ، انا راضية عنك . غداً بعد الدفن ، جئني بأخيك ، وقل له ان يصطحب ابنته . »

* وهي البقية الباقية من كلمة « شيطان » .

حيث يظهر جان فالجان بمظهر من قرأ أوستين كاستيليجو تماماً

ان خطوات الاعرج اشبه شيء بنظرات الاعور ؛ إنما لا تنتهي الى غايتها في سرعة . وإلى هذا فقد كان فوشلوفان مرتبكاً . لقد احتاج الى ربع ساعة تقريباً للعودة الى كوخه في الحديقة . كانت كوزيت يقظي . وكان جان فالجان قد اجلسها قرب النار . ولحظة دخل فوشلوفان ، كان جان فالجان يُربها سلة البستاني معلقةً على الجدار ، ويقول لها :

— « أصفي الي جيداً ، يا صغيرتي كوزيت . يجب ان تغادر هذا البيت ولكن سوف نعود ، وسوف نكون سعيدين هنا . ان الرجل الطيب الذي هنا سينقلك على ظهره . وسوف تنتظريني في منزل احدى السيدات . اني سأعود وأصطحبك . وفوق كل شيء ، اذا كنت لا تريدان ان تستردك تيناردييه الزوجة ، فيجب عليك ان تكوني مطيعة ، وان لا تقولي شيئاً . »

واومات كوزيت برأسها وقد غلبت عليها الكتابة .

وحين سمع جان فالجان صوتاً ففتح فوشلوفان الباب التفت وقال :

— « خير ؟ »

فقال فوشلوفان :

— « لقد سُوي كل شيء ، ولم يسو شيء . لقد حصلت على اذن

بادخالك ، ولكن قبل ان ادخلك يتعين علي ان اخرجك . هنا المشكلة .

أما الصغيرة فأمرها هين . »

— « سوف تخرجها ؟ »

— « وهل ستزوم الصمت ؟ »

- « انا واثق من ذلك . »
 - « ولكن انت ، ايها الاب مادلين ؟ »
 وبعد صمت مشوب بالقلق ، هتف فوشلوفان :
 - « ولكن لماذا لا تخرج من حيث دخلت ؟ »
 فاكتفى جان فالجان بأن أجابه ، شأنه من قبل :
 - « مستحيل . »

وغمغم فوشلوفان ، مخاطباً نفسه اكثر منه مخاطباً جان فالجان :
 - « هناك شيء آخر يقضّ مضجعي . لقد قلت اني سوف أضع
 هناك بعض التراب . ولكني أعتقد أن وضع التراب فيه بدلاً من
 الجثة ، لن يجعله يبدو وكأن فيه جثثاً حقاً . ان هذا العمل لن
 ينجح . ان التراب سوف يهتز . انه سوف يتحرك . وعندئذ يشمر
 الرجال به . أتفهم ، أيها الاب مادلين ؟ ان الحكومة سوف تكتشف
 الامر . »

وحدّق جان فالجان اليه ، وظن انه كان يهذي .
 واستأنف فوشلوفان حديثه :

- « ما السبيل ، بحقّ الشئ... طان ، الى خروجك من هنا ؟
 لأن هذا كله يجب ان يتمّ غداً . غداً ، سوف أدخلك الى هنا . ان
 الرئيسة تنتظرك . »

ثم أوضح جان فالجان ان ذلك كان مكافأة له ، هو فوشلوفان ،
 على خدمة يؤديها الى الجماعة . وان مهمته تقتضيه ، في جملة ما تقتضيه ،
 أن يشارك في اعمال الدفن ، وأن يدقّ المسامير في النعوش ، وأن
 يساعد حفار القبور في الجبّانة . وأن الراهبة التي توفيت ذلك الصباح
 أوصت بأن تدفن في النعش الذي كانت قد اتخذت منه فراشاً ، وأن
 توارى الثرى في الكهيف القائم تحت مذبح الكنيسة . وأن أنظمة
 الشرطة تحظّر ذلك ، ولكنها كانت واحدة من هاتيك الراحلات

اللاواتي لا يُردّ لمنّ أمر . وان رئيسة الدير والامهات الصوتيات اعترمن
 إنفاذ رغبة الفقيدة . وأن لأمّ الحكومة المَبَل ! وأنه هو ، فوشلوفان ،
 سوف يسمّر النعش في القليّة ، ويرفع الحجر في الكنيسة ، ويُنزل
 الجثمان الى الكهيف . وأن الرئيسة سوف تكافئه على ذلك بأن
 تُدخل أخاه الى الدير ، بوصفه بستانياً ، وابنة أخيه بوصفها طالبة
 داخلية . وأن اخاه كان مسيو مادلين ، وان ابنة أخيه كانت كوزيت .
 وأن الرئيسة قالت له ان يجيء بأخيه صباح غدٍ ، بعد ان يتمّ الدفن
 الكاذب في المقبرة . ولكنه لا يستطيع ان يجيء بمسيو مادلين من
 الخارج ، اذا لم يكن مسيو مادلين في الخارج . وان تلك كانت هي
 الصعوبة الأولى . وأنه كانت ثمة ، بعدُ ، عقبة اخرى : النعش الفارغ .

فسأله جان فالجان :

« وما النعش الفارغ ؟ »

فأجابه فوشلوفان :

« نعش الادارة . »

« ايّ نعش ؟ واية ادارة ؟ »

« حين تموت راهبة ، يأتي طبيب البلدية ويقول : لقد ماتت

راهبة . وتبعث الحكومة بنعش . وفي اليوم التالي ترسل عربة موتى ،

وبعض الحسمّة ليأخذوا النعش وينقلوه الى المقبرة . ويُقبل حمة النعش

لينقلوه . فلا يكون في داخله شيء . »

« ضع شيئاً في داخله . »

« مَنْ ؟ شخصاً ميتاً ؟ ليس عندي ايّ ميت . »

« لا . »

« ماذا اذن ؟ »

« شخصاً حياً . »

« أي شخص حيّ ؟ »

فقال جان فالجان :

« أنا . »

فوثب فوشلوفان - الذي كان قد جلس - وكان حقة بارود قد انفجرت تحت كرسيه .

« انت ! »

« ولم لا ؟ »

وانفجرت شفتا جان فالجان عن احدى تلك الابتسامات النادرة التي طفت على عيانه مثل مبيض في سماء شتاء .

« انت تعرف ، يا فوشلوفان ، انك قلت : ان الام كروسيكسيون قد ماتت . واتي اضفت : والاب مادلين قد دفن . ذلك ما سيكون . »

« آه ، حسن . أنت تهزل . أنت لا تتحدث جاداً . »

« جاداً الى ابعد الحدود . يجب ان اخرج من هنا . »

« من غير ريب . »

« ولقد قلت لك ان تبحث عن سلة وغطاء لي انا ايضاً . »

« ثم ماذا ؟ »

« ستكون السلة من خشب الضويز ، وسيكون الغطاء من

قماش أسود . »

« قبل كل شيء ، احب ان اصحح الكلام فأقول : من قماش

ايض . إن الراهبات يدفنن بالبياض . »

« حسن ، من قماش ايض . »

« انت لست مثل سائر الرجال ، ايها الاب مادلين . »

وكان في رؤية فوشلوفان هذه الحيل التي لم تكن غير مخترعات سجن الاشغال الشاقة ، الضارية المتهورّة - نقول كان في رؤية هذه الحيل تذبذب وسط الاشياء الآمنة التي تحيط به وتخرج بما كان يدعو غطية

الدير التافهة ، ما اوقع في ذات نفسه انشداهاً أشبه بانشدها عابر سبيل
يرى زُمج ماء * يصطاد في ساقية شارع « سان دونيز » .
وتابع جان فالجان :

- « المقصود ان اخرج من هنا من غير ان يراني احد . هذه وسيلة .
ولكن ، قبل كل شيء ، أعلمني . كيف يجري ذلك ؟ اين هذا
النمش ؟ »

- « النمش الفارغ ؟ »

- « نعم . »

- « تحت . في ما يُدعى حجرة الموتى . إنه فوق صقالتين وتحت
الكفن . »

- « ما طول النمش ؟ »

- « ستة اقدم . »

- « وما هي حجرة الموتى هذه ؟ »

- « لأنها حجرة في الدور الاسفل ذات نافذة مقضبة تطلّ على
الحديقة ، وتوصد من الخارج بمصراع وبابين ؛ احدهما يؤدي الى الدير ،
والاخر يؤدي الى الكنيسة . »

- « أية كنيسة ؟ »

- « الكنيسة التي على الشارع . الكنيسة التي يدخل اليها كل
انسان . »

- « اعندك مفتاحا هذين البابين ؟ »

- « لا . عندي مفتاح الباب المؤدي الى الدير . أما مفتاح الباب
المؤدي الى الكنيسة فهو مع البواب . »

- « ومتى يفتح البواب ذلك الباب ؟ »

- « حين يقبل الحملة لنقل النمش ، ليس غير . وما يكاد
النمش يخرج حتى يُغلَق الباب من جديد . »

* zoeland وهو طائر بحري ابيض اللون .

- « ومن الذي يدق المسامير في النعش ؟ »
 - « أنا . »
- « ومن يغطيه بالقماش ؟ »
 - « أنا . »
- « هل أنت وحدك . »
 - « ليس ثمة رجل آخر - غير طبيب الشرطة - يستطيع ان يدخل الى حجرة الموتى . بل إن ذلك مكتوب على الجدار نفسه . »
- « هل تستطيع الليلة بعد ان ينام كل امرئ في الدير ان تخبني في تلك الحجرة ؟ »
- « لا . ولكنني استطيع ان اخبئك في حجرة مظلمة تؤدي الى حجرة الموتى حيث أحفظ بأدواتي الخاصة بالدفن . إنها حجرة " انا حارسها وحامل مفتاحها . »
- « ومتى ستقبل عربة الموتى لنقل النعش غداً ؟ »
 - « حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر . إن الدفن سوف يتم في مقبرة فوجيرار ، قبيل المساء . إنها ليست قريبة جداً . »
- « سوف ابقى مختبئاً في حجرة ادواتك طول الليل وطول النهار . ومساءلة الطعام ؟ سوف أحس بالجوع . »
 - « اني سأحمل اليك ما تأكله . »
- « في استطاعتك ان تأتي وتوصد النعش علي ، بالمسامير ، في الساعة الثانية . »
- وأجفل فوشلوفان واخذ يقضض عظام اصابعه .
- « ولكن هذا مستحيل ! »
 - « دع عنك ذلك . كل ما عليك ان تفعله هو ان تتناول مطرقة وتدق بعض المسامير في لوح خشبي . »
- ونحن نكرر هنا ان ما بدا غريباً لم يُسمع بمثله عند فوشلوفان

كان يسيراً عند جان فالجان . فقد سبق ان وجد جان فالجان نفسه في مآزق اسوأ . وكل من دخل السجن يعرف ذلك الفن الذي يمكن صاحبه من ان ينكش وفقاً لابعاد المكان الذي يلجأ اليه ابتغاء الهرب . والسجن عرضة للفرار ، كما ان المريض عرضة للأزمة التي تشفيه او تصرعه . والفرار شفاء . واي شيء لا يحتمله المرء لكي يشفى ؟ ولأن صدق عليه المسامير ، ويُحتمل في صندوق كما يُحمل الطرد ، ولأن يعيش فترة طويلة في علبه ، ويجد الهواء حياً - لا هواء ، ويقتصد في التنفس ساعات بكاملها ، ويعرف كيف يَحْتَق من غير ان يموت - ذلك كان جزءاً من مواهب جان فالجان الكالحة .

وانى هذا فان نعشاً ينطوي على كائن حيّ ، تلك الحيلة التي ابتدعتها خيلة المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، هو حيلة امبراطورية ايضاً . فاذا كان لنا أن نصدق الراهب اوستين كاستيليجو كانت هذه هي الوسيلة التي اصطنعها شارل الخامس - وقد رغب بعد تنازله عن العرش في ان يرى « لا بلومب » للمرة الاخيرة - لكي يجيء بها الى دير « سان جوست » ثم يُخرجها منه .

وهنف فوشلوفان وقد تاب الى رشده :

- « والتنفس ، كيف تستطيع ان تحلّ عقده ؟ »

- « سوف اتنفس . »

-- « في ذلك الصندوق ؟ ان مجرد التفكير بهذا يمتني اختناقاً . »

-- « لا ريب في ان عندك مخزناً . وفي استطاعتك ان تحدث

بعض الثقوب ، حوالى الفم ، وهنا وهناك . وفي استطاعتك ان تسمّر

النعش من غير ان تشدّ الارح العلوي شدّاً محكماً . »

-- « حسن ! واذا اتفق ان سعلت او عطست ؟ »

- « إن الهارب لا يسعل ولا يعطس بحال من الاحوال . »

قال جان فالجان ذلك ثم أضاف :

- « ايها الاب فوشلوفان ، يجب ان اقرر : إما ان أدامَ هنا ، وإما ان ارتضي الخروج بعربة الموتى . »

لقد لاحظ الناس جميعاً ولوع الهررة بالوقوف عند الابواب نصف المغلقة والتودّد امامها . ومن منا لم يسبق له ان قال لهررة ما : « لماذا لا تدخلين ؟ » . وثمة اناس ينزعون هم ايضاً ، حين تفتح الفرصة لهم بعض الشيء ، الى أن يظلموا مترددين بين قرارين اثنين ، معرضين انفسهم بذلك الى ان يُسحقوا بيد القَدَر الذي يُوسِد الفرصة إيصداً مفاجئاً . والواقع أن المبالغين في التروي ، برغم انهم هررة ، بل لانهم هررة ، كثيراً ما يتعرضون للخطر اكثر من الجسورين . ولقد كان فوشلوفان من اصحاب هذه الطبيعة المترددة . ومع ذلك فأن رباطة جأش جان فالجان أعدته بالرغم منه . فغمغم :

- « هذا صحيح . ليس هناك طريقة اخرى . »
واستأنف جان فالجان كلامه :

- « الشيء الوحيد الذي يقلقني هو ذلك الذي سوف يجري في المقبرة . »

فهتف فوشلوفان :

- « ذلك هو الشيء الذي لا يقلقني على وجه الضبط . إذا كنت واثقاً من إخراج نفسك من النعش ، فسوف اكون واثقاً من إخراجك من القبر . فحفار القبور كثير ، وصديق من اصدقائي . إنه الاب ميتين . ابن عجوز من ابناء الكرمه العجوز . إن حفار القبور يضع الموتى في الجذث ، وأنا أضع حفار القبور في جيبي . سأقول لك ما الذي سوف يحدث . إننا سوف نصل قبل الغسق بقليل ، قبل ان تغلق ابواب المقبرة بثلاثة ارباع الساعة . وسوف تمضي عربة الموتى الى القبر . وسوف أتبعها : تلك هي مهنتي . وسيكون في جيبي مطرقة وازميل ، وبعض الكلابات . وتقف عربة الموتى ، وبشدت الحملة

وثاق نعشك بجبل ، وينزلونك الى الحفرة . ويتلو الكاهن الصلوات ، ويرسم إشارة الصليب ، وينضح الماء المقدس ، ويمضي لسبيله . وأبقى وحدي مع الاب ميتين . إنه صديقي ، اقول لك . وثمة واحد من امرين : إما ان يكون سكران ، واما ان لا يكون سكران . فاذا لم يكن سكران ، فسوف اقول له : « تعال واشرب كأساً قبل ان تغلق حانة السفرجلة الطيبة ابوابها » . واذهب به ، وأسكروه . إن الاب ميتين لا يحتاج إسكاره الى وقت طويل ، فهو ابدأ في سبيله الى السكر . وأضعه تحت الطاولة ، وأنتزع بطاقته لكي اعود بها الى المقبرة ، وارجع بدونه . ولن يكون لك بعداً أيما عمل مع غيري . واذا كان سكران ، فسوف اقول له : أغرب من هنا ، سوف أقوم بعملك . ويمضي لسبيله ، وعندئذ أخرجك من الحفرة .

وبط جان فالجان يده ، فطرح فوشوفان نفسه عليها في دفقة ريفية من التفاني المؤثر .

— « اتفقنا ، ايها الاب فوشوفان . كل شيء سوف يجري على ما يرام . »

وقال فوشوفان ، في ما بينه وبين نفسه :

— « شرط ان لا يخل شيء . وبإلفظة ذلك الاختلال لو حدث ! »

5

ليس يكفي ان تكون سكيراً

لكي تكون مخلداً

وفي اليوم التالي ، فيما كانت الشمس تنجح للغروب ، رفع عابرو

السبيل المتناثرون في « بولفار دو مين » قبعاتهم لدن مرور عربة موتى عتيقة الزبيّ ، مزدانة برؤوس المنية ، وعظام الساق ، والدموع . وفي عربة الموتى تلك كان نعش مغطي بغطاء ابيض مختال فوقه صليب اسود ضخم أشبه ما يكون بومياء هائلة تتدلى ذراعها على جانبيها . وكانت تتبع هذه العربة عربة مجللة بالجوخ كان باستطاعة المرء ان يلحق فيها كاهناً يرتدي قميصاً من قمصان الاكليروس الفوقية ، وغلاماً من غلمان الجوقة يرتدي بنطلوناً قصيراً احمر . وعن يمين عربة الموتى وشمالها مشى حاملان من حملة النعوش في ملابسهم الرمادية الموحددة ذات الحواشي السوداء ، وفي المؤخرة كان رجل عجوز في ثياب العمال يتقدم في خطى عرجاء . لقد مضى الموكب في اتجاه مقبرة فوجيراو .

وكان في ميسور النظارة ان يروا مقبض مطرقة ، وشفره لإزميل خاص بالحديد البارد ، ومقبضين مزدوجين لزوج من الكلابات ، وقد أطلعت رؤوسها من جيب ذلك الرجل .

كانت مقبرة فوجيراو نسيجاً وحدها بين مقابر باريس . كانت لها تقاليد خاصة ، كما كان لها بابها الخاص بالعربات ، وبوابيها النعل الذي كان عجايز الحميّ المثبتون بالكلمات العتيقة يدعون به الفرسان وباب المشاة . وكانت راهبات « بيكوس الصغير » البرنارديات البنيديكتيات قد حصلن ، كما قلنا سابقاً ، على الحق في ان يُدفنَ هناك في زاوية منفردة ، وتحت جناح الظلام ، باعتبار ان هذه الارض كانت من قبل ملكاً لرهبايتهن . واذ حتمّ ذلك على حفاري القبور بأن يعملوا في المقبرة مساءً - أيام الصيف - وليلاً - أيام الشتاء - فقد أخضعوا لنظام فريد . كانت مقابر باريس توحد ابوابها ، في ذلك العهد ، عند المغيب ، واذ كانت اوامر البلدية هي التي قضت بذلك الاجراء ، فقد خضعت له مقبرة فوجيراو مثل سائر المقابر . وكان باب الفرسان وباب المشاة متجاورين مقبضين بالحديد ، وكان في جوارهما

سرادق بناه المهندس المعماري بيرونيه حيث يقطن بواب المقبرة . واذن فقد كان هذان البابان الحديديان يدوران ، في تصلب ، على رزاتها لحظة تتوارى الشمس خلف قبة الأنفاليد . ولو قد تخلف في تلك اللحظة احد حفاري القبور في المدفن اذن اكانت بطاقته المهنية الصادرة عن ادارة المواكب الجنائزية هي سبيله الاوحد الى الخروج . وكان في شباك البواب ضرب من علة للبريد ، فكان حفار القبور يلقي بطاقته في هذه العلية ، فيسمعها البواب تسقط ، فيجذب الحبل ، فيفتح باب المشاة . فاذا اتفق ان كان حفار القبور غير حامل بطاقته فعندئذ يذكر اسمه ، فينهض البواب من فراشه - ذلك انه قد يكون نائماً في بعض الاحيان - ويجاوب التحقق من هوية حفار القبور ، ويفتح الباب بالمفتاح . وهكذا يخرج حفار القبور ، ولكن بعد ان يدفع غرامة مقدارها خمسة عشر فرنكاً .

والواقع ان هذه المقبرة ، بفرائدها الخارجية على القاعدة ، عطلت تناغم الادارة واتساقها . ولقد ألغيت بعد سنة ١٨٣٠ بقليل . وإنما خلفتها مقبرة مونبارناس ، المعروفة بمقبرة الشرق ، وورثت عنها تلك الحانة الشهيرة الهاذية لمقبرة فوجيرار ، والتي تعلوها سرجلة رُسمت على صفحة - فهي تطل من ناحية على موائد الشاربين ، وتطل من ناحية أخرى على القبور - والتي تحمل هذا الاسم : السفوحلة الطيبة .

وكانت مقبرة فوجيرار ما يمكن أن ندعوه مقبرة عفة . لقد أخفى عليها الدهر ، فالعفن يغزوها ، والرياحين تفارقها . وكان الاثرياء من المواطنين قليلاً ما يرغبون في ان يدفنوا في فوجيرار ، فقد كانت روائح الفقر تفوح منها . أما مقبرة الأب لاشيز فرائعة جداً ! فلأن تدفن في مقبرة الأب لاشيز اشبه شيء بامتلاك أثاث مصنوع من خشب البلاذر أو الماهوغاني . إن ذلك لينم عن الاناقة . لقد كانت مقبرة فوجيرار حظيرة ذات جلال منسقة على طريقة الحدائق الفرنسية

القديم . بمرات مستقيمة ، وشجرات بَيْس * ، وشجرات سَندروس ** ،
وشجرات شرابة الراعي ، وقبور عتيقة تحت شجرات طقُوس ***
هرمة ، وعشب فارع الطول . وكان الليل رهيباً جداً هناك . كانت
ثمة ظلال تقبض الصدر الى حد يعيد .

ولم تكن الشمس قد غربت عندما دخلت عربية الموتى ذات الغطاء
الايض والصليب الاسود شارعَ مقبرة فوجيرار . ولم يكن الرجل
الاعرج الذي يتبعها غير فوشلوفان .

وكان دفن الأم كروسيفكسيون في الكهف الذي تحت المذبح
واخراج كوزيت من المكان ، وادخال جان فالجان الى حجرة الموتى -
كان ذلك كله قد أتمّ من غير ما عائق ومن غير ان يمه الاخفاق .
ونحب ان نقول ، بالمناسبة ، ان دفن الأم كروسيفكسيون تحت
مذبح الدير هو ، في اعتقادنا ، شيء عرضي يمكن اغتقاره ، في كثير
من اليسر . واحد من تلك الاخطاء الشبيهة بواجب من الواجبات .
لقد قامت الراهبات به ، لا من غير قلق فحسب ، ولكن في ضمير
مصفتق ايضاً . فما يدعى «الحكومة» لا يعدو ، في الدير ، ان
يكون تدخلاً في السلطة ، تدخلاً هو أبداً موضع الشك . الانظمة
اولاً ؛ اما القانون ، فسوف نرى . أيها الناس ، ضعوا ما شئتم من
القوانين ، ولكن احتفظوا بها لانفسكم . إن المكوس التي تُدفع
الى قيصر ليست بجال من الاحوال غير البقية الباقية من المكوس التي
تُقدّم الى الله . فالأمير ليس شيئاً في حضرة المبدأ .

وعرجَ فوشلوفان خلف عربة الموتى ، في ارتياح عظيم . كانت
مؤامراته التوأمان ، وإحداهما مع الراهبات والاخرى مع مسيو مادلين ،

* البقس Buis شجر كالآس ورقاً وجباً تُتخذ منه الخالق والابواب لغاته .

** ضرب من الصنوبريات دائم الخضرة . (Thuya) .

*** ضرب من السرو او الشربين (ifa) .

الاولى للدير والثانية ضد الدير ، قد نجحتنا على حد سواء . والواقع ان
سكينة جان فالجان كانت من ذلك الضرب الجبار الذي يُعدي .
فلم يبق عند فوشلوفان اياما شك في النجاح . أما الاشياء التي ما يزال
من الضروري القيام بها فلم تكن ذات خطر . فلقد أسكر عشر مرات ،
خلال سنتين ، حفار القبور الطيب الأب ميتين ، وهو رجل بدين
ساذج . لقد كان يعيث بالأب ميتين عبثاً . كان يفعل به ما يشاء . كان
يصف له شعره وفقاً لارادته وهواه . وكان ميتين يرى من خلال
عيني فوشلوفان . كانت سلامة فوشلوفان كاملة .

ولحظة دخلت الجنازة الشارع المؤدي الى المقبرة نظر فوشلوفان مبتهج
الصدر الى عربة الموتى ، وفرك يديه الضخمتين قائلاً في صوت خفيض :
- « هي ذي مهزلة ! »

وفجأة وقفت عربة الموتى . لقد انتهت الجنازة الى الباب . وكانت
من الضروري أن تُبرَز إجازة الدفن . وتهاشم الدفان مع بواب
المقبرة . وفي اثناء هذه المحادثة ، التي تسبب دائماً تأخرآ يستغرق دقيقة
او دقيقتين ، أقبل رجل مجهول ووضع نفسه خلف عربة الموتى ، الى
جانب فوشلوفان . كان اشبه بمعامل من العمال يرتدي كساءً طويلاً ذا
جيوب واسعة ، ويحمل تحت ذراعه معولاً .

ونظر فوشلوفان الى هذا الرجل المجهول .

وسأله :

- « من انت ؟ »

فأجاب الرجل :

- « حفار القبور . »

ولو قد اصابت قذيفة مدفع رجلاً في صدره فلم تقص عليه ، اذن
لكان يحيا اشبه بحيات فوشلوفان في تلك اللحظة .

- « حفار القبور ؟ »

- « نعم . »

« أنت ! »

- « آفا . »

- « إن حفار القبور هو الأب ميتين . »

- « لقد كان . »

« كيف ! لقد كان ؟ »

« لقد مات . »

كان فوشوفان مستعداً لكل شيء ، ما خلا هذا : أن يكون في استطاعة حفار القبور أن يموت . ومع ذلك ، فهذا صحيح . إن حفاري القبور أنفسهم يموتون . لأنهم بالانصباب على حفر القبور للناس يحفرون قبورهم الخاصة .

ولم يجر فوشوفان جواباً . إنه لم يجد ، إلا بشقّ النفس ، القوة التي تكفنه من ان يتلجلج :

« ولكن هذا غير ممكن ! »

- « هذا هو الواقع . »

فكرر في وكن :

« ولكن حفار القبور هو الأب ميتين . »

- « بعد نابوليون ، لويس الثامن عشر . وبعد ميتين ، غريبيه .

أبها الفلاح ، إن اسمي غريبيه . »

وغلب الشحوب على وجه فوشوفان . وحدق الى غريبيه .

كان رجلاً طويل القامة ، مهزولاً ، أزرق ضارباً الى السواد ،

مأتماً بكل ما في الكلمة من معنى . كانت تبدو عليه سمة طبيب افتقر

فأمسى حفار قبور .

وانفجر فوشوفان ضاحكاً :

- « آه ! يا لها من احداث مضحكة ! لقد مات الاب ميتين .

الاب ميتين الصغير قد مات ، ولكن فليحيَ الاب لونوار الصغير !

أتدري ما هو الأب لونوار للصغير ؟ إنه كوز الصهباء التي يباعُ عُمن
للفالون منها بستة سو. إنه كوز « سورين » . يا سلام ! « سورين »
باريسية حقيقية . وهكذا ، فقد مات ميتين العجوز ! أنا محزون عليه .
كان فتىً طروباً . ولكن أنت أيضاً ، أنت فتىً طروب . أليس
كذلك ، ايها الرفيق ؟ سوف نخفي ونشرب شيئاً من الخمر معاً .
سوف نخفي في الحال . »

وأجاب الرجل :

- « لقد درستُ . لقد تخرجت . أنا لم اشرب الخمر في حياتي قط . »
كانت عربة الموتى قد انطلقت . وكانت تتدحرج على حجاز المقبرة
الرئيسي الضيق .
كان فوشوفان قد تباطأ ، لقد عرج من القلق اكثر مما عرج من
عاهته .

ومشى حفار القبور أمامه .

رحدق فوشوفان ، كرة اخرى ، الى غربييه غير المنتظر .
لقد كان واحداً من اولئك الناس الذين يبدوون ، رغم فتوتهم ،
شيوناً ، والذين هم ، برغم هزالهم ، على قوة بالغة .

وصاح فوشوفان :

- « ايها الرفيق ! »

واستدار الرجل .

- « أنا حفار قبور الدبر . »

فقال الرجل :

- « زميلي . »

وادرك فوشوفان ، الحاد الذكاء برغم أميته ، أنه يواجه شخصاً
رهيباً ، محدثاً بارعاً .

وضغم :

- « وهكذا اذن . لقد مات الاب ميتين . »
فأجاب الرجل :
- « تماماً . لقد راجع الرب الرحيم لائحة سنداته المستحقة الأداء .
كان الدور دور الاب ميتين . وهكذا توفي الاب ميتين . »
فرّدد فوشلوفان على نحو آليّ :
- « الرب الرحيم . »
فقال الرجل في سلطان :
- « الرب الرحيم . ما يدعو الفلاسفة الأبّ الأزليّ . وما يدعو
اليعاقبة الكائن الأسمى . »
فتلجلج فوشلوفان :
- « ألن نتعارف ؟ »
« لقد تم ذلك . أنت فلاح ، وأنا باريبي . »
« لن نتعارف إلا حين نخسني الخمر معاً . فمن يُفرغ كأسه
يُفرغ قلبه . تعال واشرب معي . انت لا تستطيع ان ترفض . »
« العمل أولاً . »
فقال فوشلوفان في ذات نفسه :
- « لقد هلكت . »
وكان الآن على بضع قصبات ، ليس غير ، من المجاز المؤدي الى
زاوية الراهبات .
ولابع حفار القبور :
- « ايها الفلاح ، إن لي سبعة اولاد صغار يجب ان أطعمهم .
وإذ كانوا مضطرين الى ان يأكلوا فإني مضطراً الى ان لا اشرب . »
ثم اضاف في ارتياح رجلٍ جدّي يتكلم في زهو وادعاء :
- « إن جوعهم عدوّ ظمائي . »
واستدارت عربة الموتى حول شجرة مرو ضخمة ، وفارقت المجاز

الرئيسي ، وسلكت مجازاً صغيراً ، ودخلت الجزء المشجر من المقبرة ،
وتوارت وسط أحد الادغال . وكان ذلك يؤذن بأن القبر أمسى جدت
قريب . وخفف فوشوفان من مرعة خطوره ، ولكنه لم يتطع ان
يخفف من مرعة خطو العربة . ومن حسن الطالع ان التوبة الخوارة ،
المنداة بأمطار الشتاء ، دَيقَتُ بالعجلات ، فجمعت جريها ثقيلًا .
واقرب فوشوفان من حفار القبور .

وغمم :

- « ان عندهم حرة أرجانتوي فاخرة جداً . »

قتابع الرجل :

- « ايها الريفي ، أنا ما كان ينبغي لي ان اكون حفار قبور .
لقد كان ابي بواباً في بوبتانيه . وكان يُعدني للحياة الادبية . ولكنه
كان سيء الحظ . لقد ضارب في البورصة ففصر ، وكان علي ان أتخلى
عن حرفة الكتابة ، ومع ذلك ، فانا لا ازال كاتباً عمومياً . »
فأجاب فوشوفان ، متعلقاً بهذه القشة على واهنها :

- « ولكنك لست حفار القبور اذن ؟ »

« وإن احدهما لا تتنافى مع الاخرى ؛ انا اجمع بين الوظائف . »

ولم يفهم فوشوفان هذا التعبير الأخير .

وقال :

- « دعنا نذهب ، ونشرب . »

وهنا لا بدت من ملاحظة : إن فوشوفان ، برغم قلقه الشديد ،
اقترح معايرة بنت الحان ولكنه لم يوضح امرأ واحداً ؛ مَنْ الذي
سيدفع ؟

كان من عادة فوشوفان ان يقترح ، وكان من عادة الأب متيبين
ان يدفع . وواضح ان دعوة الى الشراب قد نشأت عن الحالة الجديدة
التي اوجدها حفار القبور الجديد ، وهي دعوة يتعين عليه القيام بها ،

ولكن البستاني العجوز ترك أمر الوفاء بالدين ، عن قصد طبعاً ،
غامضاً يكتنفه الظلام . إن فوشلوفان ، برغم ما كان يساوره من
اضطراب ، لم يكتوت بمآلة الدفع .

وتابع حفار القبور كلامه ، في ابتسامة من يستشعر الامتياز :
- « يجب ان نعيش . لقد رضيت ان أخلف الاب ميتين .
فحين 'يشرف المرء على إنهاء دراسته يصبح فيلسوفاً . لقد أضفت الى
عمل اليد عمل الذراع . إن عندي دكان كتابتي الصغير في شارع سيفر ،
هل تعلم ؟ في سوق المظلات . ان جميع طاهيات « الصليب الاحمر »
يَفِدْنَ اليّ . إني أحررّ لمن ، على عجل ، رسائلهن الغرامية الى
عشاقهنّ . في الصباح اكتب رسائل الحب ، وفي المساء أحضر القبور .
هكذا هي الحياة ، ايها الرجل الريفّي . »

وتقدمت عربة الموتى . وتلفت فوشلوفان ، وقد بلغ اقصى غاية القلق ،
الى يمين والى شمال ، والى امام والى وراه . كانت قطرات ضخام من
العرق تتحدّر من جبينه .

وتابع حفار القبور حديثه :

- « ومع ذلك فليس في ميسور المرء ان يخدم سيدتين . يجب ان
اختر إما القلم وإما المعول . إن المعول يؤذي يدي . »
ووقفت عربة الموتى .

وترجل غلام الجوقة من العربة المجلّلة بالجوخ ، وتبعه الكاهن .
وارتقت عجلة أمامية من عجلات عربة الموتى كومة من التراب ،
وئي خلفها قبر فاغر الفم .

وكرر فوشلوفان في كآبة بالغة :

- « هي ذي مهزلة ! »

بين اربعة الواح

من كان في النعش ؟ نحن ندري . جان فالجان .
كان جان فالجان قد رتب الاشياء بحيث يستطيع ان يجبا في النعش
ويتنفس بعض الشيء .

وفضلاً عن ذلك فعجيب الى أي مدى يستطيع الضمير المطمئن أن
يوقع السكنية في النفس . كان التديير الذي يتيته جان فالجان قد نُفِذَ ،
ونفذ في نجاح ، منذ الليلة البارحة . كان يتكل ، مثل فوشلوفان ،
على الأب ميتين . ولم يساوره وبب في النتيجة ، البتة . إن إما حالة
لم تبلغ قط من الحرج ما بلغته هذه الحالة ، وان الهدوء لم يكن قط
اكثر كالأ .

كانت ألواح النعش الاربعة ترفر ضرباً من الأمن الفطيع . لقد بدا
وكان شيئاً من راحة الاموات قد تسرب الى سكنية جان فالجان .
ومن باطن ذلك النعش كان في ميسوره ان يتابع ، ولقد تابع ،
مختلف مراحل المأساة الرهيبة التي كان يمثلها مع الموت .

فما إن اتم فوشلوفان تسمير اللوح الاعلى حتى استشعر جان فالجان
ان الحيلة قد رفعوه ، وأن العربية قد أنشأت، بعد ذلك تجري به . حتى
اذا خفت الارتجاجات استشعر انه انتقل من البلاط المرصوف الى الارض
الموطأة ؛ يعني أنه غادر الشوارع وانتهى الى الجادات . * ومن خلال
ضجة خافتة قدر انهم يعبرون جسر اوسترليتز . وعندما وقفت العربية
اول مرة ، أدرك انهم دخلوا المقبرة . وعندما وقفت كرة ثانية ، قال
في ذات نفسه : « هوذا القبر » .

* جمع جادة وهي « البولفار » .

وأحسن بأيدي تسارع الى الامساك بالنعش ، ثم أحسن باحتكاك مبعوح فوق الالواح . فاستنتج ان ذلك جبل كانوا يطوقون به النعش لكي ينزلوه الى الحفرة .

ثم انه استشعر ضرباً من الدّوار .

لعل حملة النعش وحفار القبور قد امالوا النعش وانزلوا مقدمه قبل مؤخره . واستعاد وعيه كاملاً حين امسى في وضع أفقي ، جامداً عديم الحركة . كان قد مس " القعر " .
وأحسن بقشعريرة .

وارتفع صوت " فوره " مثلوجاً مهيأً . وسمع بضع كلمات لاتينية لم يفهمها ، تلفظ في بطنه مكثته من ان يلتقطها وأحدة إثر اخرى :

· *Qui dormiunt in terrae pulvere, vigilabunt ;
alii in vitam aeternam, et alii in
opprobrium, ut videant semper*

فقال صوت طفل :

— *De profundis .* **

وأردف الصوت الوقور :

— *Requiem aeternam dona ei, Domine.* ***

فأجاب صوت الطفل :

— *Et lux perpetua luceat ei* ****

وسمع فوق اللوح الذي يغطيه شيئاً مثل تساقط الرذاذ الرفيق .
واغلب الظن ان ذلك كان الماء المقدس .
وقال في ذات نفسه :

* الذين يرقدون في تراب الارض ويسكنون هناك ، بعضهم يعيش في الحياة الابدية وبعضهم في العذاب اللعيب .

** من الاصماق .

*** لانهم الراحة الابدية ، ايها السيد .

**** ونورك السرمدي .

-- « سوف ينتهي ذلك عما قريب . اصبر فترة اخرى قصيرة . ان
الكاهن على وشك ان يمضي . وان فوشلوفان سوف يقود متيين الى
الحانة . انهم سيفارقونني . ثم يرجع فوشلوفان وحيداً . وسوف اخرج .
ان ذلك سيستغرق ساعة او يزيد . »
واردف الصوت الوقور :

— *Requiescat in pace . **

وقال صوت للطفل :

— *Amen . ***

وسمع جان فالجان ، 'مرهناً اذنه ، صدى' أشبه بصدى الاقدام
المتراجعة .

وقال في ذات نفسه :

— « انهم ينصرفون . لقد امسيت' وحدي . »
وفجأة سمع فوق رأسه صوتاً بدأ له وكأنه قصف الرعد .
كان ملء مسحة من التراب يسقط على النعش .
وسقط ملء مسحة آخر .
وسدّ احد الثقوب التي كان يتنفس منها .
وسقط ملء مسحة ثالث .
ثم ملء مسحة رابع .
ان ثمة اشياء أقوى من اقوى رجل . وأنعمي على جان فالجان .

* ارقدوا لي سلام .

** آمين .

حيث سنكتشف اصل قولهم :

لا تضع بطاقتك ٥

فلنتظر ما الذي حدث فوق النعش الذي ضم جات فالجان بين جنباته .

حين مضت عربة الموتى لسبيلها ، وامتنطى الكاهن وغلام الجوفة متن العربة وانصرفا ، بصراً فوشلوفات - الذي لم يرفع عينيه قط عن حفار القبور - بهذا الحفار ينحني ويتناول مسحاته التي كانت مضمروزة على نحو مستقيم في ركام التراب .

وهنا اتخذ فوشلوفات قراراً ربيعاً .

لقد أقسم نفسه ما بين الحفرة والحفار ، وقال مصالماً ذواعيه :

- « سوف أدفع أنا ثمنها ! »

فعدّد اليه حفار القبور ، في دهش ، واجاب :

- « ماذا ؟ أيها الفلاح ؟ »

فكرر فوشلوفان :

- « سوف أدفع أنا ثمنها ! »

- « ثمن ماذا ؟ »

- « الخمر . »

- « اية خمر ؟ »

- « خمر الآرجانتوني »

- « ابن خمر الآرجانتوني هذه ؟ »

« يقولون في الفرنسية : أتاع البطاقة perdre la carte بمعنى : اضرب .

- « في حانة السفرجلة الطيبة . »

فقال حفار القبور :

- « اذهب الى الشيطان ! »

وقذف النعش بملء مسحة من التراب .

ورجع النعش صدىً غائراً . واستشعر فوشلوفان أنه يترنح ، وكاد

يهوي الى القبر . وفي صوت اخذ يمتزج به اختناق الحشرة ، صاح :

- « تعال ، ايها الرفيق ، قبل ان تغلق حانة السفرجلة الطيبة

أبوها ! »

ورفع حفار القبور ملء مسحة آخر من التراب . وتابع فوشلوفان :

- « سوف ادفع . »

وأمسك بحفار القبور من ذراعه .

- « إسمع ، ايها الرفيق . أنا حفار القبور في هذا الدير ، ولقد

جئتُ لأساعدك . إنها مهمة نستطيع ان نقوم بها ليلاً . دعنا نشرب

كأساً من الخمر أولاً . »

وفيا هو يتحدث ، وفيما هو يتعلق يائساً بهذا الجهد الملح ، تساءل

في تشاؤم : « وحتى لو شرب ! أوائق أنا من انت السكر سوف

يتعته ؟ »

وقال حفار القبور :

- « ايها الرفيق ، اذا لم يكن من ذلك بدّ فاني اوافق . سوف

نشرب . ولكن بعد إتمام العمل ، لا قبله على الاطلاق . »

وحرك مسحاته من جديد . وأمسك فوشلوفان به .

- « إنها خير أرجانتوني التي يُباع ثمن العالون منها بستة سو ! »

فقال حفار القبور :

-- « آه ، هكذا . إنك بملء . دينغ دونغ ، دينغ دونغ ؟ انت

لا تعرف أن تقول شيئاً غير هذا . اذهب ، وانصرف الى عملك . »

وقذف ببلء المسحاة الثاني .
وكان فوشلوفان قد بلغ تلك النقطة التي لا يعرف المرء فيها أي شيء يقول .

وأعاد كرة أخرى :
- « اوه ! تعال ، واشرب كأساً ، ما دمتُ أنا الذي سأدفع . »
فقال حفار القبور :

- « بعد أن نضع الطفل في المهد . »
وقذف ببلء المسحاة الثالث .
ثم غرز المسحاة في التراب ، وأضاف :
- « أترى ؟ سوف يكون الجو بارداً ، الليلة ، وسوف تصيح الميتة في إثرنا اذا زرناها هناك من غير ان نغطيها جيداً . »
وفي هذه اللحظة ، وفيما كان حفار القبور يُثقل مسحاته بالتراب ، انحنى انحناءً شديداً ، ففغر جيب كسائه فاه .
واستقرت عين فوشلوفان الذاهلة استقراراً آلياً على هذا الجيب ، وظلت مسخرة هناك .

ولم تكن الشمس قد توارت خلف الافق ، وكان لا يزال ثمة ضوء كافٍ لرؤية شيء ابيض في الجيب الفاجر فاه .

والنمع كامل البرق الذي يمكن لعين فلاح بيكاردي ان تنطوي عليه ، في حدقتي فوشلوفان . كانت فكرة جديدة قد خطرت له .
ومن غير ان يلمحه حفار القبور ، الذي كان منهمكاً بمسحاته الملأى بالتراب ، دس يده من وراء في ذلك الجيب ، واستل منه الشيء الابيض الذي احتواه .

وقذف حفار القبور ببلء المسحاة الرابع الى اللحد .
وفيما كان يستدير ليأخذ الخامس تسأل فوشلوفان وهو ينظر اليه في هدوء عميق :

- « بالمناسبة ، هل تحمل بطاقتك ايها الصديق الجديد ؟ »
وتوقف حفار القبور :

- « اية بطاقة ؟ »

- « الشمس على وشك المغيب . »

- « حسن . دعه * يضع قلنسوة الليل . »

-- « سوف يُفلقَ باب المقبرة . »

- « حسن . ثم ماذا ؟ »

- « هل تحمل بطاقتك ؟ »

فقال حفار القبور :

- « آه ، بطاقتي ! »

وبحث في جيبه .

حتى اذا لم يجد فيه شيئاً ، بحث في جيبه الآخر . ثم إنه انتقل الى
جيب صدرته ، فتقّب فيه ، ثم جعل داخلَ جيبه الآخر خارجةً .
وقال :

- « لا ! لا ! أنا لا أحمل بطاقتي . لا شك في أنني نسيتها . »

فقال فوشلوفان :

- « خمسة عشر فرنكاً غرامة . »

وغدا لون حفار القبور أخضر . إن الأخضر هو لون الشحوب عند

اصحاب البشرة الزرقاء الضاربة الى السواد .

وصاح :

- « اوه ، يا الهي الطيب الرحيم ، ايّ مجنون أنا ! خمسة عشر

فرنكاً غرامة ! »

فقال فوشلوفان :

- « ثلاث قطع من ذوات المئة سو . »

* يقصد « الطفل » أي الدين .

وأقلت حفار القبور مسحاته .
كان دور فوشلوفان قد جاء .
وقال فوشلوفان :

- « تعال ، تعال ، ايها المجنّد الجديد ، لا داعي للباس . ليس
ثمة ما يملكك على ان تقتل نفسك وتصبح طعاماً للديدان . إن خمسة
عشر فرنكاً هي خمسة عشر فرنكاً ، والى هذا فقد تكون غير قادر
على دفعها . أنا عاملٌ عتيق ، وانت عامل جديد . انا أعرف جميع
حيل الصنعة ، وأشراكها ، ومنعطاتها ، والتواءاتها . ولسوف أقدم
اليك نصيحة صديق . إن ثمة شيئاً واضحاً ليس غير ، هو ان الشمس
في سبيلها الى المغيّب ، وان المقبرة سوف تغلق بعد خمس دقائق . »
فاجاب حفار القبور :

- « هذا صحيح . »

- « وخمس دقائق لا تكفيك لطمر القبر ، فهو عميق كالشيطان .
من اجل ذلك ارى ان نخرج من هنا قبل ان يُغلق الباب . »

- « انت على صواب . »

- « وفي هذه الحال ستدفع خمسة عشر فرنكاً غرامة . »

- « خمسة عشر فرنكاً ! »

- « ولكن لديك متسعاً من الوقت ... ابن تقطن ؟ »

- « على بُعد خطوتين من باب المدينة . على مسيرة خمس عشرة

دقيقة ؟ رقم ٨٧ شارع فوجيرار . »

- « سوف يكون لديك متسع من الوقت اذا فررت في الحال . »

- « هذا صحيح . »

- « وما تكاد تجتاز الباب حتى نعدو الى البيت ، ونجنيء ببطاقتك ،

وترجع الى هنا ، فيُدخلك البواب من جديد . وحين تسي البطاقة في

يدك لا يبقى ثمة داعٍ الى ان تدفع شيئاً . وعندئذ تستطيع ان تدفن

صاحبك الميت * . وسوف ابقى أنا هنا ، فأحرسه ربنا تعود ، لكي لا يولي قراراً . »

- « أنا مدين لك بحياتي ، ايها الفلاح . »
فقال فوشلوفان :

- « أغرب ، إذن ، أسرع ! »

وصافحه حفار القبور ، وقد غلبته هزة من عرفان الجميل ، وأطلق ساقيه للريح .

وحين توارى حفار القبور وسط الأدغال ، أصغى فوشلوفان حتى تلاشى وقع قدميه ، وعندئذ انحنى فوق القبر ، ونادى في صوت مهوس :

- « ايها الاب مادلين . »

فلم يقع على جواب .

وارتعد فوشلوفان . وتدحرج نحو القبر ، ولا نقول هبط ، وطرح نفسه على مقدم النمش ، وصاح :

- « أنت هناك ؟ »

ولكن الصمت كان يسود النمش .

وتناول فوشلوفان إزميله ومطرقته - وقد كاد يعجز عن التنفس بسبب من الرعدة - واقتلع اللوح الفوقي . كان في ميسوره ان يرى وجه جان فالجان في العسق ، وكانت عيناه مغمضتين ، ولونه شاحباً . وقتئذ شعر فوشلوفان . ونهض واقطاً . ثم قابل مولياً ظهره بجانب القبر ، مستعداً لان يسقط فوق النمش . ونظر الى جان فالجان . كان جان فالجان يرقد هناك شديداً الشحوب ، عديم الحركة . وتم فوشلوفان في صوت خفيض كأنه همس :

* واضح ان هذه سقطة من سقطات فوشلوفان ، كاد ان يفضح بها السر كله . وكان ينبغي ان يقول : ان تدفن الميتة ...

- « لقد مات . »

ثم تصدّر ، وصالب ذراعية في عنف بالغٍ حتى لقد رنت قبضاه
المغلقتان فوق كتفيه ، وصاح :

- « تلك هي الطريقة التي انقذته بها ! »

ثم إن العجوز المسكين شرع ينتعب ، موجّهاً الكلام الى نفسه في
صوت مرتفع ، لأن من الخطأ ان نعتقد أن مخاطبة المرء نفسه ليست
شيئاً طبيعياً . إن الانفعالات القوية كثيراً ما تتكلم بصوت عالٍ .

- « إنها غلظة الاب ميّتين . لماذا مات ، المجنون ؟ اي فائدة

كانت له في ان يتفق * في هذه اللحظة ، حين لم يكن احد يتوقع
ذلك ؟ إنه هو الذي قتل مسيو مادلين . الاب مادلين ! انه في الشمس .

لقد استقر هنا . انتهى كل شيء . والان ، اي معنى لهذا كله ؟

آه يا الهي ! لقد مات ! أجل ، وبنته الصغيرة ما الذي سأعله بها ؟ أي

شيء ستقوله بالغة الفاكهة ؟ ان يموت رجل مثل هذا ميتة مثل هذه ! اينها

السما ، أممكن هذا ؟ حين افكر انه اقعم نفسه تحت عرّيتي !... ايها

الاب مادلين ! ايها الاب مادلين ! رحمتك يا رب ، لقد اختنق ! لقد

قلت له ذلك ولكنه لم يجب ان يصدقني . والآن ، هوذا حمل

ظريف ! لقد مات ! مات هذا الرجل الطيب ؛ مات اطيب رجل

خلقه الرب الطيب ! وبنته الصغيرة ؟ انا لن ارجع الى هناك بعد .

سوف أبقى هنا . انا لا استطيع ان افكر اني قمت بعمل كهذا !

يكفي ان نكون شيخين هرمين حتى نكون معتوهين هرمين . ولكن

قبل كل شيء ، كيف استطاع ان يدخل الى الدير ؟ من هنا بدأت .

مثل هذه الامور يجب ان لا تعمل . ايها الاب مادلين ! ايها الاب

مادلين ! ايها الاب مادلين ! مادلين ! مسيو مادلين ! مسيو مادلين ! ايها السيد

العمدة ! انه لا يسعني . أخرج نفسك من هنا ، الان ، اذا شئت . »

* نطق : مات . وهي تعطع في الكلام على البهائم بخاصة .

وانشأ يقطع شعره .
وعلى مسافة ما من خلال الاشجار ، سُمِع صريرٌ حادٌ . كان باب
المقبرة يوصد .

وانحنى فوشلوفان مرة اخرى ، فوق جان فالجان ، ولكنه اراد
فجأة الى الراء بأقصى ما يُستطاع الاندفاع التراجميّ في قبر من القبور .
كانت عينا جان فالجان مفتوحتين ، وكان يحدق اليه .

إن مشاهدة الموت لمروعة ، ولكن مشاهدة بعث مفاجيء لا تقلّ
عن ذلك ترويعاً . وأمسى فوشلوفان شاحباً مثولجاً كاللحجارة ، ذاهلاً
مضطرباً النفس بهذه الانفعالات القوية كلها ، غيرَ عالم ما إذا كان امام
حيٍّ ام امام ميت ، مهدّفاً الى جان فالجان المهدق ، بدوّره ،
اليه .

وقال جان فالجان :

« كنتُ نائمًا . »

ونفض جان فالجان متخذاً وضعاً قاعداً .

وركع فوشلوفان على ركبتيه .

« أوه ، ايها العذراء الطيبة ا كم قد روّعتني ! »

ثم نهض وصاح :

« شكراً لك ، ايها الأب مادلين ! »

كان قد أنغمى على جان فالجان ، ليس غير . حتى اذا استنشق

الهواء الطلق تاب الى رشده .

ان البهجة صنو الذعر . ولقد وجد فوشلوفان في استعادة رشده

مثل ذلك العسر الذي وجده جان فالجان تقريباً .

« واذن فانت لم تمت ! آه ما اعظم ذكائك ! لقد ناديتك

بصوت مرتفع الى حد جعلك تعود الى صوابك . وحين رأيتك مغض

العينين ، قلت : « حسن ، هوذا قد اختنق . وكنت على وشك أن أمسي

مجنوناً .. مجنوناً حقيقياً ذا صدرة كصدرات المتهوين الفتية الضيقة .
ولقد كان جديراً بهم ان يدخلوني الى بيستر * . ما الذي كنت تريدني ان
اعمل لو انك مت ؟ وفناتك الصغيرة ! كانت بائعة الفاكهة خليقة بأن لا
تفهم شيئاً من ذلك ! طفلة تلتقى فجأة في حضنها ، ثم يموت جدها !
يا لها من قصة ! وحق قديسي السماء كلهم ، يا لها من قصة ! آه !
واكثك حي - هذا خير ما في المسألة . »
فقال جان فاجان :

- و أنا أحسّ بالبرد . »

وكان في هذه الكلمات ما اعاد فوشلوفان إعادة تأمة الى واقع
الاشياء ، الذي كان ملحقاً . وإنما استشعر هذان الرجلان من غير
ان يدريا ، حتى بعد ان تابا الى رشدتهما ، احتياجاً فريداً وقلقاً داخلياً
عجيباً لم يكونا غير الانشده المشؤوم الذي أوقعه المكان في نفسيهما .
وقال فوشلوفان :

- « فلنخرج من هنا في الحال . »

وأقحم يده في جيبه ، وأخرج قارورة كان قد تزوّد بها وقال :

- « ولكن خذ نقطة من هذه ، اولاً ! »

وأتمت القارورة ما كان الهواء الطلق قد بدأه . وتناول جان فاجان
جرعة من العرق ، واستشعر انه استعاد قواه بكاملها .
وخرج من النعش ، وساعد فوشلوفان على تسيير اللوح الملوي
من جديد .

وما أنقضت ثلاث دقائق حتى كانا خارج القبر .

واطمأنت نفس فوشلوفان بعد ذلك . وأخذ بأسباب التمهّل . كانت
المقبرة موصدة . ولم يكن ثمة خوف من ان يعود غريبه حفار

* مأوى شهر المعجزات واللجانين كان في قرية بيستر ، وقد سبق التعريف به
في جزء خاص .

القبور . كان « المجد الجديد » في منزله منهمكاً في البحث عن بطاقته ، وما كان محتسماً ان يعثر عليها ، لأنها كانت في جيب فوشلوفان . واذ لم يكن يحمل بطاقته تلك فليس في ميسوره ان يرجع الى المقبرة . وتناول فوشلوفان المسحاة ، وتناول جان فالجان المعول ودفنهما النعش الفارغ معاً .

وحين طفح القبر ، قال فوشلوفان لجان فالجان :
« تعال ، فلنذهب . سوف أحتفظ أنا بالمسحاة ، وسوف تحتفظ انت بالمعول » .

وهبط الليل .

ووجد جان فالجان بعض العُسر في الحركة والمشي . كان التصلب قد اصابه في ذلك النعش ، وكان قد امسى ، الى حد ما ، جثة هامدة . لقد استبدت به « عَمٌّ » * الموت في ذلك الصندوق الحشبي الضيق . وكان يتعين عليه ، بمعنى من المعاني ، أن يذيب نفسه من القبر .

وقال فوشلوفان :

« انت خدر . ومن أسفٍ أتى معوجّ الساقين ، والا لكأن في ميسورنا ان نعدو بعض الشيء . . »
فأجابه جان فالجان :

« لا بأس . ان بضع خطوات خليقة^١ بأن تعيد الى رجلي^٢ مرونتها . »

وارتد^٣ سالكين الممرات التي سلكتها عربة الموتى من قبل . حتى اذا انتهى الى الباب الموصل والى مقر البواب ألقى فوشلوفان بطاقة حفار القبور ، وكان يحملها في يده ، الى العلبة ، فجذب البواب الحبل

* العَمٌّ : يس في مفصل الرسغ توجّ منه اليد والقدم .

ففتح الباب وخرجا .

وقال فوشلوفان :

« ما احسن ما يسير كل شيء ! أية فكرة بارعة هذه التي

طلعتَ بها ، ايها الاب مادلين ! »

واجتازا حاجز فوجيرار على أيسر نحو في العالم . ففي ضواحي

مقبرة من المقابر يقوم المعول والمسحاة مقام جواز السفر .

كان شارع فوجيرار مقفراً .

وقال فوشلوفان ، فيما كان يتقدم رافعاً بصره الى البيوت :

« ايها الاب مادلين ، ان عينك احسن من عيني . ايها

رقم ٨٧ ؟ »

فقال جان فالجان :

« ها هو ذا بعينه . »

واردف فوشلوفان :

« ليس في الشارع احد . أعطني المعول ، وانتظري دقيقتين . »

ودخل فوشلوفان المنزل رقم ٨٧ ، وصعد الى اعلى السلم ، تقوده

الغريزة التي تقود الفقير ، دائماً ، الى العلية ، وقرع - في الظلام -

باب غرفة قائمة تحت السقف . وأجاب بصوت :

« أدخل . »

كان صوت غريبه .

وفتح فوشلوفان الباب . كان منزل حفار القبور ، شأن منازل

الموزين جميعاً ، بيتاً حقيراً غير مؤثث ولكنه مزدحم بالاشياء المبعثرة

هنا وهناك . كان صندوق أمتعة من ضرب ما - ولعله ان يكون

نعشاً - يقوم مقام خزانة ذات ادراج ؛ وحشية من قش مقام سرير ؛

ولناء للزبدة مقام حوض ماء ؛ وكانت ارض الغرفة تقوم مقام

الكراسي والطاولة . وفي احدى الزوايا ، على خرقه كانت من قبل

مزقة بالية من سجادة ، تكدمت امرأة مهزولة وجهمرة من الأولاد ؛ وكان كل ما في هذا المأوى البائس يحمل آثار بلبلة حديثة العهد . لقد كان في ميسور المرء ان يزعم ان زلزالاً وقع ثمة « لشخص واحد » . كانت اغطية الآنية مبعثرة ، والثياب البالية متناثرة ، والابريق مكسوراً ، والأم تبكي ، والاطفال يتوجعون في أغلب الظن من اثر الضرب . كان كل شيء يؤذن بأن المكان قد خضع منذ قريب لتفتيش عنيد شكيس . كان واضحاً ان حفار القبور انهك في البحث عن بطاقته انها كالأضارياً وحمل كل ما في العلوية الحقيبة ، من الابريق الى زوجته ، مسؤولية ضياعه . كان اليأس يرين على عيانه .

ولكن فوشلوفان كان يتعجل الوصول الى نهاية مغامرته تبعثلاً جعله لا يلاحظ هذا الجانب المظلم من انتصاره .

لقد دخل وقال :

« اني أحمل اليك مسحاتك وممولك . »

ونظر غريبه اليه في انشده :

« ماذا ؟ هذا انت ، اها الفلاح ؟ »

« وغداً صباحاً ، سوف تجهد ببطاقتك عند بواب المقبرة . »

ووضع الممول والمسحات على الارض .

وتساءل غريبه :

« ما معنى ذلك كله ؟ »

« هذا يعني انك سمحت لبطاقتك بأن تنقط من جيبيك ؛ اني

وجدتها على الارض عندما ذهبت ؛ اني دفنت الجثة ؛ اني ودمت

القبور ؛ اني أتمت مهنتك ؛ أن البواب سوف يعطيك ببطاقتك ؛ أنك

لن تضطر الى دفع خمسة عشر فرنكاً . هذا ما يعنيه ذلك كله ، اها

المجتد الجديد . »

فصاح غريبه ، في ذهول :

- وشكراً ، أيها الريفى . في المرة القادمة سوف ادفع افاغن الخمر .

٨

استجواب ناجح

بعد ساعة ، وفي جوف الليل البهيم ، وقف رجلان وطفلة نجاه رقم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير . ورفع اكبر الرجلين سنّاً فارةً الباب وخفّفه .

كانوا فوشلوفان ، وجان فالجان ، وكوزيت . وكان الرجلان قد انطلقا التماساً لكوزيت في دكان بائنة الفاكهة بشارع « الطريق الاخضر » حيث كان فوشلوفان قد وضعها الليلة البارحة . وكانت كوزيت قد سلخت تلك الساعات الاربع والعشرين مفساةً عن معنى ذلك ، ومرتمدةً في صمت . لقد ارتفعت الى درجة ذادت عن عيها الدمع . إنها لم تذق طعاماً البتة ، ولم تم البتة . وكانت بائنة الفاكهة الفاضلة قد وجهت اليها مئة سؤال وسؤال من غير ان تنوز من الجواب باكثر من نظرة كثيبة لا تتغير على الاطلاق . فقد حرصت كوزيت على ان لا يندّ منها شيء بما سمعته ورأته منذ يومين . كانت قد حزرت ان ازمةً قد نشأت . واستشعرت ، في قرارة نفسها ، ان عليها « أن تكون عاقلة » . ومن ذا الذي لم يعرف الاثر الأرفع الذي تنطوي عليه هذه الكلمات الثلاث مهبوساً بها ، بجرّس معين ، في أذن كائن صغير مروّع : « حذار أن تتكلم ! » ، إن الحوف أخرس . والى هذا ، فليس ثمة من يصون السرّ مثل طفل صغير . بيد أنها ما إن وقع بصرها كرةً اخرى - بعد هذه الساعات الاربع والعشرين الفاجعة - على جان فالجان حتى اطلقت صيحة فرح .

كان في ميسور أيما امريء مشغول البال ان يستشفّ فيها ، اذا ما سمعها ،
نجاة من هاوية .

كان فوشلوفان من اهل الدير ، وكان يعرف كلمات السرّ . كانت
الابواب كلها تفتح في وجهه .
وكذلك حلّت تلك المشكلة المزدوجة والمروّعة : مشكلة الخروج
ثم الدخول من جديد .

وفتح البوابُ - وكان قد تلقى الأوامر - البوّيبَ الجانبي الذي
يصل ما بين الفناء والحديقة ، والذي كان لا يزال في ميسور المرء ان
يراه ، منذ عشرين سنة ، من جانب الشارع ، في الجدار القائم في
اقصى الفناء تجاه باب العربات . واجاز البواب لثلاثة جميعاً ان
يدخلوا من هذا البويب ، ومن هناك شخصوا الى غرفة الاستقبال
الداخلية الخاصة حيث تلقى فوشلوفان ، الليلة البارحة ، اوامر رئيسة
الدير .

كانت الرئيسة تنتظرم والسبحّة في يدها . وكانت احدى
الامهات الصوتيات واقفة قريبها مُسدّلةً الحجاب . ولقد اضاءت شمعة
كنوم غرفة الاستقبال ، او لعلها بدت وكأنها تثيرها .
وتأملت الرئيسة جان فالجان . وليس شيء اقدر على الدرس - من
عينٍ مفضوضة .

ثم إنها تقدّمت الى سؤاله :

- « أنت اخوه ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

- « نعم ، ايتها الأم الموقرة . »

- « ما اسمك ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

- « أولتيم فوشلوفان . »
 لقد كان له اخ متوفى يدعى اولتيم .
 - « من اي جزء من البلاد أنت ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « من بيكويني ، قرب آميان . »
 - « ما عمرك ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « خمسون سنة . »
 - « وما صنعتك ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « بستاني . »
 - « هل أنت مسيحي صالح ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « كل افراد اسرتنا هم كذلك . »
 - « أهذه هي فتاتك الصغيرة ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « نعم . ايتها الأم الموقرة . »
 - « أنت أبوها ؟ »
 فأجاب فوشلوفان :
 - « جدّها . »
 وقالت الأم للرئيسة في صوت كالمس :
 - « إنه يجيب اجابة حسنة . »
 ولم يكن جان فالجان قد نطق بكلمة ما .
 وأنعمت الرئيسة النظر الى كوزيت ؛ ثم أسرت في أذن الأم
 الصوتية :

- « سوف تغدو بشعة . »

وفي صوت خفيض جداً تحدثت الأمان ، بضع دقائق ، في زاوية من زوايا غرفة الاستقبال ، ثم التفتت الرئيسة وقالت :

- « أيها الأب فوفان ، سوف تُعطى واقية رُكبٍ اخرى ذات جلجل . نحن نحتاج الآن الى اثنتين . »

وهكذا سُمِع ، في الصباح التالي ، جلجلان يرتان في الجنيئة . ولم تتألك الراهبات أن يرفعن إحدى زوايا 'حجبتن' . لقد رأين رجلين يحفران جنباً الى جنب ، في اقصى الحديقة ، تحت الاشجار : فوفان وشخصاً آخر .

حدثٌ ضخمٌ أُقطع جبل الصمت الى حدّ القول :

- « إنه يستانيّ مساعد ! »

واضافت الأمهات للصوتيات :

- « إنه آخر الأب فوفان . »

والواقع ان جان فالجان 'قلد عمله على نحو نظامي . لقد حُمِّلَ واقية الرُكب الجلدية والجلجل . ومن ذلك الحين أمسى موظفاً رسمياً . وكان يُعرف باسم أولتم فوشوفان .

وكان أقوى الاسباب التي قررت قبول كوزيت ملاحظة الرئيسة : سوف تغدو بشعة .

وما إن لفظت الرئيسة هذا الحدس حتى غمرت كوزيت بمودتها وافسحت لها مكاناً في المدرسة الداخلية بوصفها طالبة مجانية . وليس تمه شيء غير منطقيّ ، البتة ، في ذلك .

وعبئاً 'نقصى المرابا عن الأديرة . فالنساء يَعِينَنَ طَلَعَاتهن . والفتيات اللواتي يعرفن أنهن جيلات لا يتوهبن عن رضا وطيب نفس . واذ كانت النزعة الى الحياة الرهبانية متناسبةً تناسباً عكسياً مع الجمال ، فطبيعيّ ان يُعقد الأمل على القبيحات اكثر مما يُعقد على المليحات . ومن هنا ذلك الولوع

الشديد بالفتيات البشعات .

ورفعت هذه المسألة كلها من معنوية فوشلوفان الطيب المعجوز . كان قد أحرز نصراً مثلثاً - في عيني جان فالجان بعد ان انقذه وآواه ؛ وعند حفار القبور ، غريبية ، الذي قال : لقد خلصني من دفع الغرامة ؛ وفي الدير الذي استطاع بفضله - من طريق الاحتفاظ بنعش الأم كروسيكسيون تحت المذبح - ان يجتنب قيصر ، ويرضي الرب . كان ثمة نعش ينطوي على جثمان في « بيكبوس الصغير » ، ونعش من غير جثمان في مقبرة فوجيرار . لقد انتهكت حرمة النظام العام من غير ريب ، ولكن احداً لم يلمح ذلك . اما الدير فكان عرفانه جميل فوشلوفان عميقاً . لقد غدا فوشلوفان أحسن الخدم ، وأعلى البستانيين . فعندما قام رئيس الاساقفة بزيارته التالية للدير قصت الرئيسة الحادثة على مسامع عظيمة من باب الاعتراف ، من ناحية ، ومن باب الاعتزاز من ناحية . حتى اذا غادر رئيس الاساقفة الدير أسراً بذلك ، في إطراء ، في أدن مسيو دو لانيل ، معرف الشقيق الثاني من أشقاء الملك ، الذي اصبح في ما بعد رئيس اساقفة ريمس وكاردينالاً . وانطلق هذا الثناء على فوشلوفان والاعجاب به الى ابعد من ذلك ، اذ بلغ رومة نفسها . ولقد وقعت تحت عيني مذكرة وجهها البابا المتربع على الكرسي الرسولي آنذاك ، ليو الثاني عشر ، الى احد انسابه ، السفير البابوي في باريس ، الذي كان يدعى مثله ديلا جانفا . لقد انطوت على هذه الطور : « يبدو ان ثمة في احد اديرة باريس ، بستانياً ممتازاً ذا قداسة ، يدعى فوفان . ، ولم يبلغ فوشلوفان في كوخه شيء من هذه الشهرة التي تمت له . لقد واصل تطعيم بطيخانه واقتلاع الاعشاب الضارة من حولها وتغطينها ، من غير ان يعي امتيازه وقداسته اقل الوعي . إنه لم يستشعر مجده اكثر مما يستشعر مجده اي ثور من ثيران دورهام أو دو سوري 'تنشر صورته في مجلة لندن الاسترايتد

نيوز ، وقد كُتِبَ فتحها : الثور الذي قال الجائزة في معرض
الماشية . ،

٩

الخاتمة

وفي الدير ، واصلت كوزيت صحتها .
لقد اعتقدت ، على نحو طبيعي جداً ، انها بنت جان فالجان . والى
هذا ، فقد كانت لا تعرف شيئاً . ومن هنا لم يكن في ميسورها ان
تبوح بشيء . وعلى اية حال ، فقد كان خليقاً بها ، حتى لو عرفت ،
ان لا تتكلم . فليس ثمة ما يعود الاطفال للصمت ، كما سبق أن قلنا ،
مثل الشقاء . فقد لقيت كوزيت من البلاء قدراً جعلها تخشى كل شيء .
حتى الكلام ، حتى التنفس . فكم من مرة اسقطت كلمة واحدة وابلاً
من الاذى على رأسها ! وكانت قد بدأت ، وما كادت ، تستشر الطمانينة
منذ ان رافقت جان فالجان . وسرعان ما ألفت حياة الدير . ومع ذلك
فقد ظلت تخمن الى كاترين ، ولكنها لم تجرؤ على التصريح بذلك . بيد
انها قالت لجان فالجان ذات يوم :

« أبت ، لو كنت عارفة ، لملتها معي . »

وكان على كوزيت ، وقد اصبحت طالبة داخلية في الدير ، ان
ترتدي ملابس الطالبات . ووفقاً لجان فالجان الى إقناع جماعة الدير
بأن يُعطوه الثياب التي اطرحتها . كانت هي الثياب الحدادية نفسها
التي جاءها بها لترتديها يوم فارقت تيناردييه وزوجته . ولم يكن البلى
قد أصابها . ولفَّ جان فالجان هذه الثياب ، وأضاف اليها الجورب
الصوفي والحذاء ، ومقداراً وافراً من الكافور وغيره من ضروب

الطبيب التي تكثر في الأدوية ، ثم وضعها في حقيبة صغيرة وفتق الى الحصول عليها . ووضع عذة الحقيبة على كرسي قرب فراشه ، وحرص على الاحتفاظ بفتاحها في جيبه .
وسألته كوزيت ذات يوم :

- « أبت ، ما هذا الصندوق الذي تفوح منه هذه الرائحة الزكية جداً ؟ »
وكوفي الأب فوشلوفان - الى جانب هذا المجد الذي وصفنا ، والذي لم يكن يعبه ، على صنيعه الحسن . لقد أوقع عمله ذلك السعادة في قلبه ، أولاً ، وخفف عنه وطأة الشغل ، بعد ان تقاسمه مع جان فالجان . واذ كان شديد الولوج بالتبغ فقد وجد في هذه الزمالة الجديدة نفعاً من ناحية اخرى . لقد اخذ ثلاثة اخفاف نصيبه للقديم من التبغ ، وعلى نحو أكثر شراهة الى حد بعيد ، ما دام مسير مادلين هو الذي كان يدفع الثمن .

ولم تتبنّ الراهبات اسم أوليم . لقد دعون جان فالجان فوفان الآخر .

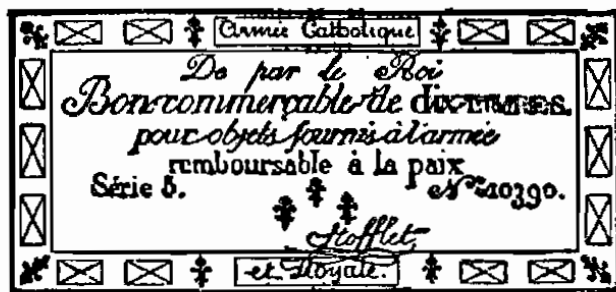
ولو قد كان لهاته النسوة القديسات عين كمين جافير ، اذنت للاحظن ، على مرّ الأيام ، أن فوشلوفان الاكبر سناً ، فوشلوفان المعجوز ، العاجز ، الأعرج ، كان هو الذي يهرع الى الخارج كلما قضت مصلحة الحديقة بذلك ، لا الرجل الآخر بحال من الاحوال . ولكن سواء اكانت الاعين المحدقة ابداً الى الله عاجزة عن التجسس ، أم كانت منهكة على نحو موصول في مراقبة بعضها بعضاً ، فانهن لم يلاحظن شيئاً البتة .

وأياً ما كان ، فقد ارتاح جان فالجان الى الاعتصام بالمدوء والسكينة . وراقب جافير الحيّ شهراً أو يزيد .

كان الدير بالنسبة الى جان فالجان أشبه بجزيرة تحيط بها اللجج . ومن ذلك الحين أمست هذه الجدران الاربعة هي العالم عنده . فضمنتها

كان في ميسوره ان يرى السماء الى حدّ يوقع الطمانينة في نفسه ،
وكوزيت الى حد يُبليج فؤاده .

لقد استهلّ ، من جديد ، حياةً سعيدة جداً .
وعاش مع فوشلوفان المعجوز في الكوخ الذي في أقصى الجنيئة . وكان
هذا المأوى الحقيرو ، المبنيّ من حطام الجبس ، والذي كان لا يزال قائماً
عام ١٨٤٥ ، يتألف كما نذكر ، من ثلاث غرف كلها عارية فليس فيها
غير الجدران . وكان فوشلوفان قد ضغط على مسبو مادلين حتى أقنعه ،
بعد معارضة مخففة ، بالنزول في الغرفة الرئيسية منها . وكان يزّين
جدارَ هذه الغرفة بالاضافة الى المسارين المحصنين لتعليق الرُكبيّة والسلة
الكبيرة ، نموذجٌ ملكيٌّ من الاوراق النقدية الصادرة عام ١٩٣ ،
والمصقّة فوق الموقد ، والتي تقدّم هنا صورة طبق الاصل عنها :



كانت هذه الورقة النقدية التي أصدرت في فاندبه قد ممرتها على
الجدار يدُ البستاني السابق - وهو احد المتمردين القدماء على الجمهورية-
الذي توفي في الدير فخلقته فوشلوفان .

وعمل جان فالجان كل يوم في الحديقة ، وكان عظيم الغناء هناك .
كان من قبلُ مشدّب أغصان ، فانقلب الى بستانيّ عن رضا وطيب
خاطر . والقراء يذكرون أنه كان يعرف جميع ضروب الوصفات

والاسرار الخاصة بالزراعة . ولقد أفاد من ذلك في عمله الجديد . كانت جميع شجرات الحديقة ، تقريباً ، شجرات بوية . فلقحها وجعلها تُعطي ثمراً ممتازاً .

وأجيز لكوزيت أن تفدّ عليه كل يوم ، وتقضي ساعةً معه . وإذا كانت الراهبات مكتنبات ، وإذا كان هو لطيفاً ، فقد قارنت الطفلة ما بينه وبينهن ، وهامت به هياماً شديداً . ففي الساعة المعينة ، من كل يوم ، كانت تهرع الى الكوخ . حتى اذا دخلت ذلك المأوى العتيق ملأته بالجة . لقد تهلّل جان فالجان ، وأحسنّ بعادته تتعاطف بسبب من السعادة التي أضفاها على كوزيت . والواقع ان للبهجة التي تُدخلها الى قلوب الناس هذه الخاصة الساحرة ، وهي أنها - وهي التي لا تعرف للنقصان مثل أيّ انعكاس آخر - ترمج علينا اكثر اشراقاً من ذي قبل . وفي ساعات العطلة ، كان جان فالجان يراقبها - من بعيد - تلعب وتعدو ، وكان في ميسوره ان يميز ضحكها من ضحك رفيقاتها جميعاً .

ذلك بأن كوزيت عرفت الضحك الآن .

وحتى حيناً كوزيت تغير بعض الشيء . كان الطابع الكئيب قد زال . فالضحك شمس . إنه يطرد الشتاء من الوجه البشري . وهكذا غدت كوزيت ، وهي التي لم تكن جميلة في يوم من الايام ، فاتنةً من ناحية اخرى . كانت تقبول اشياء صغيرة معقولة بصوتها الطفليّ العذب .

حتى اذا انتهت العطلة ، وفارقت كوزيت ، كان من دأب جان فالجان ان يراقب نوافذ غرفة صفها . أما في الليل ، فكان ينهض من فراشه ، ويلقي نظرة على نوافذ المجمع الذي كانت تنام فيه .

إن فقه طرائقه . فقد أسهم الدير ، كما أسهمت كوزيت ، في تثبيت عمل الاسقف وإكماله في نفس جان فالجان . وليس في استطاعة المرء ان

يُنكر ان وجهاً من أوجهِ الفضية ينتهي الى الغرور . وعند تلك النقطة يندت جسر بناء الشيطان . ولقد كان جان فالجان ، في ما يبدو ، من غير أن يبتشعر ذلك ، على مقربة من وجه الفضية ذاك عينه ، ومن ذلك الجسر عينه ، حين قذفت العناية الالهية به الى دير بيكبوس الصغير . كان خليقاً به ، ما دام لا يقارن نفسه إلا بالاسقف ، أن يجد نفسه غير كفؤ ، وان يظل متواضعاً . ولكنه بدأ ، منذ فترة من الزمان ، يقارن ما بينه وبين سائر الناس ، ومن هنا راح الغرور يُطلع رأسه في نفسه . ومن يدري ؟ لعله كان خليقاً بأن ينتهي الى الارتداد ، تدريجياً ، نحو البغض .

لقد أوقفه الدير عند هذا المنحدر .

كان هذا هو ثاني موطن من مواطن الأمر 'قدر له ان يراه . ففي شبابه ، في ما كان بالنسبة اليه بدء الحياة ، وبعد ذلك ، منذ فترة قريبة جداً ، رأى موطناً آخر ، موطناً رهيباً ، موطناً فظيماً كانت ضروب القسوة التي ينطوي عليها تبدو له دائماً جواز العدالة ، وجريمة القانون . والآن ، بعد ان رأى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، رأى الدير . وإذا فكّر انه كان في ما مضى جزءاً من سجن الأشغالين ، وانه امسى لليوم ، اذا جاز التعبير ، مشاهداً في الدير فقد قابل ما بينها ، في تأملاته ، بقلق شديد .

وفي بعض الاحيان كان يتكىء على مسحاته ، ويهبط شيئاً بعد شيء معارج الاحلام اللولبية التي ليس لها قرار .

لقد تذكر رفاقه القدماء ، ومبلغ ما كانوا يعانونه من بؤس . كانوا ينهضون منذ الضحى ، ويكدهون حتى يهبط الليل . وما كان يُسمح لهم بالنوم الا نادراً . كانوا ينامون على سرر عسكرية ، ولم يكن ليجاز هم ان يتخذوا غير حشايا تبلغ سماكتها إنشبن ليس غير ، في قاعات ما كانت تدفأ الا في أشهر الشتاء القارسة . كانوا يلبسون أودية حمراء ،

وكانوا يُعْطَوْنَ ، تَكْرِماً وتلطفاً ، بنظوناً من نسيج قتيّ حين يبلغ القبط أشدّه ، ورقة مربعة من نسيج صوفي يضعونها على ظهورهم في أيام الزمهرير . لم يكن عندهم خمر يجتسونها ، ولا لحم يأكلونه الا يوم يساقون الى عمل « شاق فوق العادة » . لقد عاشوا من غير أسماء - فهم لا يعيزون إلا بالارقام ، وقد حوّلوا بمعنى ما الى أرقام - مطرقي الأبصار ، خافضي الاصوات ، حليقي الرؤوس ، تحت العصي ، وفي حاة العار .

ثم ارتدت افكاره الى الكائنات اللواتي كنّ أمام عينيه .

لقد عاشت هذه الكائنات ، ايضاً حليقات الرؤوس ، مطرقات الابصار ، مكبوحات الأصوات . إنهن لم يتمرغن في حاة العار ولكنهن كن محوطات بسخریات العالم . ان ظهورهن لم تتقّع من هراوة السجان ، ولكن اكتافهن كانت ممزقة بالكفارة التي تُنزّلها كل منهن بنفسها . واسماؤهن ايضاً قد زالت من بين أسماء الناس ، فهنّ يعشن الآن بنعوت كالحة ليس غير . انهن لا يأكلن اللحم أبداً ولا يشربن الخمر أبداً . وكثيراً ما يقين حتى الماء من غير طعام . انهن لم يكنّ يلبسن اردية حمراء ، ولكنّ أكفاناً سوداء من صوفٍ ، غليظٍ في الصيف ، رقيقٍ في الشتاء ، غير قادرات على أن يزدنها او ينقصن منها ؛ غير مالكات حتى حق استبدال معطف من الصوف بثوب من القطن او ثوب من القطن بمعطف من الصوف ، تبعاً للفصول . وطوال ستة اشهر كن يرتدين قمصاناً من انجسة صوفية غليظة تورثنهن ضروراً من الحمى . وكنّ يسكنّ لا في قاعات تدفأ أيام الزمهرير فحسب ، ولكن في قلابا لا توقد النار فيها البتة . وكن ينمن على حشايا تبلغ مما كتها إنشين ، ولكن على التبن . وفوق هذا فلم يكن ليُسمح لهن حتى بالنوم . فما إن يُتمنن كدح النهار ، ويرزحن تحت وطأة النعاس ، حتى يُدعّون كل ليلة - لحظة تكون الواحدة منهن قد بدأت تستسلم للرقاد وأوقعت في جسدها قليلاً

من الدفء - الى الاستيقاظ ، فينهضن ويحتمعن للصلاة في كنية مثلوجة مظلمة ، حيث تمس رُكبتن الارض الحجرية .

وفي بعض الأيام كان يتعين على كل من هاته المخلوقات ، واحدة اثر الاخرى ، ان تظل اثنتي عشرة ساعة متعاقبات راكمةً على البلاط ، او مكبةً على وجهها متصالبة الذراعين .

لقد كان اولئك رجالاً ؛ اما هؤلاء فنساء . ما الذي فعله اولئك الرجال ؟ لقد سرقوا ، واغتصبوا ، وسلبوا ، وقتلوا ، وسفكوا الدماء . كانوا قطاع طرق ، ومزورّين ، ومسمّين ، ومحرقين ، وقتلة ، ومريقي دم آبائهم وامهاتهم . وما الذي فعلته هاته النسوة ؟ إنهن لم يفعلن شيئاً .

في ناحية ، كانت السرقة ، والعدو ، والحديعة ، والعنف ، والفتق ، والقتل ، وكل ضرب من ضروب تدنيس القديسات ، وكل صنف من صنوف انتهاك الحرمات . وفي الناحية الاخرى لم يكن غير شيء واحد : - البراءة .

البراءة الكاملة التي تكاد ترتفع ، في انتقال مقدس ، الى الاعالي ، فهي لا تزال مشدودة الى الارض بالفضيلة ، ولكنها توشك ان تمس السماء بالقداسة .

في ناحية ، كان الاعتراف بالجرائم يُرسل في صوت مهموس . وفي الناحية الاخرى كان يُعترف بالخطايا جهاراً . ويا لها من جرائم ! ويا لها من خطايا !

وفي ناحية كانت أنجرة عفتة ، وفي الاخرى كان الطيب الذي يمنع على الوصف . في ناحية كان الطاعون الاخلاقي ، المراقب ليلاً ونهاراً ، المسلطة عليه افواه المدافع ، المفتوس ضحاياه في بطنه . وفي الاخرى ، كانت الارواح كلها تتعانق عناقاً عفيفاً على منبثق الاشعاع نفسه . هناك الظلمات ؛ وهنا الظل ، ولكنه ظلّ مفعم بالنور ، النور المفعم بالاشعة

المتوهجة .

مواطنان من مواطن العبودية . ولكن في اولهما اعتاقاً ممكناً ،
فهناك نصب العيون ابدآ حدة قانوني ، ثم هناك الفرار . اما في ثانيهما
فليس غير الخلود ، وليس من أمل ، عند أقصى حدود المستقبل ، سوى
شعاع الحرية الذي يدعوه الناس الموت .

في الموطن الأول ، كان الامر يُصَفَّدون بالاغلال فحسب . وفي
الموطن الثاني كنَّ يَصَفَّدون بالايان ليس غير .

ما الذي نشأ عن الموطن الأول ؟ لعنة هائلة ، وصرير الأسنان ،
والكراهية ، والحباثة اليائسة ، وصرخة غيظ في وجه المجتمع البشري ،
وسخرية من السماء .

وما الذي نشأ عن الموطن الثاني ؟ البركة والحب .

وفي هذين المواطنين ، المتشابهين جداً المختلفين جداً ، كان هذان
الضربان من مخلوقات ، الشديدة التباين ، يقومان بالعمل نفسه :
التكفير .

وفهم جان فالجان احسن الفهم تكفير الفئة الاولى ؛ التكفير الشخصي ؛
التكفير من اجل النفس . ولكنه لم يفهم تكفير الفئة الاخرى ، تكفير
هذه المخلوقات المتزهات عن اللوم ، المعصومات عن الدنس . وساءل
نفسه في ارتعاد : « التكفير عن ماذا ؟ أيُّ تكفير هذا ؟ »

فأجابه صوت في وجدانه يقول : « انه أقدس ضروب الجود
الانساني ، التكفير من اجل الآخرين . »

وهنا نحتفظ بنظرياتنا جميعاً . فلسنا غير قاصٍ من القصاص . وإنما
نقول ما نقوله من وجهة نظر جان فالجان ، ونعتبر عن انطباعاته
بمجرد تعبير .

كانت نصب عينيه القمة العليا لانكار الذات ، فئة الفضيلة الاكثر
سحواً ؛ والبراعة الغافرة للناس آثامهم المكفرة عنها بالنيابة عنهم ؛

والعبودية محتمة ؛ والعذاب مقبولاً ؛ والعقوبة والشقاء وقد ألت في طلبها نفوس لم تأثم ، لكي تُنجي منها نفوساً آتمة ؛ وحب الإنسانية فانياً في حب الله ولكنه باقٍ هناك متميزاً متضرعاً ؛ وكائنات ضعيفات لطيفات تتحمل كل عذاب أولئك الذين أنزلت العقوبة بهم ، وتحفظ رغم ذلك بابتسامة أولئك الذين فازوا بالمكافأة .

وتذكر أنه تجرّأ على الشكوى !

وكان كثيراً ما ينهض من فراشه ، في جوف الليل ، ليصني الى الانشاد الشكور المنطلق من حناجر هاته المخلوقات البريئة ، المثقلة بضروب القوة . ولقد استشعر الدم يجري بارداً في عروقه حين فكّر ان أولئك المعاقين بحق لا يرفعون اصواتهم نحو السماء أبداً إلا لكي يجدفوا ؛ وانه هو - برغم شقائه كله - قد هزّ جمع كفه في وجه الرب !

وشيء آخر غريب جعله يعنى في التفكير والتأمل وكأنه وحياً همست به في أذنه العناية الالهية نفسها : إن تسوّر الجدران ، واجتياز الأسبجة ، والهاطرة بالحياة حتى الموت ، والصعود العسير المؤلّم ، جميع هذه الجهود التي بذلها في سبيل الخروج من موطن التكفير الاول هي عينها التي بذلها من اجل الدخول الى موطن التكفير الثاني . أياكون هذا رمزاً على قدره ؟

لقد كان هذا البيت سجعاً ايضاً ، وكان يشبه شياً كثيراً ذلك المأوى الآخر الذي فرّ منه ؛ ومع ذلك فلم يتخيّل قط من قبل شيئاً مثله .

لقد بصّر كرة اخرى بالابواب والنوافذ المقضبة ، وبالزجاج ، وبالقضبان الحديدية . ولكن لتعجب من ؟ الملائكة . وهذه الجدران السامقة التي رأها في ما مضى تطوّق أثماراً ، أمسى يراها ، اليوم ، تطوّق حملاناً .

كان موطن تكفير ، لا موطن قصاص . ومع ذلك فقد كان اكثر جهامة ، واكثر كآبة ، واكثر قسوة ، من الموطن الآخر . كانت ظهور هؤلاء العذارى محنية في خشونة دونها الحشونة التي اُخفيت بها ظهور المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . كانت ريح باردة عنيفة ، الريح التي جعلت شبابه مثلوجاً ، تخترق الخندق المحصن بالحديد ، وتكبل العقبان . ولكن ريحاً أشدّ لذعاً واكثر وحشية هبت على قفص الحمام .
لماذا ؟

حين فكر في هذه الاشياء تراجع كل ما كان يعتلج في ذاته أمام سرّ السموّ هذا .

وفي هذه التأمّلات ، تلاشى الفرور . لقد عاد الى نفسه مرّةً ومرّةً . لقد استنمر حقاوته البالغة . وسفح الدمع في كثير من الاحيان . كان كلُّ ما دخل حياته ، منذ ستة اشهر ، قد رده نحو وصايا الاستشف القدسية ؛ كوزيت بالحبّ ، والدير بالحشوع .

وبعض الاحيان ، حين يهبط الليل عند الفسق ، في تلك الساعة التي تُففر فيها الحديقة ، كان يُرى راکعاً وسط المجاز المحاذي للكنيسة ، أمام النافذة التي نظر من خلالها ليلة وصوله ، متجهاً الى حيث كانت الاخت المستغفرة ساجدةً مصلية على ما يعلم . وهكذا صلى راکعاً امام هذه الاخت .

لقد بدا وكأنه لا يجرؤ على الركوع امام الله مباشرة . ولم يلبث كل ما حوله : هذه الحديقة المطمئنة ، هذه الرياحين العاطرة ، هؤلاء الاطفال الصائحون صيحات البهجة ، هاته النسوة الوقورات البسيطات ، هذا الدير الصامت - لم يلبث كل هذا ان داخل كيانه كله تدريجياً . شيئاً بعد شيء . تكونت نفسه من صمتٍ مثل هذا الدير ، ومن عطرٍ مثل هذه الرياحين ، ومن طمأنينةٍ مثل هذه الحديقة ، ومن بساطةٍ مثل هاته النسوة ، ومن بهجةٍ مثل هؤلاء الاطفال . ثم فكر ان يتين من

بيوت الله قد استقبلاه ، على التعاقب ، في لحظتي حياته العصيبتين :
الاول حين أوصد في وجهه كل باب ونبذ المجتمع البشري ؛ والثاني
حين طارده المجتمع البشري من جديد وفغر سجنُ الاشغال الشاقة فمه
لابتلاءه . وانه لولا الاول لتودى في مهاوي الجريمة كرة اخرى ،
ولولا الثاني لتودى في مهاوي العقاب .

وذاب فؤاده كله اعترافاً بالجميل ، وتعلق بأهداب الحب اكثر فأكثر .
وانقضت على هذا النحو عدة سنوات . وكبرت كوزيت .

فهرست القسم الثاني : « كوزيت »

الكتاب الاول : واترلو

ص

٧	١ . ما الذي تلتقيه وانت هجبل من نيفيل
١٠	٢ . هوغومون
٢٠	٣ . ١٨ حزيران ، ١٨١٥
٢٤	٤ . A
٢٧	٥ . « الشيء المظلم » في الحارك
٣٢	٦ . الساعة الرابعة بمد الظير
٣٦	٧ . نابوليون طلق الحيا
٤٥	٨ . الامبراطور يوجه سؤالاً الى الدليل لاكوست
٤٩	٩ . ما لم يكن مترقماً
٥٥	١٠ . نجد « مون سان جان »
٦٢	١١ . دليل رديمي لنابوليون ودليل جيه لبولوف
٦٥	١٢ . الحرس
٦٧	١٤ . النكبة
٧٠	١٤ . الربع الاخير
٧٢	١٥ . كامبرون
٧٦	١٦ . كم بارة في البيرة ؟
٨٤	١٧ . أينبغي لنا ان نتحسن واترلو ؟
٨٦	١٨ . نكبة الحق الالهي
٩١	١٩ . ساحة المركبة ليلاً

الكتاب الثاني : الدارعة « اوريون »

ص	
١٠١	١ . رقم ٢٤٦٠١ يصبح رقم ٩٤٣٠
١٠٥	٢ . حيث تقرأ بيتين من الشعر لملها من عمل الشيطان
	٣ . وفيه يظهر ان سلسلة الطوق الحديدي لا بد
	ان تكون قد خضمت لعمل إعدادي ما لكى
١١٢	تنكسر على هذا النحو بضربة مطرقة

الكتاب الثالث : الوفاء بالعهد المقطوع للراحلة

١٢٤	١ . مسألة المياه في مونفيرماي
١٢٩	٢ . رحمان يكتملان
١٣٦	٣ . يجب ان يشرب الرجال الخمر وأن تشرب الخيل الماء
١٤٠	٤ . دخول دمية الى المسرح
١٤٧	٥ . الصغيرة فريسة الوحدة
١٥٤	٦ . وهو ما قد ينهض دليلاً على ذلك بولاتروويل
١٦١	٧ : كوزيت مع المجهول جنباً الى جنب ، وفي غمرة الظلام
١٦٦	٨ . ما أبيض ان تضيف فقيراً ربما كان غنياً
١٩١	٩ . تيناوديه يناور
٢٠٣	١٠ . من يلتبس الأحسن قد يقع على الاسوأ
٢١٠	١١ . رقم ٩٤٣٠ يظهر كرة أخرى وكوزيت ترجمه في اليانصيب

الكتاب الرابع : بيت غوربو العتيق

٢١٣	١ . الاستاذ غوربو
٢٢٢	٢ . عشّ لبوم ودُخلة
٢٢٤	٣ . بؤسان يمتزجان فيولدان سعادة
٢٣٠	٤ . ملاحظات المتأجرة الرئيسية
	٥ . قطعة نقدية من فئة الخمسة فرنكات
٢٣٣	تقع على الارض فتحدث ضجة

الكتاب الخامس : المطاردة السوداء تحتاج الى كلاب قنص صامتة

٢٣٨	١ . خطوط الاستراتيجية المترجمة
-----	--

٢٤٣	٢	من حسن الطالع ان في ميسور المربات
٢٤٥	٣	ان تجتاز جسر اوسترليتز
٢٥٠	٤	انظر مخطط باريس عام ١٧٢٧
٢٥٣	٥	جان فالجان يلتبس في الظلام سبيله الى النجاة
٢٥٨	٦	وهو ما كان متمذراً لو ان التواريخ اضيئت بالغاز
٢٦٢	٧	بده أحجية
٢٦٥	٨	الأحجية تستمر
٢٦٨	٩	الأحجية تتعمد
٢٧٤	١٠	الرجل ذو الجليل
		وفيه يتضح كيف أضع جافير الطريدة

الكتاب السادس : بيكوس الصغير

٢٩١	١	شارع بيكوس الصغير ، رقم ٦٢
٢٩٦	٢	راهبات الطاعة لارتن فيرغا
٣٠٦	٣	ضروب من القسوة والصرامة
٣٠٨	٤	مباهج
٣١٣	٥	شواغل
٣٢٠	٦	الدير الصغير
٣٢٤	٧	بعض الصور المظلمة في هذا الظلام
٣٢٧	٨	« بدم القلوب الحجارة »
٣٣٠	٩	قرن من الزمان في زيّ راهبات
٣٣٣	١٠	أصل « السجود السرمدى »
٣٣٥	١١	نهاية « بيكوس الصغير »

الكتاب السابع : بين هلالين

٣٣٨	١	الدير بوصفه فكرة مجردة
٣٣٩	٢	الدير بوصفه واقعة تاريخية
٣٤٤	٣	بأي شرط نستطيع ان نخترم الماضي
٣٤٧	٤	الدير من وجهة النظر المبدئية
٣٥٠	٥	الصلاة

٣٥١	٦	تخيرية الصلاة المطلقة
٣٥٥	٧	احتياطات يجب أن تتخذ في اليوم
٣٥٦	٨	الايمان - القانون

الكتاب الثامن : المقابر تأخذ ما يُقدّم اليها

٣٦٠	١	وهو يمالج طريقة الدخول الى الدبر
٣٧١	٢	فوشلوفان يواجه الصعوبة
٣٧٤	٣	الأم ابنوسانت
	٤	حيث يظهر جان فالجان بظهر من فرأ
٣٩١	٥	اوسن كاستيلجو تماماً
	٥	ليس يكفي ان تكون مسكياً
٣٩٩		لكي تكون غلداً
٤٠٩	٦	بين اربعة الواح
٤١٢	٧	حيث نكتشف اصل قولهم : لا تضع بطاقتك
٤٢٤	٧	استجواب لاجع
٤٢٩	٩	الحساسة

قالوا ...

● « ... وكان آخر ما أتخفتنا به » قصة مدينتين « لشارلز ديكنز . فما هالك منها ضخامة في حجمها ، ولا مشقة في تدليل أو إبداءها . بل آليت على نفسك ان تنقلها « كاملة غير منقوصة » ، فأحسنت بذلك الى نفسك ، والى العربية ، والى ديكنز . و كنت اميناً في عملك منتهى الامانة . فلا تحوير ولا تزوير كما هي الحال مع الكثيرين من المترجمين . و كنت حذقاً ولبقاً في تغلبك على القصص من التعابير والمصطلحات الانكليزية ثم في خلحك على الترجمة كلها حلة عربية محكمة النسيج ، لطيفة التفاصيل ، مشرقة اللون ...

وها انك منصرف في هذه الايام الى ترجمة « البؤساء » لمينغو في نصها الكامل . وهو عمل ضخم ، ولكنه ضروري . اذ من الحيف ان لا يعرف العرب تلك الرواية الشهيرة الا في ترجمة حافظ ابراهيم المسموخة . ولست اعرف من هو اقدر منك على إنصاف الرواية وصاحبها لدى القاري العربي ... »

بسكتنا - ميخائيل نعيمة

● « ... والذي يعجبني في ترجمة البعلبكي هو انه قد يفتش عن الكلمة الملائمة بالفتيلة والسراج ، واذا لم يجدها فوراً صبر عليها حتى تأتي . فمن فاتته مطالعة الاثار الادبية بلغتها الأم يمكنه ان يعتمد على ترجمة منير فهي اقرب ما

يُترجم اليوم الى الأصل. قلت « اقرب » لان لكل لغة حلاوتها وطعمها ولونها.
أما سلامة عبارته فقد تكون ، لا بل هي ، اسلم تعبير عن الفكرة الاجنبية
التي ينقلها الاستاذ الى العربية، فلا حشو ولا ثرثرة، بل امانة كلية في التأدية ...»

بيروت، « المجالس المصورة » - مارون عبود

● «... اذا كان للمؤلف فضل فللمترجم في اعتقادي فضلان ! لانه متى اراد
القيام بالترجمة كما يجب تحتم عليه ان يكون المؤلف عينه من جهة ثم ان يكون
هو نفسه من جهة ثانية ... هذه الفكرة خطرت لي غيب قراءتي لترجمة كتاب
« الشيخ والبحر » فقد أعجبتُ بالتعريب اعجاباً يفوق اعجابي بالقصة . ومنذ
ذلك الحين بدأت ارافق صديقي الاستاذ منير البعلبكي في ما ينتج من ترجمات ،
واصبحت اقرأ بالعربية ما كنت اقرأه من ادب الانكليز والالمان والروس
والاميركان . ثم اعدت النظر في بعض ما كان منير البعلبكي قد ترجمه قبل
« الشيخ والبحر » مما فاتني الاطلاع عليه ، فزاد يقيني بأن الترجمة ايضاً من الفنون
العالية ما دام عنصر التعب فيها جلياً بمقدار ما هو في الشعر والموسيقى ... »

بيروت - « جريدة الجريدة » - رفيق المعلوف

● «... انت كاتب تربطك بكرامة التعبير ومسؤولية الفكر اسباب واعية،
ومن هنا كانت امانتك في الترجمة ، وانت رجل واعٍ لوظيفة الفكر والفن في
المرحلة الراهنة من مراحل قوميتنا العربية ، ومن هنا فانت تختار ترجماتك بما
يتلاءم مع حاجات الوجدان العربي والذهن العربي على السواء ، مما يساعد على
خلق الفرد الواعي لوجوده ، لمشكلاته الحقيقية ، لأبعاد ماضيه وحاضره
ومستقبله ... »

القاهرة - رجاء النقاش

● «... اما الاستاذ منير فان رأني في انتاجه الرائع هو رأي كل منصف يتذوق ويميز الغث من السمين . إن ترجماتة أشبه بالهضاب الوطيدة الشاخة ، بناءً ولغة وفكرة ، الى جانب غبار من الترجمات تشويه اقلام لو عرفت قدرها لتعلمت طويلاً على انتاج الأستاذ منير قبل أن تحطّ جملة عربية او تمسك بزمام فكرة...»

حلب - سليمان العيسى

● «... ولا يكتفي منير البعلبكي بمجرد الترجمة ولكن يضيف اليها من الحواشي والتعليقات والشروح ما يرتفع بجهدة الى حيث يغدو مشاوكة فعلية في التأليف وليس مجرد نقل من لغة الى لغة فحسب . وهو بهذه الهوامش الكثيرة جداً التي تنتشر في كل صفحة من صفحات الكتاب تقريباً انما يبتر للقاريء العربي ان لا تقوته صغيرة ولا كبيرة من الاسماء والاماكن والحوادث التي في الكتاب ... وجهد البحث والتنقيب مضافاً اليه جهد الترجمة والمقارنة بين النسخة الفرنسية والنسخة الانكليزية هو الذي أعنيه بالمشاركة الفعلية في التأليف...»

عمان - « جريدة فلسطين » ، عيسى الناعوري

● «... حري بنا اذن ان نكبر في المترجم هذا الدأب الموصول وان نقدّر له فضله في تعريف القاريء العربي الى شوامخ القصص العالمي التي كان احداثها ترجمة « الشيخ والبحر » لارنست همنغواي ترجمة تكاد ان تكون كاملة بامانتها وصفائها وتلك الروعة التي اضفاها المترجم على اسلوبه ، وما كنت لأقع على مثلها في ترجمة الكتاب نفسه الى اللغة الفرنسية !»

بيروت - « جريدة الحياة » ، ابن يقظان

انتهى المجلد الثاني
وبليه المجلد الثالث

٣٠٠٠ / ٥٥ / ١٠ / ٢٤٧